

أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في نثر أبي العلاء المعري

The Effect of The Holy Qura'an and Al-Hadith on
Abi Al-'Alaa Al-Ma'arri's Prose Writings

رسالة قُدمت لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها/ الدراسات الأدبية

إعداد
هناء محمد حرامي

1431
2010

بسم الله الرحمن الرحيم

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)



قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراه في اختصاص
الأدب العباسي، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب.

Submitted in partial fulfillment of the requirements of the
degree of Doctora in Abbasi an age in the Faculty of Arts and
Humanities, Aleppo University.



تصريح

أصّرَح بأن هذا البحث [أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في نثر أبي
العلاء المعري] لم يسبق أن قبل بأيّ شهادة، ولا هو مقدّم حالياً للحصول على
شهادةٍ أخرى.
التاريخ / /

المرشحة
هناة حرامي

It is hereby declared that this work "The Effect of The
Holy Qura'an and Al-Hadith on Abi Al-'Alaa Al- Maaa'rri's
Prose Writings." Has not already accepted for any degree, Nor
is it being submitted con currevly for any other degree.

Date / / 2010

Candidate

Hanaa Harami

شهادة

نشهد بأن العمل الموصوف في هذه الرسالة هو نتيجة بحث قامت به
المرشحة هناء حرامي تحت إشراف الأستاذ الدكتور حسين بيوض، الأستاذ في
قسم اللغة العربية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب.
التاريخ / /

المرشحة
هناء حرامي الأستاذ الدكتور حسين بيوض
المشرف على الرسالة

Ceritificate

We hereby certified that the work described in this thesis
is the result of the author's own investigation under the
supervision of professor Hussein Bayyud in the department of
Arabic- Faculty of Arts and Humanities University of Aleppo,
and any reference to other researchers work has been duly
acknowledged in the text.

Date / /

Diector of the study Candidate
Hussein Bayyud Hanaa Harami

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ / / 2010 وأجيزت.

-
-
-



الإهداء

* إلى روح الطهر والنقاء التي غدّت العقول بفلسفتها، وبرّدت الأكباد بعلمها، وأدهشت النفوس بعطائها لتبتّ فيها شغف الآداب وحلاوتها.

(أبو العلاء)

* إلى من أبصرت معه إشراقة شمس الحياة الهانئة، وتذوّقت برفقته طعم الراحة والسكينة.

(زوجي)

* إلى البراعم التي زيّنت ربيع عمري، والرياحين التي عطّرت مسيرة دربي، والملائكة التي حرسوا روحي وقلبي.

(أولادي)

شكر وعرفان

أَتَقَدَّم بِبَالِغِ الشُّكْرِ وَصَدَقَ الْاِمْتِنَانُ وَعَمَّقَ الْاِحْتِرَامُ وَالتَّقْدِيرُ إِلَى كُلِّ مَنْ قَدَّمَ لِي يَدَ الْعَوْنِ لِإِنْجَازِ هَذَا الْعَمَلِ وَتَقْيِيمِهِ وَأَخْصُ بِالشُّكْرِ: الْأُسْتَاذَ الْمُشْرِفَ الدُّكْتُورَ حُسَيْنَ بِيَّوُضَ، تَقْدِيرًا لْجُهِودِهِ وَعِطَاءَاتِهِ الْكُبِيرَةِ، وَتَفَضُّلِهِ بِالْإِشْرَافِ عَلَى الرِّسَالَةِ وَمُتَابَعَتِهِ الدَّقِيقَةِ لِإِنْجَاحِ هَذَا الْعَمَلِ.

وَالشُّكْرَ الْجَزِيلَ لِأَعْضَاءِ لُجْنَةِ الْحُكْمِ الَّذِينَ بَذَلُوا جُهْدًا مُشْكُورًا فِي قِرَاءَةِ وَتَقْيِيمِ هَذَا الْبَحْثِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِمْ.. وَأَعِدُّهُمْ أَنْ أَلْتَزِمَ بِتَعْلِيمَاتِهِمْ وَمُلَاحَظَاتِهِمْ.

كَمَا أَتَقَدَّمُ بِالشُّكْرِ إِلَى جَمِيعِ السَّادَةِ وَالسَّيِّدَاتِ فِي مَكْتَبَةِ الْكُلِيَّةِ لِمَا قَدَّمُوهُ لَنَا مِنْ مُسَاعَدَةٍ لِلْحَصُولِ عَلَى الْمَرَاجِعِ.

أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في نثر المعري

مقدمة.

التمهيد:

- 1- المعري (حياته – ثقافته).
- 2- مؤلفات المعري النثرية.
- 3- المعري بين أيدي الدارسين: أ- قديماً.
ب- حديثاً.

الفصل الأول : تجليات التأثير العام

- 1- الشروح اللغوية.
- 2- التحليل النحوي والصرفي.
- 3- القراءات القرآنية .
- 4- سرد الأحداث التاريخية ووصف الشخصيات .
- 5- قضايا الدين الإسلامي والمعتقدات.
أ - الجبر والاختيار.
ب - الإيمان بالله وحده.
ج - البعث والنشور.
د - الثواب والعقاب.
هـ - الرسائل.

الفصل الثاني: تجليات التأثير الفني الجزئي

- 1- الاستشهاد.
- 2- الاقتباس والتضمين.
- 3- الإشارة والتلميح.
- 4- استيحاء المعاني.
- 5- في سياق الوصف والتصوير.
- 6- في سياق الحوار.
- 7- توظيف أسلوب النص القرآني (في الفصول والغايات).

الفصل الثالث: الغاية التوظيفية للآية القرآنية والحديث الشريف

- 1- الشرح والتفسير .
- 2- الحجة والبرهان.
- 3- السخرية والتهكم.
- 5- الرد على الخصوم.

الخاتمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم بك الاستعانة، وبك الاستبانة، وعليك التوكّل.

بين عامي (363-449هـ) عاش الأديب الفيلسوف الشاعر أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، في حاضرة من حواضر بلاد الشام تدعى معرة النعمان، وهو من أسرة دينية، اشتهرت بالفقه والقضاء، والرياسة والثراء.

وكان المعري من الأعلام البارزين في العصر العباسي، إذ عاش حياته متعبداً في محراب العلم، حتى وافته المنية في منزله بالمعرة.

فقد نفذ ما اعتزمه من العزلة عن الناس والدنيا، والالتزام بالبيت دون براح، وعدم الزواج، والحرمان من المتع. وظلّ رهينةً لعماه وللبيت معاً تسعاً وأربعين سنة، ولم يغادر محبسه إلا مرةً واحدةً.

وشهد عصرًا سياسياً مضطرباً، فرّق الصراع والتناوب والفتن والحروب، وهذا مما ترك أثراً بارزاً في فكر المعري، وكان للظواهر الاجتماعية التأثير نفسه، من أهمها كثرة الإماء والجواري وشيوع تجارة الرقيق، واستخدام الغلمان في القصور، والإسراف في اللهو والمجون.

كان المعري جديراً بأن يشغل الناس بعد مماته، كما شغلهم في حياته، إذ عاش في عصرٍ اجتمع له فيه من أسباب العلم، وفنون الأدب، وصنوف المعرفة الشيء الكثير، واطلع على أحكام الدين، وثقافة الإسلام، وغذى نفسه بألوان من الثقافات الوافدة، وجال جولة واسعة في نطاق الفلسفة فنظر إلى المسائل الخلقية وحللها، وإلى المجتمع فتحرى مفاصله ولم تتكامل آراؤه الفلسفية إلا عند رحلته إلى بغداد، حيث اتصل بالكثير من أرباب الفكر، ومن المشتغلين بالفلسفة، واطلع على الكثير من مصادر الفلسفة اليونانية، والحكمة الهندية والفارسية.

وقد استطاع بفطنته وذكائه الفطري ودقة ملاحظته، أن يهضم تلك الثروة الطائلة من العلوم والمعارف والثقافات التي حفل بها عصره، ونتيجة ذلك تعددت مصادر ثقافته من الثقافة اللغوية إلى الثقافة الأدبية، إلى الثقافة التاريخية والثقافة الدينية، إضافة إلى الثقافة العامة.

ونظراً لأن المعري كان واسع الثقافة إلى الحد الذي جعلنا نبحر معه في نتاجه إلى غير حدود، فقد رغبت في خوض هذا المضمار لمعرفة أكثر المصادر الثقافية تأثيراً في عقله وفكره، وللكشف عن خصائص تفكيره وبحثه وأدبه، ومزايا أسلوبه، وصفات لغته.

وبما أن ثقافته الإسلامية كانت واسعة وبارزة في مواضع كثيرة من نتاجه، فقد آثرنا أن نولي اهتماماً كبيراً لهذا الجانب، وخصصنا بحثنا في مجال تأثير القرآن الكريم والحديث الشريف في نثر المعري. فمن المعروف أنه كما كان المعري متضلّعا في اللغة والأدب، والإحاطة بكثير من علوم عصره، كذلك كان متضلّعا ومتمكّنا من كتاب الله حفظاً وتلاوةً ودرسا، وقد تجلّى ذلك في استنطاق نصوصه، واستلهاه معانيه وآياته، وصوره الرائعة، وعباراته الممتعة وتعاييره المعجزة، وهذا ما نجده في آثاره، التي لا يخلو كتاب منها أو

رسالة من الاستعانة بالقرآن الكريم أو الحديث الشريف. فلا شك أنّ للقرآن الكريم دوراً كبيراً في توجيه تفكير المعري ودرسه، ومن ثم في وضع رسائله وتأليف كتبه.

ومن استقرى بعض آثاره لا يفوته الكم الهائل من ألفاظ القرآن الكريم التي استخدمها المعري لغرض ما، ولا يفوته أيضاً الاعتماد على آيات كتاب الله في تصوير مشهد، أو حكم على قضية، أو توضيح مسألة وشرحها. وهذا ما ظهر واضحاً في توظيفه كثيراً من الآيات في رسالة الغفران.

والأمر نفسه بالنسبة للاستعانة بالحديث الشريف، ولا يخفى على أحد ما في الأحاديث النبوية من عمق الدلالة، وقوة التأثير.

ومن هنا فقد تعددت صور تأثيره بالقرآن الكريم والحديث الشريف من الاستشهاد إلى الاقتباس والتضمين إلى الإشارة والتلميح إلى استichاء المعاني بالإضافة إلى توظيف الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في سياق الوصف والتصوير وفي سياق الحوار. وكذلك توظيف أسلوب النص القرآني بالاعتماد على إيقاع التراكيب القرآنية في كتابه (الفصول والغايات).

لذا فإن هدفنا من البحث هو بيان مدى تأثير المعري بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكيف استفاد المعري منهما؟ وكيف وظف الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية؟ وفي أي موضع استعان بهذين المنهلين؟ وهل وظفهما في مكان أكثر من مكان آخر؟ ولماذا؟ وكيف فهم المعري القرآن الكريم والحديث الشريف؟ وهل كان مصيباً وموفقاً في التعامل معهما كلياً أو نسبياً؟.

وهكذا فقد فرض علينا البحث التزام المنهج التحليلي؛ إذ قمنا باستقراء جميع النصوص ذات الصلة الوثيقة بموضوع البحث، ثم قمنا بتحليل هذه النصوص وبيان مدى تأثير المعري بالقرآن والحديث من خلال الأفكار والشكل الفني.

وقد رأينا أن يتوزع البحث على مدخل وثلاثة فصول. يتضمن المدخل الحديث عن حياة المعري وثقافته، وأهم شيوخه وأساتذته، وخصومه وحساده، بالإضافة إلى البيئة التي عاش فيها المعري. والغرض من هذا الحديث هو معرفة النشأة والتربية التي تلقاها المعري وأثرت في فكره وثقافته.

ثم أقف عند مؤلفات المعري النثرية فقط.

كما أتناول في المدخل آراء الباحثين القدماء والمحدثين في أبي العلاء المعري. وأخصص الحديث فيها عن الجوانب الأكثر ارتباطاً بطبيعة بحثنا. فمنهم من اتهم المعري بتقلب العقيدة، والميل إلى مذهب البراهمة، ومنهم من اتهمه بالزندقة والإلحاد، ومنهم من قال إنه كان زاهداً عابداً.

في الفصل الأول من الدراسة أتناول تجليات التأثير العام للقرآن الكريم والحديث الشريف في نثر المعري، فأدرس التأثير اللغوي الذي تجلى في الشروح اللغوية. وهذا مما يرتبط بصلب البحث. وهنا أشير إلى براعة المعري في اللغة، إذ كان علامة عصره فيها، وكان اطلاعاً عليها أمراً لفت أنظار معاصريه. وقد اعتمد في بحث هذا الجانب على القرآن الكريم والحديث الشريف اعتماداً ملحوظاً، خاصة في بحث المسائل اللغوية.

ثم أدرس التحليل النحوي والصرفي وأبين أثر القرآن والحديث فيهما.

كما استعان المعري بالقرآن الكريم والحديث الشريف في سرد الأحداث التاريخية الإسلامية، وهذا ما ظهر واضحاً في رسالة الصاهل والتشاحج ومجموع رسائله، وبعد ذلك أتناول وصف بعض الشخصيات، وأشير إلى وقوف المعري عند الشخصيات التاريخية الإسلامية والشعراء.

ثم أنتقل إلى بحث قضايا الدين الإسلامي والمعتقدات، وفيه أتناول القضايا التالية: الإيمان بالله وحده، والثواب والعقاب (الجنة والنار)، والجبر والاختيار، والمعجزات والرسالات، والبعث والنشور.

أما الفصل الثاني فيتناول تجليات التأثير الفني الجزئي. وأبين فيه صور هذا التأثير وهي: الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم والأحاديث الشريفة، الاقتباس والتضمين، الإشارة والتلميح، استيحاء المعاني، بالإضافة إلى توظيف القرآن الكريم والحديث الشريف في سياق الوصف والتصوير وفي سياق الحوار. وكذلك توظيف أسلوب النص القرآني في كتابه الفصول والغايات.

وفي الفصل الثالث أدرس الغاية التوظيفية للآية القرآنية والحديث الشريف، إذ استعان المعري بهذين المنهلين في الشرح والتوضيح والتفسير، والحجة والبرهان، والسخرية والتهكم، وفي الرد على الخصوم.

وتأتي الخاتمة لتلخص النتائج التي انتهت إليها الدراسة.

التمهيد:

1. المعري: (حياته - ثقافته):

هو أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن داود... بن قضاة التنوخي المعري. ولد يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة بالمعرة، وعمي من الجدري أول سنة سبع وستين، غشى يمينه بياض، وذهبت اليسرى جملةً.

و"التنوخي" هذه النسبة إلى تنوخ، وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين وتحالفوا على التناصر، وأقاموا هناك فسماً تنوخاً. والتنوخي الإقامة. وهذه القبيلة إحدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب، وهم بهراء وتنوخ وتغلب. و"المعري" هذه النسبة إلى معرة النعمان، وهي بلدة صغيرة بالشام، بالقرب من حماة وشيزر، وهي منسوبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري، فإنه تديّرَها فنُسبت إليه. وأخذها الفرنج من المسلمين في محرم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. ولم تزل بأيدي الفرنج من يومئذٍ إلى أن فتحها عماد الدين زكي بن آق سنقر سنة تسع وعشرين وخمسمائة. ودخل بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، ودخلها ثانياً سنة تسع وتسعين، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم رجع إلى المعرة ولزم منزله، وشرع في التصنيف، وكان يملئ على بضع عشرة محبرة في فنون من العلوم. وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الأفاق، وكتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار. وسمّى نفسه: "رهن المحبسين" للزومه منزله وذهاب عينيه. ولكنه في موضع آخر من لزومياته قال إنه في سجون ثلاثة:

- 1- أراني في الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبى
- 2- لفقدى ناظري ولزوم بيتي

وقد نشأ لأبوين كريمين «فكان من بيت علم وقضاء ورياسة وثراء. تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها. ونبغ منهم قبله وبعده كثيرون رأسوا وساسوا، وكان فيهم الكاتب والشاعر. ولأهل المعرة اعتقاد فيهم، ولواذ بهم، وفرع إليهم في أمورهم».

وقيل إن «أكثر قضاة المعرة وفضلانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بني سليمان وهو سليمان بن داود بن المطهر».

هذا من جهة أبيه أما أخواله -آل سبيكة- فهم «كما يظهر من كتبه إليهم، ومن شعره فيهم في سقط الزند كانوا غرة في جبهة الأيام، ودائرة سمامة في وجوه الغطارفة الكرام، مُعْرِقِينَ فِي أَصَالَةِ الشرف، وناشئُهُم المَقْتَبِلُ لا يَقْلُ في السَّماحة عن أبي دَلْف، ولا يَتَوْن يبتغون من فضل الله في كل ناحية وطرف. ولكن لا للشَّره والبَطْر، أو التكاثر أو الأشر. بل لكسب المَعدوم، وفكَّ العاني المَظلوم. وصلة الأَقارب، والإعانة على النوائب»^{٥٠}.

أما بالنسبة إلى تعليمه فقد تلقى دروسه الأولى على يد أبيه الذي قاده في طريق المعرفة، ولما كبر ووصل إلى سنَّ الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده، كبنِي كوثَر أو من يجري مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته، وقَيَّد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً^{٥١}.

وقد كرر الذهبي مثل هذا القول في تاريخ الإسلام، قال: «أخذ العربية عن أهل بلده، كبنِي كوثَر، وأصحاب ابن خالويه»^{٥٢}.

ولم يسمِّ القفطي أو الذهبي أحداً من بني كوثَر أو من أصحاب ابن خالويه الذين أخذ المعري عنهم العربية. وقد ذكر الميمني في كتابه "أبو العلاء وما إليه" (ص43) اسم واحد من أصحاب ابن خالويه في عداد شيوخ المعري هو أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز، ولكنَّ الميمني لم يعز ذلك إلى مرجع، ولعلَّه أخذه من قول أبي العلاء في رسالته إلى ابن النكتي: «وحدثنا صديقه أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز رحمه الله عن أبي عبدالله بن خالويه عن ابن دريد حديثاً معناه ما أذكره...»^{٥٣}.

هذا وقد حصَّل أبو العلاء من العلوم على قدر ما يسرته له بلدته المعرة، غير أنَّ اللَّبَنَات الأولى في تكوينه الثقافي كانت تتشكل على يد أسرته بني سليمان. وممَّن روى عنهم أبو العلاء من أسرته: جدُّه أبو الحسن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد، وتولَّى قضاء معرة النعمان في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، بعد موت أبيه أبي بكر، ثم تولَّى بعد ذلك قضاء حمص أيضاً، وكان فاضلاً فصيحاً شاعراً محدثاً^{٥٤}.

وجدَّته أم سلمة بنت الحسن بن إسحاق بن بلبل، وكانت عالمة بالحديث. وأبوه عبدالله، وكان فاضلاً أديباً لغوياً شاعراً. ومولده سنة ثلاثين وثلاثمائة. وأخوه الأكبر أبو المجد محمد بن عبدالله ابن سليمان، وكان فاضلاً أديباً شاعراً وأخوه أبو الهيثم عبد الواحد بن عبدالله بن سليمان (وهو أصغر الإخوة الثلاثة) كان شاعراً مجيداً، روى عنه أبو العلاء شيئاً من شعره^{٥٥}.

- تعليمه ورحلاته:

قرأ أبو العلاء القرآن العظيم بكثيرٍ من الروايات على شيوخ يُشار إليهم في القراءات. وقرأ اللغة والنحو بمعرة النعمان على والده أبي محمد عبدالله بن سليمان بن محمد، وأبي بكر محمد ابن مسعود بن محمد بن يحيى بن الفرج النحوي. ودخل وهو صبيٌّ إلى حلب، فقرأ بها على محمد بن عبدالله بن سعد النحوي، راوية أبي الطَّيِّب المتنبِّي^{٥٦}. وسافر إلى بغداد في سنة تسع وتسعين، للاستكثار من العلم، فأخذ بها عن أبي الحسن علي بن عيسى الرِّبَعي، وأبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري المعروف بالواجكا، وأبي علي عبد الكريم بن الحسن بن حكيم السكري النحوي اللغوي^{٥٧}.

وذكر كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري أنه لما قدم أبو العلاء بغداد دخل عليه علي بن عيسى الربيعي ليقراً عليه شيئاً من النحو، قال له الربيعي: ليصعد الإصطبل، فخرج مُغضباً، ولم يَعدْ إليه.

وأخذ الحديث عن أبيه أبي محمد، وجدّه سليمان بن محمد، وأخيه أبي المجد محمد بن عبد الله بن سليمان، وجدته أم سلمة بنت الحسن بن إسحاق بن بلبل، وأبي زكريا يحيى بن مسعر ابن محمد بن يحيى بن الفرج، وأبي الفتح محمد بن الحسن بن روح المعريين، وأبي الفرج عبد الصمد بن أحمد بن عبد الرحمن الضرير الحمصي، وأبي بكر محمد بن عبد الرحمن بن عمرو ابن عبد الرحمن الرحبي، وأبي عبد الله محمد بن يوسف بن كراكير الدقي، والقاضي أبي عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوسي قاضي معرة النعمان. وروى عن هؤلاء وعن أخيه أبي الهيثم عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان شيئاً من شعره. وخرّج من حديثه سبعة أجزاء رُويت عنه، وهي عندي بخط أبي الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة، رواها عن أحمد بن علي ابن عبد اللطيف بن زريق المعري، عنه.

أما عن رحلاته فقد ذكرنا أنه رحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وقد دخلها للعرض عليه الكتب التي في خزائنها، لما وُصف له من كثرتها، ولم تكن رحلته إليها لطلب دنيا. وقد ذكر في بعض كلامه: «وأحلف ما سافرتُ أستاذك من التَّسَبُّب، ولا أَكثُرُ بقاء الرجال، ولكن أثرتُ الإقامة بدار العلم، فشاهدتُ أنفسَ مكان لم يُسَعَفَ الزمَنُ بإقامتي فيه».

كما رحل إلى طرابلس، وكان القفطي (568-646هـ) أوّل من ذكر هذه الرحلة. قال: «ولما كبر أبو العلاء ووصل إلى سنّ الطلب، أخذ العربية عن قوم من بلده كيني كوثر أو من يجري مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته، وقيد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً. وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك، فرحل إلى طرابلس الشام، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذؤوب البسار من أهلها، فاجتاز باللائقية، ونزل دير الفاروس، وكان به راهبٌ يشدو شيئاً من علوم الأوائل، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلاسفة، حصل له به شكوكٌ لم يكن عنده ما يدفعها به، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال، وضاق عطشه عن كتمان

ما تحمله من ذلك، حتى فاه به في أوّل عمره وأودعه أشعاراً له، ثم ارعوى ورجع، واستغفر واعتذر، ووجه الأقوال وجوهاً احتملها التأويل».

وتداول خبر هذه الرحلة العلماء المؤرخون لأبي العلاء فذكره الذهبي في (تاريخ الإسلام)، والصفدي في (الوافي بالوفيات) و(نكت الهميان) والعباسي في (معاهد التنصيص) وغيرهم.

وقد أنكر ابن العديم في كتابه الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجزي عن أبي العلاء المعري خبر هذه الرحلة فقال: «وقد ذكر بعض المصنّفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس، للنظر في كتبها، واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد. ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد ابن عمار، في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، وكان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة. ووقف ابن عمار بها من تصانيف أبي العلاء "الصاهل والشاحج" و"السجع السلطاني" و"الفصول والغايات" و"السادن" و"إقليد الغايات" و"رسالة الإغريض».

كما فنّد الرحلة التي زعم أن المعري قام بها إلى أنطاكية، يقول: «وهذه الحكاية فيها من الوهم ما لا يخفى... فإن أنطاكية أخذها الروم من أيدي المسلمين في ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وولد أبو العلاء بعد ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر، في شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وبقيت أنطاكية في أيدي الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطلمش، في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة. وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا عليها، فلا يُتصور أن يكون بها خزانة كتب وخازن، وتقصد للاشتغال بالعلم».

- ملكات ومهارات شخصية:

لم يتفق مؤرّخو المعري على شيء كما اتفقوا على فرط ذكائه وحدة ذهنه وقوة حافظته، وسعة اطلاعه، ففي صباه حفظ عدة كتب في أيام قلائل. ونظم الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، أو اثنتي عشرة سنة.

وسمع أهل حلب بذكائه وهو صغير، فسافر جماعة من أكابرهم إلى معرة النعمان لمشاهدته، وسألوا عنه، فقيل لهم: هو يلعب مع الصبيان، فجاؤوا إليه وسلموا عليه، فردّ عليهم السلام، فقيل له: هؤلاء جماعة من أكابر حلب أتوا لينظروك ويمتنحوك. فقال لهم: هل لكم في المقافاة بالشعر؟ فقالوا: نعم. فجعل كل واحدٍ منهم يُنشد بيتاً وهو ينشد على قافيته، حتى فرغ حفظهم بأجمعهم وقهرهم، فقال لهم: أعجزتم أن يعمل كل واحدٍ منكم بيتاً عند الحاجة إليه على القافية التي يريد؟ فقالوا له: فافعل أنت ذلك. فجعل كلماً أنشده واحدٌ منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافيته، حتى قطعهم كلّهم. فعجبوا منه وانصرفوا.

وتروي كتب الأدب والتاريخ العديد من تلك الروايات التي تقرر تفوق ذكاء أبي العلاء، وقوة ذاكرته، مما لا يتسع المقام لذكره هنا.

وذكر ابن العديم في الإنصاف والتحري أن أبا العلاء سُئل عن سبب بلوغه هذا المستوى الرفيع من العلم فقال: «ما سمعت شيئاً إلا وحفظته وما حفظت شيئاً فنسيته».

ولم يقعه كفت البصر عن مشاركة المبصرين لعبهم، فقد أثار عجب مؤرخيه للعبة النرد والشطرنج. وقد ذكر أبو العلاء هذه اللعبة في ديوانيه سقط الزند واللزوميات.

وعُرف أبو العلاء أيضاً بثقافته الموسوعية ومعارفه التي قلما تجتمع لشخص واحد. ولعل أبرز ما اشتهر به هو ثقافته اللغوية، وإحاطته بشوامل اللغة، طريفها وتليدها. تشهد بذلك رسائله، ورسالة الغفران ورسالة الصاهل والشاحج ورسالة الملائكة.

كما أفصح عن علمه الواسع بالقراءات القرآنية، وتمكّنه منها، وهذا ما نلمسه في رسالة الملائكة، ومباحث متناثرة في رسالة الغفران ورسالة الصاهل والشاحج. وله في علوم الحديث منهج واضح فقد «سمع الحديث اليسير وحَدَّث به. وروى عنه أبو القاسم علي بن الحسين التتوخي القاضي، وأبو الخطاب العلاء بن حزم الأندلسي، وأبو الطاهر محمد بن أحمد بن أبي الصقر الأنباري، وأبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، وجماعة كبيرة سواهم».

أمّا حظّ أبي العلاء من المعرفة بالتاريخ فإنّ من يقرأ غفرانه ورسالته في تعزية خاله يعجب من معرفته بتاريخ الأقدمين والمعاصرين له من عرب وفرس وروم وغيرهم. إضافة إلى ثقافته العامة الواسعة في علم الفلك ومعرفة النجوم والكواكب، وذلك في كتابه الفصول والغايات ومجموع رسائله.

وأعرب أيضاً عن تفوّقه في مجال الفلسفة وعلم الكلام ودراسة الفرق والملل. وهذا واضح في لزومياته وغفرانه. وقد بحث الأستاذ محمد سليم الجندي في ثقافة المعري، وتوصل إلى القول بأنّ كلّ ما وقع في كلامه الذي انتهى إلينا يدلّ على أنه كان جامعاً لعلوم شتى، متمكناً في كلّ منها، وبذلك استطاع أن يتصرف في مسائلها، ويخضع كثيراً من مصطلحاتها وأحكامها فيما أراده من الأغراض من إشارة وتلميح وتورية... ولو جاعنا كلّ ما قاله لرأينا أدباً غزيراً وعلماً جماً وخيالاً واسعاً، وعبقريّة فذة، وثقافة عالية لا تضاهي، على أنّ القدر الذي أتيج لنا الوقوف عليه من كلامه يدلّ على علم واسع، وأدب وافر، يجعله أمة وحده، لأننا لم نر في رجال العرب ونوابغهم من اجتمع له من سعة الحفظ والاطلاع على مسائل العلم والأدب والحكمة مثل ما اجتمع لأبي العلاء، ولا من استطاع أن يخضع العلم للشعر والأدب مثل ما استطاع». وقد أثنى الجميع على غزارة علمه وثقافته فقال ياقوت: «كان غزير الفضل، شائع الذكر، وافر العلم، غاية في الفهم، عالماً باللغة، حاذقاً بالنحو، جيد الشعر، جزل الكلام، شهرته تغني عن صفته، وفضله ينطق بسجيته».

ويقول ابن العديم، بعد أن ذكر طائفة من العلماء الذين أخذوا عن المعري: «فهؤلاء كلّهم أئمة وقضاة وعلماء أثبات، وأدباء رواة وحفّاظ ثقات، رَوَوْا عن أبي العلاء وكتبوا عنه، وأخذوا العلم واستفادوا منه، لم يذكره أحدٌ منهم بطعن، ولم ينسب حديثه إلى ضعف ولا وهن».

وقال الشاعر الفارسي ناصر خسرو (394-453هـ) عن المعري: «وقد سما في الشعر والأدب إلى حدّ أنّ أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرّون بأنّه لم يكن من يداينه في هذا العصر ولا يكون». وهذا يدلّ على المكانة العلمية التي كان يحتلّها في عصره، فقد طبّقت شهرته الأفاق وسعى إليه طلبة العلم من مصر والشام والعراق، ينشدون اللغة والأدب على يديه.

كما بلغ أبو العلاء منزلة رفيعة لدى حكام عصره حتى إنّ الوزير الفلاحي- علي بن جعفر ابن فلاح وزير الحاكم- كتب إلى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك، متولي حلب وأعمالها أن يحمل أبا العلاء إلى مصر ليبني له دار علم. وسمح له بخراج المعرة في حياته، فأبى ذلك كله. وكان عزيز الدولة هذا يطلب من أبي العلاء أن يصنّف له تصانيف، ويحترمه ويقبل شفاعته، وكان أنوشكين الذيرري أمير حلب ودمشق يثني على أبي العلاء، ويسأل عنه، ويوجه إليه السلام كما أنّ أبا القاسم الوزير المغربي استدعاه إلى مصر. وصالح بن مرداس وهب له المعرة، ورفع الحصار عنها وأطلق السجني من أهلها إلى كثير من مثل هذا «».

وقد أشارت بعض كتب التراجم إلى جانب مهمّ جداً من شخصية أبي العلاء، ذلك هو ترفعه عن مذلة التسكّع في قصور الملوك وسؤالهم والتزلف إليهم. فهاهو الذهبي يقول في تاريخ الإسلام: «وكانت له نفس قوية، لا يحمل منّة أحد، وإلاّ لو تكسّب بالعرش والمديح لكان ينال بذلك دنيا ورياسة».

هذه شهادة تؤكّد سمّ نفس المعري عمّا كان منغمساً فيه أكثر معاصريه من ذلّ السؤال والتملّق لذوي السلطان طلباً للدنيا والمال والرياسة.

وكان ذلك كلّ ممّا أوغر عليه صدر الحاسدين والحاقدين، فحاربوه بشتى سبل الكيد والدسّ والوشاية، وراحوا يتهمونه بالزندقة مرّة وبالإلحاد أخرى.

• العوامل المؤثرة في حياة المعري:

إلا أنّ هناك جملة من العوامل أثّرت في حياة أبي العلاء وروحه وعقله، وساهمت بشكل أو بآخر في توجيه تفكيره ودرسه، فانعكس ذلك جلياً في آثاره الشعرية والنثرية. فمن تلك العوامل ندرس: 1- الأحوال السائدة في عصره: ذلك العصر الحافل بالانحطاط والفساد وسقوط القيم. ولا يخفى علينا أن كثيراً من الدارسين قد تناولوا دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في عصر أبي العلاء، إلّا أنّنا نريد أن نجمل أهم النقاط التي تفيد بحثنا.

فقد عاش المعري في العصر العباسي الثالث، عصر سيادة بني بويه، وهو عصر الضعف السياسي، وعلى امتداد خمسة وثمانين عاماً، ما بين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري حتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجري، عاش أبو العلاء فصول المآسي الحزينة للصراع السياسي في ظلّ دول ثلاث اقتتلّت فيما بينها للسيطرة على حلب، وهذه الدول هي الحمدانية والفاطمية والمرداسية. وكانت تتعاقب سيطرة هذه الدول المتصارعة الواحدة تلو الأخرى، وكثيراً ما كانت تتواطأ المهزومة مع الروم. هكذا كانت تتقلب الأحداث الجسام على حلب، وكان يرافق ذلك زيادة في الضرائب وفقّر ومجاعة، وإزهاق للأرواح وسفك للدماء، واغتصاب للحقوق، وانتهاك للمحرمات ومظالم سياسيّة واجتماعيّة، وخنق للحرية الفكرية. ونجم عن هذا كلّهُ، أنّ الفرد لم يكن يشعر بالأمن والطمأنينة، وكذلك أولو الأمر وذوو السلطان فلم يكونوا أوفر حظاً من رعاياهم في الحصول على طمأنينتهم، فهم خائفون على مناصبهم، ومشغولون بتمكين سلطنتهم التي غالباً ما أقاموها بالخدعة والسيف.

إنَّ هذا كله أدى إلى سقوط القيم سقوطاً شاملاً، فسقوط القيم الاقتصادية والاجتماعية الناجم عن الجشع والحرص على المال، تبعه سقوط القيم الأخلاقية والدينية، فقد أفرغ الدين من محتواه الروحي والقيمي والأخلاقي. وكان أبو العلاء شاهد عيان على ذلك كله، إن لم يكن ببصره فبسمعه وفؤاده، وكانت تنقل إليه أخبار الأحداث الجسام التي تقع كل يوم وكل أسبوع، أو كل شهر أو سنة من سقوط دولة ونهوض أخرى، من صعود سافل لنيم إلى السلطة، ومن سقوط نبيل كريم، من إزهاق أرواح، واغتصاب حقوق».

وهكذا كانت الأحوال السائدة في عصر أبي العلاء غير مستقرّة، فأنى أدار أبو العلاء وجهه رأى الفتن والحروب والثورات. وكان يرى الرذائل قد انتشرت، واستفحل أمرها والفضيلة تُداس تحت الأقدام، فتشمنّر نفسه من حال الدنيا وتمتلىّ حقداً على المجتمع وعلى الزمان.

ومن العوامل المؤثرة أيضاً 2- ببيئته وشخصيته: إنَّ بيئة المعري بيئة علم وأدب ودرس وقضاء، وكان لهذا الميراث العلمي أثره في تربيته، إذ جعله يميل إلى مواصلة البحث والدرس. وأيضاً فإن فقد بصره كان له أثر كبير في ذلك، إذ جعله يحدد موقفه، كما أبعد عمار عن مشاغل الدنيا ومفاتها، وجعله يطلب العلم ويشغف به، فانصرف إلى الكتب وصرف كلّ وقته وجهده لدراستها واستيعابها. وهو القائل: «أنا أحمدُ الله على العمى، كما يحمدّه غيري على البصر، قد صنع لي، وأحسن بي، إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء»، ويبدو أنَّ عمار المبكر قد حرّ في نفسه كثيراً، وكان يشير إلى شكوى مريّة في نفسه من هذه العاهة. يقول:

9- وَكَمْ إِشْتَكْتُ أَشْفَارَ عَيْنٍ سُهْدَهَا وَشَفَاؤُهَا مِمَّا أَلَمَ شَفَارُ
10- وَلَطَّالَمَا صَابَرْتُ لَيْلًا عَاتِمًا فَمَتَى يَكُونُ الصُّبْحُ وَالْإِسْفَارُ

إلا أنه قد استطاع بذكائه وقوة ملاحظته وسعة مداركه أن يتجاوز هذه المحنة القاسية، إذ اندفع إلى دراسة المجتمع والنفس الإنسانية، والطبيعة وما وراء الطبيعة، مكوّناً لنفسه مذهباً خاصاً به.

وقد لقي أبو العلاء إساءات مختلفة في المعرة وفي بغداد بسبب عاهته تلك، فقد دخل يوماً على الشريف المرتضى، فعثر برجل، فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً.

وأراد حضور مجلس العالم النحوي أبي الحسن الربيعي، فلما استأذن في الدخول قال أبو الحسن: ليدخل الاصطبل. (والاصطبل الأعمى بلهجة أهل الشام).

3- عزلته: ذكرنا أن أبا العلاء قد رحل إلى بغداد طلباً للمعرفة والعلم إلا أنه قطع رحلته تلك، ورجع إلى المعرة بعد أن بلغه خبر مرض والدته ووفاتها من بعد. وقد تركت زيارة بغداد في نفسه أعمق الأثر لما خلفته له من صداقات علمية ولقاءات أخوية خلال سنة وسبعة أشهر. وقد أشار في لزومياته إلى عودته بقوله:

شُنِمَتْ يَا هِمَّةَ عَادَتْ شَامِيَّةً مِنْ بَعْدِ مَا أَوْطِنْتَ عَصراً بِبَغْدَادِ

وقد كان خلال وجوده في بغداد يهين نفسه للعزلة بعد عودته إلى المعرة، وقد أشار إلى ذلك في رسالته إلى خاله أبي القاسم علي بن سبيكة بقوله: «ولمّا فاتني المقامُ بحيثُ اخترتُ أجمعُ على انفرادٍ يجعلني كالطبي في الكناس، ويقطع ما بيني وبين الناس إلا من وصلني الله به وصل الذراع باليد، واللييلة بالغد...».0.

لقد جرّب أبو العلاء الناس جميعهم، وخبر أخلاقهم وأحوالهم، ووقف على ما كان عليه الناس من غشٍّ ومينٍ وحقدٍ وحسدٍ، وهو – كما صرّح في لزومياته- لم يجرّب العرب فقط حتى يكون ذمّه مقصوراً عليهم، بل خبر العجم أيضاً. فلم يجد في كلا الطرفين من يستحقّ المدح. يقول:

لَعَمْرِي لَقَدْ شَاهَدْتُ عُجْماً كَثِيراً وَغُرباً فَلَا عُجْماً حَمِدْتُ وَلَا غُرباً

وبعد أن ماتت أمّه التي كانت تحنو عليه، وتخفّف عنه قسوة ما يعاني من الآلام، بدت فكرة العزلة مكتملة في ذهنه وعزم عليها، وهو في طريقه إلى المعرة. فأعلن عزمه بعد روية ودرس يصفهما في رسالته إلى أهل المعرة. يقول: «أما الآن فهذه مناجاتي إياهم... بعد أن قضيتُ الحادثة فانقضتُ، وودّعتُ الشبيبة فمضت وحلبتُ الدهر أشطره، وجربتُ خيره وشّره، فوجدتُ أوفق ما أصنعه في أيام الحياة عزلةً تجعلني من الناس كبارح الأروى من سانح النعام»^{٥٠}.

نعم «لقد باع الدنيا واشترى حريته وكرامته وضميره في زمنٍ أدلّ الحرصُ فيه أعناق الرجال. وكان انسحابه من المعتزك احتجاجاً عملياً على نُكر العصر وفساد المجتمع، ورفضاً مُعلنًا لمسخ القيم وضلال المقاييس واختلال الموازين. وفي بسالةٍ نادرة، أعلن صيحة الاحتجاج على المنافقين والمرائين والنفعيين، وواجه جبروت الحكام بكلماته الصاعدة، وأعلن الحرب على الذين استغلوا جهل العامة، فجعلوا السياسة والدين والعلم والأدب قصيدة لرزق غير حلال»^{٥١}.

وفي عزلته عانى من كيد الحاقدين والحاسدين. فأبو نصر أحمد بن يوسف المغازي الشاعر (-437هـ) يقول: اجتمعتُ بأبي العلاء المعري بمعرة النعمان، وقلتُ له: ما هذا الذي يُروى عنك ويُحكى؟ فقال: «حسني قوم، فكذبوا عليّ، وأسأؤوا إليّ. فقلتُ له: على ماذا حسدوك وقد تركتُ لهم الدنيا والآخرة؟ فقال: والآخرة أيها الشيخ! قلتُ: إي والله»^{٥٢}.

4- فقره وضعف جسمه: إنّ أبا العلاء كان فقير الحال، كما حدثتنا بذلك كتب التراجم. فقد جاء في الإنصاف: «وله دارٌ حسنةٌ يأويها، ومعايشٌ يكفيه ويؤمونه، وأولادٌ أخ باق يخدمونه، ويقروؤون بين يديه، ويدرسون عليه، ويكتبون له، وورّاق برسمه مستأجر. ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقةً طفيفَةً، وما يفضل عنه يفرّقه على أخيه وأولاده واللأنّذين به، وللفقراء والقاصدين له من الغرباء»^{٥٣}.

ويظهر لنا من رسائله مع داعي الدعاة الفاطمي أنه ظلّ يشكو الفقر إلى أيامه الأخيرة، ولكنه مع ذلك كان ينفق على المعوزين، يقول: «ومما حثني على ترك أكل الحيوان أن الذي لي في السنة نيفٌ وعشرون ديناراً، فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب، بقي لي ما لا يُعجب، واقتصرْتُ على فول وبلّسن، وما لا يعذب على الألسن»^{٥٤}.

وكانت هذه حاله عندما سافر إلى بغداد ورأى الدكتور طه حسين أنّ تشدّده في العفة أبعده عن الثراء. يقول: «وكذلك لم يُتَح لأبي العلاء من الثراء ما كان يرد، فإن تشدّده في العفة وإبائه التكبّس بالشعر، وامتناعه عن سؤال الناس، وضّنه

بكرامة نفسه جعل وصوله إلى الثراء أمراً لا سبيل له، فهو لا يمدح ملكاً ولا وزيراً، ولا يقبل هبة ولا عطية، والعلم ببغداد أكثر وأرخص من أن يُنفق في تحصيله المال».

ويبدو أنّ أسرة أمّه كانت غنيّة، فقد كانت معونة أخواله وأمه مستمرة مغدقة، بينما كانت معونة أسرته لأبيه منقطعة عنه لفقر أو جفاء، لهذا كانت إشادة أبي العلاء بأمّه وأخواله أكثر ممّا هي عليه بأسرته لأبيه وأخواله. وقد نبه الدكتور طه حسين لهذا حين قال: «ولا بدّ لنا أن نلاحظ أن رسائل أبي العلاء ولزومياته وديوانه المعروف بسقط الزند تخلو كلّها من ذكر أسرته لأبيه، إلا ما كان من رثاء والده. بينما تستغرق أسرته لأمّه من ديوانه ورسائله مقدراً غير يسير. فلا شك في أنّ أيادي أمّه وأخواله كانت متظاهرة عليه، وأنّ معونة أسرته لأبيه كانت منقطعة عنه لفقر أو جفاء».

وكان أبو العلاء ضعيف الجسم، فقد ذكر أبو محمد عبدالله بن الوليد بن غريب الإياديّ أنه دخل مع عمّه على أبي العلاء يزوره، فوجده قاعداً على سجادة لبّده، وهو شيخ فان. قال: فدعا لي ومسح على رأسي، قال: وكأنني أنظر إليه الساعة، وإلى عينيّه، إحداها نادرة، والأخرى غائرة جداً، وهو مجدور الوجه، نحيف الجسم.

فاذا أضفنا هذا إلى عماه استطعنا أن نفهم ونفسّر إعراضه عن البشر وزهده في الدنيا.

5- ثقافته الدينية: إنّ أبا العلاء قد درس الدين الإسلامي ومبادئ الشريعة الإسلامية على يد والده أولاً ثم على أيدي أساتذة آخرين من علماء زمانه في المعرّة وحلب، ثم تبحّر في العلوم الدينية، من خلال مناظراته ومطالعته فكان على اطلاع واسع بالشرع الإسلامي وبالخلافاً التي ظهرت بين مختلف الفرق والنحل الإسلامية.

ويمكن القول: إنّ ثقافته الدينية العميقة كانت من أهم العوامل المؤثرة في حياته وأجلّها شأنًا، إذ هدّبت هذه الثقافة نفسه فانبعثت منها هذه الخواطر المختلفة التي كانت تبدو تارة في آثاره، ولا تلبث أن تختفي تارة أخرى. ويضاف إلى هذه الثقافة شيء آخر، ذلك أنّ عماه جعله ينشرح لمشاهدة العالم الآخر الذي رسمته هذه الخواطر، وجعله يتفوّق على من سواه في تصوّره وإدراكه. إنهم يدركون مستعنيين بعالمهم الماديّ، وهو يدركه بعالمه العقلي، ومخيلته التصويرية، وبصيرته النفسية.

وهكذا إن ظروف عصره، وفساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية آنذاك، وضعف جسمه وعماه، وموت أهله، وقلة ماله، وكثرة خصومه وحساده. هذه العوامل مجتمعة كان لها أثر عظيم في توجيه تفكيره وعقله وبحثه، وقد جعلته ناقماً شاكياً قلقاً، وناقداً متهمكاً ساخرًا.

2. مؤلفات المعري النثرية:

إنّ أبا العلاء بدأ عزلته بعد سنة 400هـ. وقد تميزت عزلته بالنشاط العلمي والحركة الفكرية الواسعة التي تمثلت في القراءة والإملاء والدرس والاستماع إلى المساجلات والمناقشات واستمر ذلك لمدة خمسة وأربعين عاماً. فكانت عزله كما رأى أحد الباحثين- خيراً وبركة على نتاجه العلمي ونشاطه الفكري، وقد أنتج أبو العلاء فيها من بدائع فكره ورائع تصانيفه الشيء الكثير، من مثل الفصول والغايات، واللزوميات، ورسالة الغفران، ورسالة الملائكة، ورسالة الصاهل والشاحج. وقد قسم الدكتور طه حسين نثر المعري إلى طورين: أحدهما كتب في شببته قبل العزلة، والآخر كُتب بعدها. وما كتبه قبل العزلة قليل، مثل رسالة المنيع ورسالة الإغريض اللتين كتبهما إلى الوزير المغربيّ أبي القاسم (وهو الذي قُتل قبل سنة أربعمائة)، وأيضاً رسائله التي كتبها ببغداد إلى خاله أبي طاهر في شأن كتب السيرافي، ورسائله إلى أهل المعرة قبل أن يصل إليها. أما ما كتبه بعد العزلة فكثيرٌ كرسالة الغفران ورسائله التي كتبها إلى خاله أبي القاسم في رثاء أمّه، ورسائله التي كتبها إليه يعزبه عن أخيه الذي مات بدمشق، وأيضاً رسائله التي أجاب بها أبا الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري، وغيرها.

ولكن لم يبقَ من تلك الأعمال إلا أقلّها، ولكنه فياضٌ بالمعرفة والفكر. إذ كان المعري شديد العناية بمؤلفاته، حيث نجد كثيراً من الشروح والتفسيرات لما يبدع من النظم أو النثر. وهذا كله يفسر لنا كثرة ما يروى من أسماء تصانيفه التي يتعلّق بعضها ببعض.

وقد أحصى ابن العديم مؤلفات أبي العلاء في كتابه الإنصاف والتحري (ص527-541)، فوصلت إلى سبعين مؤلفاً. أو هي سبع وسبعون كما أحصاها عبد العزيز الميمني في كتابه أبو العلاء وما إليه (ص196-210)، وزادها محمد سليم الجندي على ذلك في كتابه الجامع في أخبار أبي العلاء (ص696-798) إذ وصلت إلى مئة وخمسة مؤلفات.

لكنّ الذي وصل إلينا من هذه المؤلفات الكثيرة قليل، أشهره اللزوميات وسقط الزند، ومجموع رسائل، ورسالة الغفران، ورسالة الصاهل والشاحج، ورسالة الملائكة، والجزء الأول من كتاب الفصول والغايات، وملقى السبيل ورسالة الهناء، وبعض الرسائل الأخرى، وبعض كتب النقد مثل عيب الوليد ومعجز أحمد، والشروح المقامة على سقط الزند.

قال الشيخ أبو العلاء: لزمْتُ مسكني منذ سنة أربعمائة، واجتهدتُ أن أتوفّر على تسبيح الله وتحميده، إلا أن أضطرّ إلى غير ذلك، فأمليتُ أشياء تولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي هاشم، أحسن الله معونته، ألزمني بذلك حقاً جمة، وأيادي بيضاء، لأنه أفنى فيّ زمنه، ولم يأخذ عما صنع ثمنه، والله يحسن له الجزاء، ويكفيه حوادث الزمان، والأرزاء. وهي على ضروب مختلفة، فمنها ما هو في الزهد والعظات، وتمجيد الله سبحانه، من المنظوم والمنثور.

فمن هذه الكتب:

- الفصول والغايات: كتاب في تمجيد الله تعالى والعظات. وهو موضوع على حروف المعجم. وأراد بالغايات القوافي؛ لأن القافية غاية البيت. وفيه قواف تجيء على نسق واحد، وليست الملقبة بالغايات. وهو الكتاب الذي افترى عليه بسببه، وقيل إنه عارض به السور والآيات، تعدياً عليه وظلماً، وإفكاً به أقدموا عليه وإنمأ، فإن الكتاب ليس من باب المعارضة في شيء^{٥٠}.

- السادن: كتاب وضعه في ذكر غريب هذا الكتاب، وما فيه من اللغة.

- إقليد الغايات: كتاب مشتمل على تفسير اللغز^{٥١}.

- الأيك والغصون: وهو كتاب كبير، ويُعرف بكتاب "الهمز والردف"، بُني على إحدى عشرة حالة من الحالات: الهمزة في حال انفرادها وإضافتها، ومثل ذلك السماء بالرفع، والسماء بالنصب، والسماء بالخفض، سماء يتبع الهمزة التنوين، سماء مرفوع مضاف، سماء منصوب مضاف، سماء مفعول مضاف. ثم يجيء سماءها وسمائها، على التأنيث. ثم همزة بعدها هاء ساكنة مثل عباءة وملاءة. فإذا ضربت أحد عشر في حروف المعجم الثانية والعشرين، خرج من ذلك ثلاثمائة فصل وثمانية فصول، وهي مستوفاة في كتاب الهمزة والردف. وذكرت فيه الأرداف الأربعة بعد ذكر الألف، وهي الواو المضموم ما قبلها، والواو التي قبلها فتحة، والياء المكسور ما قبلها، والياء التي قبلها فتحة. ويذكر لكل جنس من هذه أحد عشر وجهاً كما ذكر للألف^{٥٢}.

- كتاب في تفسير الهمزة والردف: جزء واحد.

- تضمين الآي: وهو كتاب يتضمن العظات، والحث على تقوى الله تعالى. أَلَفَ هذا الكتاب لبعض الأمراء، وقد سأله أن يؤلف كل فصل بآية من القرآن، وربما اقتصر على بعض الآية، أو جاء بآيتين وأكثر، إذا كانت من ذوات القصر، كآيات عبس ونحوها. فمنه ما هو على حروف المعجم وقبل الحرف المعتمد أَلَفَ، مثل أن يقال في الهمز يساء وبياء، وفي الباء يباب وعباب، هكذا إلى آخر الحروف. ويضمّن في آخر الفصل بآية. ومنه فصول على فاعلين، مثل باسطين وقاسطين، وعلى فاعلون، مثل حامدون وعابدون. ومنه ما هو على غير هذا الفن^{٥٣}.

- تاج الحرّة: وهو كتاب في عظات النساء خاصّة، وتختلف فصوله، فمنها ما يجيء بعد حرفه الذي يثبت ثبات الروي ياء التأنيث، كقوله شائي ونسائي، وهابي وثرابي - ومنها ما هو مبني على الكاف نحو غلامك وكلامك، ومنها ما يجيء على تفعّلين، مثل ترغبين وتذهبين، ونحو ذلك، وأنواعه كثيرة^{٥٤}.

- سيف الخطبة: كتاب يشتمل على خطب السنة، فيه خطب الجمع، والعديد، والخسوف، والكسوف والاستسقاء، وعقد النكاح، وهو مؤلف على حروف المعجم، فيها خطب عمادها الهمزة، وخطب بنيت على الباء، وخطب على التاء، وعلى الدال، وعلى الراء، وعلى اللام، والميم، والنون، وتركب الجيم والحاء، وما جرى مجراهما، لأنّ الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سجيحاً سهلاً^{٥٥}.

- خطب ختام القرآن العزيز: فيه عدة خطب لذلك^{٥٦}.

- خطب الخيل: يتكلم فيها على السنة الخيل، ويذكر على لسان كلّ فرس خطبة يحمّد الله تعالى فيها ويعظمه^{٥٧}.

- خطبة الفصيح: يذكر فيه الألفاظ التي تُروى عن ثعلب في كتاب الفصيح، في ضمن كلام فصيح منثور، في كلّ باب

من أبواب الفصيح.

- تفسير خطبة الفصيح: شرح فيه ما جاء في كتابه خطبة الفصح من الغريب^{٥٨}.

- رسل الرموز: كتاب مقداره ثلاثون كراسة^{٥٩}.

- خماسية الراح: كتاب في ذمّ الخمر خاصّة، بناه على حروف المعجم ومعنى هذا الاسم أنّ كل حرف من حروف المعجم ما خلا الألف يُذكر فيه خمس سجعات مضمومة، وخمس مفتوحة، وخمس مكسورة، وخمس موقوفة^{٦٠}.

- المواعظ الست: كتاب سأل فيه بعض الوعاظ. ومعنى هذا اللقب أن الفصل الأول منه في خطاب رجل، والثاني في خطاب اثنين، والثالث في خطاب جماعة، والرابع في خطاب امرأة موحدة، والخامس في خطاب امرأتين، والسادس في خطاب نسوة^{٦١}.

- وقفة الواعظ: كتاب في الوعظ^{٦٢}.

- دعاء ساعة: كتاب مختصر^{٦٣}.

- حرز الخيل^{٦٤}.

- جزء فيه حرز وتعويذ^{٦٥}.

- سجع الحمام: كتاب في الوعظ، يتكلم فيه على ألسن حمام أربع. وكان بعض الرؤساء سأل أن يصنّف له تصنيفاً يذكر فيه، فأنشأ هذا الكتاب، وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد^{٦٦}.

- تظلم السور: كتاب يتكلم فيه على لسان سور القرآن، وتظلم كلّ سورة ممن قرأها بالشواذ، ويتعرض لوجه الشاذ^{٦٧}.

- عظات السور: كتاب يشتمل على مواعظ^{٦٨}.

- الجلي والجلي: كتاب سأل فيه رجل من أكابر الحلبيين يقال له أبو الفتح عبدالله بن إسماعيل بن الجلي الحلبي، وهو

رجل فاضل من أكابر الحلبيين وأعيانهم^{٦٩}.

- رسالة الصاهل والشاحج: كتاب يتكلم فيه على لسان فرس وبغل، صنّفه للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك بن عبدالله الرومي، مولى منجوتكين العزيزي. وكان أبو شجاع هذا والي حلب من قبل المصريين في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر. وكان سبب تصنيفه أنه رُفِعَ إلى فاتك أن حقاً يجب له على بعض أقرباء أبي العلاء، وجب على أبي العلاء سؤاله

فيه». وقد طبعت بتحقيق بنت الشاطئ وتاريخ تأليفها ما بين عامي 411هـ و412هـ، كما اتضح ذلك من خلال الأحداث التي ذكرها أبو العلاء في الرسالة.

- لسان الصاهل والشاحج: كتاب في تفسير الصاهل والشاحج. عمله أيضاً لعزير الدولة المذكور.
- القائف: كتابٌ يُذكر فيه أمثالٌ على معنى كليله ودمنة. عمله لعزير الدولة أبي شجاع المذكور أيضاً. ألف منه أربعة أجزاء، ثم قطع تأليفه بسبب موت أبي شجاع الذي قُتل سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.
- منار القائف: كتابٌ في تفسير ما جاء في القائف من اللُغز والغريب.

- شرف السيف: كتاب عمله لأمير الجيوش أنوشتكين الدزبري، والي دمشق وحلب. وكان بلغه عنه كلامٌ جميل ويوجه إليه بالسلام، ويُحفي المسألة عنه، فأراد جزاءه على ما فعل.

- السجع السلطاني: كتابٌ يشتمل على مخاطبات الجنود والوزراء والولاة وغيرهم. عمله لبعض الكتاب القليلي الصناعة، ليستعين به على الكتابة.

- سجع الفقيه: مقداره ثلاثون كراسة.

- سجع المضطرين: وهو كتابٌ عمله لرجلٍ مسافر يستعين به على شؤون دنياه.

- ديوان الرسائل: وهو ثلاثة أقسام: الأول منها طوالٌ كـ "رسالة الملائكة التي ألفت بين سنة 430هـ وسنة 534هـ، وهي تشتمل على أجوبة صرّفية. وقد تبين أن أبا القاسم علي بن محمد بن همام المعري وافي أبا العلاء بست عشرة مسألة، فأجابه عنها أبو العلاء، وقدم أمام الأجوبة مقدمة ذكر فيها إحدى وعشرين مادة، بحث عن أصولها وأوزانها وأحكامها، وغير ذلك مما يتعلّق بها». و"رسالة الغفران"، التي كتبها إلى علي بن منصور الحلبي، جواباً عن رسالة كتبها إليه، يعتب عليه علي بن منصور في أنّه بلغه عنه أنه ذكر له فقال: «هو الذي هجا أبا القاسم ابن المغربي». فكتب إليه رسالة الغفران جواباً عنها. و"الرسالة السندية" التي كتبها إلى سند الدولة ابن ثعبان الكُتامي، والي حلب من قبل المصريين، في معنى خراج على ملكه بمعزة النعمان. و"رسالة العرّض" أو الغرض أو الفرض ونحو ذلك.

والثاني: دون هذه في الطول، مثل "رسالة المنيح" و"رسالة الإغريض".

والثالث: رسائل قصار، كنحو ما يجري به العادة في المكاتبات.

- خادم الرسائل: كتابٌ في تفسير بعض ما جاء في رسائله هذه من الغريب.

- تفسير رسالة الغفران: لا يعلم مقداره.

- تفسير رسالة الإغريض: وهي التي كتبها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي، وقد سیر إليه كتابه الذي اختصر فيه إصلاح المنطق، فكتب إليه برسالة الإغريض جواباً يقرّظه ويصف اختصاره للإصلاح.

- رسائل المعونة: وهي ما كتب عن أسنن قوم.

- الرسالة الحصية: لا يُعلم مقداره.

- رسالة على لسان ملك الموت: مقداره عشر كراريس.

- رسالة أدب العصفورين: لا يُعلم مقداره.

- السجعات العشر: وضع فيه أبو العلاء على كلّ حرف من حروف المعجم عشر سجعات في الوعظ.

- زجر النابح: كتابٌ يتعلّق بديوانه اللزوميات، يردّ فيه على من طعن عليه في أبياتٍ من اللزوميات ونسبه إلى الكفر فيها. فبيّن وجوهاً ومعانيها.

- زجر الزجر: كتابٌ يتعلّق أيضاً باللزوميات. يردّ فيه أيضاً على من طعن عليه في أبياتٍ غير الأبيات المذكورة في زجر النابح، وبعضها محرّفة عن مواضعها، فبيّن التحريف، وبيّن وجوه تلك الأبيات ومعانيها.

- راحة اللزوم: كتابٌ شرح فيه ما في كتاب لزوم ما لا يلزم من الغريب.

- ملقى السبيل: كتابٌ وعظٍ يشتمل على نثرٍ ونظم على حروف المعجم، على كلّ قافية فصل نثر، وأبيات شعر.

- الحقيّر النافع: كتاب مختصر في النحو.

- الظلّ الطاهري: كتاب يتصل بالحقيّر النافع، عمله لرجلٍ من أهل حلب يكتي أبا طاهر، وهو أبو طاهر المسلم بن عليّ بن تغلب، الملقّب مؤتمن الدولة، وكان من أكابر الحلبيين وعلمائهم.

- المختصر الفتحي: كتابٌ في النحو، يتصل بمختصر محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي المتوفى سنة (231هـ)، عمله لولد كاتبه أبي الفتح محمد بن الشيخ أبي الحسن عليّ بن عبدالله بن أبي هاشم.

- عَوْن الجُمْل: كتاب في النحو، عمله لأبي الفتح ابن أبي هاشم المذكور، شرح فيه شيئاً من كتاب الجمل، وهو آخر كتاب أملاه.

- تعليق الخُلس: كتابٌ في النحو، يتصل بكتاب أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، المعروف بالجُمْل.

- إسعاف الصديق: كتابٌ في النحو، يتعلّق بكتاب الجمل لأبي القاسم الزجاجي^٥.
- قاضي الحق: كتابٌ يتعلّق بالكافي الذي ألفه أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس^٥.
- ظهير العضدي: كتابٌ في النحو يتصل بالكتاب المعروف بالعضدي^٥.
- شرح كتاب سيبويه: كتاب غير كامل، مقداره خمسون كراسة^٥.
- تفسير أمثلة سيبويه وغريبها: لا يعلم مقداره^٥.
- شرح خطبة أدب الكاتب: عمله لأبي الرضى سالم بن الحسن بن عليّ الحلبيّ، وهو ابن أخت الوزير أبي نصر محمد بن النحاس الحلبي، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء^٥.
- اللامع العزيزي: كتاب في تفسير شعر المتنبي، ويقال "الثابتي العزيزي"، عمله للأمير عزيز الدولة أبي الدوام ثابت بن شمال بن صالح بن مرداس بن إدريس بن نصر بن حميد الكلابي^٥.
- ذكرى حبيب: كتابٌ في تفسير شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي^٥.
- عبث الوليد: كتابٌ يتعلّق بشعر أبي عبادَة البحتريّ. وكان سبب وضعه أنّ بعض الرؤساء وهو أبو اليمن المسلّم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبيّ النصراني، أنفذ إليه نسخة من شعر أبي عبادَة البحتريّ، ليقابل له بها، فأثبّت ما جرى من الغلط، ليُعرّض ذلك عليه. وبعض الغلط من الناسخ، وبعضه من البحتري^٥.
- الرياشيّ المصطنعيّ: كتابٌ في شرح مواضع من الحماسة الرياشية، عمله لرجلٍ من الأمراء، يلقب مصطنع الدولة، وهو أبو غالب كليب بن علي. وكان قد أنفذ إليه نسخة من الحماسة، وسأله أن يخرج في حواشيها ما لم يفسره أبو رياش، فجعله كتاباً مفرداً، لخوفه من أن تضيق الحواشي عنه^٥.
- فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: كتاب لا يُعلم مقداره^٥.
- أمالي من حديث رسول الله p: وهي سبعة أجزاء^٥.
- تفسير شواهد الجمهرة: وهو من الأمالي التي لم تتمّ^٥.
- شرح ديوان ابن أبي حصينة السلمي: في ثلاث مجلدات^٥.
- رسالة الضبعين: كتبها إلى معز الدولة عثمان بن صالح، يشكو إليه رجلين كانا يؤلّبان عليه، وقد حرّفا بيتاً من لزوم مالا يلزم^٥.
- التصريف: كتابٌ ذكره ابن قاضي شهبة في (طبقات النحاة واللغويين) في جملة كتبه^٥.
- الأنواء: كتاب ذكره البغدادي في خزنة الأدب في جملة الكتب التي اعتمد عليها، وانتقى منها ولم أر من ذكره غيره^٥.
- رسالة الهناء: بعث بها أبو العلاء إلى أحد معاصريه، يهنئه فيها بقدم وزير شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس. وقد كان هذا ملك حلب سنة 420هـ، وامتدّ ملكه إلى سنة 429هـ.
- مختلف الفصول: كتاب نحو أربع مائة كراسة، ذكره الذهبي^٥.
- رسائله مع داعي الدعاة: هي الرسائل التي أجاب بها أبا نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران في بيان العلّة من تحريم أكل الحيوان وما يخرج منه على نفسه^٥.
- رسالة الجن: ذكرها محمد بن عبد الغفور الكلاعي في كتاب إحكام صناعة الكلام^٥.
- رسالة النكاح: ذكرها محمد بن عبد الغفور الكلاعي في كتاب إحكام صناعة الكلام^٥.
- رسالة الطير: ذكرها الذهبي في تاريخ الإسلام^٥.
- الرسالة الفلاحية: ذكرها ابن خير الإشيلي في الفهرسة^٥.
- شرح شواهد الجمل: ذكره السيوطي في بغية الوعاة، وقال: إنه لم يتم^٥.

3- المعري بين أيدي الدارسين (قديماً وحديثاً):

أ - قديماً :

لقد كانت عقيدة أبي العلاء موضع اهتمام العديد من العلماء، ومثار الأقاويل والجدل، منذ عصر أبي العلاء وحتى يومنا هذا. وقد اتفق العلماء جميعهم، على أنّ أبا العلاء عالمٌ لغويٌّ وشاعرٌ حكيم، وذكيٌّ فطن، إلّا أنهم اختلفوا في عقيدته، ودينه، فمنهم من برّاه، ومنهم من اتّهمه. ولعلّ متّهميه كانوا أقرب إلى ظلمه والجور عليه، وتحميل أبياته ما لا تحتل. ونرى أنّ كلمتهم لم تتفق على جعل أبي العلاء يدين بدين واحد، وإنما جعلوه برهيمياً ومزدكياً وزنديقاً وملحداً وكافراً ومعطلاً ودهرياً وقرمطياً وشيعياً ودرزياً وتقياً، وزعم فريقٌ منهم أنه عارض القرآن الكريم في كتابه الفصول والغايات. وقد ذكر البغدادي أبو بكر أحمد بن علي (392-463هـ)، وهو من معاصري المعري، في كتابه تاريخ بغداد (مدينة

السلام) أنّ أبا العلاء عارض القرآن الكريم. وأشار إلى ما حُكي عنه من إلحاد. يقول: «وصنّف كتباً في اللغة، وعارض

سوراً من القرآن، وحكي عنه حكايات مختلفة في اعتقاده حتى رماه بعض الناس بالإلحاد»^٥.

وقال في حقّه الباخريزي (-467) الشاعر، في كتابه دمية القصر وعصرة أهل العصر: «ضريز، ما له في أنواع الأدب ضريب، ومكفوف في قميص الفضل ملفوف، ومحبوب، خصمه الألد مجوج. وقد طال في ظلال الإسلام أناؤه، ولكن ربّما رشح بالإلحاد إناؤه، وعندنا خبر بصره، والله العالم ببصيرته، والمطلع على سريره. وإنما تحدثت الألسن بإساءته، لكتابه الذي زعموا أنّه عارض به القرآن، وعنونه بالفصول والغايات، محاذاةً للسرور والآيات، وأظهر من نفسه تلك الخيانة، وجدّ تلك الهوسات كما تجدّ العير الصليانية، حتى قال فيه القاضي أبو جعفر محمد بن إسحاق البحاثي الزوزني (-463هـ) في قصيدة أولها:

كَلَبَّ عَوَى بِمَعْرَةِ النُّعْمَانِ لَمَّا خَلَا عَنْ رَبَقَةِ الْإِيمَانِ
أَمْعَرَةَ النُّعْمَانِ مَا أَنْجَبَتْ إِذْ خَرَجَتْ مِنْكَ مَعْرَةُ الْعُمَيَّانِ

ونقل عن ابن العديم أنّه قال: «قرأت بخط أبي اليسر شاعر بن عبدالله بن سليمان المعري في ذكره: وكان τ يُرمى من أهل الحسد له بالتعطيل، ويعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار، يضمونها أقاويل الملحدة، قصداً لهلاكه، وإيثاراً لإتلاف نفسه. فقال τ:

حَاوِلْ إِهْوَائِي قَوْمٌ فَمَا وَاجَهْتَهُمْ إِلَّا بِأَهْوَانِ
يَحْرِشُونِي بِسَعَايَاتِهِمْ فَغَيِّرُوا نِيَّةَ إِخْوَانِي
لَوْ اسْتَطَاعُوا لَوْشَوْا بِي إِلَى الْـ مَرِيخِ فِي الشَّهْبِ وَكَيَوَانِ

وقد علّق الصفدي (696-764هـ) على هذه الأبيات قائلاً: «أما الموضوع على لسانه فعله لا يخفى على من له لب. وأما الأشياء التي دَوَّنَهَا وقال بها في "لزوم ما لا يلزم" وفي "استغفر واستغفري" فما فيه حيلة. وهو كثير، فيه ما فيه من القول بالتعطيل، والاستخفاف بالنبوءات. ويحتمل أنه ارعوى وتاب بعد ذلك كله. وتلك الأبيات لم ترد في ديوانيه اللزوميات وسقط الزند، كما نصت بذلك اللجنة التي وضعت كتاب تعريف القدماء. وقد أشار المعري في إحدى رسائله إلى قصة التأليف عليه والتحريف فله رسالة تُعرف بـ "رسالة الضبعين، كتبها إلى معز الدولة شمال بن صالح، يشكو إليه رجلين كانا يؤلبان عليه، وقد حرّفاً بيتاً من لزوم مالا يلزم، قال فيها: وفي حلب، حرسها الله، نسخ من هذا الكتاب بخطوط قوم ثقات، يعرفون ببني أبي هاشم، أحرار نسكة، أيديهم بحبل الورع متمسكة، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه، وإن أُحضرت (أي النسخ) ظهرت الحجة بما قلت فيه. وقد التمس الكثيرون باباً يدخلون منه لاتهامه بالكفر وتعطيل الشرائع، كما حاول داعي الدعاة الشيرازي هبة الله بن موسى بن أبي عمران (390-470هـ) أن يوقع به في رسالته إلى أبي العلاء الذي قال:

غَدَوْتُ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ فَالْقَتْنِي لَتَعْلَمَ أَنْبَاءُ الْأُمُورِ الصَّاحِحَ

وقد أراد أبو عمران أن ينتزع من المعري اعترافاً صريحاً واضحاً بمخالفة الشرائع، فيقول: "شددت إليه راحلة العليل في دينه وعقله إلى الصحيح الذي ينبئني أنباء الأمور الصحاح. وأنا أول ملتب لدعوته، معترف بخبرته. وهو حقيق ألا يوطنني العشواء، فيسلك بي في المجاهل، ولا يعتمد فيما يورده تلبيس الحق بالباطل. وأول سؤالي عن أمر خفيف، إن استنشقت نسيم الصبا، سَفَّتْ السُّؤَالَ إِلَى الْمَهْمِ: أسأله عن العلة في تحريمه على نفسه اللحم واللبن، وكلّ ما يصدر إلى الوجود من منافع الحيوان»^٥.

ومن خلال الحوار الدائر بينهما يتبين لنا أن داعي الدعاة كان يسعى سعياً حثيثاً إلى الإيقاع بأبي العلاء، وبالتالي نيل ما يستحق من عقاب كما زعم بعض معاصري المعري، إذ زعموا أنه مات مسموماً خوفاً من اغتيال داعي الدعاة له. «وكان جرى ذكره في مجلس الناظر الذي ينظر في ذلك الوقت، فخطب عليه الحاضرون، وأغروا بدمه، وقالوا: إن الغيرة على الدين تُبيح قتله» ولكن بعض الحاضرين رأوا أنه إذا قُتل فسيُعَلِّي الناس ذكره، ويثنون عليه. ففضلوا مناظرته لعلهم يفلحون في تكفيره. «فقال أحد الحاضرين: إن كلامكم على غير موضوع، وإن كان الرجل من العجز والضعف والإشراف على القبر بالغاية القصوى، وإنه متى بُسِطَ له اليد على هذه السبيل اكتسب من الذكر الجميل، والثناء بعد الموت، مالا حاجة بنا إليه. بل الواجب أن يُجرّد له من يهتك بالمناظرة والمحاجة ستره، ويكشف للناس عوارّه، لينقص في عيونهم، وينحط من درجته ما بين ظهرانيهم»^٦.

وقال ابن الهبارية في قصة سمّ المعري: بلغ أبا نصر بن أبي عمران داعي الدعاة لصاحب مصر، حديثه، فاستدعاه إلى حلب، وكان بها، فسمّ أبو العلاء نفسه فمات. ولم يوافق ابن الهبارية على هذا أحد. وقد أجمعوا على أنه مات على فراشه الموت الطبيعي^٧.

ويقول أبو الفرج ابن الجوزي (510-597هـ) في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" وكان ظاهر أمره يدلّ على أنّه يميل إلى مذهب البراهمة، فإنّهم لا يرون ذبح الحيوان، ويجحدون الرسل. وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والإلحاد -وذلك أمره ظاهرٌ في كلامه وأشعاره- وأنه يردّ على الرسل، ويعيب الشرائع، ويجحد البعث.

ونراه يبالغ كثيراً في اتّهام أبي العلاء بالإلحاد، وكان محور هجومه كتاب الفصول والغايات. ويبلغ الذروة في ذلك عندما يتّهم أبا العلاء بإظهار الكفر وإبطان الإسلام على عكس الشائع عند الملحدة الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر. إذ يتبنّى كلام أبي الوفاء علي بن عقيل، وهو شيخ الحنابلة ببغداد (431-513هـ). يقول: «من العجائب أنّ المعريّ أظهر ما أظهر من الكفر البارد، الذي لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين، بل قصّر فيه كلّ التقصير، وسقط عن عيون الكلّ. ثم اعتذر بأنّ لقوله باطناً، وأنه مسلم في الباطن. فلا عقل له ولا دين، لأنه تظاهر بالكفر وزعم أنه مسلم في الباطن. وهذا عكس قضايا المنافقين والزنادقة، حيث تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر. فهل كان في بلاد الكفار حتى يحتاج إلى أن يبطن الإسلام! فلا أسخف عقلاً ممن سلك هذه الطريقة التي هي أخسّ من طريقة الزنادقة والمنافقين، إذ كان المتدينّ يطلبُ نجاة الآخرة لا هلاكها في الدنيا، حين طعن في الإسلام في بلاد الإسلام، وأبطن الكفر، وأهلك نفسه في المعاد، فلا عقل له ولا دين. وهذا ابن الراوندي وأبو حيان، ما فيهم إلا من قد انكشف من كلامه سقم في دينه، يُكثر التحميد والتقديس، ويدس في أثناء ذلك المحن».

ثم ينعت الفصول والغايات بأنّه كلام ركيك بارد. يقول: «وقد رأيت للمعري كتاباً سمّاه "الفصول والغايات" يعارض به السور والآيات. وهو كلامٌ في نهاية الركة والبرودة. فسبحان من أعمى بصره وبصيرته! وقد ذكره على حروف المعجم في آخر كلماته».

وفي كتابه "تلبّيس إبليس" الذي تناول فيه الكلام على إغواء إبليس للطوائف المختلفة من الناس يقول: «وكم من زنديق في قلبه حقد على الإسلام، خرج فبالغ واجتهد، فزخرف دعاوى يلقي بها من يصحبُه: وكان غور مقصده في الاعتقاد الانسلاخ من ربّة الدين، وفي العمل نيل الملذات، واستباحة المحظورات... ومنهم من لم يبرح على تعثيره، ففاتته الدنيا والآخرة، مثل ابن الراوندي، والمعري... وأما أبو العلاء المعري فأشعاره ظاهرةً بالإلحاد. وكان يبالغ في عداوة الأنبياء. ولم يزل متخبطاً في تعثيره، خائفاً من القتل إلى أن مات بخسرانه».

وقد جاء في طبقات الشافعية في ترجمة أبي حيان التوحيدي (-414هـ): وقال أبو الفرج ابن الجوزي في تاريخه: «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء. وأشدّهم على الإسلام أبو حيان، لأنه مجّج ولم يُصرّح».

كما أورد الصفدي رأي الإمام فخر الدين الرازي (606-544هـ)، في كتابه "الأربعين في أصول الدين" في شعر المعري، إذ أورد قوله من اللزوميات:

قلتم لنا صانع قديم قلنا صدقتم كذا نقول
ثم زعمتم بلا زمان ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء ومعناه ليست لنا عقول

ثم قال: وقد هذى كثيراً في شعره.

وهاهو ياقوت الحموي (574-626هـ) في صدر ترجمته لأبي العلاء يصفه بأوصاف ترفع من شأنه وقدره ومنزلته. فإذا به يحطّه في دركات العباء ويشبّهه بالحمار ثم يرميه بالجنون والعته. ونقل عن رسالة الغفران أن عمر بن الخطاب ط لما أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب، شقّ ذلك عن الجالين. فيقال إن رجلاً من يهود خيبر، يُعرف بسمير بن أدكن، قال في ذلك:

يصول أبو حفص علينا بدرة رويدك إن المرء يطفو ويرسب
مكانك لا تتبع حمولة ماقط لتشبع إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتم علينا، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقتاكم إلى المين فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا

ثم قال ياقوت: وهذا يشبه أن يكون شعره قد نحلّه هذا اليهودي، أو أن إيراده لمثل هذا، واستلذاذه به، من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه.

ويعلّق أحمد تيمور باشا على رأي ياقوت، ويرى أن أبيات أبي العلاء من أوضح الأدلة وأقواها على حسن عقيدته يقول: «والعجب من ياقوت، كيف يزعم هذا الزعم، ومن أين أتى له أن هذه الأبيات من شعره، أو أنه أوردّها استلذاذاً بها،

وهو إنما جاء بها في أثناء كلامه على الزنادقة وتقييح أعمالهم. وأحر أن يكون إبراده لها في عرض إنكاره عليهم، من أبين الأدلة على حسن عقيدته. وليست رسالة الغفران ببعيدة على من يريد تحقيق ذلك».

ثم ذكر ياقوت بعض أشعار أبي العلاء الدالة على سوء اعتقاده، كما يرى، وهي مما ورد في اللزوميات، منها قوله:

تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ
يَدْ بِخَمْسٍ مِئِينَ عَسَجِدٍ فُذِّيتَ مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ

ويعلق ياقوت على ذلك قائلاً: كأنَّ المعري حمارٌ لا يفقه شيئاً. وإلا فالمراد بهذا بيِّن. لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار، لكُتِرَ سرقة ما دونها طمعاً في النجاة. ولو كانت اليد تُقَدَّى برُبع دينار لكُتِرَ من يقطعها ويؤدِّي ربع دينار ديةً عنها».

ونجده يرميه بالجنون والعتة، نقلاً عن ابن الهبَّارية محمد بن محمد بن صالح البغدادي (-509هـ) في كتابه "فلك المعاني". يقول: "قرأت في كتاب "فلك المعاني" أن كثيراً من الجهَّال يَغْدُ الموت ظمأً من الباري عزَّ وجلَّ، ويستقبحه بما فيه من النعمة والحكمة والراحة والمصلحة: وقد قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري- مع تحذلقه ودعواه الطويلة العريضة، وشهرة نفسه بالحكمة ومظاهرتة:

وَنَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النَّفُوسِ تَعَمُّداً وَبَعَثْتَ أَنْتَ لِقَتْلِهَا مَلَكِينَ
وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهَا مَعَاداً ثَانِياً مَا كَانَ أَغْنَاهَا عَنِ الْحَالِينِ!

وهذا كلام مجنونٍ معتوه، يعتقد أن القتلَ كالموت، والموتَ كالقتل». وهكذا نرى أن ياقوت يقصد في عرضه لتهمة الإلحاد، فقد ذكر ما روي عن المعري من أنه كان متهماً في دينه، يرى رأي البراهمة، ولا يرى إفساد الصورة، ولا يأكل لحماً، ولا يؤمن بالرسول والبعث والنشور».

ثم يعرض لأراء فريقي المؤيدين والمهاجمين، ويتحرَّز من التصريح بحكمه فيقول: والناس في أبي العلاء مختلفون، فمنهم من يقول: إنه كان زنديقاً، وينسبون إليه أشياء مما ذكرناها. ومنهم من يقول: كان زاهداً عابداً متقلاً، يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة، والقناعة باليسير، والإعراض عن أعراض الدنيا».

ويقول ابن الأثير (555-630هـ) في كتابه الكامل في التاريخ: «وعلمه أشهر من أن يُذكر، إلا أن أكثر الناس يرمونه بالزندقة، وفي شعره ما يدل على ذلك».

وممن اتهمه أيضاً بالإلحاد سبط ابن الجوزي (581-654هـ) في كتابه مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. يقول: وأقواله تدل على اختلال عقيدته... وقد رماه جماعة بالزندقة والإلحاد. وذلك أمرٌ ظاهرٌ في كلامه وأشعاره، وأنه يردُّ على الرسل، ويعيب الشرائع، ويجحد البعث».

وأورد رأي ابن الصابي أبو الحسن محمد بن هلال بن الحسن بن إبراهيم الصابي الملقَّب بـ "غرس النعمة"، -480هـ. وهو أيضاً يتهم المعري بالإلحاد. يقول: «وله شعر كثير، وفيه أدبٌ غزير، ويُرْمَى بالإلحاد، وأشعاره دالة على ذلك. ولم يكن يأكل لحوم الحيوان ولا البيض ولا اللبن، ويقتصر على ما تنبتة الأرض، ويحرم إيلام الحيوان، ويظهر الصوم في زمانه جميعه».

وقال الفزويني زكريا بن محمد بن محمود (-682هـ) في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، وهو الكتاب المعروف

بـ عجائب البلدان: «وذكر أنه في آخر عمره تاب عن أمثال هذه، واستغفر، وحسن إسلامه».

وقد ذكر الصفيدي أيضاً رأي الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد (-702هـ) في أبي العلاء: يقول: «وسألتُ الشيخ فتح الدين بن سيد الناس (734هـ) فقلتُ له: ما كان رأي الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في أبي العلاء؟ فقال: كان يقول: هو في حيرة!».

أمَّا أبو الفداء إسماعيل بن علي بن الأفضل (672-732هـ) فيصريح برأيه في كتابه المختصر في أخبار البشر قائلاً: «وله مصنفات كثيرة، أكثرها ركيكة، فهجرت لذلك. وكان يُظهر الكفر، ويزعم أنَّ لقوله باطناً، وأنه مسلم في الباطن».

وممن حكم بزندقته أيضاً: شمس الدين الذهبي (748-673هـ) في كتابه تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام. يقول: «أبو العلاء التتوخي المعري، اللغوي الشاعر المشهور، صاحب التصانيف المشهورة والزندقة الماثورة. له رسالة الغفران في مجلد، قد احتوت على مزدكة واستخفاف، وفيها أدبٌ كثير».

كما كانت جرأة أبي العلاء وصراحته في مناقشة وبحث بعض المسائل الشرعية سبباً في اضطهاده. وذلك مثل السؤال الذي طرحه عن اليد، وكيف تكون ديتُّها إذا قُطعت خمسمائة دينار، وإذا سرقت ربع دينار فقط فإنها تقطع. وأنهم بسبب ذلك بأنه خارج عن الدين. وهاهو ابن كثير الفقيه الشافعي (701-774هـ) يعزو سبب طرده من بغداد إلى هذا السؤال المحيِّر، ولكننا لم نقرأ ما يشير إلى ذلك، بل إنه خرج من بغداد معزَّزاً مكرَّماً. وكان يحنَّ إلى بغداد كثيراً وهو في الشام. يقول ابن

كثير: « ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم خرج منها طريداً منهزماً، لأنه سأل سؤالاً بشعر، يدلّ على قلة دينه وعلمه وعقله، فقال:

**تَنَاقَضَ مَالُنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ
يَدْ بِخَمْسٍ مِئِينَ عَسَجِدٍ وَدَيْتِ مَا بِأَلْهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ**

وهذا من إفكه. يقول: اليد ديته خمسمائة دينار، فما لكم تقطعونها إذا سرقت ربع دينار! وهذا من قلة عقله وعلمه، وعمى بصيرته. وذلك أنه إذا جُنِيَ عليها يناسب أن يكون ديته كثيرة، لينزجر الناس عن العدوان. وأما إذا جنت هي بالسرقة فيناسب أن تقلّ قيمتها وديّتها، لينزجر الناس عن أموال الناس، وتصاب أموالهم. ولهذا قال بعضهم: كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت.

ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله هرب ورجع إلى بلده، ولزم منزله، فكان لا يخرج منه».

ويعبر ابن كثير عن رأيه في زندقة المعري في مكان آخر من البداية والنهاية قائلاً: « وله مصنفات كثيرة، أكثرها في الشعر. وفي بعض أشعاره ما يدل على زندقته وانحلاله من الدين. ومن الناس من يعتذر عنه ويقول: إنه إنما كان يقول ذلك مجوناً ولعباً، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه وقد كان باطنه مسلماً».

وقد ذكر له قوله: **هذا جناه أبي عليّ وما جنيث على أحد.**

معناه: أن أباه بتزوجه لأمه أوقعه في هذه الدار، حتى صار بسبب ذلك إلى ما إليه صار، وهو لم يجنِ على أحد بهذه الجناية. وهذا كله كفر وإلحاد، قبحه الله».

وجاء عن أبي زكريا التبريزي (تلميذ المعري) أنه قال: لما قرأت على أبي العلاء المعري قوله:
**تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ
يَدْ بِخَمْسٍ مِئِينَ عَسَجِدٍ فَدَيْتِ مَا بِأَلْهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ**

سألته عن معناه فقال: هذا مثل قول الفقهاء: "عبادة لا نعقل معناها". قلت: لو أراد ذلك لقال: "تعبدُ مالنا إلا السكوت له"، ولما اعترض على الله بالبيت الثاني.

وقد علّق أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني المعروف بالحافظ السلفي (ولد سنة 472هـ) على ذلك قائلاً: إن قال هذا الشعر معتقداً معناه، فالنار مأواه، وليس له في الإسلام نصيب». وقال في موضع آخر عن اعتقاد أبي العلاء: أظنه تاب وأناب». ويقول أبو الوليد محمد بن محمد الشهير بابن الشحنة (749 - 815هـ) بأن أبا العلاء فاسد العقيدة، يُظهر الكفر، ويزعم أن له باطناً وأنه مسلم في الباطن».

كما نجد الفيروز أبادي اللغوي، (817هـ) صاحب القاموس المحيط، يتصدّى لهذا الجانب في كتابه "البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة" ويتحدث عن اختلاف الناس في عقيدته، يقول: «والناس فيه فرقتان، فمنهم من يكفّره ويزعم أنه كان زنديقاً، ومنهم من هو بضد ذلك. وفي ظاهر أشعاره زندقة كثيرة... على أن في شعره ما يدلّ على التوحيد الصريح، والاعتقاد الصحيح، كقوله:

**خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أَمَةٌ يَخْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لِي إِلَى دَارِ شِفْوَةٍ أَوْ رَشَادِ**

ولم يصرح العباسي أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن (867-963هـ) في "كتابه معاهد التنصيص على شرح شواهد التلخيص" برأيه في اعتقاد المعري، بل ذكر اختلاف الناس في أمر دينه ومعتقده. يقول: وكان اطلاعه على اللغة وشواهدا أمرأ باهرأ. والناس مختلفون في أمره والأكثر على إلحاده وإكفاره».

ونرى أيضاً يوسف البديعي الدمشقي (1073-1000هـ) الأديب الناقد، ينقل في كتابه "الصباح المنبي عن حيثية المتنبي" كلام الباخرزي عن إلحاد أبي العلاء، ثم يأتي بقطع مما يظهر من قرآن أبي العلاء، يعني الفصول والغايات. وذكر ما قيل أن أبا العلاء المعري عارض القرآن بكتاب عنوانه بالفصول والغايات في محاذاة السور والآيات. فقيل له: ما هذا إلا جيد. إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن. فقال: حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة. وعند ذلك انظروا كيف يكون».

وهكذا فإن اهتمام كتب التراجم كان منصباً على عقيدة أبي العلاء، وكانت قضية المعتقد هي لب اهتمام المترجمين، حتى لكان أبا العلاء لاشيء غير أنه زنديق كافر، أو كما زعم بعضهم —هو أبو الوفاء بن عقيل— بأنه ثالث شبيهيه: التوحيدي وابن الراوندي. وقد بالغوا في ذلك كثيراً عندما راحوا ينعنون بالزندقة كل من أعجب بالمعري. فصار كل من يحفظ شعره معرضاً لاتهامات خطيرة حادة. والسبب في ذلك أن أذهان الناس قد تشربت فكرة زندقة أبي العلاء من خلال الكثير من كتب التراجم، التي تلح وتعيد بأن أبا العلاء صاحب أشعار الزندقة والكفر والضلال، وإذن فمن أعجب به سلك في حربه. فهاهو ياقوت في معجم الأدباء يقول في ترجمة داوود بن أحمد بن يحيى: «وكان مولعاً بشعر أبي العلاء المعري يحفظ منه جملةً سالحةً، ولذلك كان الناس يرمونه بسوء العقيدة».

وقال أيضاً في ترجمة علي بن الحسن بن عنترة، المعروف بشميم الجلي: «... ثم سألته عن تقدم من العلماء، فلم يحسن الثناء على أحد منهم. فلما ذكرت له المعري نهروني وقال لي: ويلك! كم تسيء الأدب بين يدي! من ذلك الكلب الأعمى حتى يُذكر بين يدي في مجلسي! فقلت: يا مولانا ما أراك ترضى عن أحد ممن تقدّم. فقال: كيف أرضى عنهم وليس لهم ما يُرضيني. قلتُ فما فيهم قطُّ أحد جاء بما يرضيك؟ فقال: لا أعلمه، إلا أن يكون المتنبي في مديحه خاصة، وابن نباتة في خطبة، وابن الحريري في مقاماته، فهؤلاء لم يقصروا...».

كما نرى حساده قد زادوا في إيذائه وظلمه، وقد روي أنهم أغروا به وزير حلب، فجهّز لإحضاره خمسين فارساً ليقتله، فأنزلهم أبو العلاء في مجلس له بالمعرة، فاجتمع بنو عمّه إليه وتألّموا لذلك، فقال: إن لي رباً يمنعني! ثم قال كلاماً، منه ما لم يفهم. وقال: الضيوف الضيوف! الوزير الوزير! فوقع المجلس على الخمسين فارساً فماتوا، ووقع الحماة على الوزير بحلب فمات، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده. ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده».

وقد بالغوا في إدعاءاتهم وتجنّهم على أبي العلاء حتى راحوا يروون رؤياهم في كفره وإلحاده. من ذلك ما رواه غرس النعمة، إذ قال: «وأذكر عند ورود الخبر بموته، وقد تذاكرنا أمره، وإظهاره الإلحاد وكفره، ومعنا غلامٌ يُعرف بأبي غالب بن نيهان، من أهل الخير والسلامة، والفقه والديانة، فلما كان من غد يومنا حكى لنا فقال: أريت البارحة في منامي رجلاً شيخاً ضريباً، وعلى عاتقه أفعيان متدليان إلى فخذيه، وكلُّ منهما يرفع فمه إلى وجهه، فيقطع منه لحماً يزدرده، وهو يصيح ويستغيث، فقلتُ: من هذا؟ وقد أفرغني ما رأيْتُ منه، ورؤّعني ما شاهدته عليه، فقيل لي: هذا المعريّ الملحد. فعجبنا من ذلك، واستطرفناه بعقب ما تفاوضناه من أمره وتجاريناه».

ونجد بعضهم راح ينسب إليه بعض الأقوال كما فعل عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن السبكي في طبقات الشافعية. فقد نسب إلى أبي العلاء هذين البيتين:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ثم قال: فقبّحه الله! ما أجرأه على الله عزّ وجلّ!... وهذان البيتان ينسبان لابن الراوندي. كما ذكرت لجنة تحقيق كتاب تعريف القدماء.

ونرى أنه من الضروري هنا أن نشير إلى ما ألفه خصومه وحساده من كتبٍ للردّ عليه، فمن هذه الكتب:

- كتاب نصر الأعيان على شعر العميان لابن الوزير اليماني (775-840هـ) وضعه في التنفير من شعر أبي العلاء.

- كتاب رجمة العفريت: وضعه عبدالله بن سعيد بن مهديّ الخوافي، أبو منصور الكاتب، ردّ فيه على المعري.

- كتاب الإشارات المعرية: مجلّد ذكر ياقوت أنه لشمّيم الجليّ.

- كتاب سهولة الفارج: ذكره ياقوت في ترجمة محمد بن أحمد الأبيورديّ. وقد ردّ فيه على المعري سقط الزند.

- كتاب المطاول: ذكره السيوطي في ترجمة محمد بن علي بن المفضل القامغار الحلي المعروف بابن الخيمي (-642هـ) وقد ألفه للرد على المعري في مواضع سها فيها.

وفي الطرف المقابل نجد فريقاً آخر ذهب إلى أن أبا العلاء صحيح العقيدة والدين، ومنهم: شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف الهكاري (409-486هـ)، وقد سئل عن أبي العلاء -وكان رآه- فقال: رجلٌ من المسلمين.

كما ذكر السلفي (472هـ - ...)، بعد أن لخص أقوال الناس فيه، أن أبا العلاء كان من أهل الفضل الوافر، والأدب الباهر، والمعرفة بالنسب، وأيام العرب. قرأ القرآن بروايات، وسمع الحديث بالشّام على ثقات. وله في التوحيد وإثبات النبوة، وما يحضّ على الزهد وإحياء طرق الفتوة والمروءة، شعر كثير، والمشكل منه فله، على زعمه، تفسير.

وإذا ما جننا إلى الشيخ صاحب كمال الدين ابن العديم (588هـ-660م)، فإننا نجده مأخوذاً بأعمال أبي العلاء، معجباً بها إعجاباً شديداً. يقول: «وبعد، فإنّي وقفتُ على جملة من مصنّفات عالم معرّة النعمان، أبي العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان، مودعة فنوناً من الفوائد الحسان، محتوية على أنواع الأداب، مشتملة من علوم العرب على الخالص واللّباب، لا يجد الطامح فيها سقطة، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة».

ثم يصف ابن العديم دور حسّاده ومبغضيه في النيل منه والحطّ من شأنه، فاتّهموه بالإلحاد والتعطيل والعدول عن سواء السبيل. يقول: «ولما كانت مختصّة بهذه الأوصاف، مميّزة على غيرها عند أهل الإنصاف، قصده جماعة لم يغوا وعيه، وحسدوه إذ لم ينالوا سعيه، فتنبّعوا كتبه على وجه الانتقاد، ووجدوها خالية من الزيف والفساد، فحين علموا سلامتها من العيب والشّين، سلّكوا فيها معه مسلك الكذب والمين، ورموه بالإلحاد والتعطيل، والعدول عن سواء السبيل. فمنهم من وضع على لسانه أقوالاً المُلجدة، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذي قصده، فجعلوا محاسبته عيوباً، وحسناته ذنوباً، وعقله حمقاً، ورؤّده فسقاً، ورشقوه بأليم السهام، وأخرجوه عن الدين والإسلام، وحزّفوا كلمه عن مواضعه، وأوقعوه في غير مواقعه».

ولا عجب في ذلك فالقرآن الكريم المعجز، عمد بعض الكفار إلى تأويل بعض آياته حسب رغباتهم. «ألا ترى إلى كتاب الله العزيز، المحتوي على المنع والتجويز، الذي لا يقبل التبديل في شيء من صُحُفه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كيف أحال جماعة من أرباب باطل الأقاويل تأويله على غير وجوه التأويل، فصرفوا تأويله إلى ما أرادوا، فما أحسنوا في ذلك ولا أجادوا! حتى إن جماعة من الكفار، وأرباب الزلل والعتار، تمسكوا منه بآيات، جعلوها دليلاً على ما ذهبوا إليه من الضلالات. فما ظنك بكلام رجلٍ من البشر، ليس بمعصوم إن زلَّ أو عثر، وقد تعمَّق في فصيح الكلام، وأتى من اللغات بما لا يتيسر لغيره ولا يرام، وأودعها في كلامه أحسن إيداع، وأبرزها في النظم البديع والأسجاع، إذا قصده بعضُ الحسَّاد، فحمل كلامه على غير المراد!».

وهكذا فإن ابن العديم كان ممَّن دافع عن أبي العلاء، وناضل دونه، وجادل عنه وعدد محاسنه ومناقبه، وكذلك فإن ابن فضل الله العُمريّ (700-749هـ) كان ممَّن سلكوا هذا المسلك في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأنصار". إذ نراه يقرُّظ أبا العلاء ويشيد به وبمكانته ومواهبه وعلومه وآثاره مؤكداً خلال ذلك أنه ظلم في دنياه. يقول: «رفض الدنيا وما سلم، ورفض غاياتها فعمل بما علم، وتداوى باليأس من مطامعها ودارى الناس بترك حظِّه لهم، ومع هذا ظلَّ. نفى يديه من الدنيا وساكنها، وخفض لديه قدر محاسنها، وانقطع في بيتٍ كان له بالمعزة لا يخرج منه إلا إلى مسجده، ولا ينهج طريقاً إلا إلى تهجده، وأخذ نفسه بالقناعة حتى صارت جنةً تقيه المطامع، ومئةً تقويه على مغالبة الأمل الطالع. وترك أكل لحوم الحيوان، وعموم ما يجري مجراها من الأعسال والألبان. ومال في هذا إلى رأي الحكماء، وقال بمذهب البراهمة في تجنب إراقة الدماء».

وذكر في كتابه أقوال ابن العديم في المعري ودفاعه عنه، واحتججه له في المآخذ التي أخذت عليه. وتألَّفه كتاب الإنصاف والتحري.

وقال ابن الورديّ عمر بن المظفر بن عمر بن محمد.. (-749هـ) في تاريخه: وأنا كنت أتعصَّب له، لكونه من المعزة، ثم وقفتُ له على كتاب "استغفر واستغفري" فأبغضته، وازددتُ عنه نفرةً. ونظرتُ له في كتاب "لزوم ما لا يلزم" فرأيتُ التبري منه أحزم، فإن هذين الكتابين يدلان على أنه كان لما نظمهما هائماً حائراً ومذبذباً نافراً، يُقرُّ فيهما أن الحقَّ قد خفي عليه، ويودُّ لو ظفر باليقين، فأخذه بكلتا يديه، كما قال في مرثية أبيه:

**طلبتُ يقيناً من جهينة عنهم ولم تخبرني يا جهين سوى ظنِّ
فإن تعهديني لا أزال مسائلاً فإني لم أعط الصحيح فاستغني**

ثم وقفتُ له على كتاب "ضوء السقط" الذي أملاه على الشيخ أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الأصبهاني، الذي لازم الشيخ إلى أن مات، ثم أقام بحلب يروي عنه كتبه. فكان هذا الكتاب عندي مصلحاً لفساده، موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده؛ فإنَّه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤولاً، ويتلو لمن وقف عليه بعد كتبه المتقدمة: «وللآخرة خيرٌ لك من الأولى»، فلقد ضمن هذا الكتاب ما يثلج الصدر، ويلذُّ السمع، ويُقرُّ العين، ويسرُّ القلب، ويطلق اليد، ويثبت القدم. من تعظيم رسول الله ﷺ خير بريته، والتقرب إلى الله بمدايح الأشراف من ذريته، وتبجيل الصحابة والرضا عنهم، والأدب عند ذكر ما يتلقَّى منهم، وإيراد محاسن من التفسير، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير، وتضليل من أنكر المعاد، والترغيب في أذكار الله والأوراد، والخضوع للشرعية المحمدية وتعظيمها، وهو خاتمة كتبه، والأعمال بخواتيمها. وقد يُعَدُّ من ذمِّه، واستحلَّ شتمه، فإنَّه عوَّل على مبادئ أمره، وأوسط شعره. ويُعَدُّ من أحبه، وحرَّم سبِّه، فإنَّه أطلع على صلاح سيره، وما صار إليه في آخر عمره: من الإنابة التي كان أهلها، والتوبة التي تجبُّ ما قبلها. وكان يقول -رحمه الله-: أنا شيخٌ مكذوبٌ عليه».

ونرى في قول ابن الورديّ تجنُّياً على أبي العلاء، فقد نظم أبو العلاء ديوانه اللزوميات لتمجيد الله تعالى وتعظيمه. فليس فيه ما يصل بالإنسان إلى حدِّ التبرِّي منه، وهنا نستأنس بقول أحمد تيمور باشا في التعليق على قول الشيخ: «وليس في لزوم ما لا يلزم ما يصل الإنسان إلى حدِّ التبرِّي منه، كما ذكر الشيخ، والبيتان اللذان رواهما من مرثية أبيه لا يدلان على ما ذهب إليه، وإنما مراده أن علم الغيب محجوب عنه، فلا يدري عن أبيه: أهو في شقاء أم نعيم، وهما مثل قوله من هذه القصيدة:

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي يراد بنا والعلم لله ذي المنِّ

ويتفق ابن الوردي مع صاحب كمال الدين بن العديم في أن القادحين في أبي العلاء لم يقابلوه، وأن من صحبه فهو الذي مدحه وأثنى عليه. يقول: «وبالجملة فقد ألف صاحب كمال الدين بن العديم، رحمه الله تعالى، في مناقبه كتاباً سمَّاه: «كتاب العدل والتحري، في دفع الظلم والتجري، عن أبي العلاء المعري» وقال فيه: إنَّه اعتبر من ذمَّ أبا العلاء ومن مدحه، فوجد كلَّ من ذمَّه لم يره ولا صحبه، ووجد من لقيه هو المادح له. وهذا دليل لما قلته. وصنَّف بعض الأعلام في مناقبه كتاباً، وسمَّاه "دفع المعرة عن شيخ المعرة". وفي هذين الكتابين فصول من نواذر ذكائه، وإجابة دعائه، والاعتذار عن طعن أعدائه».

ويضيف عبد العزيز الميمني الراجكوتي إلى ابن الوردي ملاحظته بورود العلماء والفضلاء على أبي العلاء، ويخص بالذكر الأندلسيين المعروفين بالتشدد في أمور الدين، ومع ذلك لم يحكموا عليه بالإلحاد: يقول: « وهذا التبريزي وغيره من التلامذة وغيرهم من رؤّاره بالمعرة، ومنهم شيخ الإسلام الصابوني والقاضي عبد الوهاب المالكي، ومن البغاددة أبو الطيب الطبري وأبو حامد الإسفرائني المجدد قبلوا هداياه أو نزلوا عليه أو رغبوا في اصطفاؤه وودّه. والأندلسيون معروفون بالصلاية في أمر الدين ولم أرَ لهم كلمة في القذف وما ذاك إلا ضناً منهم بدينهم أن يتهموا بريئاً فظهر مصداق قول ابن العديم: إنّ الذين لقوه وصفوه بكلّ جميل والذين لم يلقوه ولا عرفوه رموه بكلّ قبيح»^٥.

وقد حكى عن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني (666-727هـ)، أنّه قال في حقّه: هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت^٦.

وتروي لنا بعض كتب التراجم أن هناك من كان يتعصّب لأبي العلاء، كما في كتاب "نكت الهميان في نكت العميان" للصفدي (696-764هـ) وقد ذكر فيه تراجم العميان. يقول في ترجمة (مكي بن ريان بن شبّة الماكسيني): « وكان يتعصّب لأبي العلاء المعري، ويطرب إذا قرئ شعره، للجامع بينهما من الأدب والعمى، لأنّه أضرب بأخزة»^٧.

وكذلك يدافع ابن حجر العسقلاني الشافعي (773-852هـ) عن عقيدة أبي العلاء. ويذكر قول السلفي عن المعري بأنّه قرأ القرآن بروايات، وسمع الحديث بالشام على ثقات... كما أورد هذه الرواية عنه التي يدل مغزاها على إيمانه بصحة دين المعري. «قال السلفي: ومما يدل على صحة عقيدته ما سمعت الخطيب حامد بن بختيار النميري: سمعت القاضي أبا المهذب عبد المنعم بن أحمد السروجي، سمعت أخي أبا الفتح يقول: دخلت على أبي العلاء بالمعرة، في وقت خلوة بغير علم منه، فسمعتّه ينشد شيئاً، ثم تأوّه مراتٍ وتلا آياتٍ، ثم صاح وبكى، وطرح وجهه على الأرض، ثم رفع رأسه ومسح وجهه، وقال: سبحان من تكلم بهذا في القدم! فصبرت ساعة، ثم سلّمت عليه، فردّ وقال: متى أتيت؟ فقلت: الساعة. فقلت: أرى في وجهك أثر غيظ. فقال: يا أبا الفتح، ثلوث شيئاً من كلام الخالق، وأنشدت شيئاً من كلام المخلوق، فلحقتي ما ترى. فتحققت صحة دينه، وقوة يقينه»^٨.

ب - حديثاً :

وإذا ما ذهبنا إلى دارسي أبي العلاء المحدثين، فإننا نجد أن أكثرهم قد دافع عنه وانتصر له. وعمد إلى تبرئته من كلّ ما يوهم الزيف في معتقده. ومن هؤلاء الباحثين:

محمد سليم الجندي الذي يرى أن أعداء المعري قد ظلّموه، وافترضوا عليه مستنداً إلى ما حدّث به العلماء الأقدمون، من أنّه كان يرمى من أهل الحسد بالتعطيل، وأنّ منهم من كان يعمل الأشعار على لسانه، ويضمّنّها أقوال الملحدة قصداً لهلاكه. وادّعوا أنّه يعارض القرآن الكريم في "الفصول والغايات". يقول: « إنّ أبا العلاء ألف كتاباً في الرد على من نسبّه إلى معارضة القرآن وفي الجواب عن أبيات أخرجوها من لزوم مالا يلزم وكفّروه بسببها وسمّاه زجر النابح، ثم طعنوا فيه بأبيات آخر، فوضع كتاباً آخر سمّاه نجر الزجر أو بحر الزجر بيّن فيه التحريف ووجوه الأبيات ومعانيها، وإن أعداءه لم يألوا جهداً في الافتراء عليه وإنّ كتبه التي وصلت إلينا مغمورة بالشعور الإسلامي، وليس في شيء منها متمسك لخصومه إلا رسالة الغفران ولزوم مالا يلزم. أما رسالة الغفران فقد قيل إنّ فيها تهكّماً واستخفافاً، وهما من الأمور النفسية التي لا يعلمها إلا الله ولا يمكن لبشر أن يعلمها إلا إذا أخبره بها صاحبها، ولم يُنقل عن أبي العلاء شيء من هذا، وبناء الحكم على الشبهة أو الاحتمال لا قيمة له عند أهل العلم.

وأما لزوم مالا يلزم، وهو الذي يعتمد عليه الناقدون والناقمون، فقد طبعت نسخة منه في الهند، ثم طبع في مصر، وهذه النسخة لا نعلم نحن ولا غيرنا يعلم عن أية نسخة نقلت. ولكننا نعلم يقيناً وفوق اليقين أنّها لم تسلم من عبث الطابع والشارح»^٩.

وثرعرب الدكتور عائشة عبد الرحمن عن استغرابها وتعجبها من هذا السيل العارم من الأقاويل المتناثرة هنا وهناك عن دين أبي العلاء ومعتقد. «فلم يكد القبر يغيبه حتى أمسك المؤرخون ورجال المذاهب أقلامهم، ومضوا يكتبون عن عقيدة الرجل، فملأ الحديث صفحات من كتب التراجم والتاريخ، كما شغل مكاناً في كتب النحل والعقائد... وما هذا بمستغرب منهم، فهم أهل هذا وأصحابه، لكننا قد نعجب حين نرى بعض رجال الأدب واللغة، ينصرفون عما يتصل بمهنتهم. من درس أبي العلاء اللغوي الشاعر، ويتعرضون لعقيدته ومذهبه».

وثرجع الدكتور عائشة أسباب اتهامه بالزندقة إلى رسالة الغفران فهي ترى أنها «مسؤولة - إلى حد غير قليل- عما اتهم به أبو العلاء من الزندقة. والشعور بذلك قديم، يرجع -فيما وصل إلينا- إلى القرن السابع، ولعلّ ياقوت كان أول من جاء بالغفران إلى هذا المعرض الديني، ومن ذلك الحين، وهي تشغل مكانها في آثار أبي العلاء التي تُذكر وتمتحن، حين يبحث في عقيدة الرجل».

ونجد عبد العزيز الميمني يدفع تهمة الزندقة عن أبي العلاء، مستعيناً في ذلك بمقدمة ديوانه اللزوميات، التي تبرز فيها مما اتهم به من إلحاد. ويرى الميمني أن "حبّ الطرف والاستطراف هو الذي حدا به على أن أنشأ كلّ صنف من الشعر، وولج في كلّ باب منه لما اشتهر به الزنادقة من الأدب والتظرف... وقد ورد في مقدمة بعض النسخ من اللزوم مقدمة بسيطة تبرز فيها من قصد الإلحاد بأوضح بيان. وقال: إن غرضه التفتن بالشعر. ويشهد له ما جاء في ثبت كتبه من أن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم مالا يلزم يريد بها التشير والأذية فالأزم أبا العلاء أصدقائه أن ينشئ هذا (يريد كتاب زجر النابج) فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره. فهذا صريح في أن أصدقائه لم يكونوا يعرفون اللزوم كتاب إلحاد كما عرفه الأبعد، وأن مذهب الإلحاد لو كان فيه غرضاً مقصوداً لم يحتج إلى الرد على ذلك الجاهل فنفت الرجل بكل ما تخالغ في قلبه من الشكوك التي لا بدّ للإنسان منها وهذا إبراهيم عليه السلام قال: «ولكن ليطمئن قلبي» وهذا معنى قوله من اللزوميات:

13- يُسَمِّي غَوِيٍّ مَنْ يُخَالِفُ كَافِرًا لَهُ الْوَيْلُ أَيُّ النَّاسِ خَالٍ مِنَ الْكُفْرِ؟

فلم يأت أمراً بدعاً بل هو على مذهب غيره من الشعراء كالمتنبي وابن هانئ وأبي نواس بل هو أصدق منهم لهجة وأنتم منهم تُسكاً وزهداً وقناعة وإيثاراً وتعبداً واستقلالاً بالأراء... وغاية الأمر أن لم يكن وضح له بعض العقائد، فكان منها في شك وحيرة على ما ينم به شعره كان يود أن لو لقي رجلاً يُزيل عنه الشكوك ولكنه أخفق فيما هو الظاهر فلم يزل يذكرها ذكر من لا يسيعها ولا يلفظها. والدليل على ذلك أنه لم يزل قائماً بما لم يشك فيه كالمواظبة على الصلوات وإحياء الليل والذكر والتسبيح واجتهد أن يتوفى على هذه الحالة...».

فالميمني ينفي تلك التهمة عن أبي العلاء، ويؤكد أن اعتماده على العقل وحده دفعه إلى الشك والحيرة والتردد في بعض الأمور. ولكن هذا لا ينفي أنه إنسان مؤمن يواظب على الصلاة والصوم والذكر، وقد مات وهو على هذه الحالة وليس ملحداً.

ونجد أحمد تيمور باشا يعقد فصلاً عن اختلاف الناس في معتقد أبي العلاء. ويرى أن الناس لم يختلفوا في رجلٍ اختلافهم في أبي العلاء ولا تراوحوا بشخص بين الكفر والإيمان تراوهم به. والمختلفون فيه على ثلاثة أقسام: فريق متزندقون، يكفرونه ويحبونه لكفره، ومنهم متفرجة هذا العصر أو مؤمنون ييغضونه لذلك. وفريق يذهبون إلى صحة إيمانه وربما تغالوا فألحقوه بالأولياء الواصلين ورووا له الكرامات. وآخرون متحيزون أمسكوا عنه، ووكّلوا أمره لخالفه.

وبعد أن يعرض جملةً من آراء الأقدمين في معتقد المعري يصرح برأيه، وهو أن أبا العلاء لم يكن ملحداً بل كمان مؤمناً بالله وكتبه ورسله، «وإنما كانت تقع له، بعض الأحيان، أحوال يضيق بها صدره، فينفث نفثات يوهم ظاهرها، وكان الأولى به تركها. وهي مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لاتصل إلى الكفر والإلحاد، بل فيهما ما إذا قارنته بما قاله في ضده لظهر لك جلياً أنه لم يرد ما سبق إلى ذهنك فيه من أول وهلة كإنحائه تارة على الديانات، ومدحه لها تارة أخرى، فإنك لو قابلت بين القولين بإمعان لاقتنعت بأنه لم يرد بالذم الديانات نفسها، بل أراد منتحليها المتاجرين بها، وكثيراً ما هم في كلّ زمن. وإنما أتى الرجل من جهة حسدته وشائنيته، وولوع جماعة منهم بتقبيله ما لم يقل، وإشهاره بما كانوا ينظمونه على لسانه من أقوال المعطلة والزنادقة، حتى صارت الأذهان لكثرة ما وقر فيها من ذلك، إذا ألقى إليها شيء من شعره فيه إتهام، انصرفت إلى إساءة الظن به».

وكذلك نجد الدكتور طه حسين يفرد فصلاً للحديث عن اتِّهام أبي العلاء بالزندقة وأراد القول إن الزندقة قد أصابته بالأذى، ولكنه أذى لا يتجاوز التشنيع. كما أنَّ اتِّهامه بالزندقة لم يؤدِّه في نفسه ولا في شهرته، يقول: «إنَّ وصمة الزندقة قد جرَّت عليه ألواناً من الأذى، ولكنه أذى يستهين به الفيلسوف، لأنه لا يتجاوز الشتم والتشنيع... وإنَّ وصمة الزندقة لم تُصبه بسوء في نفسه، ولا في شهرته العلمية. فما زال طلابه كثيرين إلى أن مات. وما زال خصومه وأصدقائه يشهدون له بالعلم الجيِّم، والذكاء النادر، والتفوق الكثير. وما علمنا أنه بات ليلةً على خوف من حاكم أو سلطان إلا ما كان من قصة يروونها. وما نشكُّ في أنها كذبٌ صريحٌ»^٥. (والقصة هي قصة وزير حلب الذي بعث خمسين فارساً إلى أبي العلاء ليقبضوا عليه).

ويرى الدكتور فخر الدين قباوة أنَّ أبا العلاء قد ظلَّ عندما اتُّهم بالإلحاد وسوء العقيدة ومعارضة القرآن، وهذه الاتِّهامات تقولها حساده وخصومه لإهلاكه وتشويه ذكره. وهذا خطأ عظيم في دراسة العقائد، إذ لا بدَّ من أدلة قطعية صريحة خالية من الدسِّ، وإلا فكل إنسان عرضة للتكفير. يقول: «... كما ظلمه الذين خدعتهم روايات وأقاويل عنه فاتَّهموه بالإلحاد والتعطيل وسوء العقيدة، ومعارضة القرآن الكريم وهجاء الأنبياء عليهم السلام، والشك والجنون والعته، ثم تأوَّلوا بعض النصوص والأخبار ليحكموا عليه بالتقيَّة والتشيع والرفض والدرزية والقرمطية، أو البرهمية والمزدكية والزندقة، أو الجبر والاعتزال. بل لقد أوغل ابن الهبارية في الادِّعاء عليه، حتى زعم أنه انتحر مسموماً لينجو من عقوبة الردَّة والحساد... وأنت لو راجعت ديول هذه المعركة المصطنعة لتبين لك أنها مبنية على نصوص تقولها حساد المعري لإهلاكه وتشويه ذكره، أو عبارات حرَّفت صياغتها وبدلت مكانها فيها مجالاً للطعن والتجريم، أو أبيات انتزعتها الحقد من سياقها واعتسفها واقتصرها بالتأويل والتوجيه، لتبوح بما ليس فيها من المقاصد والمرامي والأبعاد. ومثل هذا لا يجوز في دراسة عقائد الناس، بل لا بدَّ من أدلة قطعية صريحة، خالية من الدسِّ والنقوْل، بعيدة عن الظنِّ والتحيز، سليمة من التزوير والتدليس، ثابتة النسبة ظاهرة الدلالة والمراد. وإلا فكل إنسانٍ عرضة للطعن والتكفير وتسويد صفحته بالمزاعم والاتِّهامات»^٥.

ويخلص الدكتور قباوة إلى أنَّ في نثر المعري وشعره آلاف الإشارات والجمال الإيمائية الخالصة، ومئات من الشواهد على التقوى والصلاح والإحسان. «وحسبك أن ترجع إلى خطبة سقط الزند، وهي من أواخر ما ألف، ومقدمة ضوء السقط وهي آخر ما أملى في حياته، لتلمس الإقرار الصريح بالإيمان وصفاء النفس وصلاح الضمير، والتجرّد لله سبحانه وتعالى، والإعراض عن نزغات الشيطان والطيش والضلال، والإقبال على الاعتذار والعتبى، ليغفر له ما مضى ويتبرأ ممّا قد يُنسب إليه. فهل يذهب بهذا كله تقول حاسد، أو تأوّل مغرض، أو فلتات لسان عابرة؟»^٥.

وهناك رأيٌ مهمٌّ للأستاذ عبد الوهاب النجار في دين أبي العلاء، أورده الدكتور محمد مندور في كتابه (في الميزان الجديد)، وفيه يقرّر أنَّ أبا العلاء كان متين الدين قوي اليقين، وأنَّه كان شديد الوطأة على منتحلي التقوى المتظاهرين بالدين والتصوِّف، وأنَّه لم يقصد بالدين هزواً ولا سخريةً وإنما هو شيءٌ جرَّ إليه الخيال الشعري وأملاه حبُّ الإغراب في التصوير^٥.

ويرى الأستاذ عبد المعين الملوحي في كتابه (دفاع عن أبي العلاء المعري) أن أكثر الذين حكموا على أبي العلاء هذا الحكم الظالم القاسي -أي الإلحاد- لم يقرؤوا ديوانه اللزوميات كله، وإنَّما قرؤوا أبياتاً متفرقةً منه، ولو أنهم قرؤوه كله تبين لهم أمران اثنان: أولهما أن أبا العلاء مؤمن كل الإيمان، وثانيهما أن أبا العلاء مسلم متعصّب للإسلام^٥.

لذلك كان هدف المؤلف أن ينقذ أبا العلاء من سجن رابع سجنه فيه المقفرون وهو لم يذكره في سجونه الثلاثة، هذا السجن هو سجن الإلحاد الذي ألَّقه فيه خصومه بعد أن ترك لهم الدنيا ولم يتركوا له دينه.

ونرى كثيراً من التحامل والتجزي على أبي العلاء في رأي الدكتور كامل سعفان فبعد حديثه عن سخرية أبي العلاء في رسالة الغفران يقول: «ومن عجيب أمر هذا المتمرّد الصخّاب العالم الخبير بالنفس الإنسانية أنَّه كثيراً ما يطرح هذا القناع الموحش ليكتب في ذكر الله وتمجيده مئات الأبيات ومئات الصفحات. بل إنَّ هذا الجريء المتهمِّج على الله وعلى الناس يرقّ ويلين حتى يكاد يذوب فيما يشبه التواضع ونكران الذات، وكان من إلحاحه ومبالغته في هذا الجانب أن بدا سخيلاً سمجاً»^٥.

ففي رأيه ظلَّم واضح، وكأنَّ أبا العلاء قد أبدع كتابه الفصول والغايات بهدف التملُّق والتزلف لا غير. ويبالغ الدكتور سعفان عندما يقول إنَّ أبا العلاء يتجرّأ على الله ويتهمِّج عليه جلَّ وعلا عن ذلك. وأبو العلاء بريء من ذلك كله، كما تثبت ذلك أقواله في شعره ونثره على حدٍّ سواء.

الفصل الأول تجليات التأثير العام

1. الشروح اللغوية :

أولى المعري اللغة اهتماماً خاصاً ومتميزاً في كلامه، إذ بثَّ المسائل اللغوية في جميع نتاجه، ولا يخفى علينا اطلاعه على غريب اللغة وحوشيتها، حتَّى قال التبريزي : « ما أعرف أنَّ العرب نطقت بكلمة لم يعرفها المعري »⁰. وحتَّى قيل فيه أيضاً: « هو البحر الذي لا ساحل له في اللغة »⁰.

نعم، لقد كان المعري علامة عصره في اللغة، وكان اطلاعه عليها أمراً باهراً لفت أنظار معاصريه، ممَّا حدا ببعض تلامذته أن يؤلفوا كلمات ويضيفوا إليها من غريب اللغة ووحشيتها كلمات أخرى، ويسألونه عنها جميعاً، على سبيل الامتحان، فكان كلُّما وصلوا إلى كلمة مما ألفوه ينزعج لها، وينكرها، ويستعيدها مراراً ثم يقول: دعوا هذه. والألفاظ اللغوية يشرحها، ويستشهد عليها، حتَّى انتهت الكلمات. .. ولما عرف ما أرادوه من سؤالهم قال: والله ما أقول إلَّا ما قالته العرب⁰.

وقد أخذ الناس في عصره بما رأوا منه، وما سمعوا عنه من إحاطة بأسرار اللغة وحذق بعلم العربية فرفعوه إلى منزلة الجهابذة المتقدمين من أمثال الخليل وسيبويه. ذكر ابن القارح في رسالته إلى أبي العلاء أنَّ رجلاً ذكر المعري في المجلس، فقال: « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه و باللغة والعروض من الخليل »⁰ وقد عرف ذلك منه كلُّ من ترجم له من معاصريه وغيرهم على حدِّ سواء.

إنَّ ثقافته اللغوية بارزة في كلِّ ما كتبه ؛ " فالفصول والغايات " يزخر بالشروح اللغوية، و " عبث الوليد " يعجّ بالكلام على العروض والأوزان الشعرية والمسائل النحوية، وكثيراً ما توقّف المعري في "رسالة الملائكة" عند مجموعة من الفوائد اللغوية. ولا تخلو أيضاً رسالة "الصاهل والشاحج" من حديث لغوي طويل ورد على ألسنة الحيوانات. وفي "رسالة الغفران" لم يترك المعري لفظة غريبة إلا استعملها، ولم يصادف مسألة لغوية إلا توقّف عندها وفصّل في شرحها.

وإنَّ نظرة دقيقة فاحصة إلى تلك الرسائل السابقة الذكر لتكشف عن ثروة لغوية ومعرفة بأوابد اللغة وأسرارها لا تعرف حداً ولا نظيراً. كما تكشف أنَّ « أبا العلاء كان حافظاً واثقاً من حفظه، عالماً بأسرار العربية، مطمئناً إلى علمه، فقيهاً بأساليب الشعراء، حريصاً على سلامة الرواية، يمتحن المروي

في دقّة، ويعرضه على الأسس السليمة لنقد السند والمتن، ساخطاً على تأوّل المتأوّلين، وتكلف المتكلفين⁰.

وبدافع من نزعة التعليميّة كان المعرّي شديد العناية بشرح اللّغة وتفسيرها، فلا يكاد يترك لفظاً يفتقر إلى الشّرح إلا وقف عنده، وأزال عنه ما يراه من الغموض والإبهام. وكان يحتجّ لكثرة شروحه بفرقه من وقوع آثاره في يد ناشئ يعسر عليه فهم كلامه. قال مخاطباً ابن القارح في رسالة الغفران : « هو - أنس الله الإقليم بقربه - أجلّ من أن يشرح له مثل ذلك. وإنّما أفرق من وقوع هذه الرسالة في يد غلام مترعرع، ليس إلى الفهم بمتسرّع، فتستعجم عليه اللّفظة فيظلّ معها في مثل القيد، لا يقدر على العجل ولا الرّويد⁰ ».

وقد كانت تلك النزعة واضحة في جميع آثاره، حتّى إنّها لم تفارقه حتّى في شعره، فهو دائم الإلحاح على التفسير، وإن اقتضى ذلك منه أن يضحي بالوحدة الفنيّة لبعض أعماله ذات الطابع القصصيّ. ولو رجعت إلى ثبت مؤلفاته لوجدته يتبع الكتاب من كتبه بشرح له يفسّر غريبه ويبيّن غامضه، ويكشف مغلقه. وقد يكتفي في ذلك بكتاب واحد، كـ "تفسير خطبة الفصيح" الذي شرح فيه ما جاء من الغريب في كتابه خطبة الفصيح، و "تفسير الهمزة والردف"، و "خادم الرسائل" وفيه تفسير ما تضمّنته رسائله من الغريب. و "شرح الرسالة الإغريقية"، و "منار القائف" في تفسير لغة القائف، و "ضوء السقط" لشرح غريب سقط الزند. وقد يزيد فيضع كتابين أو أكثر، كما فعل في كتاب "الفصول والغايات". إذ فسّره بـ "إقليد الغايات"، واللّزوميات أتبعها أربعة كتب: "زجر النابح"، و "بحر الزجر"، و "والراحلة"، و "وراحة اللّزوم".

هذه النزعة التعليميّة كان لها أثرها في تعمّده الغريب، حيثما يتّاح ذلك له، لما يجد فيه من تلبية لحاجة تلاميذه إلى الاطّلاع على أشنات اللّغة. وقد وطّد هذه النزعة في نفسه طول مصاحبة التلاميذ له وكثرتهم على بابه. وقد قيل أنّه كان له عشرة من الكتاب، يملّي على كلّ واحد فنوناً غير ما يملّي للآخر وهم يكتبون⁰.

وقد أشار الدكتور أمجد الطرابلسي إلى تأثير النزعة التعليميّة لدى المعرّي في استدعاء الغريب، إذ

قال: « ولكن الذي يمكن قوله هنا هو أن أبا العلاء لم يكن يعتمد في شعره أو نثره إلى استعمال مثل هذه

اللّغة الشّمس بدافع التفاصيل والتشويق، بل بوحى شخصيته كلغويّ مشهور

و معلّم للّغة موثوق به، يقصده الطلاب من مختلف الأفاق للاستفادة من علمه هذا قبل كلّ شيء - كما رأينا

- وهذا ما لعلّه غاب عن أنظار أولئك النقاد والصارمين الذين جرحوه بالسنتهم⁰.

فألفاظ المعرّي ذات بعدٍ تعليميّ تحتاج إلى تفاسير لغويّة وشروح نحويّة وصرفيّة

وعروضيّة. ويمكن أن يعدّ المصطلح العلميّ أحوج الألفاظ إلى الشرح والتوضيح، ولهذا حرص المعرّي

على أن يضمّن تعبيره طوائف من المصطلحات العلميّة الّتي كان يفتنّ في التورية بها.

من مثل الغريب والمصطلح والتورية، لا حباً في الغموض والتعمية، بل طلباً للبطانة التعليميّة

للّفظ، بما يترتّب عليه من تفسير وشرح وتوضيح. «ولو أنّ أبا العلاء كان يؤثر التعمية في أسلوبه وبيانه

لم يُتبع كلُّ مؤلّف ممتاز من مؤلّفاته الأدبية بشرحٍ أو تفسيرٍ لكشف مغلفاته على ما هو ثابت في ثبوت مؤلفاته... بل إنّ النزعة التعليمية المعلمية لتلازم أسلوبه حتّى في القصص الخيالي الفكه»⁰.

ولو عدنا إلى كتابه الألباز نجدّه يلغز عن الشيء ثمّ يحلّ اللغز. قال البديعي في أوج التحري: « ولأبي العلاء المعريّ شعر جميعه في الألباز»⁰. فقد كلف بالألباز كفنٍ من فنون البديع، وهذا ما ينبىء عنه قول تلميذه ابن سنان الخفاجي، إذ يقول عن ألباز شيخه: «وقد كان شيخنا أبو العلاء يستحسن هذا الفن ويستعمله في شعره كثيراً»⁰. فليس هذا الإلباز إغراباً وتعميةً « وإنما هو مذهب مفرد، وطريقة أخرى»⁰.

فما من شكّ في أنّ من معاصري أبي العلاء من لم يفهمه، بدليل ما نقله الخفاجي في سرّ الفصاحة من أنّ كثيراً من الأدباء لم يفهموا كلام الشيخ⁰. وبدليل لجوء أبي العلاء إلى الشرح والتفسير.

وقد ذهب كثيرٌ من الباحثين إلى القول بأنّ أبا العلاء كان يعجب بالغريب، ويقصد إلى إيراد قصداً. فالدكتور شوقي ضيف يقول: « نراه يعدل في أحوال كثيرة إلى المجانسة، وهو يستعين على هذه المجانسة باللفظ الغريب الذي كان يشغف به شغفاً شديداً بحيث لا نغلو إذا قلنا إنّ أهمّ ما يميّز أبا العلاء في جميع نماذجه النثرية أنّه كان يطلب الغريب من حيث هو، كأنّ الإغراب زينة ينبغي أن يتحلّى بها جيّد أعماله»⁰.

ومن المعروف أنّ المعريّ كان، في معظم الأحيان، يلتزم ما لا يلزم في شعره ونثره. وربما كان هذا وحده كافياً لأن يملأ آثاره بالألفاظ الغريبة، ولكنّه لم يكتفِ بذلك، بل كان يعتمد استعمال الغريب، ولو لم يكن يدعو إلى استعماله داع من دواعي الصنعة.

وإنّ القارئ ليدّش عندما يرى الشروح اللغوية تتوالى في جميع صفحات الغفران، فلا تكاد تمرُّ لفظة تحتاج إلى شرح إلّا أسرع المعري إلى شرحها وتوضيحها سواء أكانت هذه اللفظة من كلامه هو أم من كلام منظوم أو منثور استشهد به.

وقد عقد الدكتور الطرابلسي في كتابه " النقد واللغة في رسالة الغفران " باباً كاملاً في استطرادات أبي العلاء اللغوية. ومما قاله: « وهكذا يجمع المؤرخون على القول إنّ أبا العلاء المعري كان لغوياً وشاعراً معاً، وأكثرهم يقدم صفة المعري اللغوية على صفته الفنية، بل لقد كان هنالك من لا يرى من شخصية أبي العلاء غير وجهها العلمي»⁰. واختتم قوله: « فإنّ من غير الجائز أيضاً ألاّ ينظر اليوم إلّا إلى المعريّ الكاتب الشاعر وأن ننسى شخصيته كعالمٍ متبحّر في اللغة، وهي الشخصية التي كانت عنوان مجده في القديم»⁰.

كما اهتّم الجندي باستخدام المعريّ الألفاظ الغريبة في غفرانه وأشار إلى مذاهبه في شرحها وأحصى له منها أكثر من مئة وأربعين كلمة مشروحة، وذكر أنّ أبا العلاء « بيّن المراد منها واستشهد على بعض ذلك بكلام من يحتجّ بكلامه»⁰.

ولو تدبّرت هذه الشروح لتّضحّت الخصائص التالية : 1- ذكر اللفظ وإيراد معانٍ تتعلّق به 2- ذكر اللفظ وما يقابله أو يضاده. 3- ذكر اللفظ وما يرادفه أو يقاربه أو يشابهه⁰.

وقد ذكر الجندي أنّ المعري كان يتعمّد الشرح لإظهار مقدرته العلميّة واللّغويّة. يقول «وقد كان أبو العلاء يحبّ أن يظهر سعة علمه، وغازرة لغته، وقدرته على التصرّف فيها، في كلّ موطن سنحت له فيه فرصة»^{٥٠}.

كما ذهب كثير من الباحثين إلى أنّ الغرض الأساسي من رسالة الغفران هو عرض الفوائد اللّغويّة. من هؤلاء الدكتور إبراهيم السامرائي الذي يرى أنّ أبا العلاء قد اتخذ لغرضه في عرض الفوائد اللّغويّة إطاراً أدبيّاً « يقوم على زيارته للنعيم، وما يتّصل بهذا من لوازم هي في جملتها من مشاهد العالم الآخر بنعيمه وجحيمة »^{٥١}.

ويرى الدكتور الطرابلسي « أنّ كثرة الشروح اللّغويّة في الغفران وتنوّع الطرق التي كان يتّبعها المعري في خلق المناسبات لها، دليل على أنّ هذه الشروح لم تكن تأتي عرضاً أو اعتباطاً وإنّما كانت في نفسها غرضاً أساسيّاً من أغراض هذه الرسالة »^{٥٢}.

وتدرس الدكتورة بنت الشاطي المسائل اللّغويّة في الغفران فتري أنّها جانب جوهريّ من جوانب الرسالة، وموضوع مهم من موضوعاتها الكبرى، وتتجاوز ذلك إلى الحكم بأنّها الموضوع الأوّل في الغفران. فأبو العلاء كان يقصد -أوّل ما يقصد - إلى عرض هذه المسائل اللّغويّة اعتزازاً بما يحفظ منها، وإدلالاً بما له من رأي فيها. وقد كان عالمه الآخر عالم أديب لم يرضَ أن يشغله شاغل عن حوارهِ الأدبيّ وأماليه اللّغويّة، ولم يحتمل أن ينصرف عن هذا في جنة أو نار. وطالما سمعناه يتعرّض للشعراء واللّغويين في الجنة ناقداً مناقشاً، أو حافظاً راوياً، وإن يكونوا في شغلٍ بالنعيم عن هذه الأباطيل^{٥٣}.

وقد عرفنا من قبل أنّ أبا العلاء حفظ القرآن الكريم، ودرس الحديث الشريف في مرحلة مبكرة من حياته، وكان طبيعياً أن يؤثّر ذلك على أسلوبه، ويظهر أثره على أدائه لمختلف المعاني، وتناوله لمختلف الأفكار خلال كلّ ما كتبه من نتاج أدبيّ، لذلك فإننا لا نقرأ شيئاً من نثره إلا ونجده يورد آيةً أو بعض آية من القرآن الكريم هنا، أو حديثاً شريفاً هناك.

وفي الشروح اللّغويّة عمد المعري إلى تأييد شرحه بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد اتّضح هذا في أغلب نتاجه، وبشكل خاصّ، في الفصول والغايات ورسالة الصاهل والشاحج. يقول:

« موت كمد خير من سؤال مجمد، والله أكرم الأكرمين، ورضاع لوح، ولا انتصار بهلوع، والله ناصر المستضعفين »⁰.

يقول المعري في تفسير كلمة "هلوع" مستعيناً بالقرآن الكريم : هلوع : الجبان. وقد فسّر قوله تعالى في سورة المعارج: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً) (19) على الجبن. والبخل. وأصل الهلع : شدة الفزع فإذا قيل للبخل هلوع، فإنما يراد أنه يفزع من إعطاء المال⁰. وفي سياق الاستعانة بالله تعالى يقول: «وكم أمرتُ بشيءٍ وسواه انتمرتُ، فبغفوك اللهم أنتصر من عجزٍ وفشلٍ إلى حزم المقال، أما الفمُ فمكّي المنطق، وأما نيةُ الخلد فقطران»⁰.

يقول في تفسير "انتمرت": أي حدثت نفسي، ومنه قوله تعالى في سورة القصص: (يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيُقَتْلُوكَ) (20) فُسِّرَ على وجهين: أحدهما أنهم يحدثون أنفسهم بقتلك. والآخر أنهم يأمر بعضهم بعضاً، فيكون ياتَمرون في معنى يتأمرون، كما أن يختصمون في معنى يتخاصمون⁰.

يقول في معنى آخر: «إن زهد الناس فإنّي فيهم لأزهد، وإنّ القوم لزهاد. .. لا أسأل أين بنيت الخيام، إنّ الدود لحيام، إن شاء الله في الهيام، ولو كنت من الماشية لكنت أحد الرّجاج»⁰. الهيام: داءٌ يصيب الإبل مثل الحمى فلا تروى من الماء، يقال ناقّةٌ هيما، والجمع هيم، ومنه قوله تعالى: (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ). (الواقعة / 55) ودواء الهيماء فيما قيل أن يُقطع حبل ذراعها⁰.

ويقول أيضاً: « أما الإله فمرجّب، وأما القدر فعجبٌ ... حسب جاهلٌ أنه ينوح، ولعلّه بالتمجيد صدوح، خلد وشابت الشروخ، وحسدته بسواده الشيب والله على إحلاك الأبيض مشيفٌ »⁰.

خلد إذا أبطأ عنه الشيب، وهو أحد الأقوال في تفسير قوله تعالى (ولدانٌ مخلّدون) (الواقعة / 17) أي لا يشيبون. والشروح: جمع شرخ، والشرخ: جمع شاروخ. مثل تاجرٍ وتجرٍ، وقد يكون الشرخ مصدراً فيقال: هو في شرخ شبابه أي عنفوانه. ومنه قول حسّان بن ثابت :

إنّ شرخ الشباب والشعر الأسـد
ود ما لم يعاص كان جنونا

ومن الوجه الأوّل الحديث المرفوع « إنّ رسول الله ﷺ بعث سريةً فأمرهم أن يقتلوا شيوخ المشركين ويستبقوا شرخهم ». وهذا الحديث منسوخٌ في قول أبي عبيد⁰.

كما ذكر المعري في رسالة الصاهل والشاحج أسماء بعض النباتات والبلدان والأشخاص على سبيل الفأل للمسلمين والطيرة للعدوّ. فمن هذه الأماكن كفرطاب وأنطاكية ومعرة النعمان وأفاميّة ورفنيّة وغيرها. وخلال ذلك أدلى بدلوّه في تفسير المعنى مستعيناً ببعض الآيات أو الأحاديث.

يقول: « وأما أنطاكيّة فهي على الفأل: أنطى، في معنى أعطى. وروي أنّ النبيّ ﷺ قرأ: (إنّنا أنطيناك الكوثر) (الكوثر / 1). وفي أنطى ضميرٌ، وهو اسم الله، كيّة: فعلةٌ من كويث، كما تقول الطيّة من طويت، والنيّة من نويت »⁰.

« وأما معرة النعمان فمعرةٌ للعدوّ، من قوله تعالى: (فتصيبكم منهم معرةٌ بغير علم) (الفتح / 25)، أي شدة. وقال بعض أهل اللّغة : المعرة نجوم في السماء دون المجرة، فإن صحّ ذلك فهي فال، أي هي كعزّ النجوم »⁰.

« وأما أفاميّة فإنّها تؤدّي لفظ قولك: أفاء مائة، أي: أفاء هذا الحصن مائة غنيمّة، أو مائة جيشٍ أو نحو ذلك. أي جعلهم فيئاً. من قوله تعالى: (وما أفاء الله على رسوله منهم) (الحشر / 6) »⁰.

والفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب كأموال بني النضير هذه فإنّها ممّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب⁰.

« وأما رفنيّة: فتحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من قولك : ارفأّن الناس : إذا سكنوا بعد نفاّرٍ وهذه الهمزة عند سيبويه أصليةٌ مثل همزة اطمأنّ فنقول: إنّ أصلها رفانيّة، بالهمزة. ثم أُلقيت حركة الهمزة على الفاء وحذفت من الاسم، كما قرأ " المدني " : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) والوجه الآخر في رفنيّة أن تجعل من كلمتين: الأولى فعلٌ، والثانية اسمٌ (رفّ نيّةً) »⁰.

أفلح: تم إسقاط الهمزة وإلقاء حركتها على الدال الساكنة قبلها.
ومما يحمل على الفأل والطيرة من الأسماء: «البطارقة: بطاء رقة، والرقعة الفضّة من قوله p: «في الرقة ربع العشر» أي: يؤسرون فلا تؤخذ منهم الفضّة، بل يفدون بالذهب، فتبطيء رقتهم لذلك. إذا كانت لا تقبل منهم. والواحد بطريق، فإذا قسمناه على حكم الطيرة فهو: بطريق. فقولك: بط، أمر من وبط يبط، إذا ضعف ونقص»⁰.

ومن أسماء النباتات التي درسها المعري في هذا الباب: السّاق والتّفاح والخوخ والإجاص والجوز والفرصاد الذي يقول فيه: «وأما الفرصاد فإذا قسمناه للطيرة فهو: فرّ وصاد. أي فرّ ودار. والمصاداة: المداراة والمدافعة. وقد قرأ الحسن البصري: (صا، والقرآن ذي الذكر) (ص/1)، وهو من المصاداة»⁰.

وفي النخل يقول: «ولو رأى النخل "باللاذنية" لكان ذلك نخلاً لجيشه. يقال: نخلت الشيء، إذا أخذت خياره. وكذلك: نخلت الإبل إذا أخذت خيارها ... فإن كانت النخل سُحْقاً، فهو من قوله تعالى: (فسحْقاً لأصحاب السعير) (الملك/11). وقد قرأ عيسى بن عمر الثقفي: "فسحْقاً" بضمّ الحاء. وإن شئت كان جمع سحق، من قولك: سحقه الله، إذا أهلكه. ومن أسماء النخل الطوال: العيدان. وذلك من الطيرة: عيّ ودان، من قولك: عيّ بأمره، إذا لم يعرف وجهه»⁰. وفي مادة نخل: نخله وتنخله وانتخله: صفاه واختاره. والنخل: م، ك النخيل، ويذكر، واحدته: نخلة، ج: نخيل.
وفي مادة سحق: السحق: البعد، وقد سحق سحقاً وسحقت النخلة: طالت⁰.

ويدلي المعري بطائفة من النصائح تخص المرأة، وتتعلّق بالصلاة والصوم والزينة. يقول:
« إنسجن في النسج، وخذن عيدان العوسج، واشتغلن بالمغزل عن الغزل، ولا تلقين بالأشر أشرات».

تفسير الأشر: تحزيز في أطراف الأسنان يكون في الشباب، ومنه الحديث: « لعنت الأشرة والمؤشرة»⁰.

وفي القاموس المحيط. مادة أشر: أشرُ الأسنان، وأشرها: التحزيز الذي يكون فيها خلقةً ومستعملاً. وأشرت أسنانها تأشرها أشرأ، وأشرت أشرتها: حرزتها. والمؤشرة والمسنأشرة: التي تدعو إلى ذلك. وأيضاً في مادة وشر: والوشر أيضاً: تحديد المرأة أسنانها وترقيقها. والمؤشرة: التي تسأل أن يفعل ذلك بها، إن هُمزت كان من الأشر لا من الوشر، وإن لم تُهمز، فوجه الكلام المؤشرة والمستوشرة⁰.

إلا أنّ الحديث الذي وجدناه في مسند أحمد يتضمّن النهي عن الأشر. وهو: حدّثنا عبد الوهاب بن عطاء. ... أنّ امرأة جاءت إلى ابن مسعود. فقالت: أنبئت أنّك تنهى عن الواصلة. قال: نعم. فقالت: أشيء تجده في كتاب الله أم سمعته عن رسول الله p. فقال: أجده في كتاب الله وعن رسول الله p. فقالت: والله لقد تصفّحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول. قال: فهل وجدت فيه (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا). قالت: نعم. قال: سمعت رسول الله p نهى عن النامصة والواشرة والواصلة والواشمة إلا من داء...⁰.

وفي موضع آخر يتوجّه المعري بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى، طالباً المغفرة والرحمة من عذاب عظيم. « الله القديم الأعظم، وبحكمه جرى القلم. ... فاغفر اللهمّ العظيمة واللّمة، إذا سُقيت الحمة، ودعيت الرّمة، وزايل الفود القمة، وفارقت الإمّة، فلا لمة حينئذٍ ولا لمة، فاكفني لفحة عذاب وهّاج»⁰.
يقول في التفسير: واللّمة: المرّة الواحدة من اللّم وهو ما دون الكبائر. والحمة: الحمام والفود: جانب الرأس. والقمة: وسطه. والإمّة: النعمة. واللّمة: أتراب الإنسان وأمثاله يكون للواحد والجماعة والمذكر والمؤنث، ومنه الحديث: « ليتزوج كلّ رجلٍ منكم لمتّه». أي من كان على سنّه ومن جنسه. واللّمة: الشّعْر إذا بلغ المنكب، وقيل إلى شحمة الأذن⁰.

ويدلّ أبو العلاء على قدرة الله تعالى، مفصّحاً عن جوانب كثيرة منها إلى أن يقول:
« فأنصت إلى ذكر الله ودع اللاهين. فرح من جنى المغفور، فكيف من صاد اليعفور. أتعجزين عن فعل الراعي بكل ثمّ أكل! إنّ هذا لهو العجز المبين».

جاء في التفسير: المغفور: ضربٌ من الصمغ، وفي الحديث: «ما ريح مغافير أكلت مغافير؟»
واليعفور: ذكر الطباء. وبكل الطعام إذا خلط بعضه ببعض⁰.

وقد ورد هذا الحديث في صحيح البخاري في تفسير سورة التحريم من كتاب التفسير، مروياً عن عائشة رضي الله عنها. ولفظه: قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكنك عندها، فواطأت أنا وحفصة عن: على أيتنا دخل عليها فلنقل له: أكلت مغافير إني أجد منك ريح مغافير، قال: لا، ولكنني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً.⁰

يقول المعري: «يا ابن آدم إنك لَعُدْرٌ، وبذلك مضى القدر، إِنَّ التَّيْمَةَ حبست لليتيم واليتيمة، فلمَّا قضى منها الأرب، وجرت مجرى الظئر دعي لها قُدَّار فشصب ثم قصب وليمت القدرة على ترك الإنضاج». يفسر النص السابق بقوله: التَّيْمَةُ: شاة تُرْتِطُ تُعْلَفُ وتُحتلب، ومنه الحديث «على التَّيْمَةِ شاة والتَّيْمَةُ لصاحبها» أي لا تُؤخذ الصدقة منها، ويقال: أثام الرجل إذا ذبح التَّيْمَةَ. .. والتَّيْمَةُ: الأربعون من الغنم. والقَدَّار: الجزار. شصب: سلخ. والقدرة: التي تطبخ في القدر.⁰

ويتحدث المعري عن قسمة الأرزاق وأنَّ الرزق بيد الله وحده يهب من يشاء، ويمنع عمن يشاء يقول: «الرزق بيد الله من أراد حرم ومن أراد أكرمه، ولو سال القرى للبيب العبقري، بتبر، ما رأي أخا كبر، والخسيس يشرب من الكسيس، بالدرهم، فيطرح ثقيل الهم».

القرئ: مجرى الماء من الغلظ إلى الوادي. والعبقري ههنا: الرجل السيد ومنه الحديث أَنَّ النبي ﷺ قال عن عمر: «فلم أرَ عبقرياً يفري فريه». أي يعمل عمله، يقال: جاء يفري الفري إذا عمل عملاً محكماً من عدو أو غيره. والكسيس: ضرب من الخمر.⁰

العبقري: جاءت هذه اللفظة بمعنى مغاير لما ألفناه عند المعري حيث وردت بمعنى السجاد وهي مشابهة لما ورد في القاموس المحيط حيث وردت بمعنى الكامل من كل شيء، والسيد، والذي ليس فوقه شيء، والشديد، وضرب من البسط.⁰ ونجد هذا الحديث في صحيح البخاري، باب علامات النبوة في الإسلام. وهو: حدَّثني عبد الرحمن بن شيبه... عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: رأيت الناس مجتمعين في صعيد، فقام أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفي بعض نزعه ضعف، والله يغفر له. ثم أخذها عمر، فاستحالت بيده غرباً، فلم أرَ عبقرياً في الناس يفري فريه حتَّى ضرب الناس بعطن.⁰

وكانت صفة "القدرة" من أبرز الصفات الإلهية التي ركَّز عليها المعري. يقول: «بإذن الله تصول الضُّبَّعان: السَّنة على الحيِّ الحلال، والمسنة على قتلى الرِّجال. فالعرفاء ذات الرِّزمة، تشهد له بالعظمة، والحصَّاء المتهمِّجة تحلف أَنَّ الأمر لخالق النسمة».

ورد في تفسير النصِّ السابق: يُقال للسَّنة الشَّديدة: الضُّبُّع، وفي الحديث أَنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: «أكلتنا الضُّبُّع وتقطَّعت عَنَّا الخُثْف وأحرق بطوننا التَّمَر». الخنف: جمع خنيف وهو ثوبٌ غليظٌ من كتان. والحيِّ الحلال: المقيمون. .. والعرفاء: من صفات الضُّبُّع... وأصل الرِّزمة للإبل في حنينها وقد استعمل في الريح والرعد. .. والحصَّاء: السَّنة المجدبة، سمَّيت بذلك لقلة نبتها.⁰

وفُسِّرَت كلمة "الضُّبُّع" في مسند أحمد، حديث عبد الله بن عباس ؓ، قال: قام أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أكلتنا الضُّبُّع، يعني السَّنة. قال: غيرُ ذلك أخوف لي عليكم الدنيا إذا صُبَّت صبّاً فيا ليت أمتي لا يلبسون الذهب.⁰

هذا الحديث الذي وجدناه يتفق مع ما أورده المعري في شرح معنى الكلمة. أمَّا بقية الحديث فهي تختلف.

واستطرد المعري في شرح أسماء بعض البلدان، واستند إلى الحديث الشريف في تبيان ذلك. «وأمَّا حلب، حرسها الله، فلفظها يحتمل أمرين كلاهما فالٌ محمود: إن كانت من: أحلبت القوم أي نصرتهم فحسبها فالاً بالنصر. .. وإن كانت من الحلب، حلب اللب، فحسبها بذلك خيراً وبركة. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه دخل على امرأةٍ فقال: «ما لي لا أرى في بيتك بركة؟ قالت: وما البركة؟ قال: ما لي لا أرى في بيتك شاة؟ وإثما سمَّى الشاة بركة من أجل اللبن».

بيّنا فيما سبق كيف اعتمد أبو العلاء في شرح ألفاظه على القرآن الكريم والحديث الشريف بشكلٍ أساسيٍّ. وهنا سندرس بعض الألفاظ التي استمد المعري أصولها من القرآن أو الحديث وسنبيّن خلال ذلك معناها اللغوي، وكيف وردت في القرآن أو الحديث، وكيف استفاد منها المعري. فالمعري وعى العربية

حفظاً واستيعاباً وتعمقاً يشهد له بذلك ثروة لغوية هائلة، وخبرة طويلة للعربية بعد أن قضى عمره يألف وحشيها ويأنس بأوابدها. وكان القرآن والحديث من أجل بل من أشرف المنابع التي استقى منها أبو العلاء ألفاظه للتعبير عن الأغراض التي يرمي إليها. وهذه الألفاظ منها ما يتعلق بأسس العقيدة الإسلامية كالإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور والثواب والعقاب والغفران والتوبة، ومنها ما يرتبط بالعبادات التي يقوم بها المسلم كالصلاة والصوم والزكاة، ومنها ما يتعلق بصفات الله تعالى كالقدرة والوحدانية.

"الغفران":

هو ما جعله المعري عنواناً لرسالته المشهورة "رسالة الغفران"، وقد اعتمد على هذا اللفظ في بناء صرح غفرانه، فكان يسأل كل من يلقاه بهذا السؤال التقليدي: بِمَ غُفِرَ لَكَ؟ ولا بدّ هنا من بيان الأصل اللغوي لهذا اللفظ: غفره يغفره: ستره، وغفر المتاع في الوعاء: أدخله وستره، وغفر الشيب بالخضاب: غطّاه. وغفر الله له ذنبه يغفره غفراً وغفرةً حسنةً، بالكسر، ومغفرةً وغُفُوراً وغُفُوراً، بضمهم، وغُفُوراً وغفيرة: غطّى عليه، وعفا عنه. واستغفره من ذنبه واستغفره إياه: طلب منه غفره. والغفور والغفار: من صفات الله تعالى^٥. وقد تضمّن القرآن الكريم لفظ الغفران فعلاً ومصدرًا واشتقاقاً، وكان لاسم الجلالة "الغفور" النصيب الأكبر إذ ورد إحدى عشرة مرّة في القرآن. أمّا المصدر "الغفران" فقد ورد في القرآن الكريم مرّة واحدة في قوله تعالى: (غفرانك ربنا وإليك المصير). (البقرة 285).

وفي رسالة الغفران نجد المعري يستخدم فعل المغفرة والمصدر ومبالغة اسم الفاعل. فها هو ابن القارح ينظر فيرى في رياض الجنة قصرين منيفين لشاعرين جاهليين هما: زهير بن أبي سلمى، وعبيد بن الأبرص الأسديّ « فيعجب من ذلك ويقول: هذان ماتا في الجاهلية، ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء، وسوف ألتبس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بِمَ غُفِرَ لهما... »^٥.

ونلتقي بالشاعر زهير، ونستمع إلى هذا الحوار الذي أجراه أبو العلاء بينه وبين ابن القارح: « فيقول: جبر، جبر! أنت أبو كعب وبجير؟ فيقول: نعم. فيقول، أدام الله عزّه: بِمَ غُفِرَ لَكَ وقد كنت في زمان الفترة والناس همّل لا يحسن منهم العمل؟ فيقول: كانت نفسي من الباطل نفوراً، فصادت ملكاً غفوراً، وكنت مؤمناً بالله العظيم، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء، فمن تعلّق به من سگان الأرض سلم، فعلمت أنّه أمرٌ من أمر الله. .. »^٥.

ويلقى ابن القارح الشاعر عبيد بن الأبرص « فيقول: السلام عليك يا أبا بني أسد. فيقول: وعليك السلام، وأهل الجنة أدكياء لا يخالطهم الأغبياء، لعلك ترصد أن تسألني بِمَ غُفِرَ لي؟ فيقول: أجل، وإنّ في ذلك لعجبا، أألفيت حكماً للمغفرة موجباً، ولم يكن عن الرحمة مُحجّباً؟ فيقول عبيد: أخبرك أنّي دخلت الهاوية. وكنت قلت في أيام الحياة:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل يُنشد ويخفّ عني العذاب، حتّى أطلقت من القيود والأصفاد، ثمّ كرر إلى أن شملتني الرحمة ببركة ذلك البيت، وإنّ ربنا لغفور رحيم »^٥.

نلاحظ أنّ المعري قد استخدم، فيما سبق، الفعل "غفر" والمصدر الميمي "المغفرة" ومبالغة اسم الفاعل "غفور" في أسطر معدودات.

ولم يقتصر فعل المغفرة على الفعل الماضي في صيغته الاستفهامية المعهودة، وإنّما كان يستخدم الفعل الماضي أو الفعل المضارع، ويستشهد بآيات من القرآن الكريم في الموضوع نفسه، كما ورد في حديثه عن الشاعر لبّيد. ويستطرد أبو العلاء في التحدّث عنه، يخاطب لبّيد الأعشى: « ويقول لبّيد: سبحان الله يا أبا بصير! بعد إقرارك بما تعلم، غُفِرَ لَكَ وحصلت في جنة عدن. فيقول مولاي الشيخ متكلماً عن الأعشى: كأنك يا أبا عقيل تعني قوله.. ونحو ذلك ممّا روي عنه، فلا يخلو من أحد أمرين: إمّا أن يكون قاله تحسّيناً للكلام على مذهب الشعراء، وإمّا أن يكون فعله غفر. (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّّه هو الغفور الرحيم) (الزمر 53). (إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يُشرك بالله فقد ضلّ ضلّالاً بعيداً (النساء/116) »^٥.

نلاحظ اعتماد أبي العلاء على آيات الذكر الحكيم في طلب المغفرة، وأنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً ما عدا الإشراك بالله. فالمعري شديد الاهتمام بمسألة المغفرة متأثراً بالقرآن والأكثر من ذلك كله وجود سورة خاصة باسم "غافر" كما نعلم.

التوبة:

لقد استمدَّ المعري أصولها من القرآن والحديث، وقد أطل الوقوف عندها، وأحضر لأجلها قاضي حلب في حضرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب π . وفي الأصل اللغوي نقراً: «تاب على الله توباً وتوبةً ومتاباً وتابةً وتوبة: رجع عن المعصية، وهو تائبٌ وتوابٌ. وتاب الله عليه: وفقه لتوبة، أو رجع به من التشديد إلى التخفيف، أو رجع عليه بفضلته وقبوله، وهو توابٌ على عباده»⁰.

وفي مشهد التوبة صوّر أبو العلاء لقاء ابن القارح مع خازن الجنان وحمزة بن عبد المطلب إلى أن وصل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب π . ويدور الحوار التالي بينه وبين ابن القارح: «قال أمير المؤمنين: أين بينك؟ - يعني صحيفة حسناتي - وكنت قد رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يُدرّس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي، وقد امترس به قومٌ يطالبونه... وشُغلت بخطابهم والنظر في حویرهم، فسقط مئي الكتاب الذي فيه ذكر التوبة فرجعت أطلبه فما وجدته، فأظهرت الوله والجزع. فقال أمير المؤمنين: لا عليك، ألك شاهدٌ بالتوبة؟ فقلت: نعم، قاضي حلب وعدولها. فقال: بمن يُعرف ذلك الرجل؟ فأقول: بعبد المنعم ابن عبد الكريم، قاضي حلب في أيام شبل الدولة. فأقام هاتفا يهتف في الموقف: يا عبد المنعم ابن عبد الكريم هل معك علم من توبة علي بن منصور بن طالب الحلبي الأديب؟ فلم يجبه أحد. فأخذني الهلع والقلُّ - أي الرعد - ثم هتف الثانية، فلم يجبه محيب. فليح بي عند ذلك - أي صرعت إلى الأرض - ثم نادى الثالثة، فأجابه قائل يقول: نعم قد شهدت توبة علي بن منصور، وذلك بأخرة من الوقت، وحضرت متابه عندي جماعة من العدول، وأنا يومئذ قاضي حلب وأعمالها والله المستعان. فعندها نهضت وقد أخذت الرمق، فذكرت لأمر المؤمنين π ما ألتمس، فأعرض عني وقال: إنك لتروم حدداً ممتنعاً، ولك أسوةٌ بولد أبيك»⁰.

لقد تكرر ذكر التوبة في النص السابق خمس مرات وكان المعري يقتدي بالقرآن الكريم الذي ذكر التوبة خمس مرات في سورة التوبة في الآيتين الآتيتين: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوفٌ رحيمٌ. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) (117-118). والملاحظ أنَّ الآيتين السابقتين قد تضمّنتا ذكر التوبة وفعلها واشتقاقها خمس مرّات أيضاً وهي: "تاب الله" و"تاب عليهم" و"ثم تاب عليهم" و"ليتوبوا" و"التواب". وهذا كله يؤكّد أنَّ أبا العلاء، وهو المطلّع على أسرار العربية، والمتضلّع من غريبها كان مدركاً سرّ التوبة القرآنية فظهر أثر ذلك في غفرانه.

ولا يخفى علينا أيضاً أثر الحديث الشريف في فكرة التوبة عند أبي العلاء. وهنا نذكر حديث كعب بن مالك حين تخلف عن رسول ρ في غزوة تبوك. فقد ذكر أنه صلّى صلاة صبح خمسين ليلة، وكان على ظهر بيت من البيوت، فضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وقد وصف نزول التوبة بقوله: «سمعت صوت صارخ أوفى على سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أنَّ قد جاء فرجٌ. فأذن رسول الله ρ الناس بتوبة الله تعالى علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبَل صاحبي مبشرون، وركض رجلٌ إليّ فرساً، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشّرني، نزعتُ له ثوبِي، فكسوتُهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ. واستعرت ثوبين، فلبستهما. فانطلقتُ أتأمم رسول الله ρ ، يتلقاني الناس فوجاً فوجاً، يهتئونني بالتوبة، ويقولون: لتهنك توبة الله عليك»⁰.

ويستطرد كعب فيتحدّث عن دخوله المسجد، ولقاء الرسول p والصحابة، ويطول حوارُه عن التوبة ورغبته في التخلّي عن ماله. وهنا نلاحظ صعوبة حصول كعب بن مالك على التوبة كما حصل مع ابن القارح في رسالة الغفران.

"العفريت"

أورد أبو العلاء في غفرانه لفظ العفريت، إذ استخدمه مجموعاً في حديثه عن جنّة العفاريت. يقول: «فيركب بعض دوابّ الجنّة ويسير، فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنّة، ولا عليها النور الشعشعاني، وهي ذات أدحالٍ وغمامل. فيقول لبعض الملائكة: ما هذه يا عبدالله؟ فيقول: هذه جنّة العفاريت الذين آمنوا بمحمّدٍ p، وذُكروا في الأحقاف، وفي سورة الجنّ، وهم عددٌ كثير»⁰.

وفي الأصل اللّغوي: العفريتُ والعفريُّ، وتُشدّدُ راؤه مع كسر الفاء: النافذ في الأمر المبالغ فيه مع دهاءٍ، وقد تعفرت، وهي عفريته⁰.

فأبو العلاء أخذ هذا اللفظ من القرآن الكريم الذي ورد فيه اللفظ مفرداً في قوله تعالى: (قال عفريتٌ من الجنّ أنا آتيك به قبلَ أن تقوم من مقامك وإني عليه لقويّ أمينٌ) (النمل/39).

"المارد"

المارد هو العاتي وبابه ظرّف فهو ماردٌ، ومريدٌ، والمريد بوزن السكّيت الشديد المرادة⁰.

استقى المعرّي هذا اللفظ من القرآن الكريم فاستخدمه مجموعاً في قوله: « فيقول "ابن القارح" وسمعت أنكم جنٌّ مؤمنون فجئت ألتمس عندكم أخبار الجنّان، وما لعلّه لديكم من أشعار المردة»⁰. واستخدمه مفرداً في قوله على لسان زفر خازن الجنان: « وأحسب هذا الذي تجيئني به قرآن إبليس المارد، ولا ينفق على الملائكة، إنّما هو للجانّ وعلموه ولدَ آدم»⁰.

وقد وردت كلمة مارد في القرآن الكريم مرّة واحدة في قوله تعالى: (وحفظاً من كلّ شيطانٍ ماردٍ) (الصّافات / 7). ووردت كلمة مريد مرّتين في قوله تعالى: (ويتبع كلّ شيطانٍ مريدٍ) (الحج / 3)، وفي قوله تعالى: (وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً) (النساء / 117).

وأيضاً إنّ القرآن الكريم هو المورد الكبير الذي نهل منه المعرّي معظم ألفاظه في تصوير عذاب الجحيم ونعيم الجنّة. وهنا تتجلّى براعة أبي العلاء وقدرته في تناول المعاني والألفاظ القرآنية التي ترتبط بتصوير أساليب العذاب في جهنّم، ففي وصف العذاب الذي حلّ بإبليس يستحضر المعرّي الأغلال والسلاسل و مقامع الحديد، والزبانية، وأهل النار والكلاليب، يقول : « فيطّلع فيرى إبليس - لعنه الله - وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل، ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية. فيقول: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدوّ الله وعدوّ أوليائه! لقد أهلكك من بني آدم طوائف لا يعلم عددها إلّا الله. .. وإنّ في الجنّة لأشربة كثيرة غير الخمر، فما فعل بشار بن بردٍ؟ فإنّ له عندي يدًا ليست لغيره من ولّد آدم : كان يفضّلني دون الشعراء، وهو القائل. .. فلا يسكت من كلامه إلّا ورجلٌ في أصناف العذاب، يغمّض عينيه حتّى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم، فيفتحها الزبانية بكلاليب من نارٍ، وإذا هو بشار بن بردٍ قد أعطى عينين بعد الكمه لينظر إلى ما نزل به من النكال »^{٥٠}.

وكذلك نلاحظ في مشهد الأخطل التغلبيّ الذي يتصوّر ويتلوّى جوعاً وألماً. وفي هذا المشهد جمع أبو العلاء ابن القارح والأخطل ويزيد بن معاوية وإبليس، وقد استعان بالمعجم القرآني في اختيار الألفاظ التالية: الله، والإسلام، والنفس الغاوية، والزبانية، والمعصية، وإبليس، ومالك، وسقر، وأهل الجنّة، و"يا بني آدم".

ويصوّر أبو العلاء في موضع آخر من غفرانه عذاب الجحيم: « ومنادي الحشر يقول: أين فلان ابن فلان؟ والشوس الجبارة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم، والنسوة ذوات التيجان يُصرنّ بالسنّة من الوقود، فتأخذ في فروعهنّ وأجسادهنّ، فيصحن: هل من فداء؟ هل من عذر يُقام؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغون في سلاسل النار ويقولون: نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع وأيادٍ فلا فادي ولا معين»^{٥١} ففي هذا المشهد نجد كلمات مأخوذة من الذكر الحكيم مثل (الحشر، والزبانية، وسلاسل النار، والجحيم). وقد ساهمت في تصوير ألوان العذاب الذي حلّ بالنسوة والأكاسرة والجبارة من الملوك.

وفي رحلة الطواف على الشعراء يسأل ابن القارح كلّ شاعرٍ بم غُفرَ له - كما ذكرنا سابقاً - وهنا نجد مجموعة كبيرة من الألفاظ التي تعبر عن العذاب أو النعيم الذي حلّ بالشعراء، ففي لقاء ابن القارح مع عبيد بن الأبرص يسأله بم غفر له، فيقول عبيد: «أخبرك أنّي دخلت الهاوية، وكنت قلت في أيام الحياة :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت في آفاق البلاد ن فلم يزل يُشَدّ ويخفّ عنيّ العذاب حتى أطلقت من القيود والأصفاد»^{٥٢}.

الهاوية:

جهنّم، هذا اللفظ مأخوذ من سورة القارة التي تصور يوم الحشر العظيم. قال تعالى: (فأما من ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه، فأمه هاوية، وما أدراك ما هيه، نارٌ حامية) (الحشر 6/11).

أمّه هاوية : قيل معناه أنّ أمه التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها هاوية، وهي اسم من أسماء النار^{٥٣}. وهذا ما قصده أبو العلاء.

سقر:

ويعبر عن جهنّم بلفظ آخر هو "سقر" في مواضع كثيرة من آثاره ففي رسالة الغفران يقول أبو ذؤيب الهذلي لابن القارح وعديّ بن زيد بعد أن ملأ إناءه من الرّسل ومزجه بالعسل: ألا تشربان؟ فيجرعان من ذلك المحلب جرعا، لو فرّقت على أهل سقر لفازوا بالخلد شرعاً»^{٥٤}.

وفي لقاء ابن القارح مع الأعشى يقول ابن القارح: «أخبرني كيف كان خلاصك من النار وسلامتك من قبيح الشّمار ؟ فيقول: سحبتني الزبانية إلى سقر، فرأيت رجلاً في عرصات القيامة يتلألأ وجهه تلالؤ القمر، والناس يهتفون به من كلّ أوب: يا محمّد، الشفاعة. .. »^{٥٥}

ويقول أيضاً: « وإنّما كلام أهل سقر ويلٌ وعويلٌ، ليس لهم إلّا ذلك حويلٌ »^{٥٦}.

وقد جاء هذا اللفظ في قوله تعالى: (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر) (القمر 48/) وقوله (سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر) (المدثر / 26 - 27) وقوله (ماسلككم في سقر) (المدثر 42/).

أما وصف نعيم الجنة الذي يحظى به المتقون فهو زاخرٌ بالكلمات المستوحاة من الذكر الحكيم مثل شجر الجنة، والولدان المخلدون، وماء الحيوان، والكوثر، والرحيق المختوم، والأباريق، والكؤوس، ونفخ الصور، والأنهار. يقول: « فقد عُرسَ لمولاي الشيخ، إن شاء الله، بذلك الثناء، شجرٌ في الجنة لذيذٌ اجتناء، كل شجرةٍ منه تأخذ مابين المشرق إلى المغرب بظلٍّ غاطٍ ليست في الأعين. كذات أنواط، وذات أنواط، كما تعلم، شجرةٌ كانوا يعظمونها في الجاهلية. وقد روي أنّ بعض الناس، قال: "يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ" ... والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قيامٌ وقعود، وبالمغفرة نيلت السُّعود، والله القادر على كل عزيز: نحن وهذه الشجرُ صلةٌ من الله لعليّ بن منصور، نخباً له إلى نفخ الصور. وتجري في أصول ذلك الشجر، أنهارٌ تختلجُ من ماء الحيوان، والكوثر يمدّها في كلّ أوان، مَنْ شربَ منها النغبة فلا موت، قد أمِنَ هنالك القوت. وسُعدُ من اللبن متحرّقات، لا تُغيّرُ بأن تطول الأوقات. وجعافُ من الرحيق المختوم... ويعمد إليها المغترِفُ بكؤوسٍ من العسجد، وأباريق خلقت من الزبرجد. ... »⁰.

الحيوان:

الحيّ والحيوان والحيأة والحيوة : نقيض الموت. حيّ حياة، وحْيَ يحيي ويحيّا. والحياة الطيبة: الرزق الحلال أو الجنة، والحيوان: جنس الحيّ، أصله حيوانٌ⁰.

وجاءت هذه الكلمة في قوله تعالى: (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون). (العنكبوت/64) والحيوان هنا الحياة الدائمة الحق التي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الأبد.

وقد درس أبو العلاء هذا اللفظ في معرض التحليل الصرفي في رسالة الملائكة.

ومن ألوان النعيم التي ينالها المؤمنون أيضاً الكوثر: نهرٌ في الجنة. قال تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) (الكوثر / 1).

وجاء في سنن الترمذي / باب "ومن سورة الكوثر "عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله p: الكوثر نهرٌ في الجنة، حافَتاهُ من ذهبٍ، ومجرّاهُ على الدّرّ والياقوت، تربُّثُهُ أطيبُ من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيضُ من الثلج. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح⁰.

الأباريق:

اقتبسها أبو العلاء بصيغتها المذكورة في القرآن الكريم، وهي صيغة الجمع قال تعالى: (يطوف عليهم ولدانٌ مخلدون، بأكواب وأباريق وكأسٍ من معين). (الواقعة/17-18) الولدان المخلدون: أي مخلدون على صفة واحدة لا يتكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون. أمّا الأكواب فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا أذان، والأباريق التي جمعت الوصفين، والكؤوس الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة⁰. والإبريق معرّب: آب ري، ج: أباريق، والسيفُ البرّاق، والقوسُ فيها تلاميغ، والمرأة الحسناء البرّاقة⁰.

ويستطرد المعرّي في الحديث عن الأباريق، إذ استخدم هذا اللفظ ثلاث مرّات في جملة واحدة، في ثلاث معانٍ مختلفة، يقول: « هيهات! هذه أباريقٌ، تحملها أباريق، كأنّها في الحسن أباريق. فالأولى هي الأباريق المعروفة، والثانية من قولهم: جارية إبريق، إذا كانت تبرق من حسنّها... والثالثة من قولهم: سيفٌ إبريقٌ مأخوذاً من البريق »⁰.

نفخ الصور:

وهو الذي يعبر عن أهوال القيامة وما فيها من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، يقول تبارك وتعالى في سورة الحاقة " وهي من أسماء يوم القيامة ": (فإذا نُفِخَ في الصورِ نفخةً واحدةً) (13). ويقول أيضاً في سورة الزمر: (ونفخَ في الصورِ فصعقَ من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء

الله ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) فالنفخة الأولى هي نفخة الفزع ثُمَّ يَعْقِبُهَا نَفْخَةُ الصَّعَقِ حِينَ يَمُوتُ جَمِيعُ الْأَحْيَاءِ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ بَعْدَهَا نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ وَقَدْ أَكَّدَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ لَا يَخَالِفُ وَلَا يَمَانَعُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّارٍ وَلَا تَأْكِيدٍ.

ذات أنواط:

جاء في مادة "نوط": ناطه نوطاً: علَّقه. وانتاط: تعلَّق. والأنواط: المعاليق⁰. وقد تحدَّث عنها المعرِّي في سياق وصف شجر الجنَّة العظيم، فكلُّ شجرة ليست كذلك الشجرة، التي كانوا يعظِّمونها في الجاهليَّة، ويعلقون عليها أسلحتهم، وقد جاء ذكرها في حديث حسنٍ في سنن الترمذي، باب "ما جاء لتركيبن سنن من كان قبلكم": حدَّثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي... أنَّ رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مرَّ بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم. فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال النبي ﷺ: سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة. والذي نفسي بيده لتُركِبَنَّ سُنَّةٌ مَنْ كان قبلكم.

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح⁰.

الزنجبيل :

لأبدَّ هنا أيضاً من بيان الشرح اللُّغوي لهذا اللفظ. الزنجبيل: الخمر، وعروق تسري في الأرض، ونباته كالقصبِ والبردي، له قوَّة مسخنة هاضمة ملينة يسيراً، باهية مذكية⁰.

ذكر أبو العلاء هذه الكلمة بمناسبة حديثه عن منادمة ابن القارح لزهير بن أبي سلمى، فيجده من ظراف الندماء، فيسأله عن أخبار القدماء. « ومع المنصف باطيَّة من الزمرد، فيها من الرحيق المختوم شيء يُمرَّجُ بزنجبيل، والماء أخذ من سلسيل... »⁰.

ويجعل القرآن الكريم من خاصيات الكأس التي يُسقى بها المؤمنون في الفردوس أنها ممزوجة بزنجبيل. يقول الله ﷻ: (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً، عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً) (الإنسان/17-18). أي ويسقى الأبرار في هذه الأكواب خمرأ، فتارةً يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارةً بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر، وأمَّا المقربون فإنهم يشربون من كلِّ منهما صرفاً. وقوله تعالى "عيناً فيها تسمى سلسبيلا" أي الزنجبيل عين في الجنَّة تسمى سلسبيلا⁰.

الكافور :

هو نبت طيب، نوره كنور الأقحوان، والطلع، أو عاؤه، وطيب معروف، يكون من شجر بجمال بحر

الهند والصين، يُظَلُّ خلقاً كثيراً، وتألّفه الثُّمُورَة، وخشبه أبيض هش، ويوجد في أجوافه الكافور، وهو

أنواع، ولونها أحمر، وإنما يبييض بالتصعيد⁰.

وردت هذه اللفظة في رسالة الغفران، حينما كان المعرِّي يتحدَّث عن شوق ابن القارح لرؤية

السحاب في الجنَّة، فاستجاب الله له، فأنشأ سحابة: « تمطر بماء ورد الجنَّة من طللٍ وطشٍّ، وتتنثر حصي

الكافور، كأنه صغارُ البرد »⁰.

ووردت أيضاً عندما تحدَّث المعرِّي عن رفع الغلمان سرير ابن القارح، ونقله إلى مكان آخر في

دار الخلود: « فكلَّما مرَّ بشجرة نضخته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور »⁰.

وذكرت هذه اللفظة في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ

كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) (الإنسان /5-6).

وقد عُلِمَ ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاعة في الجنة وهذا

الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويروون بها⁰.

ياقوت :

وفي نزهة ابن القارح في الفردوس « يركب نجيباً من نُجُبِ الجنة خلق من ياقوتٍ ودرّ في سحسجٍ

بَعْدَ عَنِ الْحَرِّ وَالْقَرِّ... »⁰.

والياقوت من الجواهر معروفٌ، معرَّبٌ، أجوده الأحمر الرّماني، نافع للوسواس والخفقان وضعف

القلب شُرْباً، ولجمود الدم تعليقاً⁰.

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى: (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ

إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَان) (الرحمن /56-58). وفي

تفسير الآية قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان

ههنا اللؤلؤ⁰.

الفردوس:

الفردوس، بالكسر: الأودية التي تنبتُ ضروباً من النبات، والبستانُ يجمع كلَّ ما يكونُ في البساتين، تكون فيه الكروم، وقد بُؤِنَتْ، عربيّةٌ، أو روميّةٌ نَقِلَتْ أو سُريانيّة⁰.

نجد هذه الكلمة في مواضع كثيرة من الغفران، بمعنى معيّن هو أعلى درجات الجنة. وأعطى أبو

العلاء هذه الكلمة مدلولاً أوسع بالإضافة إلى نعيم الجنة في قوله: « وكأني به، أدام الله الجمال ببقائه، إذا

استحقَّ تلك الرتبة، بيقين التوبة، وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس... »⁰ الفردوس هنا يحمل مدلولاً

إضافياً هو المتعة الفكرية التي تحققها هذه الندوة الفردوسية وجاءت في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) (الكهف /107). وفي قوله تعالى: (الَّذِينَ يَرِثُونَ

الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المؤمنون /11) . وثبت في صحيح البخاري، باب درجات المجاهدين في

سبيل الله، عن أبي هريرة ؓ، أن رسول الله ﷺ قال : إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة

وأعلى الجنة أراه، فوّه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة⁰.

العقري :

العقري: الكامل من كلّ شيء، والسيد، والذي ليس فوقه شيء، والشديد، وضربٌ من البسط⁰.

جاءت هذه الكلمة في رسائل المعري بمعنى السجاد. يقول: «وإن جفّت الرياض في الأنواض واعتَمَ العقيق بالشقيق، فإنّ الأبارق لم تُبسط بالنمارق والقرى لم يُفرش بالعقري»⁰.

وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: (مُتَكِنِينَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) (الرحمن/76).

فقد ورد في تفسير العقري: قال ابن عباس: هي الزرابي، وقال مجاهد: العقريّ الديباج، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى: "وعقريّ حسان" فقال: هي بسط أهل الجنة - لا أبا لكم - فاطلبوها⁰.

البسيطة :

البسيطة : الأرض. أوردها أبو العلاء في سياق الدلالة على قدرة الله تعالى، في كتابه الفصول والغايات. يقول : « قد ضلَّ وخاب من يُعاند الفردَ المعبودَ، خالقَما جمَدَ وماجَ. ..سيَّانَ عنده الخفيُّ والظاهرُ، والبعيدُ والمُكْتَبُ، أقرَّ البسيطةَ ورفعَ الأنوارَ، لو شاء لردَّ اليفنَّ إلى الشباب »⁰

وفي المعنى ذاته يقول: « فسبحان سائر العالم بالعقول ومُحَلِّي السماء بالشُّهبِ، والغمامِ بعقيق البرق، وكاسي ذوات الأجنحة غرائب الرِّيش، ومُلِيس البسيطة حلل النبات »⁰.

وقد أخذ أبو العلاء هذا المعنى من القرآن الكريم، فالله تعالى بسط الأرض للناس وسَمَّاهَا "بساطاً" في قوله: (والله جعل لكم الأرض بساطاً) (نوح/19).

السري :

ورد في معرض حديث المعري عمَّا زعمه المرجفون من الروم، أنّ طاغية القوم أمر بحفر أماكن في بلده، يكون حفرها قوَّةً لزيادة ماء قويق. ويصفه بالسريّ وهو النهر الصغير. يقول: « ولو كان عنده من القوَّة ما يدَّعيه أهل ملَّته، لشرع في قطع قويق السريّ، لا في تقويته، وإنَّما وصفته بالسريّ، لأنَّ السريّ النهر الصغير... »⁰.

وفي القرآن الكريم:(فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً) (مريم/24).

وعن ابن عباس: السريّ : النهر. وقال سعيد بن جبیر: السريّ: النهر الصغير⁰.

وكذلك فإنَّ شرح ديوان ابن أبي حصينة السلمي المعري غني بالشروح اللغوية التي دَّعَمها بشواهد وأدلة من القرآن والحديث. وقد ذكر ابن العديم أن هذا الشرح في ثلاثة مجلدات. ويقول المحقق الدكتور محمد أسعد طلس: « أن الذي عثرنا عليه هو المجلد الأول، ومن يدقّق في محتويات هذا الشرح ويقارن بينه وبين ما في الديوان من قصائد يتأكَّد أنَّ ما عثر عليه من الشرح هو أحد المجلدات الثلاثة، وأنَّ المفقود هو المجلدان الثاني والثالث، ففي هذا الجزء الذي عثرنا عليه شرح لثمانين قصيدة بدون شرح، ويظهر أنَّ المعري أبقاها إلى المجلد الثاني من الشرح »⁰.

وقد أبرز الدكتور طلس أهمية وقيمة هذا الشرح قائلاً: « إنَّ قيمة هذا الشرح، مضافاً إليه عبث الوليد ورسالة الملائكة، قيمة ثمينة جدًّا، لأنها تُعرِّفنا مقدار عناية الشيخ المعري بعلوم العربية، وحرصه على صيانة لغة الضاد، والكشف عن كنوزها، وإعلان مخبَّاتِها لراغبي فهم تلك اللغة الشريفة وتبيين منزلتها »⁰.

ومن أمثلة هذه الشروح: - قوله في تفسير كلمة (الصُّوى) التي وردت في قول أبي الفتح ابن أبي حصينة، يمدح ثمال بن الأمير الأجلّ أبي علي صالح بن مرداس السلمي:

5- تُضْحِي المكاكِي من وَبِلِهِ كوامن في جنباتِ الصُّوى⁰

الصَّوَى: جمع صَوَّةٍ وهي الأرض المرتفعة، وقبل الصَّوَى منارٌ تُنصب على الأرض لِيُهْتَدَى بها، وفي الحديث: «إن للإسلام صَوًى ومناراً كمنار الطريق»^٥.
- وقوله في تفسير كلمة (العقري) التي وردت في قول أبي الفتح:
24- وَكُسِينَ أَجَلَ الْعَقْرِيِّ أَجَلَةٌ تَدُلُّ وَتُنْبِي أَنَّ ذَلِكَ إِجْلَالٌ^٥

يزعمون أَنَّ الجنَّ تسكنه فكلما رأوا شيئاً أعجبهم قالوا هذا عقري كأنهم يرونه من عمل الجنِّ واتَّسعوا في ذلك حتى استعملوه في الإنس والجن، وفي الحديث «فلم أرَ عقرياً يفري فَرِيهِ»^٥.
- وقوله في تفسير (حبل الوريد)، التي وردت في قول أبي الفتح:
33- يَا مَنْ إِذَا سَمِعَ الْعَدُوَّ مَدَانِحِي فِيهِ أَقَامَ الْغَيْظُ حَبْلَ وَرِيدِهِ^٥
حبل الوريد: في العنق، يُضرب مثلاً في القرب، كما جاء في الكتاب العزيز: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (ق/16)^٥.
- وقوله في تفسير كلمة (شرى) من قول أبي الفتح:
37- شَرَى الزَادَ بِالْمَالِ مِنْ جَالِبِيهِ وَبَاتُوا فَاطْعَمَهُمْ مَا شَرَى^٥

شرى: من الأضداد يكون في معنى باع وفي معنى اشترى، وقوله تعالى: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) (يوسف/20) أي باعوه، يدل على ذلك قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) (يوسف/20).
وقد يجوز أن يكون (شروه) في معنى اشتروه، ويكون الفعل راجعاً إلى السيارة.
- وقوله في تفسير كلمة (الحَدَب) من قول أبي الفتح:
13- وَحَبَّتْ إِلَيْكَ وَفُودُ الْبِلَادِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ سَحِيقِ الْحَدَبِ^٥

الْحَدَبُ: الغليظ من الأرض، وفي الكتاب العزيز (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) (الأنبياء /96) أي من كلِّ طريق غليظ من الأرض. قال عنتره:
فَمَا رَعَشَتْ يَدَايَ وَلَا أَزْدَهَانِي تَكَاثَرُهُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَدَابِ

يريد جمع (حَدَب) ويجوز أن يكون قوله تعالى « مِنْ كُلِّ حَدَبٍ » يعني (من كلِّ قَبْرِ) لأنَّ القبر يكون مرفوعاً على ما حوله فكأنَّه شَبَّه بالغليظ من الأرض، وقرأ ابنُ عباس - رحمه الله - « مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُونَ »^٥.

2- التحليل النحوي والصرفي

درس أبو العلاء النحو والصرف درساً عميقاً، وأمعن في البحث عن القواعد الكلّية، وما شدَّ عنهما، واطَّلَعَ على كثير من الأحكام الراجحة القويّة والأحكام الضعيفة التي حاول أصحابها تقويتها بالحجج الواهية، ورأى فيها مالا تقبله العقول الصحيحة، كما رأى في كثير من الشواهد والنصوص ما يشهد أنه مكذوب أو مصنوع، ورأى في أعمال كثير من العلماء في هذين العلمين ما يشبه الهذيان أو الضلال أو الأباطيل، كما صرَّح بذلك في رسالة الغفران: « ما النحويون وما الاستشهاد؟ وما هذا الهذيان؟ ». وفي رسالة الملائكة أيضاً في قوله: « من ابن أبي ربيعة؟ ومن أبو عبيدة؟ وما هذه الأباطيل؟ »^٥.

وقد أشار ابن فضل الله العمري في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) إلى توسّع المعري في النحو. إذ قال: « قرأ القرآن العظيم بالروايات على جماعة من الشيوخ، وتوسّع في اللغة والنحو »^٥.
وقد أُتيح لأبي العلاء أَنْ يطلّع على معظم آثار سابقه في علم النحو والصرف، وممّا يثبت لنا ذلك أَنَّ أبا العلاء كان يطلب الكتب في مظانها الكبرى، ومن أجل ذلك كانت رحلته إلى دار العلم ببغداد أكبر مكتبة في عصره. كما أَنَّ صنيعة في آثاره يدلُّ على وقوفه على آراء النحاة في معظم المسائل التي يعرض لها. ويبدو ذلك في تفصّيه لأقوال النحويين وآرائهم

في كلّ مسألة، وعزوه كلّ رأي إلى صاحبه، ولا يتأتّى ذلك إلا لمن كان له اطلاع واسع على آثار السابقين في هذا الباب من علوم العربيّة.

وقد ذكر الدكتور إبراهيم مصطفى أن المعري تأثر بأسلوب مدرسة نحوية عظيمة كانت في حلب وقد أسسها أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه سنة 370هـ، وأبو الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة 392هـ. ولهذه المدرسة أسلوب في البحث يميّز بعنايتها بالقرآن وجمع روايته وتوجيه ما سمي منها شاذاً، وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة في البحث وإن لم يلق أحداً من أئمتها، وألف كتاباً سمّاه تظلم السور.

ولأبي العلاء كتبٌ متعددة في النحو والصرف، وهي -على قلة ما وصل إلينا منها- تبقى أكثر الأدلة برهاناً على عنايته بهذا العلم وتبحّره فيه. «فرسالة الملائكة» تقوم على بحث مسائل صرفيّة، «ومن وقف على رسالة الملائكة، اتّضح لديه أنّ هذا العلم بلغ الذروة القصوى في ذلك العهد، وأنّ لرجاله باعاً طويلاً في معرفة الأبنية وضبطها ووضع المقابيس ورعايتها وقدرة على البحث عن أصول الكلمات واشتقاقها وردّها إلى أصولها ومعرفة الشاذ والنادر منها، وبراعة في تعليل الأحكام وإيراد الأدلّة والشواهد وما شاكل ذلك من الأمور التي تدل على سعة في المدارك، ونموّ في الملكات وغزارة في المادة. فهذه الرسالة تمثل لنا صورة كاملة عمّا كان يتمتع به العلماء من حرية القول والإقدام على نقد الأئمة ودحض حججهم ومناقشتهم في الدقيق والجليل من المسائل».

ومن كتبه الضائعة كتاب (الحقير النافع) وهو مختصر في النحو مقداره خمس كراريس، وكتاب يتّصل به يعرف بـ (الظل الظاهري) وقد عمل لرجل من أهل حلب يكنى أبا طاهر، وكان من أكابر الحلبيين وعلمائهم. وقد تناول كتب النحويين بالشرح والتوضيح، فوضع (المختصر الفتح) على مختصر ابن سعدان في النحو، ووضع (عَوْن الجمل) و (تعليل الخُلس) و (إسعاف الصديق) و (شرح شواهد الجمل) على كتاب الجمل للزجاجي. وعُرف له كتاب سمّاه (قاضي الحق) يتعلّق بكتاب الكافي الذي ألفه أبو جعفر النحاس، وكتاب دعا (ظهير العضدي) يتّصل بالكتاب المعروف بالإيضاح العضديّ لأبي علي الفارسي، وذكر أن له شرحاً غير كامل على كتاب سيبويه.

أمّا بالنسبة لميله إلى المذاهب النحويّة فقد رأى بعض الباحثين لدى المعري ميلاً ظاهراً إلى المذهب الكوفي، وكان أوّل السابقين إلى هذا القول الأستاذ إبراهيم مصطفى. وقد استند في بناء رأيه إلى حجتين رئيسيتين: نشأة المعري الكوفيّة، ونقده لأعلام المذهب البصريّ. وقد أفصح عن الحجّة الأولى بقوله: «وكان أشياخ العرب يقبلون على نحو الكوفة ويُعرضون عن نحو البصرة، نحو الموالي، وكان الفقهاء يحبّون نحو الكوفة أيضاً، لأن الكوفيين أكثر روايةً وجمعاً للأثر وحفظاً للحديث، ولأنّ البصريين أقلّوا الرواية، وتورّطوا في الفلسفة والجدل، وأطرّخوا الحديث أن يحتجّوا به، ولحنوا المحيِّثين. لذلك أخذ الشبّخ يعلم ولده كتاب النحو الذي تعلّمه من قبل، وهو (مختصر محمد بن سعدان) الضرير الكوفيّ النحويّ المتوفى سنة 231هـ، وكان هذا الكتاب ممّا يتدرّسه الناشئون بالشام، ويؤيِّزه الفقهاء».

وأبان الحجّة الثانية بعرض نقدٍ للمعري يخالف بهما سيبويه، وهما في رسالة الغفران. وقد أشار الأستاذ إبراهيم مصطفى إلى أنّ في رسالة الغفران من رأي سيبويه وكتابه، والسيرافي وشرحه، وأبي علي وكتبه ما يدلّ على رأي أبي العلاء في نحو البصرة. وخلاصته أنّه يرى «أنّ نحاة البصرة بقياسهم قد قولوا العرب ما لا يقولون، وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون، وأنهم تكلفوا في توجيه الكلام وتخريجه بما أوقعه في الأباطيل... وأنّه انصرف عن بغداد لم يتلق من أحد من أئمة النحو بها، وقرأ كتبهم فضاق صدره بما فيها. وكان أشدّ ما ضاق به التكلف في التأويل، والغلو في التعليل، والمضيّ مع القياس مضياً يراه المعري منتهياً إلى أن يجيز في العربية ما ليس فيها».

كان المعري نحوياً له في كلّ مسألة تعرض له رأي محدود يقيمه على أصول من النظر والبحث والتحصيص. وقد يتفق مع من سبقه، وقد يختلف معهم على هدي من العقل والفهم. وقد رأى الأستاذ إبراهيم مصطفى أنّ المعري كان عالماً في النحو. يقول: «وأستطيع الآن أن أقرّر مطمئناً أنّ أبا العلاء كان عالماً بالنحو، وأنّ أقرّر كذلك أنّه لم يكن نحوياً، ولا أراد أن يكون نحوياً، وإنّما كان ناقداً لغويّاً درس النحو فعابه، وضاق به صدره وانصرف عنه».

وقد ذهب المعريّ إلى مخالفة النحويين في مسائل عديدة، مثل معارضته رأي أبي إسحاق الزجاج في أصل إستبرق: «وكيف يستجير من فرشه من الإستبرق، أن يمضي عليه أبد، وهو لا يدري كيف يجمعه جَمْع تكسير، ولا كيف يصغره، والنحويون يقولون في جمعه (أبارق) وفي تصغيره: (أببرق). وكان أبو إسحاق الزجاج يزعم أنّه في الأصل مسمّى بالفعل الماضي، وذلك الفعل (استفعل) من (البرق) أو (البرق). وهذه دعوى من أبي إسحاق، وإنّما هو اسمٌ أعجميّ غريب».

وقد لحظ الدكتور أمجد طرابلسي هذا الميل إلى الاجتهاد عند أبي العلاء، فوصفه بأنّه «كان حُرّ التفكير، اصطفاي النزعة، بل كان مجتهداً في كثير من القضايا».

ونتناول هنا دراسة بعض القضايا النحويّة التي بحثها أبو العلاء في نثره:

في رسالته "الصاهل والشاحج" يبحث مسألة عمل "إنّ" في معمولها على بعد ما بينهما من الألفاظ وذلك في سياق مدح السيد عزيز الدولة، تاج الملة وأمير الأمراء، فأفعاله تؤثر في ثلاثة مفاعيل هي الرعيّة والعرب والروم، ويرى أنّه بسياسته وحسن تدبيره يعمل فيمنّ بعدّ منه، فهو وإن كان مقيماً في حلب، فإنّ فعله يؤثر فيمنّ وراء الدروب وإن فصل بينهما أعلامٌ وسهوبٌ فمثله مثل إنّ وأخواتها تتخطى ما بينها وبين معمولها من المعترضات حتى تعمل فيه، ويأتي بشاهد من القرآن الكريم لتوضيح هذه القاعدة يقول: «وهو بتدبيره وسياسته يعمل فيمنّ بعدّ منه، فمثله مثل إنّ وأخواتها تتخطى ما بينها وبين معمولها من المعترضات حتى تعمل فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى: (إنّ في خلق السماوات والأرض

وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالْفُلُكُ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ (الآية إلى قوله تعالى: « لَايَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » كيف تخطت (إن) ألفاظ الآية وهي كثيرة ولم يمنعها من العمل في (آيات) دخول اللام المعترضة؟ فذلك هو -أعز الله نصره-^٥.

إن ههنا نصبت اسمها (آيات) رغم الفاصل الطويل من الكلمات وهي (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة/164).

وقد تراخى السيد عزيز الدولة في رسالته لزعيم الروم، فيرى المعري أن مثل رسالته مثل واو القسم التي يجيء جوابها متراخياً بعد ألفاظ كثيرة وجمل معترضة. يقول: « إِنَّ مِثْلَ رِسَالَتِهِ مِثْلُ وَאוِ الْقِسْمِ يَجِيءُ جَوَابُهَا بَعْدَ الْمَهْلَةِ الْمَتْرَاحِيَةِ، وَإِنْ ظَنَّ السَّامِعُ أَنَّ الْكَلَامَ قَدْ انْفَصَلَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ؟ أَلَا تَرَى أَنَّ الْوَائِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: « وَالْفَجْرِ » جَاءَ جَوَابُهَا مَتْرَاحِيّاً بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا أَلْفَافٌ كَثِيرَةٌ وَجُمْلٌ مُعْتَرِضَةٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) ؟ (الفجر/2)^٦.

والسورة هي: (وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) (الفجر 1-14).

كما أَنَّ فَعَلَ السَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ فِي حَلْبٍ كَبِيرٍ وَعَظِيمٍ، فَمِثْلُهُ فِي حَلْبٍ مِثْلِ الضَّمِيرِ يُضْمَرُ فَيُخْتَصَرُ فَإِذَا ظَهَرَ عَظُمُ شَأْنِهَا. يقول: « والمرجعون بزعم الروم يزعمون أنه كاسم الفاعل يعمل في ما يستقبل من الزمان وقد مضى القول في أن السيد عزيز الدولة -أعز الله نصره- يُصَغَّرُ إِذَا خَرَجَ/ وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ إِذَا صُغِّرَ بَطَّلَ عَمَلُهُ، فَمَنْ قَالَ: هَذَا ضَارِبٌ زَيْدًا غَدًا، لَمْ يَجُزْ أَنْ يَقُولَ: الْعِدَّةُ، وَهُوَ بِنَفْسِهِ الْخَمِيسُ اللَّجْبُ، وَإِنَّمَا مِثْلُهُ فِي (حَلْبٍ حَرَسَهَا اللَّهُ)، مِثْلُ الضَّمِيرِ يُضْمَرُ فَيُخْتَصَرُ، فَإِذَا ظَهَرَ عَظُمُ شَأْنِهَا، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا) (النساء/66)؟ فالهاء في "به" تدل على أشياء كثيرة مما وعظوا به، ولو ظهرت لاتسع فيها القول^٧».

وسباق الآية الكريمة: (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا) (النساء/66).

ويدرس أبو العلاء مسألة الترخيم والتخميم هو: « حذف آخر المنادى تخفيفاً، نحو: «يا فاطمة» والأصل: « يا فاطمة». والمنادى الذي يُحذف آخره يُسمى "مَرَحَماً". ويُحذف للتخميم إما حرف واحد وهو الأكثر، وإما حرفان، وهو قليل، فنقول: (يا عَنَمٌ، يا مَنصُ) في (عثمان ومنصور)^٨.

يرى أبو العلاء أن الترخيم في باب النداء ليس بضرورة، وقد بالغ بعض الشعراء فحذفوا حرفين، وأشار إلى حذف الأواخر المفرط الذي يصل إلى حذف ثلاثة حروف، ورأى أن هذا نادر غير مستمر. مستنداً في إثبات ذلك إلى الشعر والحديث الشريف. يقول: « على أن الترخيم في باب النداء ليس هو بضرورة. والحرفان المتجاوران: كواي منصور ورأيه، وألف مروان ونونيه، وألف حمراء والهمزة بعدها. قال أبو زبيد:

يا عَنَمٌ أَدْرِكْنِي فَإِنْ رَكَيْتِي صَلَدْتُ فَأَعَيْتُ أَنْ تَبِضَّ بِمَائِهَا

يريد: عثمان. وقد حملهم الطمع في الأخير على أن حذفوا حرفين صحيحين. أو يكون الأول منهما همزة حدثت في الجمع. قال علقمة:

أَبْيَضُ أَبْرَزُهُ لِلْفَجِّ رَاقِبُهُ مُقَلَّدٌ بِسَبَا الْكَتَانِ مَفْدُومٌ

يريد: سبائب الكتان.

ومن حذف الأواخر المفرط ما جاء عن رسول الله p من قوله: « كفى بالسيفِ شأ» يريدُ شاهداً. وهذا نادر غير مستمر^٩.

وقد بحث المعري هذه المسألة أيضاً في كتابه عبث الوليد معلّقاً على بيت البحتري:

وَلِلصُّوفِ أَوْلَى بِالْأَيْمَةِ مِنْ سَبَا الـ حَرِيرٍ وَإِنْ رَاقَتْ بِصِبْغٍ جَسَادِهَا

قال: « الرواة يزعمون أنّ السبا في معنى السبائب وهي جمعة سببية أي شقة وكذلك قالوا في قول علقمة:
أبيض أبرّره للفتح راقبه مقلّد بسبب الكتان مقدّم

وهذا يذكرنا في الشواذ، ومثله قول لبيد: (طرق المنا بمقال فأبان) يريد المنازل. وأكثر من هذا الحذف ما جاء في الحديث: « كفى بالسيف شأ» يريد شاهداً».

وفي باب القول في (ما): في معرض تعليقه على بيت عمرو بن أمّر:
ما أمّ غفر بالغلالة لم يمسس حشاها قبله غفر

ينفي أبو العلاء أن تكون ما للنفي وإنما يؤكد أنها تفيد الاستفهام والتقرير مستنداً إلى ما جاء في حديث أم زرع. يقول: « فذكر المفجّع أنّ "ما" في قوله: ما أمّ غفر، للنفي، وأنّ الخبر محذوف، ولا يعجبني هذا القول. وإنما المعنى أنّه أراد الاستفهام والتقرير، لأنّه يخاطب امرأةً ويزعم أنّه أشار عليها بأمر فلم تقبل، أي: لو كنت قبلت لكنت كأمّ الغفر في المنعة والعزّ، وما، على معنى التقرير، كما جاء في الحديث: « أمّ زرع وما أمّ زرع » أي: أي شيء هي، على معنى التعجب من الخير الذي هي فيه».

جاء الحديث في كتاب فضائل أصحاب النبي p، عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أنّ إحدى عشرة امرأة، جلسن، فتعاهدن أن يصفن أزواجهنّ لا يكتمن شيئاً، وكانت أم زرع الحادية عشرة منهن، قالت: « زوجي أبو زرع فما أبو زرع؟ » ووصفته بخير ما وصفت به سائر صواحبها أزواجهن، قالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله p: « كنت لك كآبي زرع لأم زرع ».

ومن المعروف أنّ أبا العلاء قد تناول النحاة واللّغويين بساخر نقده، فقد أوعروا النحو وعقدوا مسالكه، وأحالوه إلى طلاس وألغاز بعد أن كان يسير التناول ونراه يسعى إلى شجب تأويلاتهم التي أخرجتهم في بعض الأحيان عن مسلك العرب وطريقهم في القول، بهدف الابتعاد عن الاعتساف، وقهر النصوص والتغيير فيها، فهاهو يعقد لهم في رسالة الغفران مجالس ساخرة وشغلهم بجمهرة من المسائل النحوية والصرفيّة واللغويّة، وجعلهم في الفردوس متحابين بعد أن كانوا في الدار العاجلة متباغضين.

وصور المعري النحاة وهم مشغولون ببطونهم، بعد أن اطمأنوا لمكانهم في الجنّة، فأبو عبيدة انتهى طاووساً من طاوويس الجنّة، وقد رآه طائراً يروق من رآه حسناً، واشتهاه مطبوخاً ومنقوعاً بالخلّ « فيكون كذلك في صفحة من الذهب، فإذا قضّي منه الوطر، انضمت عظامه بعضها إلى بعض، ثم تصير طاووساً كما بدا. فنقول الجماعة: سبحان من يُحيي العظام وهي رميم! هذا كما جاء في الكتاب الكريم: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُولَمُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَبْطِئَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة/ 260) ».

ويبدأ هنا جدلٌ عابثٌ حول موضع يطمئنْ منصوبةً بـ (لام كي) أم يجوز غير ذلك كالجزم بـ (لام الأمر)، ويكون مخرج الكلام مخرج الدعاء. « ويقول هو، أنس الله بحياته، لمن حضر: ما موضع يطمئن؟ فيقولون: نصبٌ بلام كي. فيقول: هل يجوز غير ذلك؟ فيقولون: لا يحضرنا شيء. فيقول: يجوز أن يكون في موضع جزم بلام الأمر، ويكون مخرج الكلام مخرج الدعاء، كما يقال: يا ربّ اغفر لي، ولتغفر لي. وأما قوله الحكاية عن عازر: (اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة/ 259)، فقد قرئ برفع الميم وسكونها، فالرفع على الخبر، والسكون على أنّه أمرٌ من الله، جلّ سلطانه، وأجاز أبو علي الفارسي أن يكون أعلم مخاطبة من عازر لنفسه لأنّ مثل هذا معروفٌ ».

ويبحث أبو العلاء في أصل كلمة (إنسان) هل هي من النسيان أم من الأنس من خلال الحوار الذي دار بين ابن القارح وأدم n في الجنّة. يقول ابن القارح: « يا أبانا، صلى الله عليك، قد روي لنا عنك شعراً منه قولك:

نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقتنا، وإليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تحوّه ليالي السعود

فيقول: إنّ هذا القول حقٌّ، وما نطقه إلّا بعض الحكماء، ولكّني لم أسمع به حتّى الساعة. فيقول، وقرّ الله قسمه في الثواب: فلعلك يا أبانا قلّنته ثم نسيت، فقد علمت أن النسيان متسرّع إليك، وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوة في فرقان محمد p: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) (طه/ 115). وقد زعم بعض العلماء أنّك إنما سميت إنساناً لنسيانك، واحتجّ على ذلك بقوله في التصغير: أنيسان، وفي الجمع: أناسي، وقد روي أنّ الإنسان من النسيان عن ابن عباس، وقال الطائي:

لا تنسين تلك العهود وإنما سميت إنساناً لأنك ناسي

وقرأ بعضهم قوله تعالى: (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) (البقرة/199) بكسر السين. يريدُ الناسي، فحذف الياء، كما حُذفت في قوله تعالى: (سواء العاكف فيه والباد) (الحج/25). أمّا البصريون فيعتقدون أنَّ الإنسانَ من الأنس، وأنَّ قولهم في التصغير: أنيسيان، شاذ، وقولهم في الجمع: أناسي، أصله أناسين، فأبدلت الياء من النون. والقول الأوّل أحسن».

بيّن المعري في النص السابق الخلاف القائم في اشتقاق كلمة إنسان، وقد صرّح برأيه في عبارة موجزة وهي (القول الأوّل أحسن)، أي إنّ الإنسان مشتق من النسيان مؤيداً رأيه بأدلة قويّة من الذكر الحكيم. وقد تناول المعري القضية نفسها في كتابه زجر النابح في معرض رده على خصومه الذين اتهموه بالإلحاد.

وفي كتابه "عبث الوليد" يكاد يقتصر حديث المعري على الجانب النحوي، إذ كان الجانب اللغوي ضئيلاً وبسيطاً جداً مقارنةً مع الجانب النحوي. ففي عبث الوليد « يتكلم المعري على بعض ما يبدو له من الملاحظات على شعر البحتري، فينتقد ويستحسن ويرفع ويخفض ويشرح ما يعتقده خافياً على الجمهور، ويبين مفارقات وموافقات، ويشير إلى ما أخذه الناس على الشاعر، فيوافقهم أو يردّ كلامهم».

وفي هذا الكتاب يتناول المعري مجموعة من القضايا النحوية بالدراسة والتمحيص، مبيناً آراء النحويين في ذلك، وموضحاً رأيه الخاص أيضاً.

ويقف عند حالات إعراب (بين)، فهي إما أن تأتي في موضع خفض أو رفع، ويجوز فيها النصب. يقول أبو العلاء في بيت البحتري:

إذا تشاكنت الأخلاق واقتربت دنت مسافة بين العجم والعرب

«إذا وقعت "بين" في هذا الموقع فالاختيار خفضها، وكذلك ترفع إذا وقعت في موقع رفع، كما جاء في الكتاب العزيز: (لقد تقطّع بينكم) (الأنعام/94). أكثر القراء على الرفع ويجوز النصب. فقال قوم يكون الاسم مضمرّاً كأنه قال لقد تقطّع الوصل بينكم. وقال قوم تضمّر (ما)، كأنه قال لقد تقطّع ما بينكم، وحسن حذف (ما) هاهنا، كما حسن حذف (لا) إذا قيل والله أفعل: أي والله لا أفعل».

ويؤكد أبو العلاء رأيه بذكر آراء بعض النحويين، كما في مسألة (قد المقدرة مع الواو) وذلك في معرض تعليقه على قول البحتري:

ما تراه أعفّ في زمن الجو ر يرى منه في زمان العفاف

يقول: « كان في الأصل أعفّ في زمن الجور والصواب وعفّ بالواو، وهذا كما يقال للرجل: ما تراه وقد عفّ في زمن الجور يفعل في زمن العفاف. وكان قد هاهنا مقدرة مع الواو وذلك كثير موجود. كما يُقال: رأيتَه ووضح فيه الشيب، أي وقد وضح. وقد تأوّل بعض النحويين قوله تعالى: (أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم) (النساء/90) على معنى قد حصرت..».

فأبو العلاء يرى أن تقدير قد مع الواو كثير موجود في الكلام، وأيد ذلك بآراء بعض النحويين.

وفي مسألة دخول اللام مع المصدر يرى أنّ دخولها مع المصدر أحسن من دخولها مع الفعل. فقولهم ضربني لفلان أكثر من قولهم ضربت لفلان. يقول (معلقاً على قول البحتري):

وما تركي لمنبج واختياري لرأس العين فعل من يريد

« قوله لمنبج أدخل اللام مع المصدر وهو تركي ودخلها مع المصدر أحسن من دخولها مع الفعل فقولهم ضربني لفلان وهم يريدون ضربني فلاناً أكثر من قولهم ضربت لفلان، وقد ادّعى قوم في الآية مثل هذا الوجه (قُل عسى أن يكون رذيف لكم) (النمل/72) إنّما هو رذيفكم في أحد القولين، والأجود أن يكون رذف هاهنا غير متعدّ وتكون اللام داخلة على الكاف والميم دخولها على المفعول له، كما يقال جيئت العراق لك أي من أجلك».

يبين المعري أسباب استحسانه هذا الرأي أو ذاك، وهذا يدلّ على ثقته العالية بخيرته اللغوية، واعتداده برأيه، في كثير من المسائل النحوية والصرفية.

وفي إضمار الجار والمجرور (فيه)، وحذف الضمير (الهاء) في قول البحتري:

إنَّ الخليفة ليس يَرْقُبْ بالذي طالبت إلا أن نقول ويفعل

يقول المعري: « في الأصل طالبت وهو أصحّ، وفي الحاشية كاتبت وهو يجوز لأنّ (الذي) قد يجعل مع الفعل بمنزلة المصدر، كما قال (وخضتم كالذي خاضوا) (سورة التوبة/69) أي كخوضهم، ويجوز أن يكون المعنى على إضمار (فيه)، كأنه قال بالذي كاتبت فيه، وعلى هذا تحمل هذه الآية (واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً) (البقرة/48). المعنى لا تجزي فيه، وهذا مذهب سيبويه، وكان غيره يذهب إلى أن المحذوف الهاء، كأنه قال لا تجزيه نفس عن نفس شيئاً، وجعل اليوم مفعولاً على السعة كما قال:

ويوم شهدناه سليماً وعامراً قليل سوى الطعن النihal نوافله

أراد شهدنا فيه، وكان بعضهم يحتجّ لأنّ الهاء أولى بالحذف بأنك تقول الذي مررت به أخوك فلا يجوز حذف به، وتقول الذي ضربت فلان يجوز حذف الهاء...»^٥. وهنا يبيّن المعري مذهب سيبويه وغيره من النحويين في مسألة حذف الجار والمجرور (فيه) وحذف الضمير (الهاء)، دون أن يبيّن رأيه في ذلك. وبصرّح برأيه بوجود اقتران (لم) بالفاء إذا كانت في جواب الشرط في معرض تعليقه على بيت البحري:

أو أغفلوا حجة لم يُلَفْ مُستَضَرِّقاً لها وإن يَهْمُوا في القول لا يَهْم

قال: « ... ولو رُوي وإن وهما في القول لم يَهْم قويّت لم، إذ كان يضعفُ كلامهم أن يكون الفعل الأوّل في الشرط والجزاء ماضياً، والثاني مستقبلاً على أنّه جائز وإن لم يكن مختاراً، وإذا قيل إن يَهْمُوا لم يَهْم فلم يجب الشرط بجوابه لأنه ينبغي أن يجاب بالفعل أو بالفاء أو بإذا كما قال تعالى (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتِنُونَ) (الروم/36)، وإنما هذا الموضع من مواضع لا، إذ كان دخولها نظير خروجها، لأنهم يقولون إن تقم أقم، فإن أدخلوا لا فقالوا إن تقم لا أقم وكأنّ لا معدومة في اللفظ وإن كانت قد أحدثت معنى...». وهنا يتجلى نزوع المعري للاجتهاد في القضايا النحوية، مدلياً بذلك على حسن اطلاعه واستقرائه، ووعيه التام للعربية، واستيعابه لدقائقها.

وفي الفصول والغايات يدلي المعري بدلوه في التعبير عن آرائه النحوية، مبيناً مذاهب البصريين والكوفيين في القضية التي يناقشها، وأكثر ما يبدو ذلك في التفسير الذي يعقب كلّ فقرة. يقول في تسبيح الله وتمجيده: « ... وأنت العالم بحقائق الأمور. وسبحتك في الأدم جمع أديم، والأدر وهي مثل الدُور، والأرن يُراد به النشيط، وأنت خالق الأرن والتبليد...». يفسّر المعري كلمة الأدر بقوله: « الأدر مخففة من الأدور جمع دار. وكلّ واو مضمومة في وسط أو أولٍ يجوز همزها مثل واو وجوه والتشاور. فإذا كانت الضمة لالتقاء الساكنين مثل قوله تعالى: (ولا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) (البقرة/237) فإنّ البصريين لا يجيزون هَمْزَ هذه الواو، وقد أجاز همزها أهل الكوفة. وإذا كانت الهمزة متحركة وقبلها ساكنٌ يحتمل الحركة فإنّه يجوز إلقاء حركة الهمزة على ما قبلها وحذفها من الكلمة، ولا يُنظر فيها أكانت طَرَفاً أو متوسطةً، وعلى هذا قالوا هُوَ يَسْأَلُ في معنى يَسْأَلُ...»^٦.

وفي كتابه "زجر النابح" الذي ألّفه للردّ على خصومه وحسّاده الذين تقوّلوا عليه ما لم يقل. نراه يلجأ -أحياناً- إلى إعراب بعض المفردات بهدف إيضاح القصد وتبيان المعنى المطلوب. كما أنّه يدلي ببعض القواعد النحوية ليبرر أقواله ويدافع عنها (كما في قضية البعث والنشور). إذ يقول في معرض الدفاع عن قوله في اللزوميّات:

إذا نَفَرْتُ نَفْسٌ عَنِ الْجِسْمِ لَمْ تَعُدْ إِلَيْهِ، فَأَبْعُدْ بِالَّذِي فَعَلْتُ نَفْرًا!

« حذف الجُمْل في القول يقع كثيراً، ويجيء في القرآن وغيره من الحديث المأثور وكلام العرب، فيمكن أن ينطق بالجملة والمراد بالخبر قوم دون قوم أو زمان دون زمان أو أرض دون أرض. فلو قال قائل: الناس يأكلون الجراد، لَعُلِمَ أَنَّهُ لا يعني بذلك جميع الناس. واللفظ قد خرج على العموم... ويقول القائل: الأئمة تخطب على المنابر، فيخرج اللفظ على العموم لكل الأزمنة، وإنما يراد الجمع والأعياد وما تحدث فيه الخطابة كخسوف القمر وكسوف الشمس والاستسقاء. والمعنى: أنَّ النفس إذا نفرت عن الجسم لم تعدْ إليه في الدنيا الزائلة، فإذا أقرها الله سبحانه فإنها العائدة بلا ريب. فهذا من تعليق الأخبار بما يترك ذكره من الأزمنة والأمكنة».

كما يتناول أبو العلاء مسائل صرفية عديدة، نجدها متناثرة في كتبه ورسائله، وقد أفرد رسائل خاصة في الصرف، كرسالة الملائكة التي جعلها خالصة للغة والتصريف. وهاهو يبحث عن أصل كلمة (الضبيون) فهي إما من ضانٍ يضونُ فهو فَيْعَلٌ، وإما من ضانٍ يضيئُ فهو فَعُولٌ، ويبعد أن يكون من الضَّان لأنَّ الضَّانَّ مهموز. يقول الشاحج مخاطباً الثعلب: «أتدري يا ثعلال من أي شيء اشتقَّ الضبيون؟ وهيهات! لعلَّ سَمِيكَ أحمد بن يحيى الشيباني، ما سمع خبراً لذلك. وهو نادرٌ من الكلام لأنَّ ياءه لم تُدغم بالواو، فإذا كان من ضانٍ يضونُ فهو فَيْعَلٌ، وإلى ذلك ذهب الناس في وزنه. وإن كان فعولاً فهو من: ضانٍ يضيئُ، وكلا القولين مماتٌ، ولا يقَعُ في وهمك أنَّ اشتقاقه من الضَّان، فإنَّ الضَّانَّ مهموزٌ. أليس في الكتاب المجيد: (من الضَّانِ اثْنين ومن المَعْرِ اثْنين) (الأنعام/143). ولا يَغَرُّكَ قول الشاعر:

أصبحتُ فَنَّا لراعِي الضَّانِ أعجبه ماذا يَرِيْبُكَ مني راعي الضَّانِ

فإنَّ تخفيف الهمز من الضَّان جائزٌ في النثر والنظم، ويكونُ لازماً في القوافي المليئة. إلا أن الحكم في الاشتقاق للهمزة». وهناك بعض القراءات التي وقع فيها التغيير على الحركة بعد الهمزة مثل قراءة طلحة البامي: «من الضَّان» بفتح الهمزة. وقرأ طلحة والحسن وعيسى بن عمر: «من الضَّان» بفتح الهمزة وتشديد النون. فالضَّان مهموز ولكن يجوز تخفيف الهمز في النثر والنظم، كما يرى المعري، ولا يخفى على أحد، اعتداد أبي العلاء برأيه، وإيمانه القوي به، والتعبير عنه بصراحة ووضوح وقوة، حينما قال: (وكلا القولين ممات).

يقول: «وربما علم الرجل الأصل الراي أنَّ مكانه يثقلُ فانصرف وإن لم يُلْقَ نظيرٌ له فيكون مثله مثل الهمزة حذفت من سائر قليل سار... وإنما يحمل الهمزة على ذلك مجاورتها للألف، لأنَّ الألف أقرب حروف المعجم إلى الهمزة، ولذلك تركت مكانها في قولك: راء وشاء، والأصل: رأى وشأى... وربما تركت الهمزة مكانها للحرف الضعيف ولم تصبر على المضارة، أو تكون رغبة في التفضل على المجاور كما قالوا: را يريدون رأى... وقد رأيت الهمزة حذفت من ترى، وأصلها أن تجيء فيه كما جاءت في قوله تعالى: (وهم يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) (الأنعام/26) ولكنها بغدت من موطنها فلم ترجع إليه إلا عند الضرورة.. ألا ترى أن الفصحاء لا يقولون: ترى، في المنثور، وإنما يستعملونها في المنظوم لإقامة الوزن؟ وكذلك وجدناهم يحذفون الهمزة إذا كانت طرفاً وقبلها ساكنٌ، ويُلقون حركتها على ما قبلها فيقولون: خذ الجُرْ وقرئ: (يُخْرِجُ الْخَبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ). (النمل/25) فإذا كان ذلك في الشعر حذفت الهمزة إلى آخر الدهر لأنَّ رجوعها يكسر».

القراءة القرآنية بتخفيف الهمز في قوله تعالى: (ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) . وقد قرأ عيسى وعكرمة ومالك بن دينار والزهري والأعشى: «الخبء» بفتح الباء من غير همز، وهي في حفص: "الخبء" بسكون الباء وبالهمز.

وفي رسالة الملائكة كان للتحليل الصرفي نصيبٌ وافر، وقد بدت سخرية أبي العلاء واضحة من بعض الاشتقاقات المتكلفة والتخريجات المصنوعة، وبرغم تواضعه المسرف الذي نجده في مقدمة الرسالة، فإن الرسالة تحمل اعتداداً بالنفس، وثقةً عاليةً بمخزون المعرفة التي يمتلكها أبو العلاء، وإذ أفاض في تفنيد آراء العلماء. وتبدو سخريته من انشغال النحاة بالهين الساذج، وصرفهم حياتهم في بحثٍ لغويٍّ غير مهمٍّ، فهم في لحظات الاحتضار يتحاورون مع ملك الموت عن اشتقاق اسمه.

وبهمنّا هنا أن نقف قليلاً عند تصريف بعض الألفاظ، لنبيّن منهج أبي العلاء في التحليل، والتصريف، وكيف أنه اعتمد على ألفاظ الذكر الحكيم. إذ إنّ معظم الألفاظ التي درسها في رسالته كانت مأخوذة من القرآن، واستند في قواعده التي أرساها إلى آيات كريمة توضّح ما ذهب إليه.

ففي تصريف كلمة (طوبى)، وهو اسم شجرة في الجنة، بيّن المعري أصل هذه الكلمة، أمن ذوات الواو هي أم من ذوات الياء، وقد ذهب إلى أن أصلها يائيّ لأننا نقول: طيب الرجل ولم يحك أحد طوبته. والمطيّبون أحياء من قريش اختلفوا وغمسوا أيديهم في الطيب، فهذا يدلّ على أنّ الطيب من ذوات الياء. ويردّ أبو العلاء قول اللغويين بأنّ أصلها واوي، إذ يقولون أوبة وطوبة، فهذا على الإتياع، إذ يقال: حيّاك الله ويبيّاك. وأمّا قولهم للأجر طوب، فهو من غير لفظ الطيب، ويراد به أن الموضع الذي يُبنى به طابت الإقامة فيه.

وبتساءل أبو العلاء لم حذفت الألف واللام من طوبى، فلا يجد جواباً لذلك. وهنا يعرض آراء النحويين في "فُعلّى"، فيرى سيبويه أنّ (الفعلّى) لا تستعمل إلاّ بالألف واللام أو الإضافة. تقول: هذا أصغر منك، فإذا رددته إلى المؤنث قلت: هذه الصغرى أو صغرى بناتك ويقبح عنده أن يُقال صغرى بغير إضافة ولا ألف ولا لام. وفي قراءة بعض القراء قوله تعالى: (وقولوا للناس حسنى) (البقرة/83) على فعلى بغير تنوين. وقوله (إمّا أن تعذب وإمّا أن تتخذ فيهم حسنى) (الكهف/86). على فعلى بغير تنوين، خطأ لا يجوز في رأي سعيد بن مسعدة وأبي إسحاق الزجاج، لأنّ الحسنى عندهما يجب أن تكون بالألف واللام، كما جاء في موضع: (وكذب بالحسنى) (الليل/9). وكذلك «اليسرى والعسرى» لأنها أنثى أفعل منك، وقد زعم سيبويه أن أخرى معدولة عن الألف واللام، ولا يمتنع أن تكون حسنى مثلاً. وفي الكتاب العزيز: «ومنوة الثالثة الأخرى» (النجم/20) وفيه (لتريك من آياتنا الكبرى) (طه/23).

فالمعري هنا يقدم لنا بحثاً لغوياً يتعلق بـ "فُعلّى" أفعل التفضيل، وطريقة استعمالها، وآراء اللغويين في ذلك، ويبحث هذه المسألة أيضاً في كتابه عبث الوليد، تعليقاً على قول البحرى، يمدح بعض عظماء زمانه:

قد وجدنا عصاك صفراء ملساً ع من النبع بين صغرى وكبرى

« سيبويه يزعم أنّ الصواب الصغرى والكبرى بالألف واللام. ومذهبه أن حذفهما لا يجوز إلاّ فيما استعمل فيه، كقولهم (دنيا وحسنى)، وكذلك كلّ ما كان أنثى الأفعل يجيء إمّا مضافاً، وإمّا بالألف واللام، كقولنا: (هذا الأفضل وهذه الفضلى) فإن عداها الألف واللام لم تعدّها الإضافة. فيقال (هذه فضلى القوم). ويدّعي قومٌ في قوله تعالى: (طوبى لهم) (الرعد/29) أنّه من هذا الباب. وأنّ الألف واللام حُذفتا منه، وقال قوم: بل (طوبى) هنا جرت مجرى المصادر، فليست في ذلك التأويل، والعامة يقولون: طوباك وطوبى فلان، وهو كلامٌ مولد، والقياس يُطلق مثله، وينبغي إذا قال القائل: (طوباك طوباك) أن يكون طوباك مبتدأ والخبر محذوفاً، كأنّه قال: طوباك موجودة، أو يُقدّر فعلاً ينصب به طوبى، كأنّه قال: (أختار طوباك) أي طيب عيشك، أو اشكر أيّها الرجل طوباك».

فالمعروف أنّ (فُعلّى أفعل) لا تُستعمل إلاّ مضافة أو بالألف واللام، إلاّ إذا استعملت كذلك سماعاً، مثل (دنيا وحسنى). ثم استطرّد أبو العلاء، فذكر كلمة (طوبى)، فهل تأخذ هذا الاستعمال؟ والواقع أنّها ليست من هذا الباب، وإنّما هي مصدر، وتُعرب إمّا مبتدأ محذوف الخبر، والتقدير: طوباك موجودة، أو تعرب مفعولاً لفعل محذوف (أي أختار طوباك. أو اشكر طوباك).

فإذن: صغرى وكبرى في كلام البحرى حائدة عن القياس، ولم يرد بها سماع كذلك، ومن النحاة من يتأول لذلك فيجعلها معدولة عن الصغرى والكبرى.

ويبدو أبو العلاء شديد الاعتداد بنفسه، ومستقلاً برأيه، في مواضع كثيرة من كتبه نحو قوله في تصريف كلمة (سندس) ووزنها: « وهذا السندس الذي يطؤه المؤمنون ويفترشونه كم فيهم من رجل لا يدري: أوزنه فُعللٌ أم (فُعلّل) والذي أعتقد فيه أنّ النون زائدة، وأنّه من السُدوسي وهو الطيلسان الأخضر. قال العبدى: ودأويتها حتى شئت حبشية كأن عليها سندساً وسُدوساً

ولا أمتنع أن يكون (سندس) (فُعللاً) ولكن الاشتقاق يوجب ما ذكرت».

وسندس: هو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها، وقد جاء في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم: الأول في سورة الكهف/31 والثاني في سورة الدخان/53، والثالث في سورة الإنسان/21، يقول تعالى: (عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُصْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا).

وفي تصريف الحيوان الذي جاء في قوله تعالى: (وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان) (العنكبوت/64) يتساءل المعري عن أصل الواو هل هي منقلبة أم أصلية. ويترك الباب مفتوحاً للإجابة عن هذا السؤال. يقول: « والذين يشربون ماء الحيوان في النعيم المقيم: هل يعلمون ما هذه الواو التي بعد الياء؟ وهل هي منقلبة كما قال الخليل؟ أم هي على الأصل كما يرى غيره من أهل العلم».

وبتسائل عن حقيقة (لفظ غسلين) التي وردت مرّة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: (ولا طعام إلا من غسلين) (الحاقة/36). هل هو واحد أم جمع أعربت نونه. « أقول: يا مال! رحمك الله ما ترى في نون غسلين، وما حقيقة هذا اللفظ؟ أهو مصدر كما قال بعض الناس أم واحد أم جمع أعربت نونه تشبيهاً بنون مسكين. كما أثبتوا نون قلين وسنين في الإضافة، كما قال سحيم بن وثيل:

وما ذا يدري الشعراء مني وقد جاوزت حد الأربعين؟

فأعرب النون».

وبيّن أبو العلاء في موضع آخر من هذه الرسالة أن هذا اللفظ أعجمي، وأثبت كذلك أن نونه ليست نون جمع، يقول: « فأما غسلين فقد اختلف فيه وقيل إنها لفظة من ألفاظ الأعاجم جاءت في القرآن وأنها ليست مما كان يكثر في كلام العرب، ومنه من يجيز غسلون في الرفع فيجعلها بمنزلة عشرين إلا أن إجماع القراء على حذف النون فدلّ ذلك على أنها ليست نون جمع، وإن كانوا قد عربوا بعض هذه النونات وأثبتوها في الإضافة...».

وبثبت أبو العلاء بقوة قاعدة نحوية مدعومة بالشاهد القرآني والشعري، وهي أن الخروج من مخاطبة الواحد إلى الاثنين أو من مخاطبة الاثنين إلى الواحد سائغٌ صحيحٌ عند العرب الفصحاء. من خلال حوار مع السائق والشهيد اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم. يقول: « وهل أقول للسائق والشهيد اللذين ذكرا في الكتاب الكريم في قوله: (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد). (ق/21) يا صاح انظراني! فيقولان: لم تخاطبنا خطاب الواحد ونحن اثنان؟ فأقول: « ألم تعلمّا أن ذلك جائز من الكلام. وفي الكتاب العزيز: (وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) (ق/23-24) فوحد القرين وتثنى في الآخر... كما قال امرؤ القيس:

خليليّ مُرا بي على أم جندب لأقضي حاجات الفؤاد المعذب
ألم ترياني كلما جنت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فهذا كله يدلّ على أن الخروج من مخاطبة الواحد إلى الاثنين، أو من مخاطبة الاثنين إلى الواحد سائغٌ عند الفصحاء».

وقد تناول المعري في درسه عدداً لا بأس به من الألفاظ، مثل (العبريّ، الحور، الإستبرق، ملك، الزبانية، جهنم، سقر، هذه الألفاظ جاء بها المعري في رسالة الغفران على عجل ولم تمكّنه ظروف الرسالة من الوقوف عندها، فأفرد رسالة الملانكة لعرض ثقافته ومعرفته بأقوال اللغويين في هذا الباب من علوم العربية.

وبعد أن انتهى من بحث تلك الكلمات، بدأ بالإجابة عن الأسئلة التي وجهها إليه أحد معاصريه، وقد بلغت ست عشرة مسألة، برزت من خلالها مقدرة أبي العلاء اللغوية، وبصره بالأدلة والشواهد، وتفصيل الآراء ونقد مالا يرتضيه منها، ثم الإدلاء برأيه، فمن تلك المسائل:

(مسألة القول في "مهيم")

وردت هذه الكلمة في موضعين من القرآن الكريم. الأوّل في سورة المائدة في قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) (الآية 48). والثاني في سورة الحشر في قوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الآية 23).

وقد درس أبو العلاء هذا اللفظ دراسةً وافيةً دقيقةً، إذ بحث في أصل اللفظ ووزنه ومعناه، وفي أصله اللغوي، جاء في القاموس المحيط: المهيم من أسماء الله تعالى، في معنى المؤمن، مَنْ آمَنَ غَيْرُهُ من الخوف، وهو مُؤْمِنٌ، بهمزيّن، قُلِبَتِ الهمزة الثانية ياءً، ثم الأولى هاءً، أو بمعنى الأمين، أو المؤمن، أو الشاهد... وهمايئة، كعلائية: قرية ببغداد^٥.

ويرى المعري أنّ هذا اللفظ من الأشياء التي لم يكثر مجيئها في كلام العرب، وقد جاءت في القرآن الكريم. وأجمع الناس على أنّه مُفْعِلٌ، وأنّه مكبّرٌ، وإن وافق لفظه لفظ التصغير. ويرى في اشتقاق هذا اللفظ وجهان، أحدهما: أن يكون من هَمَنَ، وهذا فعلٌ مُمَاتٌ، وإن كان كذلك فليس يجب أن يخرج من كلام العرب لأنّ اللغة واسعة جداً، وقد تكون الكلمة حقيقة في اللفظ، ولم ينطقوا بها فيما اشتهر من الكلام كقولهم المدغ، فهذه الكلمة تشبه كلام العرب، ولم يذكر المتقدمون أنّهم نطقوا بها وهذا الفعل لم يذكره أحدٌ من المتقدمين، وقد كان في أصحاب النبي امرأةٌ يقال لها هُمينة وكانت فيمن هاجر إلى الحبشة، وهذه من الهم لا محالة، وموضع يُعرف بهمايئة، وهو من الهمن أيضاً.

والوجه الآخر في مُهَيِّم أن يكون من الأمن والأمانة، وقد أبدلت الهاء من الهمزة، وقد يبدلونها من الهمزة كثيراً، كما قالوا هبريةً وإبريةً، لما يتساقط من وسخ الرأس، وهرقث وأرقث، ولما سُمع في القرآن مُهَيِّمٌ اعتبره أهل النظر فوجدوه يحتمل أمرين التكبير والتصغير، فلم يجر أن يحمل على التصغير لأنّه جاء في صفات الله سبحانه، وعزّت صفاته عن ذلك. فلما لم يكن أن يُجعل مثل مُخيدع تصغير مُخدع... ولا أن يُحمل على شيء من هذه المصغرات وجب أن يُحمل على مكبرات الأسماء، فوجدوا حروفه كلّها من الحروف التي يمكن زيادتها لأنّ الذين حصروا حروف الزيادة جمعوها في قولهم (اليوم تتساء) و (هويت السمان) و (سألتمونيها) ونحو ذلك^٦.

وهنا ينطلق المعري في بحث حروف مهيم، فبدأ بالميم التي هي أول حروفه وفصل في الحديث عن زيادتها، فهي تزداد أولاً ووسطاً وآخر، وضرب أمثلة كثيرة على ذلك. فإذا كانت أول الاسم وبعدها ثلاثة أحرف من الأصول حكم عليها بالزيادة مثل (مخدع). وإذا كانت بعدها أربعة أحرف من الأصول وكانت على زنة أسماء الفاعلين والمفعولين حكم عليها بالزيادة مثل (مدرج)... « وإذا كان البناء الذي في أوله الميم على غير أبنية الفاعلين والمفعولين حكمت على الميم التي في أوله بغير الزيادة. وإذا كان بعدها أربعة أحرف من الأصول مجردة أو غير مجردة مثل قولك المردقش والمردقوش، وهو ضرب من النبت، ويقال إنّ الزعفران قال الشاعر:

وريج المردقوشة والشهودا

فالميم هاهنا من الأصل لأنّ بنات الأربعة لا تلحقها الزوائد في أولها إلا أن تكون أسماء فاعلين أو مفعولين، أو أزمنة، أو أمكنة، أو مصادر، لأنّ الفعل إذا كان عدده أربعة فما زاد، جاء مصدره في لفظ مفعوله، وكذلك اسم الزمان والمكان منه، فنقول أكرمت زيدا مكرماً، وأنت تريد كراماً، وكذلك هو مكرم بني فلان أي الموضع الذي أكرموا فيه، وجنتك مكرم بني فلان أي وقت أكرموا، وقوله تعالى: (بسم الله مجراها ومرساها) (هود/41) يجوز أن يكون المجرى والمرسى مصدرين في معنى الإرساء والإجراء، ويجوز أن يكونا اسمين للزمان، ويكونا في موضع نصب، تقديره: اركبوا فيها بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها^٧.

أمّا الهاء في (مهيم) فهي من الأصول، لأنّ زيادتها تقع في الأواخر للسكت وللتأنيث إذا وقفت، كقولك: أغرّه في الوقف. والياء زائدة، وهي تُزداد أولاً ووسطاً وآخر. والميم الثانية من الأصل، وكذلك النون.

ويخلص أبو العلاء إلى القول أنّ (مهيم) إن كان من الهمن أو من الأمن والأمانة فوزنه (مفعِلٌ)، وهو قول المتقدمين^٨.

وممّا سبق يتّضح لنا سعة اطلاع أبي العلاء، وثقته بعلمه ومعرفته، وكثرة أدلّته وشواهد، وتعبيره عن رأيه بقوة. ويبدو ذلك في مثل قوله في النص السابق، (أحدهما أن يكون من همن، وهذا فعل ممات)، وقوله: (لم يذكره أحدٌ من المتقدمين فيما أعلم).

كما ندرك مدى عناية أبي العلاء بالنحو والصرف، وأنّه سلك إليه مختلف السبل بحثاً وتمحيصاً وجمعاً وشرحاً، وهذا الحذق في النحو لم يكن خافياً على معاصريه، بل عرفوا ذلك منه حق المعرفة، وبهرهم ما رأوا منه، وقد أشار أصحاب كتب التراجم إلى طول بابه في النحو ودرايته الواسعة به. فقد ذكر ياقوت في معجم الأدباء أنّه « كان غزير الفضل شائع الذكر وافر العلم، غاية الفهم، عالماً باللغة، حاذقاً بالنحو »^٩.

3- القراءات القرآنية:

من خلال تتبعنا نتاج أبي العلاء نتبين شدة اطلاعه على القراءات القرآنية ومعرفة المتواتر وغيره، ومعرفة وجه كلّ قراءة من الإعراب وتأويله، وقد انتقد أبو العلاء كثيراً من القراءات، فذكر خلال كلامه كثيراً من العلل والأحكام والقواعد.

وقد ذكر أنّ له كتاباً يُعرف بـ (تظلم السور)، يتكلّم فيه على لسان سور القرآن، وتظلم كلّ سورة يوم القيامة إلى ربّها ممّن قرأها على غير وجهها.

ولا بدّ هنا أن نذكر الشروط الواجب توافرها في كلّ قراءة صحيحة وهي:

1- أن تكون القراءة موافقة لأحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

2- أن توافق العربية ولو بوجه.

3- أن يصحّ سندها.

والشاذّ من القراءات يكون قد فُقدَ بعض هذه الشروط أو سائرهما.

وندرس من أمثلة ذلك ما جاء في رسالة الغفران على لسان الحيّة. نقول: «إني كنتُ أسكنُ في دار الحسن البصريّ فيتلو القرآنَ ليلاً، فتلقّيتُ منه الكتابَ من أوّله إلى آخره. فيقول لازال الرُّشدُ قريباً لمحلّه: فكيف سمعته يقرأ (فالق الإصباح) (الأنعام/96) كأنه جمع بكّر، من قولهم: لقِيْتُه بكراً، وإذا قلنا: إنَّ أنعماً وأشدّاً جمعُ نعمةٍ وشدةٍ، على طرح الهاء، فيجوز أن تكون الأبكّار جمع بكّرةٍ، فتكونُ على قولنا: بكّرٌ وأبكّار، كما يُقال جُنْدٌ وأجناد. فتقول: لقد سمعتهُ يقرأ هذه القراءة، وكنتُ عليها برهةً من الدهر، فلما تُوفي رحمه الله، انتقلتُ إلى جدارٍ في دار أبي عمرو بن العلاء، فسمعتُهُ يقرأ، فرغبتُ عن حروفٍ من قراءة الحسن كهذين الحرفين، وكقوله: الأنجيل، بفتح الهمزة. فلما توفي أبو عمرو كرهتُ المُقامَ، فانتقلتُ إلى الكوفة، فأقمتُ في جدار حمزة بن حبيبٍ، فسمعتُهُ يقرأ بأشياء يُنكرها عليه أصحابُ العربية. كخفض الأرحام في قوله تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) (النساء/1) وكسر الياء في قوله تعالى: (وما أنتم بمصرخيّ) (إبراهيم/22). وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى: (استكباراً في الأرض ومكر السيء) (فاطر/43) وهذا إغلاقٌ لباب العربية لأن الفرقان ليس بموضع ضرورة، وإنما حكي مثل هذا في المنظوم».

وفي هذا النقد على لسان الحيّة براعة فائقة، وكذلك رغبتها عن حروف من قراءة الحسن، ثم إنكارها أشياء من قراءة حمزة بن حبيب، ويعلن المعري رأيه بصراحة في هذه القراءات الشاذة بقوله: « وهذا إغلاق لباب العربية، لأن الفرقان ليس بموضع ضرورة، وإنما حكي مثل هذا في المنظوم». ويستمتع المعري إلى الحية نفسها، وقد أوردت له بعض الشواهد الشعرية والرجزية. وقد علّق عليها بقوله: « وهذا لا ينقض مذهب أصحاب القياس، إذ كانوا يروون عن أهل الفصاحة خلافاً».

كلّ هذا يؤكد إيمان المعري بسلطان العقل وإيمان القويّ بالاجتهاد، ويبين جرأته في إقرار ما يراه أنّه الحقّ والصواب، فهو يرى أنّ باب العربية يجب ألا يكون مغلقاً، وإنما يجدر بنا أن نستفيد من الآراء المعقولة والمذاهب اللغوية الصالحة، فنبتعد عن الشاذّ والنادر ونترك للعقل حرية الانتقاء لما يراه مناسباً.

ويشير أبو العلاء أيضاً إلى كسر الياء في معرض تعليقه على أبيات الحلاج التي على الياء:

يا سرّ سرّ يدقّ حتى يجلّ عن وصف كلّ حيّ
وظاهراً باطناً تبدّي من كلّ شيءٍ كلّ شيءٍ
يا جملةً الكلّ، لست غيري فما اعتذاري إذا إليّ؟

إذا قال: « لا بأس بنظمها في القوة، ولكن قوله: إليّ، عاهة في الأبيات: إن فُقدَ فالتقيّدُ لمثل هذا الوزن لا يجوز عند بعض الناس، وإن كسر الياء من إليّ فذلك رديءٌ قبيح. وأصحابُ العربية مجمعون على كراهة قراءة همزة: (ما أنتم بمصرخيّ) (إبراهيم/22) بكسر الياء. وقد روي أن أبا عمرو بن العلاء سئل عن ذلك فقال: إنّه لحسنٌ، تارةً إلى فوق، وتارةً إلى أسفل، يعني فتح الياء في مصرخيّ وكسرها، والذين نقلوا هذه الحكاية يحتجّون بها لحمزة، ويذهبون إلى أنّ أبا عمرو أجاز الكسر لالتقاء الساكنين، وإنّ صحت الحكاية عنه، فما قالها إلاّ متهزّئاً على معنى العكس... وهذا كما يقول الرجل لولده، إذا رآه قد فعلَ فعلاً قبيحاً: ما أحسنَ هذا! وهو يريد ضدّ الحسن. ولم يأت كسر هذه الياء في شعرٍ فصيحٍ».

ويدرس أبو العلاء مسألة الجمع بين ساكنين ويشير خلال ذلك إلى القراءة القرآنية الواردة في الهمز، فيما روي عن الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ النحويّ أنّه: « كان ينشد هذا البيت فيجمع فيه بين ساكنين، وهو قول الراجز:

يا عجباً لقد رأيتُ عجباً حمارَ قبانٍ يسوق أرنباً

خاطمها زامها أن تذهبا

فيجمع بين ساكنين في: زامها... والجماعة على خلافه في: زامها، لأنّهم يُنشدون: زامها، بالهمز، ويحكون أن ذلك لغة العرب. وزعم أبو زيد الأنصاريّ أنه أدركته صلاة الصبح عند مسجد "يونس بن عبيد" فدخل فصلّى خلفه، فسمعه يهمز: « ولا الضالين» ويقال إنّها قراءة "أيوب السختياني"، وقد زعموا أن الحسن البصريّ كان يقرأ: (مامن دابةً إلاّ وهو أخذٌ بناصيتها) (هود/56). ولا أحسب هذا القول المرويّ عن الفارسي إلاّ وهماً من راويه، أو يكون قولاً ينفردُ به قائله ويخالف إجماع الناس فيه».

فالمعري يرى أنّ رأي الفارسي في الجمع بين ساكنين مرفوض وأنه يجب الهمز. وأجاز قراءة السختياني والحسن البصريّ، وقد أورد الدكتور شاهين القراءة الواردة في همز حركة طويلة، بعدها صوتان ساكنان. فذكر قراءة أيوب السختياني (ولا الضالّين) بالهمزة، وهي في قراءة حفص (ولا الضالّين).

ويناقش أبو العلاء المسألة ذاتها في كتابه "عبث الوليد" في معرض تعليقه على بيت البحتريّ:

أسيت لأقوام ملكت أمورهم وكانت دجت أيامهم واسودت

يقول: « في الأصل اسوأدت، وهو أشبه بمذهب الشاعر، والعرب يحكى عنهم همز مثل هذه الأشياء التي يلتقي فيها ساكنان، يقولون احمازاً في معنى احماز واسواد في معنى اسواد قال كثير: وأنت ابن ليلي خير قومك مصداقاً إذا ما احمازت بالأكف العوامل

والذين قالوا ذلك هم الذين همزوا الضالين والدابة»⁰.
وتحدث عن حذف الياء من الاسم المنقوص منبهاً إلى بعض القراءات الشاذة كقراءة ابن مسعود، فالياء تثبت في الاسم المنقوص في حالة الرفع والخفض والنصب، إذا كان معزفاً، وحذفها رديء جداً كما في قراءة ابن مسعود، يعلق أبو العلاء على قول البحراني:
ليس المذار بجالب لك سوددا غير الجزار الخضر والكيزان

« المذار موضع بالبصرة، وقد كثر حذف الياء منه حتى صارت كأنها ليست فيه أصلاً، وقيل إنه المذاري أي الأماكن التي يذرى فيها ما حصل من حبوب الزرع، وقد يجترئون على حذف بعض الياءات ثم يتوهمون أن الاسم لم تكن فيه الياء، وروى بعضهم أن ابن مسعود قرأ: « ولهُ الجوارُ المنشآتُ في البحر كالأعلام». فعرب الراء وذلك رديء جداً. فأما قولهم الواو في موضع الخفض والرفع فليس من هذا الجنس، لأن الياء تثبت في الوادي إذا كان مرفوعاً أو مخفوضاً، ويجوز حذفها على رأي من يجعل ذلك لغة وليس بضرورة كما قال:
لا صلح بيني فأعلموه ولا بينكم ما حمت عاتقي
سيفي وما دمننا بنجد وما قرقر قمر الواد بالشاهق

ولو قال قائل: سال الواد لكان قبيحاً إذا ضم الدال، إلا أن يحمل على قراءة ابن مسعود»⁰.
وأشار المعري إلى بعض القواعد في اجتماع المتحركات. فالشعر لا يجوز أن يجمع فيه أكثر من أربعة أحرف متحركة، أما النثر فيجمع فيه متحركات كثيرة كما جاء في الذكر الحكيم.
يقول: « ... فأما النثر فيجمع الناطق فيه بين متحركات كثيرة لأنه يقدر أن يقول: ضَرَبَ وفَعَلَ وصَنَعَ. إلى أن ينقضي النَّفْسُ. وأكثر ما اجتمع في كتاب الله Y من الحروف المتحركة ثمانية، وذلك في موضعين من سورة يوسف: أحدهما قوله تعالى: (إني رأيت أحدَ عشرَ كوكباً) (يوسف/4)، فبينَ واو كوكبٍ وياء رأيتُ ثمانية أحرفٍ كلهن متحركٌ. والموضع الآخر قوله تعالى: (حتى يَأْتَنَ لِي أَبِي أو يحْكُمَ اللهُ لِي) (يوسف/80) على قراءة مَنْ حَرَكَ الياء في لِي وأبي. ومثل هذين الموضعين قوله تعالى: (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ). (القصص/35)»⁰.
وذكر بعض القراءات التي يجوز فيها وجهان ففي القول في (الحدث)، يمكن أن تبدل التاء بالتاء، كما في مغاثير، ومغاميز، وثوم وفوم. فهاهو أبو العلاء يخاطب منكراً ونكيراً: « قد صار لي بكما وسيلة فوسعا لي في الجذف إن شئتما بالتاء، وإن شئتما بالتاء، لأنَّ إحداهما تبدل من الأخرى، كما قالوا: مغاثير ومغافير، وأثافي وأفافي، وثوم وفوم. وكيف تقرأن رحمكما الله هذه الآية: (وفومها وعدسها وبصلها) أ بالتاء كما في مصحف عبدالله بن مسعود أم بالتاء كما في قراءة الناس»⁰. أي يجوز الوجهان.

وذكر أبو العلاء بعض القراءات القرآنية المتعارف عليها في لغة العرب، كقراءة يحيى ابن وثاب كما أشار إلى بعض القراءات الشاذة، كما حكى الفراء عن قوم من العرب.

قال في رسالة الملائكة: « إنهم يقولون أعلم وإستعين وإخال ينكسرون مع الهمزة كما يكسرون مع التاء والنون وقد قرأ بذلك الفراء يحيى بن وثاب وغيره، ويرى أنه قرأ (فَأَمْتَعَهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرَّهُ) (البقرة/126) بكسر الهمزة من اضطره، وكذلك يفعل في غيرها من حروف المضارعة فقرأ (يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌُ) (آل عمران/106)، (ولا تتركبوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار)، (هود/113)، وهذه لغة للعرب فيما كان على "فعل يفعل"، وما جاوز الأربعة نحو اسودَّ واقتشعر" وإذا صاروا إلى الياء فقرأوا إلى الفتح، فلم يقولوا «يعلم» كذلك يقول سيبويه، وقد حكاها الفراء عن قوم من العرب، وإن صحَّت فهي شاذة»⁰.

ونبه أبو العلاء على نقطة مهمة في قضية القراءات وهي (القراءات المستتكرة) أي الشاذة فبعضهم يرفضها،

وبعضهم يخرجها ولو على وجه ضعيف، يقول: « اختلف أهل العلم في مستنكر القراءات فكان بعضهم يجترئ على تخطئة

المتقدمين، وكان بعضهم لا يُقدم على ذلك. ويجعل لكل شيء وجهاً، وإن كان بعيداً في العريضة، واحتج من أجاز غلط الرواة

بأنّ الذين نقلوا القراءة كان فيهم قوم قد أدركوا زمن الفصاحة فجاءوا بها على ما يجب، وقومٌ سبقتهم الفصاحة، ولم يكن لهم علم بقياس العربية، فلحقهم الوهم الذي لا يتعرّى منه ولد آدم p»^{٥٠}.

وضرب مثلاً على ذلك قراءة ابن عامر كلمة (أفئدة) أفئدة. في قوله تعالى: (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم). (إبراهيم/37). يقول: « وأفئدة بناء مستنكر لم يجر مثله في الأحاد ولا في الجموع، ولم يحك سيبويه ولا غيره، فيما أعلم شيئاً على مثال (أفئدة) بفتح الهمزة ولا على مثال (أفئدة) إلا ما روي في قراءة الحسن من أنه كان يفتح همزة الإنجيل، وهذا في الشذوذ يشبه قراءة ابن عامر هذه». فأبو العلاء لم يترك أقوال العلماء هكذا، بل عمد إلى التوجيه والترجيح، وذكر الأمثلة، وساق الشواهد، وأكد بثبات وثقة أنّ قراءة ابن عامر (أفئدة) لا نظير لها، لأن سيبويه لم يحكها، ولم يجر بوزن على غرارها. ثم استطرده وأفاض في بيان أصل إنجيل هل هو عربي أم أعجمي؟ وبيان أصله الذي اشتق منه على فرض أنه عربي.

ثم رجع يلتمس وجهاً لقراءة ابن عامر. يقول: « وأما أفئدة فإن صحَّ أنها قرأ بها موثوقٌ به في الفصاحة فإنها، والله أعلم، أفئدة في الأصل، كما قرأت الجماعة، ثم زيدت الياء بعد الهمزة لأن الكسرة فيها لازمة؛ فتكون هذه القراءة مشاكلة لقراءة من قرأ (فَدَانِيكَ بُرْهَانَان) (القصص/32) وزيادة الياء في أفئدة أقوى منها في دَانِيكَ لأن نون التنثنية ليست ثابتة كثبات يغيرها من حروف الاسم، إذ كانت تسقط في الواحد وفي الإضافة»^{٥١}.

ثم ذكر المواطن التي زادت فيها العرب الألفات والياءات والواوات، وآراء المتقدمين فيها وضرب مثلاً على ذلك قراءة ابن كثير (إنه من يتقى ويصبر) من قوله تعالى: (قالوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ). (يوسف/90). فقد حملوا قراءته على « أنَّ الياء التي بعد القاف حدثت لتمكين الكسرة كأنه كان أنه من يتقى ويصبر، كقراءة الجماعة، ثم زيدت الياء لأجل الكسرة، وإلى هذا الرأي ذهب الفارسي، فأما المتقدمون فكانوا يحملون هذا على أنه من ردَّ الأشياء إلى أصولها، فالياء في يتقى على رأي من تقدم هي أصلية لأنها لا يفتعل، وعلى قول الفارسي تكون زائدة...»^{٥٢}.

وبين أبو العلاء ما يقوي قراءة ابن كثير تلك في قوله: « ويقوي قراءة ابن كثير أن قراءة الجماعة اجتمعت فيها متحركات أربعة وهي التاء الثانية من يتق والقاف والواو والياء، وهم يستقلون الجمع بين متحركات في هذا العدد، ولذلك لم يجر توالي هذه العدة من المتحركات في الشعر إلا عند الزحاف، وليس في أصل أبنيته أن يجر مثل ذلك»^{٥٣}.
نتبين في ذلك البحث اللغوي قوة المعري في حسن الاستدلال والتمثيل والاستشهاد، كما نتبين سعة ثقافته في اللغة والاشتقاق والقراءات.

كما نقد بعض المفردات التي ادّعي فيها زيادة الألف أو الواو أو الياء، وذكر أنّ ذلك نقض للقياس لا يجوز القول به. يقول: « وقد ادّعى قومٌ بأن قولهم استكان إنما هو من استكن أي افتعل من السكون، ثم زيدت عليه الألف. وهذا نقض للقياس، لا يجوز أن يذهب إليه ذاهبٌ عرف أصول العربية لأنهم لم تجر عادتهم بمثل ذلك، ولو فعلوه في موضع لم يجعلوه أصلاً يقاس عليه. وقد قالوا يستكين ومستكين... وإنما استكان استقل ومستكين مستقل وهو مأخوذ من قولهم كان كذا وكذا أي المستكين، كأنه شيء قد كان أي ذهب ومضى... واستكان على القول الذي حكي وزنه افتعال ويستكين وزنه يفتعل ومستكين وزنه مفتعل، وهذه أبنية مستكثرة، وإنما يستعمل مثلها في الضرورة، فأما في عمود اللفظ فلا يجوز أن تقع. وقد روي أن الحسن قرأ (وأعتدت لهنُّ متكاءً) (يوسف/31) بالمد فهذا مفتعل، وهو يضاهي في الألف باب أفئدة في الياء»^{٥٤}.

ثم يعود المعري إلى ذكر بعض الأحكام في اشتقاق أفئدة، هل هي من الوفود أم في معنى أفئدة جمع فؤاد أم من الأفد. فقد نفى أن تكون من الوفود، ودل على ذلك بقوله: « وأما قول من يحتج لأفئدة أنها من الوفود فلا فائدة فيه لأنها لا تحزن بذلك إلى وجه محتمل، وإنما جعلها رديئة كونها في وزن مستنكر، فمن أي شيء أخذت على ذلك فهي مستكرهة، وليس معنى القراءة إذا كانت بالياء إلا كمعناها بغير ياء. وإذا جعلوا أفئدة من الوفود لزمهم في ذلك أشياء، أولها أنهم همزوا واو وفود لضممتها همزاً لازماً، ثم جمعوها على أفعة لأن فعولاً وفعالاً قد يجمعان على أفعة... فكانهم قالوا أفود أو وفاد على مثل كعب وكعاب ثم همزوا الواو في وفاد للكسرة ثم جمعوا ثانية فكان القياس أن يقولوا أفدة كما قالوا إناء وأنية وإهاب وأهبة ثم كر هو أن يجيئوا بأفعلة التي للجمع في لفظ فاعلة فأخروا الهمزة كما قالوا راء وراى، فقالوا أفئدة ثم زادوا الياء بعد ذلك لمكان الكسرة».

وممنهم من جعل أفئدة في معنى أفئدة جمع فؤاد، وقد روى عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس ف يقول تعالى: (أفئدة من الناس تهوي إليهم) ما يدل على أنه جمع فؤاد لأنه فسّر تهوي تحن، وهذا هو قياس التفسير، ويجوز أن يكون قوله أفئدة يراد به أصحاب الأفئدة، ثم حذف كما يحذف المضاف، ومثله في القرآن كثير كقوله: (واسأل القرية) (يوسف/82) ونحوه.

ويمكن أن يكون اشتقاقها من الأفد وهو السرعة. « إذ كانوا قد قالوا هو أفد أي عجل، وقد أفد البين أي حان... وكونه من أفد أقيس من كونه من الوفود لأنه إذا كان من أفد نقص رتبة في التغيير لأن الهمزة فيه غير منقلبة».

يريد المعري أن الهمزة في أفد أصلية غير منقلبة وفي أفود غير أصلية لأنها منقلبة عن واو، فإذا جعلنا أفئدة من أفد ففيها تغيير وهو زيادة ما بعد الفاء، وإذا جعلناها من وفود ففيها زيادة على ذلك قلب الواو الأولى همزة.

إلا أن المعري لا يبين الوجه الأقرب في اشتقاق أفئدة، ولكننا نرى ما يراه محقق الرسالة هو أن في كلا الوجهين السابقين تكلفاً بعيداً والأقرب في أفئدة أن تكون أفئدة جمعاً لفؤاد.

وفي صدد بحثه مسألة (كسر همزة أم) يعرض رأي بعض النحويين المتقدمين الذين أفردوا (أماً) بحكم ليس لغيرها من الأسماء... يقول: « وذلك أن الفراء وغيره يزعمون أن العرب يكسرون همزة أم إذا وقعت قبلها كسرة أو ياء، وقد قرأ بذلك الكوفيون مثل قوله (فلامه السدس) (النساء/11). (وفي بطون إمهاتكم) (النحل/78)، وليس وصلهم الهمزة في قولهم ويسلم بدليل على أنها ألف وصل لأن هذه الكلمة شئت عن سائر الكلام، ويجب أن يكون الاسم على رأي أبي إسحاق جارياً مجرى الذبح والطحن لأن المصدر فعل مفتوح إذا رُد إلى الأصل...».

ودرس المعري حال الكاف في (إياك)، مبيناً رأيه في ذلك، وأنه يذهب مذهب الخليل في أنها أصلية يقول: « أما موضع الكاف فهو عارف بما قال الناس فيه والذي اعتقده مذهب الخليل، وأن الكاف في موضع جرّ، لأننا وجدنا هذه اللفظة لا تنفرد بنفسها في حال، وإنما هي مضافة إلى الظاهر أو المضمّر، وليست كافها مناسبة لكاف ذاك والنجاك ورويدك وأرايتك؛ لأن هذه الحروف تنفرد فيقال ذا ورويد والنجأ وأرايت، ويقال إن في مصحف ابن مسعود كافاً زائدة في الخط في كل أرايت في القرآن، مثل قوله Y: (أرايت الذي يكذب بالدين) (الماعون / 1) وقوله: (أرايت إن كذب وتولى) (العلق/13)... فانفراد هذه الأشياء دل على أن مجيء الكاف بعدها إذا كانت غير واقعة موقع المعربات إنما هو للمخاطبة».

وفي وزن (إيا) يقول: « ولا يمتنع في هذا الباب أن تكون إيا فعلى بالضم، ويقوي ذلك زعم سيبويه أن ضيزى فعلى بضمّ الفاء، وأنهم فؤوا إلى الكسرة لتصحّ الياء، وكذلك قال بعضهم الضيقى في معنى الضوقى. وقرأ مكزرة الأعرابي: (طيبى لهم وحسن مآب) (الرعد/29) والأصل هو: طوبى لهم.

ومما تقدم نستطيع القول باطمئنان، إن أبا العلاء كان ضليعاً في اللغة وتصريفها، واشتقاقها، والإحاطة بالمذاهب وآراء العلماء، والبصر بالأدلة والبراهين، كما تجلّى لنا - من دراستنا السابقة- مقدّراته في علم القراءات، وتوجيهها، ونقد الشاذ منها؛ وكثرة ما يحفظ من قوانين هذا العلم وضوابطه، وكثرة الشواهد والنصوص التي يدعّم فيها كلامه.

4- سرد الأحداث التاريخية ووصف الشخصيات:

يعدّ التاريخ من المواد المهمة، والمصادر الأساسية التي استقى منها أبو العلاء مادته. فاهتمّ بالوقوف على تاريخ الأمم السابقة، ومعرفة سير ملوكها وأمرائها ونبلائها، وهو يعرف ذلك من نفسه ويفخر به حتى قال:

ما كان في هذه الدنيا بتو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف

فهو يخبرنا أنه ما من أمة وجدت في هذه الدنيا إلا وقد ألمّ بطرف من أخبارها، وعرف شيئاً من تصاريف أحوالها. كما حرص على استيعاب شعر العرب، ومعرفة أيامهم، وإتقان علومهم ومعارفهم المختلفة، ومن ثمّ تنوّعت ثقافته وأسّعت معارفه. فلا نكاد نقرأ شيئاً من نثره حتى نجد إشارة إلى حادثة تاريخية قديمة، أو ذكراً لشخصية تاريخية، أو اسماً لقبيلة، أو تسجيلاً لواقعة أو موضع، أو تلميحاً لقصة من قصص العرب ورواياتهم وأساطيرهم.

فأبو العلاء عندما اعتزل الناس، لم يُرد أن يضرب بينه وبينهم حجاباً كثيفاً، لا يراهم من دونه ولا يرونه، وإنما أراد بعزلته أن يبتعد عن مخالطتهم ومجالستهم، وأن تتاح له حرية درس أحوالهم، دون أن تمتدّ إليه أيديهم، فكأنه أراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية، ليصلها بهم من ناحية أخرى هي ناحية الاطلاع على التاريخ أي الاطلاع على أخبار الماضين منهم والغابرين.

وتعدّ رسائله خير شاهد على ما بلغه من إحاطة بالتاريخ العام، وأخبار العرب قبل الإسلام، والتاريخ الإسلامي، فهو يستشهد بالأحداث التاريخية كثرة رائعة وافية شاملة. ففي الرسالة التي يعزّي فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة بأخيه نجده يسرد

أسماء الأنبياء من لدن آدم إلى p، ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن، فملوك الحيرة وغسان والفرس، وسادات العرب في الجاهلية، وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة، وبيان أنَّ كلاً منهم قد صار بعد العزّ وعلو الشأن إلى الموت والفناء. وقد بدأ أبو العلاء رسالته تلك بتعظيم المخاطب وتوقيره والدعاء له، ثم يخاطب تلك النفس الجزعة، فيهدئها، ويخفف من لوعتها، مستشهداً ببعض الآيات التي تشير إلى موت الأخلاء والأحباب ممّا يواسي النفس ويخفف عنها. ويظل المعري دائماً في إثر هذه النفس المتلذذة، يذيب ألماها وأحزانها. فيبدأ بسرد قصة البشرية، ولكنه يركّز على جانب إبراز عظمة العظماء في هذا التاريخ الطويل، ثم عرض نهاياتهم الحتمية، وهي الفناء الذي لا مفرّ منه. إلا أننا لن نقف عند جميع تلك الأحداث التاريخية، ممّا يطول بحثه هنا، فما يهمنا هنا هو حصر ودراسة الأحداث التي لها صلة وثيقة بموضوع دراستنا.

يقول أبو العلاء: «توفي آدم صلى الله عليه بعد ما رأى الجنة وسكنها، وسألته الملائكة عن أسرار الأسماء فأعلنها، وخرّج إلى الدنيا فشقي، ولقي من عنائها ما لقي، وفقد هابيل فهبل، وحسب أنه من الوجد خبل، فكان نومه صلى الله عليه نذيراً لكل مولود، والأودج إلى الخلود»^٥.

وهو هنا يشير إلى قوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة/31). والمقصود بالأسماء ما قاله ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وقال مجاهد: علّمه اسم كلّ دابة وكلّ طير وكلّ شيء. وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد. وقال الربيع: علّمه أسماء الملائكة. وقال عبدالرحمن بن زيد: علّمه أسماء ذريته. والصحيح: أنه علّمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما. وذكر البخاري هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة وعن أنس بن مالك: عن رسول الله p. قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر، خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كلّ شيء»^٦.

فالله سبحانه وتعالى أكرم آدم بأن أسكنه هو وزوجته الجنة، وعلّمه الأسماء كلّها. ثم شقي بعدما خرج من الجنة. يقول تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) (البقرة/35). وقال أيضاً: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى^{١١٦} فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى^{١١٧} إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى^{١١٨} وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى) (طه/116-119).

فالآيات السابقة تخبرنا عن إكرام الله سبحانه آدم r، إذ أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس أبى، وأن الله أباح له الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما يشاء. ويحدثنا المعري عن شقاء آدم بعد ما خالف أمر الله تعالى واستجاب لإبليس الذي أغواه، وجعله يقترب من الشجرة التي حذر الله تعالى بعدم الاقتراب منها، على سبيل الامتحان، فأخرجه من الجنة، فحرم من نعيمها العظيم الدائم، وأنزله إلى الأرض، ليشقى فيها. ومن صور شقاء آدم فيها قتل قابيل أخاه هابيل. وهناك عدة أقوال في تفسير هذه القصة: فقد ذكر أبو جعفر الباقر: «أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان، والتقى من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له، ولم تدع لي وتوعد أخاه فيما بينه وبينه. فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ عنه، فلما ذهب إذا هو به، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني، فقال إنما يتقبل الله من المتقين. فغضب قابيل عندها، وضربه بحديدة كانت معه فقتله. وقيل إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته، وقيل بل خنقه خنقاً شديداً وعضاً كما فعل السباع فمات، والله أعلم»^{١١٩}.

ويقول تعالى في ذكر هذه القصة: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ^{٢٧} لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ^{٢٨} إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ^{٢٩} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ^{٣٠} فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ). (المائدة/27-31).

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً وأنه قال في ذلك شعراً:

تغيّرت البلاد ومن عليها فوجّه الأرض مغبرّ قبيح
تغيّر كلّ ذي لون وطعم وقلّ بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم:

أبّا هابيل قد قتلا جميعاً وصار الحيّ كالमित الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها على خوف فجابها يصيح

وهذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم ن قال كلاماً يتحرّز به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال، والله أعلم.^٥
وهذا الشعر أورده المعري في رسالة الغفران في مسألة بحث أصل كلمة إنسان.^٥

فآدم ن ، مات بعد ما شقي في الدنيا، وحزن على ابنه هابيل حزناً شديداً، فلا بدّ من الفناء، ولا وسيلة إلى الخلود. وبعد آدم يذكر أبو العلاء نوحاً ن، فهو أيضاً لم يُخلد في الحياة بعد رحلة طويلة في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام. يقول: «وَقُبِضَ نوحٌ صلى الله عليه الذي رَجَرَ عَيْدُهُ نَسْرًا، وَأَحْكَمَ سَفِينَهُ بِالْأَسْر، فَتَجَا فِيهِ مِنَ الْغَرْق، وَحَمَلَ أَدَمَ بَعْدَ خَصْفِ الْوَرْق، فِي أَلَوَاحٍ سُمُورَن، خَوْفًا عَلَى أَوْصَالِهِ اللَّوَاتِي قُبِرْنَ، خَشْيَةً أَنْ يَمْحُوَ أَثَرَهُنَّ الْمَاءُ، حِينَ تَبَجَّسَتْ بِهِ السَّمَاءُ، وَلَمْ يُخْلَدْ ن. وَقَدْ أَتَاهُ النَّبَأُ مِنْ فَوْقُ، وَدَعَا فِيهَا رُؤْيٍ لِلْقُمْرِيَةِ فَحَلَيْتَ بِالطُّوقِ».^٥

قال تعالى: (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) (نوح/23) وهي أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله. أمّا ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأمّا سواع فكانت لهذيل، وأمّا يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان، وأمّا نسر فكانت لحمير لال ذي كلاع. وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ن، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم.^٥

وقد بعث الله تعالى نوحاً ن لَمَّا عُذِبَتِ الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمةً للعباد، فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض، فدعا قومه إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وألّا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً، وأن يعترفوا بوحداية الله، وأنه لا إله غيره، ولا ربّ سواه، فدعاهم نوح ن إلى الله تعالى في الليل والنهار والسرّ والإجهار، بالترغيب تارةً والترهيب أخرى، وكلّ هذا فلم ينجح فيهم، بل استمرّ أكثرهم في الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كلّ وقت وأوان، وتنقصوه، وتنقصوا من آمن به. ولمّا ينس من صلاحهم وفلاحهم، دعا عليهم دعوة غضب، فلبّى الله دعوته، وأجاب طلبته، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك، وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها، ولا يكون بعدها مثلاً. وأمره الله تعالى أنه إذا جاء أمره وحلّ بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كلّ زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه من روح، ومن المأكولات وغيرها لبقاء نسلها. ولما نبعت الأرض من سائر أرجائها، حتى نبعت التنانير التي هي محالّ النار، حمل نوح ن من كلّ زوجين اثنين، وقد ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض، وعمّ جميع الأرض، ولم يبق على وجه الأرض ممّن كان بها من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير. ولما فرغ من أهل الأرض، ولم يبق منها أحد ممّن عبد غير الله Y، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها، وأمر السماء أن تمسك عن المطر.^٥

وبتابع أبو العلاء سرده للأحداث التاريخية التي تؤكّد الفكرة ذاتها، وهي حتميّة الفناء. يقول: «وَبَعْدَهُ مَنْذَرُ عَادٍ سَخَّرَتْ لَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ الرِّيحُ، فَأَصَابَ قَوْمَهُ عَذَابٌ غَيْرُهُ السَّرِيحُ، لِحَقِّ بِهِ غَيْرُ هَئِرٍ، مَا لِحَقَّ آلَ عَثْرٍ، فَعَدَلَ بَيْنَهُمَا دَاعِي الْهَلَكَةِ إِلَّا أَنْ هَذَا طَرَقَ ذِكْرًا وَذَلِكَ قُبِضَ عَاصِيًا شَكِيًّا نَسِي مَا غَنَتْهُ الْجَرَادَتَانِ، وَمُنِي بِعَارِضٍ غَيْرِ الْهَيْئَانِ...».^٥

يشير أبو العلاء إلى قصّة قوم عاد، وقد كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادة الأصنام، وكانت أصنامهم ثلاثة صدأ وصموداً وهراً، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم هو هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه، وخالفوه، وتنقصوه، ولم يؤمن إلا قليل منهم، فوعظهم إذا تماردوا في طغيانهم، فقال لهم: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ^{٢٨} وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ^{٢٩} وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ^{٣٠} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^{٣١} الْوَاثِقُونَ^{٣٢} الَّذِينَ أَمَرَكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ^{٣٣} أَمْرَكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنِينَ^{٣٤} وَجَنَاتٍ وَغِيُونَ^{٣٥} إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ^{٣٦} قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاظِينَ). (الشعراء/128-136).

وقالوا له: (يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ^{٣٧} إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ). (هود/53-54).

فلما أبوا إلا الكفر بالله Y، أمسك عنهم المطر ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك. وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنمّا يطلبونه بحرمة ومكان بيته. فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكّة، فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، يغنيهم الجرادتان (قينتان لمعاوية) وكانوا قد وصلوا إليه في شهر. فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحى منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعراً فيعرض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به... فعند ذلك تنبّه القوم لما جاؤوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم -هو: قيل بن عتر- فأنشأ الله سبحانه ثلاثاً: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب، فقال: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً، وساق الله السحابة السوداء بما فيها من النعمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا، فيقول تعالى: (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ^{٢٤} تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) (الأحقاف/24-25). أي كلّ شيء أمرت به، (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) (الحاقة/7). أي كوامل متتابعات. فلم تدع أحداً من عاد إلا هلك.^٥

ويأتي بعد ذلك ذكر النبي صالح ١٧، فيقول أبو العلاء في تقرير مصيره: (ونبي بعد ذلك خلقت له الناقة مع السقّب، وجرى في النسك جزي القرس ذي العقب، فنزل به أمر دار، جعله في القدر كأصحاب قدار، إلا أن المنقلب متباين، ذاك الفائز وهو الحائز).

قوم ثمود كانوا يعبدون الأصنام كقوم عاد، فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبد بن ماسح... بن نوح ١٨. فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنام، ولا يشركوا بالله شيئاً، فأمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال. فكان من جوابهم أن قالوا له: (يا صالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا أتنهاتنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) (هود/62). أي كنّا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراذ العبادة. وترك ما كنّا نعبد من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد. وقالوا له إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقة من صفتها كيت كيت، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنّوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا. وأخذ منهم العهود والمواثيق على أن يؤمنوا به إن أجيبوا إلى ما سألوا. فدعا صالح ربّه ١٩ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله ٢٠ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدره باهرة، ودليلاً قاطعاً، فأمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، وقال لهم صالح ٢١: (هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) (الأعراف/73). فلما ملّوها عفروها. فقال لهم: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) (هود/65). وكان الذي تولّى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع، فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسياهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سقّبها -وهو ولدها- شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرّات، فلهاذا قال لهم صالح: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام» أي غير يومهم ذلك. فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا همّوا بقتله وأرادوا أن يلحقوه بالناقة. فأرسل الله عليهم حجارة رضختهم، وحلّ بهم العذاب والنكال، إذ جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، فأصبحوا في دارهم جاثمين ٢٢.

ويقول المعري أيضاً في صاحب النار: «وصاحب النار الموقدة التي برز منها سليمان، وما وجد حرّها أليماً، إلا أن الحنف جمع بينه وبين التمرود، فعوذ بالله الواحد من عثار التوب والعود».

وصاحب النار هو إبراهيم ٢٣، ويخبرنا الله تعالى عن مناظراته لأبيه وقومه، وكان أول دعوته لأبيه، إذ كان ممّن يعبد الأصنام، وقد أنكر إبراهيم على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها. وقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفهم وطغيانهم، فكادهم الربّ جلّ جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى: (قالوا حرّقوه وأنصروا آلهم إن كنتم فاعلين) ٢٤ قلنا يا ناز كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ٢٥ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين). (الأنبياء/68-70). وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً وأطلقوا فيه النار، فاضطربت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط، ثم وضعوا إبراهيم ٢٦ في كفة منجنيق، صنعه لهم رجل من الأكراد.. فلما وضع الخليل ٢٧ في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقى منه إلى النار، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل: فجاء أمر الله: (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) (الأنبياء/69). قال علي بن أبي طالب: أي لا تضري به وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: «وسلاماً على إبراهيم» لأذى إبراهيم بردها. وصار إبراهيم ٢٨ في ميل الجوبة، حوله النار، وهو في روضة خضراء، والناس ينظرون إليه، لا يقدرون على الوصول إليه، ولا هو يخرج إليهم.

وكذلك فإن المصير نفسه (وهو الموت) أصاب النبي شعيباً ٢٩ يقول أبو العلاء: «وأخو الظلة شريف كريم في الريم، اضطجع فما يريم».

وأخو الظلة: هو شعيب بن ميكيل بن يشجن، نبي بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل. وكان أهل مدين كفّاراً يقطعون السبيل، ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة (وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها)، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما، فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب ٣٠، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفعال القبيحة. فأمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحلّ الله بهم اليأس الشديد، قال تعالى: (والى مدين أخاهم شعيباً. قال يا قوم اعبدوا مالكم من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم). (الأعراف/85). وذكر تعالى أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلي ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: (إنما أنت من المسحّرين) ٣١ وما أنت إلا بشر مثّلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ٣٢ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ٣٣ قال ربّي أعلم بما تعملون) (الشعراء/185-188) وقال أيضاً وهو السميع العليم: (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) (الشعراء/189). إذ أصابهم حرّ شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظلّ، فهربوا من محلّتهم إلى البرية. فأظلمت سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظّلها، فراحت ترميهم بشرّ وشهب ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، فأصبحوا في دارهم جاثمين. ونجّى الله شعيباً ٣٤ ومن معه من المؤمنين كما قال تعالى: (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ «كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ» (هود/94-95).

وعن موسى ٧ يقول أبو العلاء: «والذي رأى النار فحسبه ناراً، أسرى فكشف عن بني إسرائيل شناراً، وكرة الموت ومقته، فلم يعد أجلاً وقته من لا يخطئ ولا يضل. يكبر عن الدنيا ويجل».

وهنا إشارة إلى قوله تعالى: (لَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ²⁹ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (القصص/29-30).

لقد اشتاق إلى أهله، فقصّد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مُتَخَفٍ، فلَمَّا سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدةً مقامه. واتفق ذلك في ليلةٍ مظلمةٍ باردة، وتاهوا في طريقهم، فلم يهتدوا إلى الدرب المألوف، وجعل يوري زناده فلا يوري شيئاً، واشتدّ الظلام والبرد، فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تَلَجَّجَ في جانب الطور. فقال لأهله: امكثوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً، وكأنه -والله أعلم- رآها دونهم، لأنّ هذه النار هي نور في الحقيقة. ولا يصلح رؤيتها لكل أحد. وفي سورة النمل: (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) (7). وقد أتاهم منها بخبرٍ وأي خبر، ووجد عندها هدى وأي هدى واقتبس منها نوراً وأي نور! قال الله تعالى: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

وفي قول أبي العلاء إشارة أيضاً إلى قصة عبادة قوم موسى العجل في غيبة موسى ٧. يقول تعالى: (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جِسْدًا لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ). (الأعراف/148). وهنا يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى ٧ إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربّه، ويسأله موسى ٧ عن أشياء كثيرة، وهو تعالى يجيبه عنها، فعمد رجلٌ منهم يُقال له: هارون السامري، فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عَجَلًا وألقى فيه قبضةً من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي، ويُقال: إنّه استحال عَجَلًا جسداً أي لحماً ودماً حياً يخور.. فيرقصون حوله ويفرحون (فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ) (طه/88)، أي فنسي موسى ربّه عندنا وذهب يتطلّبه وهو ههنا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقَدَّست أسماؤه وصفاته. قال تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه، وما عَولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاره أن يكون حيواناً بهيماً وشيطاناً رجيماً: (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) (طه/89). وقال: (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ). فذكر أنّ هذا الحيوان لا يتكلم ولا يردّ جواباً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً، وهم ظالمون لأنفسهم، عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال.

ويذكر داود ٧ في قوله: «وقارئ زبورٍ مُكْرَمٌ في عصر شبابه والهَرَم، شاكل به أصوات الطير، إثارةً للرُّشد والخير».

وقد جمع الله له بين الملُك والنبوة، بين خير الدنيا والآخرة، وكان الملُك يكون في سبط والنبوة في آخر، فاجتمع في داود هذا وهذا. كما قال تعالى: (وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة/251) أي لولا إقامة الملوك حكماً على الناس لأكل قوئُ الناس ضعيفهم. وقد ذكر ابن جرير في تاريخه: أنّ جالوت لما بارز طالوت. فقال له: أخرج إليّ وأخرج إليك، فندب طالوت الناس، فانتدب داود فقتل جالوت.

وقال تعالى: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ^{١٧} إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ^{١٨} وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ^{١٩} وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ) (ص/17-20) قال ابن عباس ومجاهد: الأيد: القوة في الطاعة، يعني ذا قوّة في العبادة والعمل الصالح. وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية: «إنا سَخَرْنَا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق» أي عند آخر النهار وأوله، وذلك أنّ الله تعالى وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث كان إذا ترنّم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرَجِّعُ بترجيعة ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلّما سبّح بكرةً وعشياً صلوات الله وسلامه عليه.

وأما النبي سليمان ٧ فهو أيضاً قد هلك، وقد اجتمع له الملك والنبوة. يقول أبو العلاء: «وسليمانُ الذي فُرِنَتْ له النبوة إلى الملُك، ما أنقذه ذلك من الهلك».

وفي قول المعري إشارة واضحة إلى قوله تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) (النمل/16) أي ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه

في المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم، ولأنه ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة». فالأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء. وهو ١ كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها، ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها. كما أوتي كل ما يحتاج إليه الملك من العدد والآلات والجنود والجيش، والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات».

كما يذكر المعري نبي الله يوشع ١، قائلاً: «وَمَنْ ادَّعَى لَهُ رَدُّ الشَّمْسِ، وَجَبَ فَتْوَى فِي رَمْسٍ»^٥. قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ لِبَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لِيَالِي سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ»، انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري، وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون ١ لا موسى وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا.

وكذلك عيسى بن مريم ١ الذي ادَّعى النصارى فيه أنه هو الله، يقول: «عَبَدَهُ قَوْمٌ وَانْتَظَرُوا لِقَوْمِهِ يَوْمٌ، إِلَّا أَنَّهُ فَارَقَ أُمَّهُ، وَمَا وَالَّ مِنْ بَعْضِ الْأُمَمِ أَنْ تَتَمَّهُ»^٥.

وفي ذلك يقول تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (المائدة/17). فالله يخبرنا عن كفر النصارى في ادَّعائهم في المسيح ابن مريم، وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أن هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ثم يخبرنا عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه. فلو أراد شيئاً فمن ذا الذي يمنعه منه أو يصرفه عنه. وهو القادر على ما يشاء^٥.

ويذكر أخيراً سيدنا محمد ﷺ، يقول: «ومحمدٌ ﷺ جاهد في طاعة ربه، وانتصر لأشياء الله وحزبه، ثم سكن في يثرب حفيراً، وكان أكرم القوم نفيراً»^٥.

يقول تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (آل عمران/123) أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والغدد. ويقول تعالى أيضاً: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ^{٢٥} ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) (التوبة/25-26).

هذه بعض صور جهاد النبي ﷺ وقد خصَّ الله تعالى بالذكر غزوة حنين التي ولى فيها المسلمون مدبرين، كما قال تعالى، ولكن الله أنزل طمأنينته وثباته على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، وأنزل جنوده وهم الملائكة، وعذب الكافرين. ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن، فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية بهدف العبرة، وبيان أن نهاية كل إنسان هي الموت والفناء. فذكر سبأ بن يشجب ثم ذكر الرائي بن لاوذ، وسمي الرائي لأنه سبى الآل، وأفاء المال، فراش به سگان اليمن، وذلك في شببية من الزمن، وفي عصر الرائي هلك لقمان صاحب النسور، ثم قام بعد الرائي ولده أبرهة ثم قام بعد أبرهة ولده إفريقس، الذي غزا المغرب فأبّر، ثم قام بعده أخوه العبد بن أبرهة، سبى الناس، فلما قَدِمَ دَعَرَ بهم الناس، لذلك دُعي ذا الأذعار. «وكم حَشَرَ من الأجناد جُمُوعاً، فإذا الملكُ وجُنُودُهُ هُمُودٌ، قد لقي ما لا قنَّةَ تَمُودٌ، فلا إله إلا الله يُفني الأُممَ وهو باقٍ، ولا تَقْدِرُ عبيدُهُ على الإِباقِ، ثم قام بعد ذي الأذعار هُدهُدُ بن شَرْحِبِيلَ بن عمرو بن الرائي، فما لبث إلا قليلاً حتى هُدَّ، فقصر ملكه وما مَدَّ، وهو والد بلقيس، فيما دُكِرَ، وإليها رَجَعَ ملكه لَمَّا احْتُضِرَ، وخَانَ هَلَكُهُ.. وَلَبِثْتُ بلقيس بعده يسيراً، ثم أَجَدْتُ إلى الآخرة مسيراً، فسبحان الله القدير، كلُّ الناس بائدٌ، فأين العائد؟»^٥.

يذكر أبو العلاء قوم ثمود الذين هلكوا بأمر من الله تعالى بعد ما عصوا رسول الله إليهم صالحاً ١. ثم يشير إلى الملكة بلقيس وهي بلقيس بنت السريح، وهو الهدهاد- وقيل: شراحيل- بن ذي جدن بن السريح... بن قحطان. وكان أبوها من أكابر الملوك، وكان يأبى أن يتزوَّج من أهل اليمن، فيقال: إنَّه تزوَّج بامرأة من الجن، اسمها ريحانة بنت السكن، فولدت له هذه المرأة وسمها تلقة، ويُقال لها بلقيس^٥.

ويذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم هدهد سليمان الذي غاب غيبة ليست بطويلة، ثم قدم منها لسليمان، فأطلعه على ما لم يطلع عليه وهو ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة. وكان الملك قد آل في ذلك إلى امرأة منهم ابنة ملكهم، وهي بلقيس قال تعالى: (فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَقِينُ^{٢٢} إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) (النمل/22-23). وقد ورد ذكرها أيضاً في رسالة الغفران على لسان الجني أبي هدرش. يقول:

بلقيس أودت ومضى ملكها عنها، فما في الأذن من هلبسيس^٥

ويذكر أبو العلاء قصة أصحاب الأخدود من خلال حديثه عن الملك ذي نواس. يقول: «وكان ذو نواس مارداً، على دين أصحاب السَّبْتِ حارداً فَحَقَّرَ الأخدود، وأضرع الخدودَ وأمرَ بتحريق أناس، دانوا بالإنجيل وجعلوه كالنَّيراس، فعمدَ ذو ثُعْلَبان للحبشة حتى أبانَ ما كان من أمر الحميري، لَمَلِكٍ من حامٍ قَبَصَرِي، فَجَهَّزَ إليهم خميساً، أوقد لهم من القتلِ خميساً، وانهزم ذو نواس حتى جاء البحر بقرسيه، فدخل فيه خوفاً من ملتَمِسِهِ، فكان آخر العهد به. والله العالم بمستقره ومدَّهيه».

هذه القصة أوردتها المعري للعظة والعبرة بالذين ماتوا من الملوك، وأصحاب الأخدود هم من أهل نجران، وكانوا نصارى وقد سار إليهم ذو نواس بجندة فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل فاختراروا القتل، فخذ الأخدود، فحرق بالنار وقتل بالسيف، ومثل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً. ففي ذي نواس وجنده أنزل الله Y إلى رسوله p: (قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا فُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ). (البروج/4-9). ولم ينجُ منهم سوى رجل واحد، يُقال له دوس ذو ثعلبان، ذهب فارساً وطردوا وراءه فلم يقدروا عليه، فذهب إلى قيصر ملك الشام فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرباط وأبرهة، فاستنفذوا اليمن من أيدي اليهود، وذهب ذو نواس هارباً فلجج في البحر فغرق. واستمر ملك الحبشة في أيدي النصارى سبعين سنة، ثم استنفذه سيف بن ذي يزن الحميري من أيدي النصارى.

وقد أخبرنا المعري عن هذه القصة أيضاً في رسالة الصَّاهِلِ والسَّاحِجِ، على سبيل الاستطراد، إذ كان يتحدث عن بلدة عِرْقَة، فيقول: «إنها تحتل وجهين: أحدهما أن يكون من العِرْقَة وهي السقيفة من الخوص، يُشدُّ بها الأسير... والوجه الآخر، أن تُحمل على التصحيف، وإنما قلت ذلك لأن الكلمة قد تُصحَّف إذا أُريدَ بها الفأل والطيرة... وإذا حملنا (عِرْقَة) على التصحيف قلنا: عِرْقَة. وهي فعلة من العَرَق، فيغرق الله الطاغية بقدرته، كما عَرَّقَ ذا نواس في البحر». وهنا يبدأ بسرد القصة كاملة.

ويتابع أبو العلاء حديثه عن ملوك اليمن، وأن مصيرهم هو الموت والفناء، ونجده بعد ذلك يقول: «فهذه ملوكُ جَمَيْرَ نَزَلُ بها الحَيْنُ، فما رَأَتْ مِنْهُمْ عَيْنٌ، ثُمَّ اسْتَوْلَتْ الحبشة على صنعاء، فَرَعَوْا اليَمَنَ إِذْ لَا رِعَاءَ. وقام منهم أرباطُ بادياً، وَقَتْلَهُ أَبْرَهُةٌ حَنِيفاً صَادِياً، وَعَمَدَ إِلَى الْبَيْتِ بِالْفِيلِ، فَكَانَ اللَّهُ بِهَلَاكِهِ أَنْجَحَ كَفِيلٍ، ثُمَّ وَلِيَ بَعْدَهُ يَكْسُومُ، وَكُلُّ لِلْحَوَادِثِ يَسُومُ...».

فيعد موت ذي نواس استقلَّ الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران أرباط وأبرهة (بن الصباح أبا يكسوم)، فاختلفا في أمرهما وتقاتلا، فتبارزا، فحمل أرباط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشقَّ وجهه، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرباط فقتله، وداوى أبرهة جرحه فبرأ واستقلَّ بتدبير جيش الحبشة باليمن، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي إني سألني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبَيَّنْ قبلها مثلاً. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، سمَّتها العرب القليس لارتفاعها، وعزم على أن يصرف حجَّ العرب إليها، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم، ودخلها ليلاً، فأحدث فيها، وكرَّ راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربته حجراً حجراً، فتأهب لذلك وسار في جيش كثيف عرمرم، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم يُرَ مثله، يُقال له محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك، فارتدَّ عنه خائباً، وأرسل الله على أصحابه طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كلِّ طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه. أمثال الحمص والعص، ولا يصيب منهم أحداً إلا هلك. يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ). (الفيل/1-5).

ثم يعيد المعري ملوك الفرس الذين هلكوا واحداً بعد الآخر، إلى أن يصل إلى كسرى، فيقول: «كسرى أَبْرَوَازُ، عِمِرَ وَمَالُهُ مِنْ مُوَازٍ، ثُمَّ هَلَكَ، فَكَانَتْهُ مَا مَلَكَ، بورانُ ابنتُهُ لَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ p خبرها. قال: «لن يُفْلِحَ قَوْمٌ أسندوا أمرهم إلى امرأة».

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف عن الحسن عن أبي بكرة: أنَّ سول الله p لما بلغه أنَّ أهل فارس مَلَكُوا عليهم ابنة كسرى قال: «لن يفلح قومٌ وَلُوا أمرَهُم امرأة». ورواه الترمذي والنسائي من حديث حميد عن الحسن عن أبي بكرة عن النبي p وقال الترمذي حسن صحيح.

ومن الأحداث التاريخية أيضاً ما نجده في رسالة الغفران، فهاهو يخبرنا في القصيدة السينية التي قالها على لسان الجنِّي أبي هدرش كيف استغوى هذا الجنِّي في جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة، إلى أن بعث الله نبيه محمداً p فأمن به وصنَّفه، واشترك معه هو وقبيلة من الجنِّ في غزوات بدر وأحد والخندق، كما اشترك في وقائع اليرموك والجمل وصفين والنهروان. يقول:

- 46- جَاهَدْتُ فِي بَدْرٍ وَحَامِيْتُ فِي
47- وَرَاءَ جَبْرِيلَ وَمِيكَالَ نَحْ
61- وَطَارَ فِي الْيَرْمُوكِ بِي سَابِجٍ
63- وَالْجَمَلُ الْأَنْكَدُ شَاهِدَتُهُ
- أَحْدٍ وَفِي الْخَنْدَقِ رُعْتُ الرَّئِيسَ
لِي الْهَامُ فِي الْكَبَةِ خَلِّيَ اللَّسِيسَ
وَالْقَوْمُ فِي ضَرْبِ وَطْعَنٍ خَلِيسَ
بَنَسَ يَنْتَجِ النَّاقَةُ الْعَنْتَرِيسَ

65- وَزُرْتُ صِفِينَ عَلَى شَطْبَةِ جَرْدَاءَ مَا سَائِسُهَا بِالْأَرِيْسِ»

وهذا كله من صور جهاد النبي p ضد المشركين. وفي قصيدة أخرى يحدثنا عن تحوّل الجَنِّي أبي هدرش، فقد أُعْطِيَ الجَنُّ الحَوْلَةَ إِنْ شَاءَ صار حَيَّةً رَقِشَاءَ، وَإِنْ شَاءَ صار عصفوراً، وَإِنْ شَاءَ صار حمامةً، وفيها يَقْصُ أبو هدرش مغامراته، وكيف ينتقل من قرطبة إلى الصين في ليلة واحدة، ليصرع فتاةً هنا وفتاةً هناك، ثم يذكر ما جرى له أَيَّامَ الطوفان وكيف زاده نوحٌ عن سفينته، فاعتلى في الجوّ إلى أن انحسر الماء كما يشير إلى تعرّضه لموسى v. ثم يذكر ماكان من أمره مع ملوك الفرس إلى أن رزقه الله الإنابة، وقدرت له التوبة. يقول:

- | | |
|---|---|
| 10- وَكَمْ صَرَغْتُ عَوَانًا فِي لَطَى لَهَبٍ | قَامْتُ تَمَارِسُ لِلْأَطْفَالِ مَسْجُورًا |
| 11- وَزَادَنِي الْمَرْءُ نُوْحَ عَنْ سَفِينَتِهِ | ضَرْبًا، إِلَى أَنْ غَدَا الظَّنْبُوبُ مَكْسُورًا |
| 12- وَطَرْتُ فِي زَمَنِ الطُّوفَانِ مُعْتَلِيًا | فِي الْجَوِّ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَاءَ مَحْسُورًا |
| 13- وَقَدْ عَرَضْتُ لِمُوسَى فِي تَفَرِّدِهِ | بِالشَّاءِ يُنْتَجُ عُمُوسًا وَفُرْفُورًا |
| 14- لَمْ أُخْلِهِ مِنْ حَدِيثِ مَا، وَوَسْوَسةٍ | إِذْ ذَكَ رَبِّكَ فِي تَكْلِيمِهِ الطُّورًا |
| 15- أَضَلَّلْتُ رَأْيَ أَبِي سَاسَانَ عَنْ رَشْدٍ | وَسَرْتُ مُسْتَخْفِيًا فِي جَيْشِ سَابُورًا |
| 19- ثُمَّ اتَّعَظْتُ وَصَارْتُ تَوْبَتِي مَثَلًا | مِنْ بَعْدِ مَا عَشْتُ بِالْعَصِيَانِ مَشْهُورًا |

كما كانت الشخصيات التاريخية ضمن ما استمدّ منه أبو العلاء ألفاظه، فقد استمدّ من المصدر الديني الإسلامي كثيراً من مفرداته ذات الدلالة الخاصة عنده. وها هو يتحدث عن أسد القاصرة الذي يفترس في الجنة ما شاء الله، فلا تتأذى الفريسة بظفر ولا نابٍ، ولكن تجدّ من اللذة كما يجد بلطف ربّها العزيز. ويسأله ابنُ القارح عن سبب وجوده في الجنة مع الصالحين، فيقول له: «أنا أسد القاصرة التي كانت في طريق مصر، فلما سافر عتبة بنُ أبي لهب يريد تلك الجهة، وقال النبي p: اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك، ألهمته أن أتجوّع له أياماً، وجئت وهو نائم بين الرفقة فتخلّلت الجماعة إليه، وأدخلت الجنة بما فعلت»^٥.

فأبو العلاء يشير إلى قصة عتبة بن أبي لهب الذي دعا عليه رسول الله p بسبب كفره. فقد جاء عن محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة: ... عن هبار بن الأسود. قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهّزا إلى الشام فتجهّزت معهما. فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمّد ولأذيقه في ربّه سبحانه وتعالى، فانطلق حتى أتى النبي p، فقال: يا محمّد هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فقال النبي p: «اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك» ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه، فقال: يا بني ما قلت له، فذكر له ماقاله، فقال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك». قال: يا بني والله ما آمن عليك دعاءه، فسرنا حتى نزلنا الشراة وهي مأسدة، ونزلنا إلى صومعة راهب، فقال الراهب: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد فإنها يسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم. فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سنّي وحقّي، وإنّ هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة، والله ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها، ثم افرشوا حولها. ففعلنا. فجاء الأسد فشتم وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبةً فإذا هو فوق المتاع. فشتم وجهه ثم هزمه هزمةً ففسخ رأسه فقال أبو لهب، قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمّد^٥.

ومن الشخصيات التاريخية الإسلامية، نذكر هنا الشاعر حسان بن ثابت، وهو شاعرٌ مخضرمٌ، عاش مائة وعشرين سنة، ستن في الجاهلية وستين في الإسلام. وقد ذكره المعري في اللزوميات في سياق عظاته المعهودة، وتذكيره بالموت، وأنَّ هذه الدنيا لن تدوم لأحد. ويشير أيضاً إلى قصة جنبه في اللزوميات وفي رسالة الغفران أيضاً. يقول: «ويقول قائلٌ من القوم: كيف جُبْنُكَ يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول: ألي يُقال هذا وقومي أشجعُ العرب؟ أراد سنَّةً منهم أن يميلوا، على أهل الموسم بأسياقهم، وأجاروا النبي ﷺ، على أن يحاربوا معه كلَّ عَنُود، فَرَمَتْهُمْ ربيعةٌ ومُضَرٌّ وجميعُ العرب عن قَوْسِ العداوة، وأضمرُوا لهم ضِعْفَ الشَّانِ، وإنَّ ظهر مَنِّي تحرُّزٌ في بعض المواطن، فإنما ذلك على طريقة الحزم، كما جاء في الكتاب الكريم: (وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ) (الأنفال/16)».

فأبو العلاء لا يرضى أن يقول قائلٌ من القوم لحسان بن ثابت: كيف جنبك يا أبا عبد الرحمن؟ فجعله يستنكر ذلك، مدافعاً عن نفسه، حين يُعَدُّ ما وُصِفَ به من طريق الحزم، فيبحث له عن آية تفسر له مواقف أمثاله، وهي الآية السابقة الذكر. وقصة جنبه كما ذكر صاحب الأغاني هو أن «صَفِيَّة بنت عبد المطلب كانت في فارغ، حصن حسان بن ثابت - يعني يوم الخندق - قالت: وكان حسان معنا فيه والنساء والصبيان، قالت: فمرَّ بنا رجلٌ من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا وبينهم من يدفع عنَّا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذا أتانا أت. قالت: فقلت: يا حسان إنَّ هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن. فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت: فلما قال ذلك ولم أرَ عنده شيئاً احتجزت ثم أخذت عموداً ثم نزلت إليه من الحصن، فضربت به بالعمود حتى قتلتها، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه، فإنَّه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجلٌ. قال: مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب».

وكان لشخصية علي بن أبي طالب ؑ، الحظُّ الأوفر، والنصيب الأكبر من حديث أبي العلاء، ففي حديثه عن تصحيح أهل الحديث. ذكر ما ادَّعي عليه من علم الغيب، فاستعان أبو العلاء بالقرآن الكريم والحديث الشريف في ردِّ ذلك الادِّعاء يقول: «وأما الحكاية عن أصحاب الحديث أنَّهم صحَّفوا رَحْمَةً فقالوا: رَحْمَةً، فلا أُصَدِّقُ بما يجري مجراها، والكذبُ غالبٌ ظاهرٌ، والصدقُ خَفِيٌّ متضائل، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك ادِّعاء مَنْ يدَّعي أنَّ علياً ؑ، قال: تَهْلِكُ البصرةُ بالرَّنج، فصحَّفها أهلُ الحديث: بالرَّيح، لا أومنُ بشيء من ذلك. ولم يكن علي ؑ، ولا غيره ممن يُكشَفُ له علمُ الغيب. وفي الكتاب العزيز: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) (الكهف/17). وفي الحديث المأثور: أَنَّهُ سَمِعَ جَوَارِيَّ يُغَيِّينَ فِي غُرْسٍ وَيَقُلْنَ:

وَأَهْدَى لَنَا أَكْبُشاً تُبْحِبُ فِي الْمَرْبِدِ

وزوجك في النادي ويَعْلَم ما في غد

فقال: لا يَعْلَم ما في غد إلا الله^٥. وفي رسالة الصاهل والشاحج يسلك أبو العلاء مسلماً فنياً، وهو طريقة الكلام المورى، أي باطنه على غير ظهره^٥. فيطيل الحديث عن علي بن أبي طالب^٦ على لسان الشاعر المستغبي، ثم يرد أبو أيوب (البعير) عليه جميع أقواله، مؤيداً كلامه بالأيات الكريمة والأحاديث الشريفة. يرد البعير على الشاحج قوله أن علياً كان يستعين بالغراب على طلب المياه، وقوله أن الهدد كان يكلمه بكلام يفهمه الحاضرون. يقول: «وأما قولك إنه كان يستعين بالغراب على طلب المياه، فلم يرو ذلك أحد من أصحاب الأخبار. وأي علم للغراب بمكان الماء وهو يسلك الفقر فيموت فيه من العطش؟ ولو قلت إن الهدد كن يُعيث على ذلك لذهبت مذهباً، لأنه جاء في الحديث أن سليمان كان يستعين بالهدد على طلب الماء لأنه كان قُباقباً، أي مهندساً! وأدعيت أن الهدد كان يكلمه بكلام يفهمه الحاضرون، فكذبته وأحلت، ما زعم ذلك زاعم سواك. ولو أن علياً فهم كلامه بخاصة يهبها الله له، لما جاز أن يفهم كلامه غيره. كما أن سليمان لم يكن أحد من أهل عصره يدعي المعرفة بكلام الهدد ولا أغراض التمل. وقد قال بعض الفلاسفة إن قوله تعالى، حكاية عن سليمان: «يا أيها الناس عَلمنا منطق الطير» (النمل/16). إنما يعني بذلك علم الموسيقى، لأنه تغلغل في معرفة الحروف واللغات والأصوات^٥. وبعد هذا الحديث عن هدد سليمان، نجد أن الشاحج كان يريد بالغراب حد الفأس. ويدل على كلامه بقول النابغة الذبياني:

أَكْبَ على فأسٍ يَحْدُ غرابها مُذْكَرٌ من المعاولِ باتره^٥

ويريد بالهدد الخصم الذي بين أيدي القاضي^٥. ولا ننسى هنا أن علياً كان المعتمد في شفاعته رسول الله ﷺ لأعشى قيس، ودخوله الجنة، وقد تكرر ذكره في غفران المعري.

5- قضايا الدين الإسلامي والمعتقدات:

1. الجبر والاختيار:

سندرس في هذا الموضوع ثلاث مسائل أساسية وهي: مسألة الجبر، ومسألة الاختيار، ومسألة التوسط بين الجبر والاختيار.

ولا بد هنا من وضع هذا المصطلح في مكانه الحقيقي من خلال تعريفه وتحديد. الجبر في الاصطلاح الفني الكلامي هو نفي الفعل حقيقة عن الإنسان وإضافته إلى الله. والجبرية صنفان. الصنف الأول: جبرية خالصة، وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، كالجهمية أصحاب جهم بن صفوان، فإنه يذهب إلى أن الإنسان لا يوصف بالقدرة ولا بالاستطاعة، وهو مجبر في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتُنسب إليه الأفعال مجازاً، كما تنسب إلى الجمادات. مثال ذلك قولنا أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغربت، وتغيّمت السماء، وأمطرت وأزهرت الأرض، وما إلى ذلك، وينجم عن ذلك أن الثواب والعقاب جبر، وأنه إذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً جبر^٥. ويقابل هذه الفرقة فرقة يُقال لها القدرية «نفوا القدر عن الله وأثبتوه للعبد فسموا لذلك قدرية، إذ جعلوا كل شيء لإرادة الإنسان وقدرته، فكانهم أعطوا الإنسان سلطاناً على القدر»^٥.

فالقديرون يؤمنون بأن الإنسان حر الإرادة، وله قدرة على أعماله، فهو مختار لا مُسَيّر مجبر، وأنه قادر على فعل الخير والشر، مسؤول عما يفعل يوم الحساب، مثاب على الخير، معاقب على الشر، وذلك بمقتضى العدالة الإلهية^٥. الصنف الثاني: جبرية متوسطة: تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً، كالأشعرية أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. وهذه القدرة الحادثة لا تأثير لها في الأحداث. ويلخص قولهم بأن الله تعالى أجرى سنته أن يخلق مع القدرة الحادثة أو تحتها الفعل الحادث إذا أَراده العبد وتجرّد له. ويسمى هذا الفعل كسباً، فيكون خلقاً من الله إبداعاً وإحداثاً، وكسباً من العبد حصولاً تحت قدرته، وهذه القدرة بمنزلة الشرط من المشروط فالقدرة كالمشروط والفعل كالشرط، فكما لا يوجد المشروط بدون شرط لا توجد القدرة بلا فعل، ويجوز أن يوجد الشرط بلا مشروط. وهذه القدرة شرط التكليف مقدمة عليه، وهي سلامة آلات الفعل وصحة الأسباب، ولا تتقدّم على الفعل، وتسمى الاستطاعة والطاقة والقدرة والقوة. وبعض علماء الحنفية جعل للعبد قدرة حادثة، وهي العزم على الفعل، وهي مسمى الكسب عندهم... ولكن إذا تأمل الإنسان تبيّن أن قول أهل السنة يرجع إلى الجبر عند التحقيق، وإن الإنسان في رأيهم مجبر في صورة مختار. وأن كلامهم في الأفعال الاختيارية فقط.

ومسألة الجبر والاختيار من المسائل القديمة التي واجهت الباحثين والفلاسفة منذ زمن بعيد. فقد تكلم فيها اليونان والفرس، ونقلها عن اليونان السريان، وخاض فيها النصارى حينما تقلست ديانتهم، وتكلم فيها الكلاميون من المسلمين.

وكانت تتلّون في مراحلها وتختلف باختلاف هذه المدارس. فإذا تكلم فيها الفلاسفة قصدوا إلى غرض فلسفيّ بحث: وهو تفسير الكون ومظاهره تفسيراً ما، وإذا تكلم فيها الأخلاقيّون قصدوا إلى غرض اجتماعيّ: هو النظر في المجتمع ونقده وإصلاحه أو محاولة ذلك، وإذا تكلم فيها أهل الدين فإنّما يلتزمون في بحثها تخريجات تبرّر مسؤولية الفرد عن أعماله وتقيم فكرة البعث والحساب والعقاب على أسس تختلف قوّة وضعفها.

وممّا لا شكّ فيه أنّ قضية الجبر والاختيار كانت ولا تزال قضية لما تُحسم بإزاء الفلاسفة والفنّانيين ورجال الدين جميعاً. ويرى الشهرستاني في الملل والنحل أنها كانت أولى دواعي الشبهات التي اكتتفت الكون منذ خلقه.

وقد وقع الرّواقبيّون في التناقض والتردد، فهم يقرّرون أن الإنسان حرّ الإرادة مختار ويسرفون في الإشادة بتلك الحرية ولكنهم يسلمون بالقضاء والقدر، ويقرّرون خضوع الإنسان في كلّ شيء للقوّة الإلهية.

أمّا الأبيقوريّون فيقولون بالجبر، ويمنعون الحرية، ويعلمون في صراحة أنّ الإنسان مغلوب على أمره لأنّه ككلّ شيء في الكون خاضع لنظام آلي لا دخل للإرادة فيه، محكوم بقوانين طبيعية لا تتخلف.

وقد تطوّرت القضية لدى المسلمين إلى ما هو أشمل من مجرد الخلاف حول مدى مسؤولية الإنسان عما يأتي من خيرٍ وشرٍّ، واتخذت شكل الخصومة العنيفة. تقول الدكتورة بنت الشاطي: «وقد أخذت المسألة نقطة ابتداء عند الخلاف في خلق الله تعالى لأفعال خلقه، ثمّ اتسعت وتشعبت، حتى أخذت شكل جدلٍ حاد، وخصومةٍ من أعنف الخصومات التي شهدتها البيئة الإسلاميّة، ذلك لأنّها لم تعدّ قاصرةً على خلق الله تعالى لأفعال خلقه، أو خلق الناس لأفعالهم، بل تفرّعت منها مسائل شتى، كلّ منها كان مثار الجدل والمناظرة، فتكلّموا في الهدى والإضلال، والتعديل والتجوير وإرادة الله كون الفسق والكفر، والكلام في اللطف والأصلح».

وقد انقسم المسلمون إلى قائلين بالجبر، وقائلين بالاختيار، ومتوسطة بين أولئك وهؤلاء. فالقائلون بالاختيار المطلق يرون أن الإنسان قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة. والقائلون بالجبر المطلق يرون أنّ جميع أفعال البشر خلقها فيهم الباري Y. والطائفة الثالثة هم الجبرية المتوسطة، وهم يثبتون للإنسان قدرة محدودة غير مؤثرة، ولا يأخذون بمطلق الجبر أو بمطلق الاختيار.

وقد توفّر لكلّ من أصحاب الجبر والاختيار والتوسط أو الجبرية المتوسطة سند من الأدلة العقلية والنقلية. فأصحاب الجبر قالوا مستندلين بالعقل: - إنّه لما كان الله تعالى فعّالاً، وكان لا يشبهه شيء من خلقه، وجب ألا يكون أحد فعّالاً غيره. - إنّ الله تعالى عالم بكلّ شيء، فعمل الإنسان يجري على وفق علم الله تعالى السّابق، وهو إذ ذاك مجبر لا مختار. - إنّ شمول القدرة الإلهية يقتضي ألا يقع في ملك الله إلا ما يريد.

وهنا نقف قليلاً لنبين رأي أبي العلاء في هذا المعترك. إنّ من استقرى نتاج أبي العلاء الشعري يجده حائراً بين الجبر والاختيار والتوسط بينهما. ففي اللزوميات أبيات كثيرة تشير إلى الجبر، وأخرى تؤكد حرّية الاختيار وأبيات صريحة في الدلالة على مذهب المعري في التوسط بين الجبر والاختيار. يقول:

وإن سألوا عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوقاً أبث ولا
لا تش مجبراً ولا قدرياً جبراً
واجتهد في توسيط بين بيننا

وقد رأى الدكتور طه حسين أنّ أظهر آراء أبي العلاء في الفلسفة الإلهية هو الجبر، فإنّ حياته المادية وشعره في اللزوميات ينطقان به، ويدلّان عليه، لا احتمالاً شكاً ولا تأويلاً. بل إنّه قد نصّ في مقدّمة اللزوميات على أنه لم يؤلف هذا الكتاب مختاراً، وإنما ألفه بقضاء لا يعرف كنهه. وقد ذكر الجبر في اللزوميات أكثر من مائتي مرّة يثبته ويناضل عنه، ويبسط سلطانه على الحياة العمليّة للأفراد والجماعات.

ويعود أيضاً في كتابه "مع أبي العلاء في سجنه" ليعمّق في الأذهان جبرية أبي العلاء. فيقول، وهو بصدد مقارنة بين (بشار بن برد) و (أبي العلاء): «ومع ذلك فقد كان كلّ من الشاعرين مجبراً في أكثر أحيانه وأغلب أمره. وكان كلّ من الشاعرين ينكر التكليف أو يكاد ينكره. وكان كلّ من الشاعرين يجهر بأنّه ليس مسؤولاً عما يأتي في حياته من خير وشر».

وفي نتاج أبي العلاء النثريّ، نجده يؤمن بالجبر إيماناً قوياً عميقاً، خاصّةً في كتابه الفصول والغايات، فراه يتحدث بين الفينة والأخرى عن القدر وأن الإنسان محكوم بقضاء الله تعالى في كلّ مكان وزمان. ولا مفرّ من قضاء الله، فينصح الإنسان بالصبر لأنّه المعين الوحيد له. يقول: «أنيّما تسيروا يصحبكم الله كما صحب من كان قبلكم، وله من العلم عنيّ عليكم، وإن تصبحوا وراء شقّ الثعلب فالقدر معكم، لا فرار من قضاء الله، فاصبروا على ما حكم إنّه واعي الكلمات». ويقول أيضاً في هذا المعنى: «وقد فرّرت من القدر فما أغنى الفرار إنّما أنا فريّ في ربّي قد أعدت له المديّة ينتظر به أمر المليك فتجري الشفرة على الأوداج».

وليس هناك أدلُّ على الجبر من قوله: « والله مَوْلَى الرَقْدَةِ والسُّهَّارِ. يا أَبْقَعُ، تخافُ أَنْ تَقَعَ، ولْيُذَرِّكَ قَدْرُ اللَّهِ ولو كنتَ أَخَا حِذَارٍ... والله قاسمُ الأرزاقِ كما شاء... والله العالمُ بمغيباتِ الأمور... ليس الأغانمُ كنزاتِ السَّنامِ، وَرَبُّكَ خَصٌّ بالفضيلةِ من اختارَ^٥. فالإنسانُ محاطٌ بقدرِ الله، وسيذكره قدرُ الله ولو كان في بروجٍ مشيِّدة، ولن يأتيه إلا ما قسمه الله له، وكلُّ رزقٍ يحصله مرتبطٌ بمشيئةِ الله تعالى وحده، فهو الوَهَّابُ الرزاقُ، المانعُ، الغنيُّ، المغنيُّ.

ويقول أيضاً في مسألة الرزقِ المقدَّر: « غَشِيَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ كُلَّ الْحَيَوَانِ، وَتَكَفَّلَ بِالرِّزْقِ لِكُلِّ الْمُتَعَذِّياتِ، وَعَلِمَ مَا كَانَ وما يَكُونُ بِغَيْرِ اكْتِسَابٍ، وَأَرْسَلَ الْمَحَنَ أَجوراً لِلْمُتَعَذِّدِينَ^٦».

هذه القضية أي قضية الرزقِ المقدَّر قد حظيت باهتمام المعري كثيراً في كتابه الفصول والغايات، ولم يقتصر فيها على الإنسان، وإنما شمل بها الحيوان أيضاً، فالحيوان لا تسيّر عليه الأرزاق حسب قاعدة مفهومة، كذلك الإنسان لا اختيار له في تقبُّل هذا أو رفض ذلك. يقول:

« الأرواحُ تفارقُها جِسمُها، والأرزاقُ عجبٌ مقسومها^٧ » ويقول أيضاً: « وَربَّما أضجعتني المُلجِدُ على رِمَمٍ مَيَّتٍ قَبْلِي لو نَطَقَ لم يَقُلْ مَرْحَباً. وتجيءُ جَيْلٌ بقدرِ اللَّهِ إنْ شاء فَتُكْشِفُ عَنِّي التُّرابَ لِتَعْدُوَ بي جِزْواً حَوْشِباً. عَرَفاءُ تُحْتَرَفُ، وَتُعَرَفُ بذلك وتُعرَفُ، أنْ لها عندي مَطْلَباً^٨».

وفكرة الأرزاق هذه توضح رؤية المعري في الجبر، لأنَّه مؤمن أنَّ هذه الحكمة هي التي تنظم الكون وتسيطر عليه، ويربط المعري هذا بقدرِ الله وقضائه، وأنَّ الرزقَ بيدِ الله سبحانه وتعالى، يعطي من يشاء ويمنع عنَّ يشاء. يقول: « وإذا استكفَيْتَ اللَّهَ كَفَاكَ. وينبغي للمسبوقِ، ألاَّ يُؤَثَّرَ بصَبُوحٍ ولا غُبُوقٍ، على أنه سُبِقَ بقدرِ اللَّهِ، فليستحي المتأخَّرُ أنْ يفتخرَ... الرزقُ بيدِ اللَّهِ من أرادَ حَرَمَ وَمَنْ أرادَ أَكْرَمَ^٩».

وكذلك قوله مؤكداً قدرةِ الله تعالى وإحاطته بكلِّ شيء، وتقسيمِ الرزقِ على عباده كما يشاء: « يا ذا الْخَطِيرِ، ليس لك من مَطِيرٍ، واللَّهُ بقدرتِهِ يَـطِيرُ ذواتِ الْأَخْفافِ راعيةً البربرِ لا تَرْفُلُ في الحريرِ. واللَّهُ كَسَا الْوَحُوشَ وَالْأَناسَ... افتقر الغابرُ إلى أَمِّ جابرٍ، واستغنى الذاهِبُ عن المواهبِ، وَربُّنا يغني مَنْ شاءَ^{١٠}».

ونجد المعري زاهداً فيرى أنَّ الغنيَّ كلَّ الغنى هو ذاك الإنسان الذي يبيع العالم وملذاته، ويذهب إلى قَمَةِ الجبلِ. يأخذ ما يكفيهِ من الغذاء من الطبيعة، ويعطيها ما يكفي أيضاً لغذاء الطيور. يقول: « من عند اللَّهِ قُسمتِ الْجُدُودُ. الغنيَّ كلَّ الغنى رجلٌ في شَعْفَةِ جَبَلٍ يُحَسِّبُ فقيراً وعنده فقيرٌ، وقد شَحَطَ عن العالمِ فهو مستريحٌ، والنَّفْسُ كثيرةُ الْأَرابِ. له تحت المسكنِ بَرَاخٌ يَطْلُبُ منه رِزْقَ رَبِّهِ كُلَّ عامٍ، ويودغُ الأرضَ ودائعُ تَأْكُلُ بعضها الطيرُ الهاتِفَةُ وَغُويَّرُ، فلا يُذَعَّرُ أحدهما ولا يُرابُ^{١١}».

ويقول أيضاً في المعنى السابق: «شَهِدَ كُلُّ ظِلٍّ وَفِيٍّ، أنَّ الدُّنْيَا ليستُ بشيءٍ، واللَّهُ قاسمُ الأرزاقِ ونافِضُ الوَسَامَةِ على الْقِسَمَاتِ^{١٢}».

ويقول في موضع آخر: «واللَّهُ مَغْذِي الْمَغْتَذِينَ... واللَّهُ رازقُ الْبِخْلَاءِ والأَكْرَمِينَ... واللَّهُ مَفَرِّقُ الْفَضِيلَةِ على الْمُتَفَضِّلِينَ... وإلَها بُرٌّ بِالْمَجْهُوِّينَ... وَرَبُّكَ الْمُطَّلِعُ إلى فاقَةِ الْمُحْتَاجِينَ... وقضاءُ رَبِّكَ يُدْرِكُ الْمُفْسِدِينَ^{١٣}».

وقد تكرر كثيراً الحديث عن مشيئةِ الله وإرادته واختياره، وعن القضاء والقدر وأنَّ كلَّ شيءٍ يكونُ بأمرِ الله تعالى ورضاه. يقول: «هَبَّتِ الْخَرِيقُ بِالْخَرِيقِ، فَأَلْقَتْهُ في ديارٍ ما توقَّعُ، وأَمُورُ اللَّهِ تَبْغِثُ الْغافِلِينَ إنْ كانَ الرَّيشُ من الحريشِ، فَلَعَلَّ الْعُودَ مِنَ السُّعُودِ، وكلُّ بِأمرِ اللَّهِ يَكُونُ^{١٤}».

وفي هذا المعنى يقول: « الذَّنْبُ وَالْغُ، وحولُهُ الْغَرِيرُ وَالصَّالِغُ، وأمرُ اللَّهِ قَدَرٌ بِالْغُ لا تعدوه الْأَسْدُ ولا الذَّنَابُ^{١٥}».

وأيضاً يقول مؤكداً معنى الآية الكريمة: « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون^{١٦} » (يس/ 82): « الطريقُ لآحِبٍّ،

فأينَ الصاحبُ! ومن صحبهُ الله فهو المحفوظُ، إن العَقْدَ في الذَّنْبِ وفي النَّقْدِ، وكلّ بقدر الله كان، وليس بمنقادٍ، مَنْ وَجَدَ أباهُ على اعتقادٍ، وربُّك مُلْهُمُ المعتقدين».

وبصور القدر في صورة تنثير الرعب في النفوس، فالموت كاسد يلتهم فريسته. يقول: «ذكرُ الله نهارٌ للمظلّمين. هاتِ أولاً ثُبات، القَدْرُ كاسدٌ نَهاتٍ، يأكلُنِي مَعَ المأكولِينَ. انتعشْ بالتقوى تعش، وربُّك ناعشُ العاثرين».

وقدّر الله نافذٌ في كلّ الأوقات، فيدعو المعري الإنسان إلى عدم التشاؤم أو كره أحد الأيام، إذا ما حدث فيه ما يسيء.

يقول: «الأيام كلها لله يُفَضَّلُ بعضها على بعض، وربما ساءتْكَ عروبةٌ، وسرَّكَ الخميس. وإذا نزل بك نازلٌ في يومٍ فلا تمقته لذلك، فالأقدارُ نافذةٌ في كلّ الأوقات».

والله يفعل ما يريد بيده الملك، وهو على كلّ شيء قدير. يقول: «والربُّ يُسْتَجَارُ لا يخرجُ ممّا يقضيه الجَمَدُ ولا الحيوانُ، ولا يفعلُ إلا ما رضى وشاء، غير متعلّق به الزبغُ والخطأ ولا شيءٌ من الدنّيات».

ونجد أبا العلاء هنا يطلب من الله تعالى أن يختار له مصيره:

يقول: «يا ابن آدم عِلِّقْتَ من الدنيا بأضعف مرسٍ، وطوقتِ الناقةُ بقيدِ الفرس، فهل لحشاشتك من حرس؟! مولاي قد سُمْتُ هذه الدار، وأنا فيها بخير، فانقلني باختيارك إلى حيث تشاء. وتخيّر العبد على مولاه شيقاً، ولا سيما إذا كان غير أوّاب».

وكلُّ شيء مرتبطٌ بالقُدرة الإلهية وعلم الله سبحانه، والإنسان يفعل الفعل فقد يحظى بعمله، وقد يشقى، وكلّ بقدر الله تعالى: يقول: «ليس المنجاةُ بركوبِ النجاة، قد تكونُ الرَبْقُ، مَنْ غير الأبق. وربُّ فارٍ من إبرة ذات الفقار، أتيح له نابُ الصل. وشر من نصل السهم سنان الخطي. ورب حَظوةٍ، جلبتِ الحظوة، وأخرى حلب راميها المزار، سبق علم الله بذلك، والقدرُ بأمره متاح».

والإنسان لا علاقة له في تصريف الأحداث، وإنما تفعل الأقدار به ما تشاء، فهو مجبر لا حول له ولا قوة. يقول: «ودع الأقدار وما تريد فإنها تصرف على اختيار المخلوقين. واعلم أن رزيتك لا تهجم على أحدٍ إلا عليك. غزالٌ غشيه المشنى بالهزال، فلما أخصب، وفقد النصب، حان، فلقى السرحان، مَرَّقَ إهابه بأظفار، أمثال الشفار، فما بكى له العلهب ولا العنبان، وذلك بقدر وحاه واج».

يحدّثنا المعري هنا عن جبرية أوجبتها الحياة، إذ اكتمل نضج الغزال بزوال الشتاء، فيأتي السرحان لينهي هذه الحياة، وهذا كلّهُ تمّ بأمر الله وحده.

ويحدّثنا في موضع آخر عن حالة الرضى بالواقع أو بالقدر النازل بالإنسان. يقول: «موتُ أسامة أحسن به من افتراس البرّ، وإذا رضيتِ اللقوة بصيد الحرشف بطل حظها في الحياة. وإذا مضى دهرك على منهاج فلنضج كأوله بقاء».

إن الأسد الذي يرضى أن يعيش على هذه الأكلة الوضيعة التي عبر عنها أبو العلاء بتلك الفأرة الصغيرة، وما أتعها من أكلةٍ لملك الغابة. إنّ الأسد الذي يقنع بهذا القوت المهيّن أولى به أن يموت بدلاً من هذه المهانة والضعفة. وكذلك العقاب، التي ترضى وتقع بالحياة على صيد الجراد، فما أحقره من صيد يطيب لهذا الطائر العملاق.

وهاهو يستكين ويستسلم استسلاماً شديداً عندما يحدّثنا عن القطاة التي تنزل إلى شرك الوليد لتحصل رزقها، فيكون مصيرها إما الذبح وإما السجن وإما العذاب المبرح. يقول: «تنزلُ القطاةُ إلى شركِ الوليد وهي فرحى بما لاح لها من الرزق، فيؤوّل أمرها معه إلى أحد ثلاثة أشياء: سحق مزعف، أو سجن حرج، أو عذاب مبرح، فأمس بما فعل ربك راضياً».

ويقول أيضاً عن الرضا بقضاء الله تعالى: «إنّ الحمامة حلاها بالطوق، أمرٌ من تحتِ وفوق، ولو شاء جعل الريم ذا برّيم، فارض بقسمك فإنك بعين الله يغيّر ما شاء من الأنام».

ويقرر أن المرء لا يمكن أن يحيد عما يراد به، فهو مجبور على ما يأتي من أفعال. يقول: «المرء بقدر ولغيره الأمور يحسب أنه يملك ويحوز، كذّب! لله النفوس».

وفي رسالة الصاهل والشاحج يؤكد المعري فكرة خضوع الإنسان للقدر، وأن أقدار الله جارية على مجاريها. على الإنسان والحيوان والكواكب والجبّال.. فالشاحج الذي يعاني من المشقة والكدح، ويشكو مما يلحق به من عناء ونصب، ومما ينزل به الإنسان من الظلم وسوء المعاملة، يطمع في أن يحمل عنه الصاهل رسالة إلى الحضرة العالية، بعد أن علم أن هذا الأخير ماضٍ في طريقه إلى حلب. يقول: «وقد عزمت يا خالي أن أستودعك رسالة إلى حضرة هذا الأمير، لتذكر بي ولالة العدل (فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين). لعلّ علاوة تحط عن فودي مثقل.. فيكون منك الطول بأن تصل تظلمي إلى الحضرة، فلعلّي أنصف مع المظلومين، وقد ترى ما أنا فيه، لا يطلب بعد عين أثر».

ويبسط الشاحج بعد ذلك ما يلاقه من قلة الدعة، وتتابع الإجهاد، واتصال التسخير، ونقص الرعاية. لكن دعوى الشاحج هذه تقابل من طرف الصاهل بالإعراض والنفور. فهو يستنكر أولاً دعوى قرابة الشاحج به، وينفر من تلك الخوالة المزعومة، ثم إنه ينكر عليه شكوى ما يلقاه من العنت، وتبرّمه بما ينزل به من ضروب العسف، لأن ذلك كله في منطق الصاهل - جارٍ على السنن المرسومة، والحظوظ المقسومة، والأقدار التي لا سبيل إلى ردّها، ولا حيلة للمخلوق معها، وهكذا يتوجه إلى الشاحج بقوله: «وأما شكيتك ما تلقاه من أحداث الزمان، فإنّ أقدار الله جرت على الأدلال، وهل يملك أحدٌ ردّ الأقدار؟ ما تقول في القمر لو شكا الدأب في ليلٍ ونهار؟ أصرف ذلك عنه إلى سواه إلا أن يقضي ربك نقضَ المرّة وتغيّرَ الفلك؟ ولو شكا (ثبيرٌ أو نعمانٌ) ما يلاقه من حرور القيظ وأريز الشتاء، هل كان إلى دفع ذلك عنهما سبيلٌ

للمخلوقين؟... وأي شيء من أصناف الحيوان لا ينصّب ويُقصّب؟ ألا تعلم أنّ بني آدم ملوك الأرض، لا يعدمون همّاً وسهماً من سهام القدر صائياً؟ في كلّ صدرٍ من الناس شجون، ولكلّ نطفةٌ أجون»^٥.

وينطلق الصاهل بعد ذلك إلى تفصيل القول في ما تلقاه سائر أنواع الحيوانات من المحن والشدائد بسبب الإنسان. ولعل قوله: « في كلّ صدرٍ من الناس شجون» يأتي حافزاً لدفع الصاهل إلى توسيع القول وتفصيل الحديث عما يصيب مختلف الحيوانات من ضروب الترويع والفتك، بادئاً بما تلاقيه الخيل في صحبتها للإنسان وخدمتها له. وهدف الصاهل هو تأسيّة الشاجح من جهة، والاحتجاج للقدر من جهة أخرى. فكل ما هو قائم ومتوارث ومعترف به من سبل الروابط والمعاملات المبنية على أساس الإقرار بتباين الدرجات وتفاضل المراتب بين المخلوقات، إنما هو عائد إلى القدر، ولا ذنب للإنسان الذي يحضر فقط بوصفه مفعولاً أو مجرد آلة للفعل. يقول الصاهل: « وكلّ ذلك بقدرٍ من الله، وليس ابنُ آدم فيما فعله بالذميم، إنما أجري من الشيم إلى ما هو مباحٌ جلّ، وأطلقه للعبد الإلّ»^٥.

ويرى أبو العلاء أنّ التوفيق يجيء من الله سبحانه وتعالى، بإجبار، ويستشهد بالآية الكريمة: (ووجدك ضالاً فهدى) (الضحى/7). وهذه الآية هي فيما حُوطب به p. وقد جاء ذلك بعد تصريح المعري بأنّ الصحابة، عليهم رضوان الله، كلّهم على ضلال، ثمّ تداركه المقنن ذو الجلال. يقول: « أليس الصحابة عليهم رضوان الله، كلّهم كان على ضلال، ثمّ تداركه المقنن ذو الجلال؟ وفي بعض الروايات أنّ عمر بن الخطاب خرج من بيته يريد مجتمعاً كانوا يجتمعون فيه للقمار فلم يجد فيه أحداً فقال: لأذهبنّ إلى الخمار، لعلّي أجدّ عنده خمرأ، فلم يجد عنده شيئاً، فقال: لأذهبنّ ولأسلمنّ. والتوفيق يجيء من الله سبحانه وتعالى، بإجبار، وفيما حُوطب به النبي p، « ووجدك ضالاً فهدى»^٥.

ومما سبق دراسته من شواهد وأدلة توضّح جبرية أبي العلاء نجد أن مفهوم الجبرية عنده يقيد الإنسان ويجعله

عاجزاً، فلا سبيل إلى خروجه عمّا رُسِمَ له، فهو مقيّد بقيودٍ تعيقه عن تحقيق أيّ تقدم وتطورٍ يطمح إليه. وكذلك رأينا المعري يقول بالقدر، ويصف فعله وأثره في الإنسان، وأنه لا مفرّ منه، وقد تحدّث كثيراً عن قسمة الأرزاق والرضى بالمقسوم. ونجده في الطرف المقابل يدعو الناس إلى المثل الإنسانية العليا، ويحفزهم على الفضائل، ويؤكد إيمانه بقدرة الإنسان على فعل الخير، ويدفع الإنسان إلى التفاؤل والثقة بالغد والإقبال على الحياة. والسعي الدؤوب لتحقيق الرزق. مع أنه سبق وأشار إلى أن كلّ شيء مقدرٌ عند الله سبحانه، فمهما سعى الإنسان فلن ينال إلا رزقه. (وهذا تناقض واضح). يقول في السعي لتحقيق الرزق: « لا تقنطنّ أيّها الإنسان، فإن بلغتك عند الله الكريم، والرزق يطلبك وأنت تبصرُ الأحلام، لو أنّ للرزق لساناً هتف بمن رقد، أو يداً لجذب المضطجع باليد، أو قدماً لوطئ على الجسد، لا يزال الرزق مُرتقاً على الهامة ترنيق الطير الظّماء على الماء المُطْمِع..»^٥.

كما أن الفصول والغايات كتاب دعوة إلى الخير والعمل. يقول: « العمل وإن قل يستكثر إذا اتصل ودام، لو نطقت كل يوم لفظة سوء لاسودت صحيفتك في رأس العام، ولو كسبت كلّ يوم حسنة عددت بعد زمن من الأبرار، إن اليوم انتلف من الساع، والشهر اجتمع من الأيام، والسنة من الشهور، والعمر يُستكمل بالسنين، الرجلُ مع الرجل عصبه، والشجرة مع الشجرة ذؤابة، والحجر فوق الحجر جدار...»^٥.

هذا جبراً أينما. إن دل على شيء، فإنما يدل على إيمان المعري بحرية الإنسان في اختيار أفعاله، ولعلّ هذا الاتجاه نابغ من إيمان أبي العلاء بالعقل الذي لديه القدرة على الاختيار. وهو في ذلك متأثر بفكرة المعتزلة في أن الإنسان مسؤول في تصرفاته وأفعاله. وما يعيش فيه المعري من ضيقٍ ومشقةٍ وعزلةٍ إنما هو من اختياراته، فقد أطلّ التفكير في الموت، وكاد يُقدم على الانتحار، لكنّه كان يخشى أن يتورّط في غضب الله. يقول: « لو أمنتُ التبعة لجازّ أن أملك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضنك الحياة، ولكن أهرب غوائل السبيل»^٥.

ويقول أيضاً: «قد كدثُ ألحق برهط العدم، من غير الأسف ولا الندم، ولكنما أُرهبُ قنومي على الجبار، ولم أصلح نخلي بياياً».

وهو القائل: «فلما تقصّيت الثلاثون، وأنا كواضع مرجله على نار الحباب، علمتُ أن الخير مَنّي غير قريب. الرجل كل الرجل من أتى الزكاة، ورحم المسكين، وتبرع بما لا يجب عليه، وكره الحنث وكفر عن اليمين. لولا خشية المنقلب لكنتُ أحد الفائزين. يأتيني الرزق ما سعت فيه القدم ولا عرق الجبين وأصيبُ من الطيب غير حسيب».

كان بوسعه أن يتكسّب بشعره وعلمه، لكنّه أثر العزلة، ورضي بالقليل، فنراه هنا لا ينكر الاختيار فهو يدعو إلى الزكاة والرحمة والصدق، وقد تكرّرت هذه النزعة الوعظية الخطابية في نتاج المعري، ووضع كتباً خاصة بالوعظ والإرشاد والنصح، ككتابه الفصول والغايات، والأليك والغصون، وتضمن الأي، وسيف الخطبة، وتاج الحزّة، والسجعات العشر، وملقى السبيل.

وترى الدكتورّة بنت الشاطئ أنّ هذه النزعة الوعظية المتمثلة في غير قليل من عطائه، بالإضافة إلى النزعة التعنيفية التي ينعي فيها على البشر فسادهم وسوء صنيعهم لشاهدان على قوّة اتّجاهه إلى القول بحريّة الإرادة، تقول الدكتورّة عن إلحاحه في الوعظ والنصائح: «وهذا جنوح إلى الاعتراف بالاختيار والاجتهاد، وإلا فكيف يستقيم إلقاء النصيحة مع مغلوب على أمره جُبِل على الشرّ وأجبر عليه؟ كيف يُوصى بفعل الخير وتجنّب الشرّ من يعلم أنّ الأمر رهّن بمشيئة الله لا بإرادة العبد؟».

ثم تشير إلى لهجته التعنيفية التي ينعي فيها على البشر فسادهم، وتقول: «وهذا جنوح إلى الاختيار لأنّ المجبر على الشرّ والخطيئة معذور، وأولى بنا أن نشفق عليه، بدلاً من أن نقسو في لومه وتعنيفه».

وقبل دراسة آراء الباحثين في هذه القضية لابدّ لنا من استكمال آراء المعري فيها. فقد أفصح أبو العلاء عن مذهبه الجبري من خلال الرسائل المتبادلة بينه وبين داعي الدعاة الفاطمي أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران، حول مسألة تحريم أكل لحوم الحيوان والألبان، وكلّ ما يصدر إلى الوجود من منافع الحيوان.

إنّ أبا العلاء، وهو يجيب على ما سُئل عنه من تحريم أكل اللحم على نفسه، قد أثار قضية الخير والشرّ، والقضاء والقدر، والجبر والاختيار.

ونقف هنا، لنرى أبا العلاء، قد دخل مع أبي عمران في جدلٍ منطقيّ، كان قد حدّره منه. يقول أبو العلاء: «ولم يزل من يُنسب إلى الدين يرغب في هجران اللحوم، لأنها لم يوصل إليها إلا بآلام حيوان، يفرّ منه في كل أوان، وإن الضائفة تكون في محل القوم وهي حامل، فإذا وضعت وبلغ ولدها شهراً أو نحوه، اعتبطوه فأكلوه، ورغبوا في اللبن، وباتت أمه ثاغية، لو تقدّر سعت له باغية. وقد تردد في كلام العرب ما يلحق الوحشية من الوجد، والناقة إذا فقدت الفصيل...».

ثم ينتقل إلى قضية الخير والشرّ، دون أن يقول قولاً شافياً فيما حرم ما أحلّ الله. يقول: «وللرسائل أنّ يقول: إنّ كان الخير لا يريد ربُّنا سواه، فالشرّ لا يخلو من أحد أمرين: إمّا أن يكون قد علم به أولاً. فإنّ كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين: إمّا أن يكون مريداً له أو لا. فإن كان مريداً له فكانه الفاعل، كما أنّ القائل يقول: قطع الأمير يد السارق، وإن لم يباشر ذلك بنفسه. وإن كان غير مريد فقد جاز عليه ما لا يجوز على أمير مثله في الأرض، إنه إذا فعل في ولايته شيء لا يرضاه أنكره وأمر بزواله. وهذه عقدة قد اجتهد المتكلمون في انحلالها فأعوزهم».

وكأنّ أبا العلاء أراد أن يقول، فيما أثاره من قضيتي الخير والشرّ والجبر والاختيار، إنه فيما فعل واقع تحت حكم القضاء والقدر، ولا يدّ له على دفع هذا القضاء. واستطرد إلى ضرب مجموعة من الأمثلة، كذكره فجيرة رسول الله ﷺ بولده إبراهيم، وذكر سمّ الحسن وقتل الحسين، وقتل حمزة، وموت أبناء أبي ذؤيب الهذلي، ويخبر عن كون جميع ذلك خيراً أم شراً. وهذا كلّهُ ممّا قدره الله سبحانه وتعالى، ولا علاقة للإنسان به. كذلك يرى المعري أنّ الله قضى له بذلك في تحريم الحيوان وما أحلّ الله من طيّبات، إلا أنه باختياره قد حرّم ما أحلّ الله.

ولمّا تلقّى أبو عمران جواب أبي العلاء، عمّا سأله عنه من تحريم أكل الحيوان، وجده يتهرّب من إجابته، ويذهب في ردّه مذاهب شتى. يقول أبو عمران في ردّه على المعري: «وأما القول بأنّ اللحوم لا يُوصل إليها إلا بآلام الحيوان، فقد سبق الجواب: لا يكوننّ الشيخ أرافت بها من خالقها. فليس يخلو من كونه عادلاً أو جائراً. فإن كان عادلاً، فإنه سبحانه يقيض أرواح الأكل والمأكول جميعاً، وذلك مسلم به. وإن كان جائراً، لم ينبغ أن نرجح على خالقنا بعدلنا وجوره. وأما قوله: «وللرسائل أنّ يقول: إنّ كان الخير هو الذي لا يريد ربُّنا سواه، فالشرّ لا يخلو من أحد أمرين: إمّا أن يكون قد علم به، أو لا...» إلى آخره. فأقول: قيل إنّ إنساناً ضاع له مُصحف، فقيل له: اقرأ! (والشمس وضحاها) فإنك تجده، فقال: وهذه السورة أيضاً فيه! فأقول أيضاً: إنّ هذا أيضاً من ذلك، وجميعه ظلمات، فأين النور!! وإنما قصدنا أن نعرف أبناء الأمور الصحائح كما قاله».

فأبو عمران يرى أن احتجاج المعري بالقضاء والقدر سفسطة، لا تُوصل إلى حق. ولا تكشف عن حقيقة، أشبه بذلك الذي ضاع له مصحف، فقيل له: اقرأ! (والشمس وضحاها) فإنك تجده، فأجاب في سفسطة: وهذه السورة فيه أيضاً... هذا تعطيل للأسباب، وطرح لما في الإنسان من إرادة يقوم وراءها عقل وإدراك وإلاّ لما كان هناك حساب وجزاء في الدنيا ولا في الآخرة.

وفي حديثه عن خلق العصاة، وإنكاره مقولات الملحدين. يقول المعري: «وقال بعض الملحدة -وأعوذ بالله أن أكون أحد المعترضين الذين هم للسخط من المعترضين في الكتاب العزيز: (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ⁵² وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ⁵³ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (سورة النجم/50-54) إن كان الباري جَلَّتْ قدرته- خلقهم وهو يعلم أنهم مجرمون يحرمون التوبة ولا يرحمون، فكان ينبغي ألا يخلقهم، لأن خلقهم أدامهم إلى العذاب والتجزع من الصاب وإن كان لا يعلم بما يصيرون إليه، فهو كغيره من الفاعلين. وقد يري الرجل ولداً فيكون عاقاً، أو يملك عبداً فيخرج معانداً مشاقاً ومعاذ الله أن نقول ذلك بل نسلم ونتلو الآية: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) (الكهف/17). وقد أقدم الكفرة على أعظم خطب، وحطبوا على ظهوره أسام خطب».

ويرد أبو عمران مقولة أبي العلاء هذه متهماً إياه بالإلحاد، فيقول: «وأما حكايته قول بعض الملحدين، واستعاذته بالله أن يكون من المعترضين في قوله تعالى: (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ)... الآيات، فإن كان الباري سبحانه خلقهم وهو يعلم أنهم مجرمون، والتوبة والإنابة يحرمون، فكان الأولى به، وهو الرؤوف الرحيم، ألا يخلقهم، لنلا يعذبهم. وإن كان لا يعلم، فهو كأمثالنا، ولا يدري ما يكون منه. وقول الشيخ بعده: معاذ الله أن نقول ذلك، بل نسلم ونتلو الآية: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) فليس الملحد إذا قال: إن السكر حلو والخَلَّ حامض، لا يقبل منه لكونه ملحدًا، وقوله يقتضي جواباً، فإن كان عند الشيخ جوابٌ فهو الذي ينبغي، وإلا فما التسليم في هذا الموضع إلا التسليم للملحد، لاشيء غيره».

وهذا اتهام صريح من أبي عمران لأبي العلاء بالإلحاد، واستشهاده بآيات الله في مقام الاحتجاج على صحة معتقده، لا ينفي عنه ما استبطن من إلحاد إنَّ أبا عمران قد لقي أبا العلاء في هذه الرسالة لقاءً صريحاً، يجبهه بمغالطاته، والتهرب من الإجابة على ما سألته عنه من تحريم أكل لحوم الحيوان، وما يُنتج من الحيوان، فكان أبو العلاء يدور بأبي العلاء في حلقة مفرغة، فلما ينس أبو عمران من أن ينطقه بالدليل الذي استدلل به على تحريم أكل لحوم الحيوان، أخذ يكشف عن سوء معتقد أبي العلاء ومما أجاب به أبو العلاء أبا عمران في إحدى رسائله أنه أراد بالبيت الذي أمسك به أبو عمران وهو:

غُوثٌ مريضٌ الدين والعقل فالفقني لتسمع أنباء الأمور الصحاح

الإعلام بجتهاده في التدين والتعبد، وأنه لا حيلة له في الآية المنزل: (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا).

وهذا يعني أنَّ أبا العلاء يقول بالجبر المطلق، وأنه لا اختيار للعبد، ولكنه قال بعد استشهاده بالآية الكريمة السابقة: «إنَّ لله سبحانه أسراراً لا يقف عليها إلا الأولياء»، فهو في استشهاده بالآية الكريمة قد أبطل الاختيار كما أبطل الاجتهاد، فمن أين يكون هؤلاء الأولياء؟ وقد سدَّ عليهم باب الاختيار والاجتهاد. فهذا تناقض واضح من أبي العلاء. وبهمنا هنا أن نبين آراء بعض الدارسين الذين تناولوا جبرية أبي العلاء بالبحث، إلا أنَّ أغلبهم قد اعتمدوا على شعر المعري في النتائج التي توصَّلوا إليها.

وهاهو الأستاذ محمد العزاوي يقرر، بعد دراسته للفصول والغايات، أنَّ أبا العلاء كان مؤمناً بالجبر إيماناً قوياً عميقاً. يقول: «فنحن إذا أردنا أن نلتمس نظرية الجبر عنده فلن نجد لها مجموعة في مكان واحد، ولا هو يعالجها بأسلوب واحد، وإنما أنت تقرأ الكتاب جميعاً فتجده ينطق بجبرية، إذ لا يكاد فصل من الفصول يخلو من الجبر تلميحاً أو تصريحاً أو رمزاً، فهو ساخرٌ مرَّةً، نائرٌ أخرى، هادئٌ أحياناً ممجَّدٌ متنوعٌ في أكثر الكتاب». ويرى أن العقل هو الذي هدى أبا العلاء إلى أنَّ الجبر مسلَّمٌ به، لأنَّ كلَّ شيء في هذه الحياة، إنما هو نتيجة لشيء كان قبله، ومقدَّمة لما يأتي بعده، وإذا صحَّت هذه القضية لم يكن للاختيار موضع؛ ذلك أنَّ هذا الاختيار إمَّا أن يكون متصلاً بما قبله وما بعده، اتِّصال العلة بمعلولها، فيكون الجبر بعينه، أو أن يكون الأمر فوضى واضطراباً، وهو لا يثبتُه الواقع الخارجي.

وقد اعتمد المعري على العقل في كلِّ أحواله، فما قام عليه دليل العقل احترامه واعتنقه وما لم يقدِّم عليه دليل أو خرج عن حيز العقل وقف منه المعري موقفاً يختلف رفضاً وشكاً لا يصلان إلى درجة الإنكار المحض، ولا الإيمان المسلَّم به، وخاصة إذا كان الأمرُ بمسئ الدين والقدرة الإلهية من قريب أو بعيد.

ونحن نوافقه في أنَّ المعري كان جبرياً في كتابه الفصول والغايات، ولكن يجب ألا ننسى أن هناك مواضع كثيرة تشير إلى إيمانه بالاختيار، خاصة منها ما يتعلق بالوصايا والنصائح أي الأفعال التي يقوم بها الإنسان ويعبر فيها عن حريته في الاختيار.

ويعتبر الدكتور طه حسين أبا العلاء جبرياً، وذلك في كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء) وقد ذكر أدلة تثبت ذلك، ثم عاد فوضعه ضمن مذهب التوسط بين الجبر والاختيار في كتابه (مع أبي العلاء في سجنه). وقد بنى موقفه هذا على قول المعري في الفصول والغايات: «إن الله وله غلو المكان جعل الشرَّ غريزةً في الحيوان، فأبعدهم من الشرور أقلهم حظاً في المعقول، ألا ترى الحجر الموضوع مر به العائر فأدمى الإبهام، لا ذنب للحجر لكن للواضع والعائرين».

وقد نسب الدكتور طه حسين أبا العلاء إلى الجبر الملطف لأنَّ التبعة فيما حدث ليست تبعة الحجر «فيرى أنَّ الشرَّ الذي لحق بالإنسان ينحل في حقيقة الأمر إلى نوعين من أنواع التبعة: أحدهما تبعة الذي هيأ أسباب هذا الشرَّ وجعلها في مواضعها من حياة الناس بحيث يعثرون بها ويتورطون فيها. فلو لم تنتهيا هذه الأسباب لما عثر الناس ولا تورطوا. فهذه

تبعه إيجابية هي تبعه خلق العالم كما هو وفيه ما فيه من أسباب الشرّ. والنوع الثاني تبعه الناس الذين يرون أسباب الشرّ فلا يتجنبونها، ولا يعدلون بأنفسهم عنها، وإنما يقبلون عليها ويسرعون إليها، فهذه تبعه سلبية»⁰.

ثم يخلص الدكتور طه حسين إلى القول: « وإذن فهو الجبر الملطّف، إن صحَّ هذا التعبير، الجبر الذي يعذر الإنسان بعض العذر ولكنه لا يعفيه من التبعات كلها. الجبر الذي يبيح لأبي العلاء أن يلوم الناشئ على آثامهم ويأمرهم بالخير، ويفرض عليه أن يحتاط لنفسه فيصطنع الخير ما وجد إلى ذلك سبيلًا، ويكفّ أذاه عن الأحياء ما وسعه أن يكفّ أذاه عنهم. وهذا الرأي من آراء أبي العلاء شائع في اللزوميات شيوعاً شديداً على تفاوت في ذلك، فهو مرّة يسرف في الجبر، ومرّة يقتصد فيه»⁰.

وقد وجدنا في كتابه تجديد ذكرى أبي العلاء رأياً جازماً منه بأنّ المعري جبري خالص، وفي هذا تناقض ملحوظ. أما الدكتورة بنت الشاطي، فهي ترفض رأي الدكتور طه حسين في الجبر الملطّف لتخلص إلى الحكم على المعري بالتناقض في تلك القضية إذ تقول: «عندنا أن أبا العلاء متناقض في مسألة الجبر والاختيار، فلسنا نعرف له رأياً بعينه ثبت عليه، وإنما يراه يبعد في الجبر حيناً، حتى ليصور الإنسان مجبولاً على الشرّ مغلوباً على أمره، يحاول الخير فتعده قوى قاهرة غلبة لا سبيل له إلى مقاومتها، ويجنح إلى الاختيار حيناً فيقول بالاجتهاد ويدعو إلى صالح الأعمال، ويقسو في لوم الناس ويضيق بآثامهم، وينفي الذنوب عن الدنيا والقدر ليثقل بها كاهل الإنسان، ويتوسط متردداً بينهما حيناً ثالثاً، كما رأينا في قصة الحجر العائر، وقد يتوقف في الأمر فلا يقول بجبر خالص، ولا باختيار خالص، ولا بجبر متوسط ملطف بل يقف حائراً متردداً. هو إذن متناقض لم يثبت عند رأي بعينه، فليس من الصواب أن نقول إنّه جبري أو اختياري، أو متوسط، أو متردد؛ لأنه قال هذه جميعاً فاختلط أمره، وتناقضت أقواله»⁰.

ويفسّر بعض الباحثين هذا التناقض، فيرى أنّ المعري يفرّق بين حالتين إحداها وجودية، وأخرى مثالية. والحالة الوجودية تثبت أن الإنسان مجبرٌ كغيره من الكائنات، والحالة المثالية توجب أن يحاول الإنسان الإفلات من الطبيعة حتى يبلغ غايته، وهي حالة استثنائية قلما يستطيع الإنسان تحقيقها»⁰.

أما الأستاذ حامد عبد القادر فيقول في هذه القضية: « ولما كان في اعتناق أحد المذهبين غلوً وتطرفاً، كان من الأسلم اتباع خير الأمور وهو: التوسط بين الرأيين فليس من الحزم الإيمان بأن الإرادة البشرية مقيدة لا تأثير لها مطلقاً، ولا بأنها تستمتع بحرية كاملة مستقلة عن قدرة الله وتقديره، وإذن يكون المذهب الحق هو مذهباً وسطاً بين هذين الطرفين، وحينئذٍ يظهر أبو العلاء على مسرح التفكير في لباس آخر ويقول: وإن سألوا عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوقاً أبث ولا جبراً »⁰

ومما يؤكد نظرية الجبر عند المعري هو وجود الطبائع المخلوقة في الإنسان التي لا حيلة لقدرات عقله أمامها. فهي نوع من الجبر المطلق الذي يحدد مصيره على غير إرادته، وعلى البشر أن يدركوا أن مصائرهم موكلة بأقدارهم لا بإرادتهم وتبديدهم»⁰.

وهناك من أكّد القول بالجبرية المطلقة عند المعري من حيث أن الإنسان ولد فاسداً، وسيبقى كذلك إلى أن يزول»⁰. ونحن نذهب مع من ذهب إلى أنّ أبا العلاء كان متوسطاً بين الجبر والاختيار، فهو يرى الجبر في أمور الخلق والحياة والموت، أما الأفعال الإنسانية فالإنسان مختار فيها. ولعلّ هذه الرؤية متفقة تماماً مع الرؤية الإسلامية، التي ترى أنّ الإنسان مسيرٌ في أمور ومخيرٌ في أمور أخرى، حتى يحقّ له الثواب والعقاب في الآخرة. وهنا لابدّ من ذكر الآيات القرآنية التي تدلّ على الجبر، والآيات التي تدلّ على الاختيار.

فمن الآيات التي تدلّ على الجبر: (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا* وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ

يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا* يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) الإنسان/29-

(31)- وقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات/96) وقوله تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ

حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (السجدة/13) - وقوله: (وما كان لنفس أن تؤمن إلا

بإذن الله). (يونس/100). - وقوله: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (الأنفال/17) وقوله:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ

حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (فاطر/8).

ومن الآيات التي تدل على الاختيار:

- قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة/7-8)

- وقوله: (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الصافات/39).

- وقوله: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين/14).

- وقوله: (وَأَمَّا نُمُودُ فَبِهِدْيَانَا هُمْ فَاسْتَحَبُّوا النُّعْمَى عَلَى الْهُدَى) (فصلت/17).

- وقوله: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان/3).

تلك الآيات تؤكد ما ذهبنا إليه في توسط أبي العلاء بين الجبر والاختيار، فالاختيار كان واضحاً في الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حياته، وبناءً عليها يحق له أن يُعاقب أو يُثاب. أما أمور الخلق والحياة فهو مجبرٌ فيها.

2. الإيمان بالله وحده:

لوحداية الله في التفكير الإسلامي مكانةً عاليةً، وهي تشمل الوحدة في الوجود أي إنّه إله واحد، فليس في الإسلام تعدّد آلهة بأيّة صورةٍ من الصور، وتشمل كذلك الوحدة في التركيب فليس الله مكوناً من أجزاء، وتشمل ثالثاً الوحدة في العبادة فليس هناك معبودٌ إلا الله وليس هناك صاحب سلطان مطلق يصرف الأمر كله، ونتج له خاضعين ساجدين إلا الله الواحد القهار. وتوحيد الله وعبادته دون سواه تكسب المسلم الأنفة والشجاعة مادام يدرك أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له. قال تعالى: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) (التوبة/51). وقد حكم القرآن الكريم العقل في مسألة التوحيد والتعدد، وأثبت بأسلوب منطقي أن خالق الكون لابد أن يكون واحداً. قال تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (الأنبياء/22).

وأبو العلاء كان شديد الإيمان بالله تعالى، ولم يكن إيمانه وجدانياً فحسب بل كان إيماناً عقلياً أيضاً. وليس هناك أدلّ على إيمان المعري بالله تعالى من كتابه الفصول والغايات، الذي ألفه ابتغاء مرضاة الله، وكان أساسه الدعوة إلى ذكر الله تعالى. يقول المعري: «عَلِمَ رَبُّنَا مَا عَلِمَ أَنِّي أَلْفْتُ الْكَلِمَ، أَمَلْ رِضَاهُ الْمُسْلِمَ، وَأَتَقَى سَخَطَهُ الْمُؤَلَّمُ، فَهَبْ لِي مَا أَبْلَغَ بِهِ رِضَاكَ مِنَ الْكَلِمِ وَالْمَعَانِي الْغَرَابِ».

والفصول والغايات -كما يرى الدكتور طه حسين- «نوعٌ من أنواع التقرب إلى الله، ولونٌ من ألوان العبادة له، والإمعان في تسبيحه، والثناء عليه. ولكنّ أبا العلاء يعبد الله ويتقرب إليه كما يريد هو ويختار، لا كما يريد الناس ويختارون، فهو يثني على الله ما في ذلك شكّ، ولكنه يثني عليه ثناء الرجل الحرّ الذي يجمع بين خصلتين متناقضتين: هو حرّ فلا يمنعه شيء من أن يتحدث إلى ربّه حديث المؤمن به المطمئنّ إليه يصارحه بما فهم وبما لم يفهم، ويجاهره بما رضي وبما لم يرض، ويظهره على ما يعرف وما ينكر، في هدوءٍ واطمئنانٍ وثقةٍ، وفي خوفٍ وفزعٍ واهلجٍ أيضاً، هو مؤمن بالله ولكنّه مؤمن بعقله أيضاً، فإيمانه بالله يدفعه إلى الحب والأمن والثقة حيناً، ويدفعه إلى الخوف والإشفاق والقنوط حيناً آخر، وإيمانه بالعقل يدفعه إلى الشكّ والإنكار مرّةً، ويدفعه إلى الإيمان واليقين مرّةً أخرى».

والله سبحانه وتعالى إلهٌ واحدٌ موجودٌ، ففي الصفحة الأولى، والسطر الأول من الفصول والغايات، يصرّح أبو العلاء بأدلتها على وجود الله سبحانه وتعالى، يقول: [أرأيت حبة القفر، العارضة في سبيل السفر، والهاجمة على نقيع الجفر، يشهد خلقها بأمر للواحد ملك الدهر، خالق السنّة والشهر، غبث غيبةً بقدر، ثم رجعت عن هجر، فما كدت أجد من شفر، بُدِّلَ مسكناً بقبر، كأنهم سقوا ماء الأباء»].

فهذه شهادة صريحة بوجود الله تعالى، ويصرّح بذلك في موضع آخر، في سياق حديثه عن تسبيح الله، فكلُّ شيء في هذا الكون يسبح الله، ويحمده، ويمجّده. يقول: «الطيور ناطقات بالسُّبح، ورجالٌ ماتقِرُّ بالبعث، بلى! جلّ القادر عن ارتياح... سبح الله ومجّده، وعظم الخالق وحمده طائرٌ لا يحفل بزینب والرباب».

ويعلن المعري وحدانية الله تعالى، مذكراً بنعمه وكرمه على عباده، وقدره الذي لا يسبق، فلا يملك العبد إلا أن يشكر الله تعالى في كلّ حين. يقول: «أنت ربُّنا الفدّ، وذكرُك بأفواهنا لدّ، والرجاء من سواك مُنْبَذٌ، والعمر ماضٍ أحدٌ، والمريش منا أفدّ، وجاري قدرُك لا يبذّ. ما أعظم نعمك على المخلوقين... إنَّ كَرَمَكَ لعظيم، والثناء عليك نثير ونظيم».

ويؤكّد المعري وجود الله ووحدانيته مرات عديدة في كتابه. يقول: «ثبت أمرُ الله ثبات الهضبة تحت الغضبة، وانقضب سواه مثل القضبة، بل انجاب، كانجياب الضباب، وإنَّ ربّنا لمنصف، وبأمره جرت المعصف، تُخبر عن كرمه وتصف»^٥.

وفي وحدانية الله يقول أيضاً: «كم في السماء من نجمٍ لاح للركب، وآخر طلع غب الغمام، كلاهما شهيدُ القدرة ودليلُ الوحدانية، كم في الوادي من سمرة، وفي السمرة من موقع نظرة كأنها تحثّ على التقوى، أو تأمر وتنهى».

والله واحدٌ لا شريك له، ربّ الناس جميعاً: «أنت ربُّ الملك والصلعوك، ليس غيرُك إلهٌ وحدك، وحدك بلا شريك».

أثبت المعري الوحدة المطلقة لله تعالى، ولا شك أنه استوحى معاني القرآن الكريم التي تشير إلى وحدانية الله. فمن الآيات الكريمة التي تتجسّد فيها تلك المعاني:

- (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الأنعام/102).

- (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (طه/8).

- (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (المؤمنون/116)

- (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(القصص/88).

- (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) (الدخان/8).

كما ركز المعري على إثبات صفة القدرة الإلهية الشاملة، فتراه بين الحين والآخر ينبه القارئ ويذكره بهذه الصفة العظيمة التي سيطرت على كتابه الفصول والغايات سيطرةً كاملة، فلا تكاد تقرأ صفحة منه أو أكثر حتى يصادفك حديثٌ شائقٌ عن القدرة الإلهية، بادئاً قوله بصيغة معينة هي (لو شاء الله) (لو أذن الله) (لو أراد الله). يقول: «إذا أذن ربُّنا اخضرّ الدرين، وتبجست بالماء الإرين، ووفى لقربنه القرين، وراحت الساجسية ومأواها العرين، ولحقت بالقلائد البرين، تصيرُ بُرّة الغادة عقداً، وبرة الناقة في غنقها قدّاً، وذاك من القدرة ليس ببديع».

ومن ذلك أيضاً قوله الذي يصوّر فيه قدرة الله تعالى، وإحاطة سيطرته بكلّ ما في السموات والأرض وما بينهما، حيث يقول: «قد فررتُ من قدر الله، فإذا هو أخو الحياة، هل أطأ على غير الأرض، أو أبررُ من تحت السماء، أدلجتُ

فأصبح أمام المدلجين، وهجرت وهو مع المهجرين، قال وعرس مع القالة والمعرسين. اللام هزيلٌ والعطاء ليس بجزيل. وأولع الولدُ بالرهاث».

ولا شك هنا في أن أبا العلاء قد نظر إلى قوله تعالى: (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ). (الحج/15). وقد استطاع المعري بدقة فهمه أن يخرج هذا المعنى في عبارة سهلة وأسلوب يسير.

كما يصور قدرة الله تعالى بقوله: «فسبحان سائر العالم بالعقول ومحلي السماء بالشهب، والغمام بعقيق البرق، وكاسي ذوات الأجنحة غرائب الريش، وملبس البسيطة حلل البنات».

هكذا مضى المعري في فصوله وغاياته بيرهن على إيمانه القوي بقدرة الله سبحانه وتعالى ذاكرًا جوانب تلك القدرة مبينًا ضعف الإنسان وعجزه إزاءها. ولعلّه لم يركز على صفة من صفات الله تعالى كما ركز على صفة (القادر)، وهو يعرض قدرة الله تعالى في مظاهر كثيرة، في السماء والأرض والإنسان والحيوان والجماد عرضاً رائعاً، يدل على إيمانه بقدرة الله Y إيماناً كاملاً. يقول: «لو شاء الله لحسم ريب منون قد عسم. لا يترك ما تجسم فشفي نفوساً تعجز عن الشفاء».

وتتجلى أيضاً قدرة الله تعالى في الحيوان، فهو قادرٌ أن يعيد الناقة والجمال كما كانا قبل أن يذبحا. وهذا يذكرنا بطاووس الجنة في رسالة الغفران، وقوله تعالى: (قال من يحيي العظام وهي رميم) (يس/78). يقول أبو العلاء: «إن ناقةً وجمالاً، غبرا في الزمن هملًا، حتى إذا صار الجمال عوداً، والناقة ناباً لا تتعب ذوداً، سلط عليهما ربٌ مدية، لا ينشط لأخذ الفدية، فحرا بعلم الله، والقدر صير لحومهما ثَقَدِر، وصنع من جلودهما خُفان مسح عليهما للصلاة، لحقيقان -والله قدير- أن يعيدهما الخالق بكرين، يهملان بين حمض وعين، لا يمنع منهما حوض، ولا يحظر عليهما روض، يدومان كذلك ما اكتسى هيقٌ بعفاء».

في قدرة الله تعالى أن ينقل الجبال من مكانها إلى حيث يشاء، يقول: «وفي القدرة أن يصبح ثهلان في الوادي الحرام، وينتقل ثبيرٌ إلى حيرة النعمان. ولعلي أدفن بشابة أو بآراب».

وفي رسالة الهناء يتحدث حديثاً طويلاً عن القدرة الإلهية في سياق مدح الأستاذ أبي فلان، وهو رجل من أهل عصره، بعث إليه بالرسالة، يهنئه فيها بقدوم وزير شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس، وهو لم يصرح في الرسالة باسم الضيف، ولا المضيف، ولكنه كنى الأول بأبي علي، والثاني بأبي فلان. فذكر في مدح أبي فلان ما يجوز أن ينحول -بيمينه وبركته- من مستحيل ممتنع إلى جائز ممكن، كإفراق البحر، وما تعرض لمائه من نقص ونضوب، وانسراب حيتانه وسواكنه، وجريها فيما يشبه الصحارى والسهوب وعود ملحه وأجاجة، أحلى من ضرب النحل ومجاجة، وجري السفينة على اليبس أو سبحها في مسابح النجوم كشعلة من قيس، أو طيرانها في الفضاء محمولة على متن الهواء، كما حمل عرش بلقيس من اليمن في اللحة اليسيرة من الزمن. يقول: «لو جاز أن تنشق الطامية لغير الكليم، لانفرك له غير مُليم: (وَقَضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْنَوْتُ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود/44) وقالت الحيتان المتفككة، ما حدث نُضُوب الماء إلا لخطب قضي من السماء، فمن هذا الرجل الصالح الذي عمل خيراً في الصرعين ودأب في صلاح الشرعين، فتولى الله عن الإنس كفاءه، وحفظ له في الدارين وفاءه، ولا يمتنع في القدرة أن يعذب لبركته الماء الأجاج، فيعود كأنه من النحل مجاج، أو تسير السفينة على اليبس نُضْيء كإضاءة القيس، في يد متعجل وشيك، وليس ذلك بمنالٍ بشيك، أو تحملها الريح الهامة كحملها عرش المؤمنة بلقيس، إذا مثل خبراً أو قيس».

فأبو العلاء يعول على القرآن الكريم في تصوير قدرة الله سبحانه. كانشقاق البحر لموسى v، ولا يمتنع في القدرة الإلهية التي لا يعجزها أمرٌ من الأمور أن يجعل الرياح في هبوبها تحمل سفينة الممدوح (أبي فلان) كما حملت عرش بلقيس من اليمن. فالله قادرٌ على إبداع كل شيء وتذليل كل صعب. وقد تعددت الآيات التي تجلت فيها القدرة الإلهية في السموات والإنسان والحيوان.

وفي سورة البقرة يصور الله قدرته على إحياء الموتى، قال تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جَمَاركَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الآية 259.

وفي سورة آل عمران يقول تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الآية 26.

وفي خلق الحيوان يقول تعالى في سورة النور: (خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الآية 45.

وتتجلى قدرته في خلق السموات والأرض، يقول تعالى في سورة الطلاق: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) الآية 12.

وقد تعددت صفات الله تعالى، التي تحدث عنها المعري في نتاجه. وهذه الصفات هي: حكيم: في قوله: (الله أول حكيم) الفصول/ ص9 (الله الحكمة والرشاد) الفصول ص11- (الخالق الحكيم) الفصول ص339- (أحكم الحاكمين) الفصول ص204- (إنه الحكيم الكريم) الفصول ص173-

وهو كريم: (والله مانح المثزين) الفصول ص98- (إِنَّ بَلْعَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ الْكَرِيمِ) ص13- (والله المأنُ عليك) ص99- (ربنا الكريم الأعلى) ص116- (والله أكرم الأكرمين) ص152- (والله مُعْطٍ مَنْ شَاءَ) ص271- (فعفوك الله وأنت كريم) ص316- (إن الله كريم) ص378 (والله كريم) الرسائل ص114 و ص127 (لا تئأس من رحمة ربك فإنه كريم) (الأيك والغصون) ويقول في ملقى السبيل:

لو بغيت الذي أراد بك الله لأعطاك فوق ما أنت تبغي (إتحاف الفضلاء 369)

ويقول في موضع آخر: « لله الكرم والمن وعن بارئك تزول الطنن لا يسترك من الموت الحنن. وبالعاصف يراع الفن لا تعصمك العنن:

ويحك لا تمنن على منعم عليه والخالق رب المنن » (إتحاف الفضلاء 371)

وهو الموقق: (الموقق أين اتجه غانم) الفصول ص11- (وربك موقق الواجدين) الفصول ص162 وهو الهادي: (والله الهادي إلى غوامض الأمور) الفصول ص26- (والله هادي الضالين) الفصول ص157 وهو قديم: (وربنا القديم المورث) الفصول ص6- (قديم القدماء) الفصول ص92- (ربنا القديم المثمر) الفصول ص100- (غفرانك ربنا القديم) الفصول ص22- (الله القديم الأعظم) الفصول ص158- (الجبار القديم) الفصول ص333- (وأنَّ الوارث هو القديم) الفصول ص338- (أما الله فأزلي) الفصول ص399- (فسبحان الله القديم) الرسائل ص99- ويقول في ملقى السبيل: من أعظم الحدث سكنى الجدث:

يدوم القديم إله السماء يغني - بأقداره- ما حدث

وما أَرغب المرء في عيشه ولكن قصاره سكنى الجدث (إتحاف الفضلاء ص363)

- (تعالى ربك القديم) الفصول ص407.

الدائم: (وجه الله بغير زوال) الفصول ص102- (الخلود لإلهنا الجبار) الفصول ص184، (والله باقي) الفصول ص237 (وملك الله بغير زوال) الفصول ص250.

لا مثل له ولا نديد: الفصول ص292.

الرافع: (والله رافع الرتبات) الفصول ص26- (رافع السموات) ص55 الفصول.

الخبير: (والله لطيف خبير) الفصول ص211- (الله عالم خبير) الفصول ص237.

عالم وعليم: (والله عليم) الفصول ص125- (والله العالم بمغيبات الأمور) الفصول ص182- (والله العالم المقتدر) الفصول ص343- (العالم القدير) الفصول ص357- (عالم المغيبات) (وعند ربنا مفاتيح الأمور) الفصول ص312- (والله عليم) الفصول ص374- (والله عالم خبير) الفصول ص237.

الرزاق: (قاسم الأرزاق) الفصول ص126- (رازق التقوى) الفصول ص158- (والله رازق المتكئين) الفصول ص162- (وعلى الله رزق العالمين) الفصول ص198- (والله رازق البخلاء والأكرمين) الفصول ص181- (وربك قاسم الجدود) الفصول ص199- (وربك رازق المقلين) ص199- (والله رازق الحاضر والبادين) الفصول ص211- (وربك قاسم الأرزاق) الفصول ص237- (والله رازق المتكئين) الفصول ص68.

الغفور: (والله غافر ذنوب المنيين) الفصول ص198- ويقول في ملقى السبيل: «كم يجني الرجل ويخطئ ويعلم أنَّ حقه لا يبطئ: إن الأنام ليخطئون ويغفر الله الخطيئة» إتحاف الفضلاء ص362.

السميع: (يسمع دعاء الداعين) الفصول ص378.

الباعث: (والله باعث النقمات) الفصول ص125- (باعث القوم المغيرين) الفصول ص129- (والبارئ باعث البروق للشائمين) الفصول ص199.

الوارث: (والله وارث الوارثين) الفصول ص167- (سبحان الله باعثاً وارثاً) الغفران ص90- (وأنَّ الوارث هو القديم) الفصول ص338.

الخالق: (خالق السنة والشهر) الفصول ص1- (خالق الأولين) الفصول ص292- (خالق النيرات) الفصول ص128- (أنَّ الخالق حكيم) الفصول ص338- (خالق المتشابهات) الفصول ص183 (خالق الجوهر والعرض) الفصول ص346. الحق: (واعلمي أنَّ ربك هو الحق اليقين) الفصول ص278.

الواهب: (واهب الحواس) الفصول ص55.

الحافظ: (والله حافظ المغتربين) الفصول ص- (حافظ الهمل) الفصول ص338.

وهناك صفات متفرقة: (والله مؤلف المختلفين) الفصول ص26- (مخلف الظنون) الفصول ص26.

- (والله مجير المهتضمين) الفصول ص29- (والله مهلك الظالمين) - (والله كاشف مقبل العثرات) الفصول ص103- (مذل المتكبرين) الفصول ص121- (والله كاشف الأزمات) الفصول ص125- (والله قادم الظالمين) الفصول ص129- (معز الأذلين) الفصول ص130.

(والله المتكفل بجزاء المجير) الفصول ص140- (والله المغيث) الفصول ص140- (ناسخ الأزمان) الفصول ص150- (والله مروي الظالمين) الفصول ص152- (والله مؤنس المستوحشين) الفصول ص162 (والله محقق رجاء

الرَّاجِبِينَ) الفصول 162- (والله راعي المتخلفين) الفصول ص162- (وربنا كافي الغافلين) الفصول ص68- (والله كافي المكتفين) الفصول ص190- (أعظم ربك فهو عظيم) الفصول ص50- (فسبحان الله العظيم) الفصول ص198- (فسبحان ربّه العظيم) الرسائل ص132- (والله منشئ الثمار) الفصول ص198- (والله أمجد الماجدين) الفصول ص199 (منشئ الشجر والثمر)، الفصول ص40. (تعالى الماجد) ص339. - (والله المحيط بعمل العاملين) الفصول ص199. (والله من ورائهم محيط) الرسائل ص197. (إن الله رحيم) الفصول ص211- (الواحد الرحيم) الفصول ص7.

- (والله مالك السائد والمُسودين) الفصول ص237- (وإنما تلك جنود ربه العزيز) الفصول ص250- (والله العزيز) الفصول ص68- (والله سائر العيوب) الفصول ص271 (والله خَفَضَ الْأَذْلِينَ) الفصول ص275- (والله مطعم المطعمين) الفصول ص283 (وبالله شفي السقيم) الفصول ص302- (كاسي اللأيسين) الفصول ص159- (والله كاسي العارين ومُعري المكتسين) الفصول ص302- (مذكر الناسين) الفصول ص312- (الحليم الرؤوف) الفصول ص312- (تبارك الله قادراً لا غادراً) الغفران ص90، (تعالى الله قادراً) الرسائل ص196. (أستعين الله القدير) الفصول ص318- (والله العالم المقتر) الفصول ص343 (والله المجمل المعز) الفصول ص321- (ربّ العزّة) الفصول ص328- (قابض النفوس) الفصول ص321- (باسط الأمل) الفصول ص338- (محصي العمل) الفصول ص338- (والله منقذ المكروبين) الفصول ص374- (والله الحميد) الفصول ص374 (والله على الممتنعات مُقيت) الفصول ص378- (ربّ العرش) الفصول ص380- (أنت العدل) الفصول ص259- (الله الكامل) الفصول ص38- (لا إله إلا الله مكوّناً مدوّناً) الغفران ص90- (الواحد ملك الدهر) الفصول ص1- (ربنا المحيي والمميت) الفصول ص7- (الجبار) ص1- (إنما الخلود لآلهنا الجبار) الفصول ص183- (لا تأمن من غضب خالفك فإنه بئس) (أي شديد) الأيك والغصون ضمن أوج التحري (إنّ ربنا لمنصف) الفصول ص44- (العليّ الصمد) الفصول ص256- (ربّ الشمس والقمر) الفصول ص400- (إنّ الله منجز الوعود) الفصول ص423- (هو المحيط بخواطر الأسرار) الفصول ص425.

وقد تكررت هذه الصفات مفردة أو مزدوجة، وقد عبّر عن هذه الصفة بطريقة مباشرة (كما رأينا سابقاً)، وفي كثير من الأحيان يفسح المجال للقارئ لاستنتاج الصفة، كما رأينا في صفة القدرة. وهذه الصفات التي ذكرها المعري هي نفس الصفات التي وردت في القرآن الكريم.

ولا بدّ من الإشارة في الحديث عن صفات الله إلى أن ذات الله توصف ولا تدرك، فالله سبحانه وتعالى خالق الكون، وطبيعة الكون مخالفة لطبيعة المخلوق.. وهذه الصفات في مجموعها تصوّر الكمال المطلق، وليس للمسلم أن يناجي ربه باسم أو صفة لم يضعه الله لنفسه، فهو أعلم بما يدلّ على ذاته وآثاره وصفاته.

- ويرى المعري أن صفات الله لا تطلق على الله والإنسان بمعنى واحد، إذ أراد تنزيه الله عن كل ما يوصف به المخلوق، ولا بدّ لنا هنا من الاستشهاد ببيت له من اللزوميات يثبت ذلك. يقول: انفرد الله بسلطانه فما له في كلّ حال كفاء. وقد نظر في الشطر الأول إلى قول الله تعالى: (قل هو الله أحد) (الإخلاص/1). وقوله: «فما له في كلّ حال كفاء» نظر فيه إلى قوله تعالى: (ولم يكن له كفواً أحد) (الإخلاص/4).

فالمعري استفاد كثيراً من صفات الله، ومن معانيها في جميع نتاجه، وبكثرة واضحة في الفصول والغايات، فوظفها في مكانها المناسب لتؤدي المعنى المناسب ولم تغب عن ذهنه الآيات الكريمة التي ذكرت فيها بعض صفات الله، يقول: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الحشر/22-24).

- (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ¹² إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ¹³ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ¹⁴ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ¹⁵ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ) (البروج/12-16).

- (وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) (الأعراف/180).

- (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (غافر/2-3).

- (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (الفاتحة

(4-1).

وهكذا نجد أنّ أبا العلاء يعتقد في الله تعالى ما يعتقدّه المؤمنون المخلصون من المسلمين، ويثبت له من صفات

الكمال ما يثبتون له، وينفي عنه من صفات الحوادث والنقص ما ينفون، فالله تعالى موجود لا شك فيه ولا ريب، محتجب عن

الإدراك بحقيقته، ظاهرٌ بآثار قدرته وصفاته. وكما نعلم أنّ المعري قد جرى على طريقة المعتزلة، فجعل العقل أساساً لجميع

آرائه، وزاد عليهم فجعل كلَّ عقل نبياً. يقول: «العقل نبيٌّ، والخطر خبيٌّ، والنظر ربٌّ، ونور الله لهذه الثلاثة معينٌ»^{٥٠}. وعلى هذا الأساس ذهب إلى القول أن الله يقدر على المستحيلات، لأنَّ عدم القدرة عجز والعجز صفة نقص يجب أن ينزَّه الله عنها. مخالفاً بذلك أهل السنَّة، فقد قال أهل السنَّة: المحال لا يدخل تحت القدرة أي لا يصلح متعلّقاً لها، فلا يوصف الله بالقدرة على الظلم والسّفه. وقالت المعتزلة: يقدر ولا يفعل. «إن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي، وليست هي مقدورة للباري تعالى، خلافاً لأصحابه، فإنَّهم قضوا بأنه قادر عليها لكنّه لا يفعلها لأنها قبيحة»^{٥١}.

وقد درج أبو العلاء على طريقتهم. يقول: «يقدر الله على المستحيلات: ردّ الفائت، وجمع الجسمين في مكان، ومالا تحتمله الأبواب إذ كان لا ينسب إلى عجز ولا انتقاص. فإذا مررت بعود بال فاعلم أن الله يستطيع أن يكسوه أخضر كخضرة الحسام، حتى يورق ورقاً كعدد الرمال، ويقف على كل ورقة ورقاء تعبدُ بألحان معبديات يُغرضُ الغريض والأسماع إليها غرضات. وإذا شاء الله جعل شجر الطلح ركائب لركبان الأطلاق، وخزائنها خزامى الدماث»^{٥٢}.

ويقول أيضاً: «يقدر ربُّنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه، ويسمّع الأصوات بيده، وتكون بنانه مجاري دمه، ويجد الطعم بأذنه، ويشمُّ الروائح بمنكبه، ويمشي إلى الغرض على هامته، وأن يقرن بين النير وسنير، حتى يُريا كفرسي رهان، ويُنزل الوعلَ الزعلَ من اللّيق، ومجاورة السودنيق، حتى يُشدَّ فيه الغرض، وتكرب عليه الأرض، وذلك من القدرة يسيراً. سبحانه ملك الملوك وعظيم العظماء»^{٥٣}.

فالمعري أشار إلى مجموعة من المستحيلات، فرأى أنَّ الله قادرٌ على تحويلها أو نقلها من باب المستحيلات إلى باب الممكنات.

والمعري يشارك المعتزلة في الارتفاع بالله عن الصفات، فيقول: «لا أعلم كيف أُعبر عن صفات الله، وكلام الناس عادة واصطلاح، وإن فعلتُ ذلك خشيتُ التشبيه، وأشركتُ الضعفة العاجزين مع القوي القادر في بعض المقال. [لكني أصفه بما وصف به نفسه من الصفات الراجعة إلى الفعل والذات فما رجع إلى الذات فلم يزل موصوفاً به ولا يزال، وما رجع إلى الفعل فصفات كائنة في خلقه لخلقة أوجدها بعد أن لم تكن، فوصف بها من حيث التكوين لها، وليس إذا قلتُ فعلَ الأوّل وأنت تريده تعالى وفعلَ الأوّل وأنت تريد بعض خلقه تساوى الحكمان]، وهيهات ما أبعد بين الفعلين ! لولا اجتهاذ الناطق، [واتباع كتاب الله وسنّة نبيه p] لفضلتُ السكوت، [وتبارك ربنا عن الشبهات، وجلّ عن نقائص الصفات]»^{٥٤}. ومع أنه ينكر الصفات كالمعتزلة، وينكرها للأسباب نفسها التي حملت المعتزلة على إنكارها، وهي خشية التشبيه، وأن خالق الصفات لا يمكن أن يوصف بها، فهو يخالف المعتزلة أشدَّ الخلاف في أهمِّ أصلٍ من أصولهم الأولى، وهو تخليد صاحب الكبيرة في النار، فأبو العلاء يثبتُه في غير تحفظ ولا اقتصاد. فاسمع له كيف يصوّر ما يمكن أن يُقترف من الذنوب، وما يمكن أن يمحو هذه الذنوب من عفو الله في كلام رائع، لا ينقصه من الشعر إلا الوزن. يقول: «لا أيسُّ من رحمة الله ولو نظمت ذنباً مثل الجبال سوداً كأنهن بناتٌ جمير، ووضعنَّهن في عنقي الضعيفة كما ينظم صغار اللؤلؤ فيما طال من العقود... ولو بنيتُ بيتاً من الجرائم أسود كبيت الشعر يلحق بأعنان السماء، ويستقل عموده كاستقلال عمود الوضع، وتمتد أطنايه في السهل والجبل كامتداد حبال الشمس، لهدمه عفو الله حتى لا يوجد له ظلٌّ من غير لباث»^{٥٥}. ويقرُّ المعري أنه عاجزٌ عن معرفة حقيقة الإله وإدراك كنهه، وهو يعترف بذلك في ثلاثة مواضع: الأول في اللزوميات عندما قال:

أما الإله فأمرٌ لستُ مدرِكُهُ فاحذر لجيك فوق الأرض إسقاطهُ

والموضع الثاني في الفصول والغايات. يقول: «والعقول عاجزةٌ عن معرفة حقيقتك»^{٥٦}. أما الموضع الثالث فهو في الأيك والغصون، يقول: «خيرٌ ما تنطقُ به ثناؤك على خالقك، وكيف ثناؤك على مالا تعرفه؟ إنما ذلك عليه الصنع، فمعرفة فك وقعت بالأفعال دون من فعل، والله حكيم. والمعرفة برّبنا عوصاء»^{٥٧}.

فالمعري في هذه المواضع الثلاثة يعلن علمه بوجود الله تعالى، وكيف يجهل حقيقة الله. يقول الدكتور طه حسين في التعليق على البيت: أما الإله فأمرٌ لستُ مدرّكه... « فليس ينبغي أن يفهم من هذا البيت إلا أن الرجل يجهل كنه الإله وحقيقته، ولا يستطيع أن يحدده تحديداً منطقياً، ولا أن يجلي ماهيته للناس، ثم هو يخشى أن يقول ذلك وأن يعلنه لأن عامة الناس وجمهورهم لا يستطيعون أن يفقهوا مغزى هذا القول، ولا أن يفرفوا بين من لا يعرف الله، ومن لا يعرف حقيقته... ذلك لأن حقيقة الله أمرٌ قد انقطعت بيننا وبينه أسباب التحديد المنطقي، فإنما إنما نحدد الشيء إذا ارتسمت صورته في أنفسنا، وخضعت لعقولنا، فحللناها إلى أجزائها الخاصة والمشاركة، ثم لاعمنا بين هذه الأجزاء، فكان لنا من ذلك الحد. ومن الواضح أن الصور التي تخضع لهذا التحليل ينبغي أن تكون محسوسة حساً ظاهراً، أو باطناً، وأن تكون بحيث تستطيع إحدى وسائل العلم بالجزئيات، أن تنتقل صورتها إلى أنفسنا. وقد جلّ الله عن أن يكون كذلك، فهو لا يدركه حسٌ ظاهرٌ، ولا حسٌ باطنٌ، وإنما الذي يُدرك آثارٌ تشير إلى وجوده، وتدل على ثبوته، فأما حقيقته فقد انقطعت بيننا وبينها الأسباب».

هذا الكلام ينطبق تماماً على قوله في الفصول والغايات، وكذلك قوله في الأيك والغصون. ومما يعقّق إيمان أبي العلاء المطلق في أذهاننا، أنك تجد روح التقوى والزهد والخوف العظيم من الله تعالى ماثلة في جميع نتاجه، تلك الميزة جعلت إيمان المعري إيماناً يقينياً لاشك فيه. فما كان لمثل المعري في عقله أن ينكر وجود الله وهو المسيح بحمده دائماً الذاكر لآلائه على عباده. يقول: «إن كان الدمع يُطفئ غضبك فهب لي عينين كأنهما غمامتا شتّى تبتلان الصباح والمساء، واجعلني في الدنيا منك وجلاً لأفوز في الآخرة بالأمان، وارزقني في خوفك برّاً والدي وقد فاد».

ويقول في مكان آخر: «ليت أعظمي تحوّلت عيدان أراك يتقلّف بها المتعبدون لله بالعشي والأبكار، وليت آدمي جعل منه ذوات طراق يمسح عليها المسافرون في سبيل الله أوقات الصلوات، أو صنّع منه شعيب يحمل فيها الماء حتى تعد في الشنان الباليات، وليت شعري عشب عبت به ركاب الناسكين، علي أصل بذلك إلى الفلاح».

ونراه يصور نفسه يأتي بالمعجزات في طاعة الله، فلا ترفعه هذه المعجزات عن الشعور بأنه أحد العجزة المقصّرين، ويرى أنه مهما فعل فلن يؤدّي ما يوجبه جلال الله، يقول: «لو نقلت مياه اللجج على منكبي في قُدا، وأفرغته على مناكب الجبال، وجربت كثنان الأرض وصرائمها في جرّ أو مشاة، فألقيتها في الخضر الدائمات، حفداً لله كنت أحد العجزة المقصّرين، ولو أذن لي وأيدت فابتنيت مراهم من الثرى الأسفل إلى الثرى وحضار ومن الود المتخذ من عود إلى ساحة وتد السعود، لم أؤدّ ما يوجبه جلال الله، فكيف وأنا أقصر الصلاة، وأداني بين الركعات!...».

فهذا يدل على قوة إيمان المعري، وخوفه من الله سبحانه، فهو مع المبالغة في تصوير تلك المعجزات يرى نفسه مقصراً بحق الله، لذلك نراه يدعو دائماً إلى تقوى الله، والخوف منه. يقول: «وفي خوف الله الشرف والثور... لا تغرنك قوة الجسد وسواد الشعر، واقتبال الأمل، فإنما أنت بشفي، تلتقط سلاءً وسفي، تسمي أو تصبح منصرفاً من دار الرحلة إلى دار المقام».

وله أقوال كثيرة في الدعوة إلى تقوى الله، كقوله: «طافتك خيرٌ من ناقتك، ومعونة الله ورايك... فاتق الله ولا تخالط الأوشاب». وقوله: «حر إلى تقوى الله تأمن الحيرة، ومت بحرّة العطش ولا تردن خبيث الحياض». وقوله: «إذ إلى التقوى كما يبد البعير، وبذ الكافر فإنه عند ربه دحير، وانتذ في أمرك فإن التؤدة من رب العالمين».

وهذه الدعوة إلى تقوى الله ماثلة بكثرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى في سورة المجادلة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَيِّنَاتِ وَالنَّفَقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) الآية 9، وقوله أيضاً في سورة البقرة: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الآية 196.

ويقول في الدعوة إلى ذكر الله تعالى: «ألا أدلك على أخلاق إذا فعلتها أطعت الله، وأحبك الناس، وبررتنا اهتدى كل دليل؟ أسكت ما استطعت إلا عن ذكر الله، فإذا نطقت فلا تصدّق الكاذب، ولا تكذب الصادقين، واعلم أن الفقراء بطعامك أحق من الأغنياء، ولا تلم على شيء كان بقضاء الله، ولا تهزان بأحد، ولا تثر مع الهازلين، ولا تؤازر الظالم ولا تجالس المغتاب». هذه المعاني جميعها مأخوذة من الذكر الحكيم يقول تعالى في سورة الأنفال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) الآية 2.

ويدعو إلى الثقة بالله Y، يقول: «ثق بالله المكين، واعلم أن كل ملك ركين، يُحسب عنده من المساكين».

ويطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى في مواضع عديدة، منها قوله: «أستغفرُك فائت الملاء، لا أكره قبراً بفلاة». ويقول في تسبيح الله وتمجيده: «ودونه مواقع الفكر، لا ينصف المظلوم سواء، وإليه يرغب الراغب، وبه تمسك النفوس، فتعالى الله عِدّة الحنّس إذا قُسم نقطاً، والنقطة أقل ما يكون، وسبحان الله زهاء الأشياء، والشيء جزء لا يتجزأ، تُقسم على ذلك مياه البحر، ورمال الأرض، وتقال الهضاب».

وفي المعنى نفسه يقول: «كل شعرة في الجسد لها شعراً تنفرد به من التسبيح، فليتنى دعوت الله مع كل داع، وبكيت على ذنبي مراسلاً لكل بالك...».

وما أجمل قوله هذا في تسبيح الله: « ليتني سبحتُ الله مع الرعدِ القاصف، والبرق اللاصف، والهبوب العاصف، والحمام الهاتف على الغصنة الرطاب».

والآيات الواردة في تسبيح الله تعالى كثيرة جداً كقوله تعالى في سورة الإسراء: (تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الآية 44).

وقوله تعالى في سورة النور: (فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (الآية 36).

وقوله تعالى في سورة النور أيضاً: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) (الآية 41).

فهذه الدعوة إلى تسبيح الله وتمجيده هي الأساس في الفصول والغايات وقد أدرك شوقي ضيف هذا الخطأ الذي وقع فيه متهمو أبي العلاء بالإلحاد بسببها. فتساءل: « ومن أين يأتي هذا وهي تتساق كلها في التمجيد والتحميد والثناء على الله».

وقد جاء كتابه الأيكة والغصون على نمط الفصول والغايات من تمجيد الله وتسبيحه والثناء عليه، يقول: « كنت الألسن عن صفتك. نؤمن بك ونثق بقوتك، ونسألك أن توسعنا من رحمتك. كذب المادح سوى مادحيك. سبحانك رب المملكة مالها انقضاء».

ويوصي الإنسان بمجموعة من الوصايا تضمن له حسن المنقلب في الآخرة، كقوله: «افرح بالحسنة إذا صنعتها، واندم على صلاتك متى أضعتها. الأمل والحرص متواحيان والزهد والعبادة نسيبان. خير ما تتطرق به ثناؤك على خالقك».

ويرى أن الإنسان يحتاج في كل لحظة إلى استغفار ربه، فيدعوه إلى طرد الملل في طلب المغفرة، وذكر الله تعالى، يقول: « لا تملن من استغفارك. وواصل التذكرة ودارك. وأخف الكلمة في إضمارك. ولا تريدين جرائمك باعتذارك. أعد سنة بعد سنة، فمر الزمان وأنا في سنة، إن الله يرفع المتواضع ويعينه، ويذل المتجبر ويهينه».

ويقول أيضاً داعياً الإنسان إلى الرفق والتواضع والمحبة. يقول: « استغفر ربك وتب. هل تنفك هذه الكتب. انظر إلى من شئت من أهل الزمن. تجده في عناء ومحن.. إذا لاقيت جارك فحبه. وإن نزع به الزمن عن حبه... ومن يذكر الله بلسان، ويفعل أفعالاً غير حسان. فبعد ذلك من إنسان».

لقد وضع أبو العلاء نفسه موضعها من خالقها، فتواضع لله أعظم تواضع، ثم انسحب ذلك على سلوكه مع جميع البشر، بل إنه دعاهم صراحة إلى التواضع، والبعد عن كل صور الزهو والخيلاء، وحثهم على الخضوع لله، ولين الجانب لجميع البشر، بل لجميع المخلوقات. وفي هذا ما يكشف عن أصالة هذا السلوك في نفس أبي العلاء، وصدق شعوره في التعبير عنه. يقول مخاطباً نفسه، متواضعاً لله، سائلاً إياه المغفرة: « ما أحسنت فأطلب الجزاء، ولكن أسأت فمرادي الغفران، ومن لي بالوقفة بين المنزلتين لا أكرم ولا أهان».

وهكذا نجد أن أبا العلاء قد اتخذ صفة الواعظ المرشد، الذي يدعو إلى عبادة الله، ويلجأ إلى الترغيب حيناً، وإلى الترهيب حيناً آخر، وكان القرآن الكريم مرجعه الأساسي في ذلك.

أما العبادات التي راح يحض الناس على أدائها فهي عبادة الله وحده، وتنزيهه عن كل شريك، والصلاة والصوم، وأداء الزكاة، إضافة إلى وجوب تجنب الخمر، والعفاف، والثقة بالله تعالى، والعمل الدائب في طاعته وذكره، وفعل الخير والبعد عن الشر، وترك الحسد والغل ومساوئ الأخلاق، وهذه الوصايا متفقة مع أركان الإيمان ونهج الإسلام. يقول واعظاً: «تصدق في حياتك فما للميت من صديق، وتارك الصلاة من صلاة السعير، وجدير من صام بالاعتصام، والنسك أوثق التمسك، والانفراد أستر الأبراد، والزكاة تذهب عن المال الشكاه، فإذا زكيت أموالك فأخفها كل الإخفاء».

هذه أركان ثلاثة أساسية من أركان الدين الإسلامي هي: (الصلاة والصوم والزكاة). يوصي المعري بالتمسك بها، ويبين عقوبة ترك الصلاة، متأثراً بما جاء في الذكر الحكيم، كما يوصي بإخفاء الزكاة، ويؤكد على هذا الركن في موضع آخر، فيقول: « الرجل كل الرجل من أتى الزكاة ورحم المسكين وتبرع بما لا يجب عليه وكره الحنث وكفر عن اليمين، لولا خشية المنقلب لكنت أحد الفائزين... أغد على ذكر الله وأمس إليه، فنعم صاحب الضجيع».

ويقول أيضاً في نفس المعنى: «رب لا تجعل صومي كصوم الفرس، وصلاتي كصلاة الحرباء».

ويلج المعري في نقد النفاق، ويدعو المنافقين إلى إخلاص العبادة لله، ويحذرهم نتيجة سوء المخبر، وادعاء حسن المظهر، يقول: « كفرت البرية وربها حلیم، صوم الأبد أفضل من صوم المفطر على حرام، فإذا صمت من المآثم فعند ذلك صم عن الطعام، واحجج كلوم جرائمك، فإذا برئت فاحجج عند ذلك مشاهد الصالحين، واعلم أن صلاة المنافق صلاء النار وطهارة الخلد أبلغ من طهارة الجسد بالماء».

الصوم عن المآثم أهم وأقوى من الصوم عن الطعام، وهذا الأول هو الذي ينادي به أبو العلاء، ويحض الناس عليه، فهو يرى أنه لا خير في الدين إذا لم يؤد بالناس إلى التمسك بالفضيلة والأخلاق الحسنة والسلوك الطيب مع الآخرين، أسوة بما قال رسول الله ﷺ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

وقوله أيضاً: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

فالدين طريق إلى تهذيب النفوس وتنقية الضمائر.

وفي إحدى رسائله يشير إلى ضرورة وأهمية صلاة الجمعة، إلا أنه قد حدثت له علة منعه من حضور الصلاة. يقول: «وحدثت علة، كني عنها في المستمع، وعاقبت عن الحضور في الجمع. وفي الكتاب الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) (الجمعة/9). إنما ذكرت ذلك لينتهي إلى حضرة السيد عزيز الدولة - أعز الله نصره - أنني تخلفت عن خدمته بمرض، منع من أداء المفترض»^{٥٠}.

ويقول أيضاً في أداء الفروض، في رسالته إلى الشيخ أبي الحسن بن سنان: «وأداء الفروض له أوقات، ولكن حجّ ميقات، فمن كان عليه صوم لم يجز قضاؤه في العيدين، ويكره ابتداء الصلاة في البردين، أعني عند الشروق»^{٥١}.

وقد عرف عن المعري أنه كان مواظباً على الصلوات في مواقيتها، ولم ينقل عنه أحد توانياً في أمرها أو كسلاً. وهذا لزومه مشحون بالحرص عليها. وفي رسائله إلى داعي الدعاة الفاطمي ذكر أنه «قد عجز عن الصلاة قائماً، وإنما يصلي قاعداً، والله المستعان»^{٥٢} وفي أثناء حديثه عن إيمانه بالبعث. أكد أنه يحافظ على صلاته وصومه، قائلاً: «أشهد الله الذي بإذنه نشأت السماوات والأرض أنني مقرّ بالقدرة على الرجعة، والخوف من الآخرة، أحافظ على صلاتي وأصوم، وأعتصم لعلي معصوم»^{٥٣}. وقال أيضاً فيما يخص صومه أنه «لما بلغ ثلاثين عاماً سأل ربّه إنعاماً فرزقه صوم الدهر، فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا في العيدين»^{٥٤}.

وكان أبو العلاء إذا دعا الناس إلى أمر من أمور الإصلاح بدأ بنفسه أولاً. فهو إذ يدعو الناس إلى نبيذ المال، يعيش عيش الكفاف، ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طيفة، وما يفضل عنه يورّعه على اللاندين به وعلى الفقراء والقاصدين له من الغرباء.

ولا يخفي على أحد ما في الذكر الحكيم والحديث الشريف من الحصر على أداء هذه العبادات. يقول تعالى في سورة البقرة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الآية 277) وكذلك قوله في سورة النساء: «فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا) (الآية 103).

وبذلك نجد أن أبا العلاء يحض على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان. وهي ثلاثة أركان أساسية من أركان الإسلام، فقد جاء في الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: بُني الإسلام على خمسٍ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان»^{٥٥}. إلا أن نجد أبا العلاء لا يأمر صراحةً بالركن الأول، وهو أن تشهد بأن لا إله إلا الله وبأن محمداً رسول الله. وهذا الركن مفهومٌ ضمناً مما سبقت دراسته حول الإيمان بوحداية الله المطلقة وقدرته الشاملة، ووجوب حمد الله وشكره، وتقواه. أما الحج فقد رأينا المعري في لزومياته يحث على الحج قائلاً:

لقد فرّرت إن كنت تُعطى الجنان بمكة إذ زرتها أو منى

إلا أننا نجد ههنا يرفض حجّ المرأة رفضاً قاطعاً. فمن أقواله في ذلك: «لا أحمد نساءً عصين الأزواج وقعدن على ظهور الركائب حواج البيت ومعتمرات»^{٥٦}.

وربما كان ذلك ناجماً عن عدم الأمان في طريق مكة، فقد ذكر ابن القارح في رسالته إلى أبي العلاء أن «الجنابي قتل بمكة ألفاً، وأخذ ستة وعشرين ألف حمل خفاً، وضرب الآتيم وأتقالهم بالنار، واستملك من النساء والغلمان والصبيان من ضاق بهم الفضاء كثرةً ووفوراً. وأخذ حجر الملتزم، وظن أنها مغناطيس القلوب، وأخذ الميزاب»^{٥٧}.

وعبر في لزومياته عن شدة حرصه على المرأة، وخوفه عليها من الفسقة والأنذال، وذكر أن سدنة البيت الحرام وحجابه فجرة ومستهترون وسكارى لا يفيقون من السكر، ولا يراعون لهذا البيت حقاً، فالأولى بالمرأة أن تفعل الخير خالصاً من كلّ رياء، بريئاً من كلّ نفاق، فذلك أنفع لها مما ليح فيه الناس من باطل وزور.

وأبو العلاء دائم الحمد والشكر لله Y ، وقد تجلّى ذلك بكثرة في الفصول والغايات التي يدعو فيها الناس إلى وجوب

شكر الله وحمده، فهو خير زاد للإنسان في الدنيا والآخرة. فمن أقواله في ذلك: «الحمد لله الذي أنعم فأغفلت الشكر، وأحسن

فأسأت، وأمهّل زماناً فما أنجمت حمداً يُوفي على كلّ عدد جال في ضمير، ونطق به ناطق وأشار إليه مشير»^{٥٨}.

وقوله: «فارتجز بحمد الله خير لك من رجز الفلاح»^{٥٩}. وفي رسالته إلى خاله أبي القاسم علي بن سبيكة عند طلوعه من

العراق، وقد وجد أمه قد توفيت. يقول: «وله الحمد ممزوجاً به الدمع، مستكاً له من الوجد السمع، وصلى الله على سيدنا

محمد وعترته، صلاة يتقل بها لساني حزناً، وترجح في المحشر قدراً ووزناً...»^{٦٠}.

وجاء في القرآن الكريم في سورة الأنعام: (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) (الآية 1). وقوله في سورة غافر: (هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين) (الآية 65). وفي شكر الله يقول تعالى في سورة إبراهيم: (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولنن كفرتم إن عذابي لشديد) (الآية 7).

ومع الإيمان بالله تعالى، لابد من الإيمان بملأنته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن محمداً p خاتم الرسل. وقد كان المعري يعظم القرآن الكريم، وينكر جواز النسخ عليه، ويصفه وصفاً دقيقاً، لا يصدر إلا عن قلب مفعم بالإيمان الصحيح. قال: « وأجمع ملحدٌ ومهتدٍ، وناكبٌ عن المحجة ومعتدٍ، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد p، كتابٌ بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالأرجاز، ما حذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال. ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهلي وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الأرباب. وجاء كالشمس اللانحة، نوراً للمسرة البائحة، لو فهمه الهضب الراكد لتصدع، أو الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع: (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) (الحشر/21). وإن الآية منه أو بعض الآية، لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتألي في جنح غسق والزهرة البادية في جبوب ذات نسق (فتبارك الله أحسن الخالقين) (المؤمنون/14)».

فهذا الكلام من أروع ما قيل في وصف كتاب الله تعالى. وصف يدل على إيمان مطلق بالله وكتابه المعجز، وكلماته التامة.

وبين أيدينا نص قوي الدلالة على إيمان أبي العلاء بكتاب الله، فقد نقل السلفي عن القاضي أبي المذهب عبد المنعم بن أحمد السروجي « أنه سمع أخاه القاضي أبا الفتح يقول: إنه دخل على أبي العلاء في المعرة ذات يوم في خلوة، على غير علم منه، وكان يتردد إليه، ويقرأ عليه، فسمعه ينشد:

كم بودرت عادة كعابٍ وعمرت أمها العجوز
أحرزها الوالدان خوفاً والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تبطى المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات، وتلا قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ¹⁰³ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ¹⁰⁴ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (هود/104). ثم صاح وبكى بكاءً شديداً، وطرح وجهه على الأرض زماناً، ثم رفع رأسه، ومسح وجهه، وقال: سبحان من تكلم بهذا في القدم، سبحان من هذا كلامه. قال: فصبرت ساعة ثم سلمت عليه، فرد علي وقال: متى أتيت؟ فقلت: الساعة، ثم قلت: يا سيدي! أرى في وجهك أثر غيظ، فقال: لا يا أبا الفتح، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق، وتلوت شيئاً من كلام الخالق، فلحقني ما ترى. فتحققت صحة دينه، وقوة يقينه»¹⁰⁵.

ما سبقت دراسته يؤكد لنا أن إيمان أبي العلاء بالله تعالى إيمان قوي راسخ مطلق لا ريب فيه. إذ تبين ذلك في جميع نتاجه وبشكل خاص في كتابه الفصول والغايات ورسائله الكثيرة في الوعظ والإرشاد.

ج- البعث والنشور

مما لا شك فيه ارتباط قضية الثواب بقضية الموت، وبالتالي بقضية البعث بعد الموت، ومن هذا المنطلق ترتب علينا التعرف على وجهة نظر أبي العلاء فيما يتعلق بالموت والبعث ثم فصل من خلال ذلك إلى رؤيته في الثواب والعقاب. كان المعري مؤمناً بحقيقة الموت إيماناً كاملاً، وأنه عامٌ وشاملٌ، وأنه يقينٌ لاشك فيه، إلا أنه كان يخاف منه، بل يستغيث منه. يقول:

أنبأنا اللَّب بلفيا الردى فالغوث من صحّة ذاك النّبأ ٥

وهناك من يُرجع سبب خوف المعري من الموت إلى جهله وخوفه مما وراء الموت: «إنه لا يعرف ماذا وراء الموت، ولا يدري ما يلقاه هناك... الموت راحة؟ من يضمن ذلك؟ لو اطمأن إلى ذلك، لوضع حدّاً لما يكابده، ولفزع إليه يدفن فيه آلامه ومتاعبه وحبه اليأس، وآماله المحطمة، وأشواقه المكبوتة! ولكن هيهات! الخوف يرعبه، والجهل والشك يرهقانه»٥.

وفي الفصول والغايات نجده يذكرنا بالموت بين الفينة والأخرى مؤكّداً هذه الحقيقة. يقول: «والمنيّة أخذة بالناصية أخذ الأسر بناصرية الأسير»٥.

ويؤكد أن الموت سيّطال جميع الناس، ولا يخلد إلا وجهه الكريم. يقول: «إن جلود القوم تمزقت، واللحوم بليت وتهالكت، وصارت الأعظم رماماً... إنّ الجبابة رامت الخلود فإذا هو لا يمكن ولا يستطاع، ولا يخلد إلا جبار السموات»٥.

والله سبحانه وتعالى هو الذي يقبض نفوس البشر، ف «المنيّة كالنار الموقدة، وقابضُ النفوس كالمحتطب، والناس كشجر فيه الغض واليابس، وباليبيس لهج موقد النار، وطالما غذاها بالرطيب...»٥.

والموت موجودٌ في كل مكان. يقول: «فهل سمعتم بمكان، ليس فيه للموت استمكان؟ هيهات هيهات! إن الموت نزل على الجبل والبراث»٥.

وفي رسالته التي يعزي فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة بأخيه، نجده يسرد أسماء الأنبياء من لدن آدم إلى محمد p، ثم يسرد أسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية، والقصد من وراء ذلك العبرة والموعظة وبيان أنّ كلّاً منهم صار بعد العزّ وعلوّ الشأن إلى الموت والفناء، وفي نهاية كلامه عن موت البشر يقول: «وهل يخلد أحدٌ من البشر، أو ينجو الخير من الشرّ، إن الله حكم بالفناء بعد إطالة النصب والعناء... وإلى زوال كل الممالك، إلا ملك الخالق فإنه لا يزول»٥.

وفي هلاك الأمم والبلاد. يقول: «وإن الله سبحانه حكم بقاء الخطوب على كل البلاد، كما حكم على العباد، فإن وقع خطبٌ بدمشق، فأى بلد لم يشق؟ وفي الكتاب الأشرف: (وَإِنْ مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (الإسراء/58)»٥.

والموت لا بد منه ولا رادّ له. يقول: «ألا تسمع قديمة الأخبار، أين ولد يعرب ونزار ما بقي لهم من إصار، لا وخالق النار، ما يرد الموت بالإباء»٥.

وهنا نستطيع القول إن الموت سلطة ربانية، فالله هو الذي يملك أمر النفس ويعلم وقت رجوعها إليه، ومكان موتها. والآيات القرآنية التي تحدثنا عن ذلك كثيرة جداً. وقد استلهم أبو العلاء معانيها فيما أوردناه من أقوال عن حتمية الموت. فمن

تلك الآيات: - (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) (الفجر/27-28) - (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) (الحجر/23). - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (آل عمران/185). - (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) (لقمان/34). - (وَمَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) (الفرقان/3). - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (العنكبوت/57). وهنا نلمس أوجه الاتفاق بين المعري والرؤية الإسلامية للموت، وهو أنه عام شامل وحق لا ريب فيه ولا ممارسة، وهو بيد الله وحده، ومجهول بالنسبة لنا.

وبعد أن وضعنا موقف المعري من قضية الموت، يحقُّ لنا أن نتساءل: ما موقف أبي العلاء من قضية البعث؟ هل كان يرى حياة بعد الموت أم لا؟

لنتعرَّف أولاً على معنى البعث: للبعث بشكل عام معنيان: الأول: البعث في الشرع بمعنى إرسال الله إنساناً إلى الإنس والجنَّ يدعوهم إلى طريق الحقِّ وشرطه إظهار المعجزة. المعنى الثاني: البعث في علم الكلام والفلسفة ويطلق على الحشر والمعاد أيضاً ويرتبط بخلود النفس.⁰

وقد اتخذ هذا اللفظ في القرآن الكريم معنيين: المعنى الأول: هو معنى الإرسال كقوله تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا) (الأنعام/65) (أي يرسل العذاب). وقوله: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (القصص/59).

والمعنى الثاني: هو المعاد: كقوله تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (النحل/38).

- (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) (مريم/15).
- (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) (الحج/7).
- (فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَلَكِنَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (الروم/56).

ويرى الباحثون أن شأن المعري في قضية البعث شأن كل القضايا الأخرى من التردد والغموض. ولكن التتبع الدقيق لنتاجه يأخذ بأيدنا إلى الرؤية الصائبة والحكم الحازم في هذه القضية.

إن نثر المعري يدل على إيمان صحيح وقوي بالبعث. يقول مقراً بالبعث ومؤكداً صفتين من صفات الله تعالى: «ربنا المحيي والمميت، لا يخفى عنه وادسٌ حديث...»⁰.

ويعبر المعري عن رغباته العميقة وأمانيه الصادقة، طالباً من الله سبحانه أن يطلقه من قيد الحياة، كما أطلق لبيد الشاعر الجاهلي، قافية معلقته إطلاقاً لا يجوز فيه التقييد، على حين قيد رؤية بن العجاج، الراجز المعروف، مطلع أرجوزته، كما قيدت الدنيا شاعرنا، تقييداً لا يجوز فيه الإطلاق. وأن يحشره كاملاً كبيت العبسي ثم ينهض يوم البعث الموعود. يقول: «فيدتني تقييد (واقم الأعماق) فأطلقني إطلاق (عفت الديار)... واحشرنى ربِّ كاملاً كبيت العبسي، ماله من سيِّء، أنهض من الحفرة إلى رحمتك يوم تبعث رمم القوم النخرات»⁰.

ويقول مؤكداً على البعث: «إن الفقير مجفؤ، والله عفؤ. الرأس أميم، والعظم رميم، وربك باعث الرمام»⁰. ويقول في المعنى ذاته: «جربث وتغربث، فودت أني في الضياء والسدف، أغلقت دوني باب جدف، حتى يبعث الله الأمم ورمامها»⁰.

ومن الوصايا التي أدلى بها قوله: «فاعتصم برب الشمس والقمر، ومنشئ الشجر والثمر، ومالك القلة والأمر، من أفعال الغمر والغمر، ومن شر كل بشر، وهول الحشر»⁰.

والمعري يؤمن بالآخرة ويكثر من ذكرها في سياق الوعظ والإرشاد، إذ أوردها عدة مرات في كتابه الفصول والغايات، وملقى السبيل، والأليك والغصون. يقول: «أمر الآخرة جد، وأمر الدنيا جد، وسيصرم الإنسان ويجد، كما ذهب الأب والجد»⁰.

ويقول أيضاً في ذكر الآخرة، منبهاً إلى أن الإنسان السعيد والرايح هو الذي يخشى الله ومن يخشى الناس لا بد أن يخسر في الدنيا والآخرة. يقول: «أحلف يا نفس ولك الحلف. لقد ضيعت آخرتك ودنياك، ما وفق رجلٌ آمن الله وخشي الناس»⁰.

وهاهو يضرع إلى الله سبحانه قائلاً: «أدعوك وعلمي سيئٌ ليحسن... أنت العدل ومن عدلك أخاف، يا من سبج له زرقة الأفق وزرقة الماء وحمرة الفجر وحمرة شفق الغروب، وإن كان الدمع يطفئ غضبك فهب لي عينين كأنهما غمامتا شتي تبلان الصباح والمساء، واجعلني في الدنيا منك وجلاً لأفوز في الآخرة بالأمان وارزقني في خوفك برٍّ والدي وقد فاد...»⁰.

في هذا الكلام ردُّ قوي على من اتهم المعري بإنكار البعث، فهل من يضرع إلى الله هذه الضراعة «وجلاً ليفوز في الآخرة بالأمان» يمكن اتهامه بنفي الحساب؟

ومن أقواله أيضاً في ذكر الآخرة والحشر: «واتق الله بالغدو والأصال، كفيتني ربِّ شقاء الدنيا فاكفني شقاء الآخرة»⁰.

وفي القيامة يقول: «... ويأخذ بيدك في غمرات القيامة. والعري تفصي، فبت إذا أمكنك منتصاً، لتصبح مقرباً مختصاً، يغفر لك بكرمه عدد الحصى...»^{٥٠}.

وفي ملقى السبيل يذكر الآخرة والحشر والجزاء والأجر نثراً ونظماً فمن أقواله في ذلك:

نمت عن الأخرى فلم تنتبه وفي سوى الدين هجرت الكرى

وقوله: «والعين للحذر تدمع، والسحب بالأقضية همع، وفي الآخرة يكون المجمع».

- «والمرء بالعازفة يملك، والنهج للآخرة يسلك».

- «لتقرع السين غداً نادماً إن كنت ضيعت جميل السنن».

وقوله شعراً ونثراً: «طواهم القدر فانطوا، ولاقتهم الآخرة بما نوا:

فلتحسن النية من بعدهم فالناس يجزون على ما نوا»^{٥١}

وفي هذا دلالة واضحة صريحة على إيمان أبي العلاء بالبعث. وهذا ما تنبئته أيضاً في الأيك والغصون ففيه يقول: «قل ما بدا لك أو اصمت، كلنا سمت الآخرة يسمت»^{٥٢}.

وفي رسائله أيضاً شواهد كثيرة تؤكد ذلك، ففي رسالته إلى أبي القاسم المغربي لما أنفذ إليه إصلاح المنطق الذي ألفه. يقول: «وكذلك سيدنا ولد من سحر المتقدمين، حكمة للحنفاء المتدينين، كم له من قافية تبني السود وتنثي الحسود، كالميت من شرب العاتقة الكميت، نشوره قريب وحسابه تريب»^{٥٣}.

فهنا إشارة إلى البعث والحساب.

وفي رسالته إلى خاله أبي القاسم علي من سبيكة عند طلوعه من العراق، ووجد أمه قد توفيت يقول: «وصلى الله على سيدنا محمد وعترته، صلاة يثقل بها لساني حزناً، وترجح في المحشر قدراً ووزناً. يا سلوة الأيام موعدك الحشر... ولكل أجل كتاب، وحزني لفقداه كنعيم أهل الجنة، كلما نفذ جُ...»^{٥٤}.

وهاهو يهني أبا طاهر بن سبيكة بسلامته من أذى بسيط لحقه في بنانه. فيقول: «... لا أقول بشرى الملك بالسلامة من المهلك، ولا التراب أدرك يسار المترب. ولكن بشرى قوم شربوا ماء الحيوان. وبشروا بالرحمة والرضوان. وبعثوا من التراب العقيم إلى نعيم في الجنة مقيم. فالنفوس إلى خالقها وهلة، والأنامل مرفوعة مبتهلة»^{٥٥}. وهو هنا يذكر البعث والنعيم المقيم في الجنة، وماء الحياة الذي يشرب منه المتقون.

ومن كلامه إلى بعض الشعراء: «لا أعدم الله الشعراء إرشادك، ولا الملوك إنشادك... وأحسبك إن استطعت فما تحضر القيامة إلا بأبيات حسان، تتقرب بها إلى خزنة الجنان»^{٥٦}.

في هذا الكلام عن القيامة وخزنة الجنان، يذكرنا بمنهج ابن القارح الذي تقرب بالشعر إلى خازن الجنان رضوان، لعله يأذن له بالدخول إلى الجنة.

وفي رسالته إلى داعي الدعاة الفاطمي يبين زهده في الدنيا ورغبته في الحياة الآخرة وقد رضي أن يلقي الله جلّت قدرته. وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم، فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد.

وبين رأي من لا يرى رأي الرجعة، ولا يؤمن بقوله سبحانه: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ^{٥٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ^{٥٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس/77-79). ويُشهد الله سبحانه وتعالى على أنه مقرّ بالقدرة على الرجعة والخوف من الآخرة، وأنه يحافظ على صلاته وصومه. ويبرأ من أبيات ينكر فيها صاحبها القيامة والبعث، وهي:

ألمت بالتحية أم بكر فحيوا أم بكر بالسلام

إلى قوله:

ألا من مبلغ الرحمن عني	بأنّي مفطر شهر الصيام
إذا ما الرأس زایل منكبيه	فقد شبع الأنيس من الطعام
أبوعدنا ابن كبشة أن سنحيا	وكيف حياة أصداء وهام؟
أيترك أن يرد الموت عني	ويحييني إذا بليت عظامي

ويلعن القائل، ويُقال إنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك (لقوله أبياتاً ينكر فيها البعث):

فلقد أيقنت أنني غير مبعوث لنار
سأروض الناس حتى يركبوا دين الحمار

ففي رد أبي العلاء تلك الأقوال، وهجومه العنيف على قائلها، تأكيد قوي على إيمانه بالبعث والنشور.

وفي رسالة الملائكة نجده يذكر الجنة والنار وما يكون فيهما، ويذكر القبر، والملائكة (جبرائيل وميكائيل وعزرائيل، ومنكر ونكير) كما ذكر أيضاً ماء الحيوان، وشجرة طوبى، والنعيم المقيم، والفردوس، والحدود العين، والولدان المخدلين، والغسلين، وجهنم وسقر، إلا أنه تناول ذلك في صدد التحليل الصرفي أو الشرح اللغوي فيتحدث عن أصل الكلمة ووزنها، ومعناها. يقول -مثلاً؟- : « أم تراني أداري منكراً ونكيراً، فأقول: كيف جاء اسمكما عربيين منصرفين، وأسماء الملائكة كلها من الأعجمية مثل: إسرافيل وميكائيل؟... ».

أما رسالة الغفران فهي قائمة على إثبات الحشر والآخرة، وكلها براهين وأدلة على إثباتهما، وعلى إقرار المعري بالبعث والجنة والنار وغيرهما مما يكون في الآخرة. (وهذا ما سيوضح لنا في دراستنا التالية)، فمن ذلك: تصويره أهوال المحشر على لسان عمرو بن أحمر. يقول مخاطباً ابن القارح: « ولم تترك في أهوال القيامة غيراً للإنشاد، أما سمعت الآية؟ (يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) (الحج/2). وقد شهدت الموقف، فالعجب لك إذا بقي معك شيء من روايتك فيقول الشيخ: إني كنت أخلص الدعاء في أعقاب الصلوات، قبل أن أنتقل من تلك الدار، أن يمتعني الله بأدبي في الدنيا والآخرة، فأجابني إلى ما سألت وهو الحميدُ المجيد».

ويقول ابن القارح في حديثه عن يوم الحساب: « لَمَّا نهضت أنتفض من الريم، وحضرت حرصات القيامة، والحرصات مثل العرصات، أبدلت الحاء من العين، ذكرت لآية: (تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خُمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) (المعارج/4-5). فطال علي الأمد، واشتد الظمأ والومد... وأنا رجل مهيف، أي سريع العطش، فاقتكرت، فرأيت أمراً لا قوام لمثلي به فلما أقممت في الموقف زهاء شهر أو شهرين، وخفت في العرق من الغرق، زينت لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتاً في رضوان، خازن الجنان... ».

هذا برهان قوي على إيمان أبي العلاء بالبعث، وقد استمد قوته من وجود الآيات الكريمة التي تصور يوم القيامة. وفي لزوم ما لا يلزم أكثر من مائة بيت كلها صريحة في ذكر الحشر أو ما يكون فيه من جنة أو نار أو حساب أو ميزان، وذكر الآخرة وما يقع فيها... وفي سقط الزند عدد كبير من ذلك.

ولا بد لنا في هذا المقام من أن نوضح آراء بعض الباحثين في هذه القضية. فيرى الدكتور طه حسين أن المعري قد اضطرب رأيه في البعث اضطراباً شديداً، فمرة يثبت، وتارة ينكره، ويرى أن المعري قد نفى البعث أكثر من ستين مرة في اللزومات ولكنه لا يرتاب في قدرة الله عليه. وقد اعتمد الدكتور طه حسين في أدلته على ديوانه اللزومات فقط، ورأى أخيراً أن الروح الفلسفي لأبي العلاء في الطبيعيات والرياضيات يوناني خالص، وأنه في الإلهيات يوناني كثيراً، وإسلامي قليلاً، فهذا الروح الفلسفي يثبت لنا أن أبا العلاء، إن لم يكن قد أنكر البعث إنكاراً تاماً فقد شك فيه شكاً شديداً. وفي كتابه (مع أبي العلاء في سجنه) يرى أن أبا العلاء متردد بإزاء البعث في كتابه الفصول والغايات، كما تردد بإزائه في اللزومات.

إلا أن الفصول والغايات تؤكد ثبات إيمانه بالبعث، ولم يكن متردداً على الإطلاق في ذلك. ويرى باحث آخر أن المعري إذ يؤمن بالبعث والحساب والجزاء، فإنه أحياناً يأتي بأقوال تشكك في هذا الإيمان، ويأتي بشواهد من اللزومات، وينتهي إلى التساؤل: لماذا هذا التقلب من أبي العلاء في معتقده الديني، وموقفه بين الشك واليقين؟.

أما الدكتور كامل سغفان فيرى أن أبا العلاء كان على يقين من البعث والحساب بدليل قوله: **إِذَا مَا أعظمي كانت هباءً فإن الله لا يُعيبه جمعي**

ولولا أنه كان على يقين من البعث والحساب لامتنع عن الطعام، يأساً من الحياة التي حرم فيها آلتها، و خلاصاً من الآلام النفسية التي يعانيتها بسبب الفقر والحرمان، إنه يعلن في الفصول والغايات: « لو أمنتُ التبعة لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضنك الحياة، ولكن أرهب غوائل السبيل، إن فعلتي غير جميل ». ويرى أن كتاب الفصول والغايات الذي هو أصل اللزومات أو صورتها النثرية في رأي الدكتور طه حسين، ينهض دليلاً قاطعاً على إيمان أبي العلاء بالبعث والحساب أو على الأقل عدم نفيه لهما.

ويفسر بعض الباحثين تناقض أبي العلاء في كثير من المسائل الفلسفية التي تناولها بالبحث والدراسة مثل الجبر والاختيار أو البعث والنشور أو النبوة وغيرها إلى اعتماده على طريقتين هما: الفلسفة اليونانية التي تجعل العقل وسيلة لبلوغ الحقيقة. وطريقة الدين التي تجعل الحقيقة آتية من الله على لسان أنبيائه بالوحي، دون أن يحاول التوفيق بينهما.

د- الثواب والعقاب:

هذه القضية ذات علاقة وثيقة بقضية البعث والنشور. وتوصل الباحثون إلى أن شأن أبي العلاء في قضية الثواب والعقاب شأن بقية القضايا من النفي والإثبات، وإن كان تركيزه على الإثبات أقوى.

وهناك من يرى أن للمعري نهجاً دينياً خالصاً في تصور البعث والمسألة، فهو يتمنى أن يكون مقبولاً عند الله، فقد جانب الآثام، وصام عن خطايا الحياة، وهو يتملكه الخوف والضعف كلما تصور نفسه في موقف الحساب يوم القيامة، فهو إذن مؤمن بالثواب والبعث، وهو يقرر أنه يائس من دنياه طامع في أن تعود روحه إلى السموات.

وقد جسد أبو العلاء ثنائية الثواب والعقاب هذه من خلال الجنة والنار أو النعيم والجحيم. ونبدأ أولاً بدراسة فكرة الثواب أو (الجنة).

إن القرآن الكريم من أبرز المصادر التي اعتمد عليها المعري في رسم جنته، فقد تشابهت جنة القرآن الكريم، وجنة الغفران في تصوير النعيم والملذات التي حُشدت لأهل الجنة. وهنا نستقري جميع المواضع التي استعان فيها أبو العلاء بمادة القرآن الكريم في تفصيل الحديث عن نعيم الجنة. يقول في نعيم الخلد: «... والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قياماً وعوداً، وبالمغفرة نيلت السُّعود، يقولون، والله القادر على كل عزيز: نحنُ وهذه الشجر صلةٌ من الله لعلِّي بن منصور، نخبأ له إلى

نفخ الصور، وتجري في أصول ذلك الشجر، أنهارٌ تختلجُ من ماء الحيوان، والكوثر يمدُّها في كل أوان من شرب منها النغبة فلا موت، قد أمن هنالك الموت، وسعدُ من اللبن متخرقات، لا تغير بأن تطول الأوقات. وجعافُ من الرحيق المختوم، عزُّ المقتدر على كل محتوم. تلك هي الراح الدائمة لا الذميمة ولا الدائمة...»⁰.

هذه بعض عناصر النعيم: الولدان المخلدون- الأنهار- ماء الحيوان- الكوثر- جعافر من الرحيق المختوم. وهناك أيضاً الطير السابحة والشراب الذي لو جرَّع منه أبو نواس جرعة واحدة لحكم أنه الفوز القُدَمي. يقول: « وفي تلكم الأنهار أوان على هيئة الطير السابحة، والغانية عن الماء السائحة، فمنها ما هو على صور الكراكي، وأُخرُ تُشاكل المكاكي، وعلى خلق طواويس وبط، فبعضُ في الجارية وبعضُ في الشطِّ ينبغُ من أفواهها شرابٌ، كأنَّه من الرقة سرابٌ، ولو جرَّع جرعة منه الحكمي لحكم أنه الفوز القُدَمي»⁰.

ويتابع أبو العلاء حديثه عن أنهار الجنة يقول: " ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية إلى الأنوار، ولا هو في مومٍ متوارٍ، ولكن قال له العزيز القادر: كن، فكان، وبكرمه أعطى الإمكان. وإهاً لذلك عسلاً لم يكن بالنار ميسلاً! لو جعله الشارب المحرور، غذاءه طول الأبد ما قَدَّر له عاض مومٍ، ولا لبس ثوب المحموم، وذلك كله بدليل قوله تعالى: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ". (محمد/15).⁰

اختار أبو العلاء هذه الآية التي أسهمت في توضيح أشكال النعيم الذي يحظى به المتقون. وهي تركِّز على الأنهار وهي أنهارٌ من ماء غير آسٍ أي غير متغيَّر أو غير منتن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، أي في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وفي حديث مرفوع " ولم يخرج من ضروع الماشية ". وأنهار من خمر لذة للشاربين أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، وفي حديث مرفوع " لم يعصرها الرجال بأقدامهم " وأنهار من عسلٍ مصفى أي هو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديث مرفوع " لم يخرج من بطون النحل ".⁰

لقد قرأ أبو العلاء تلك الآية وأمعن النظر فيها، ودقق في معانيها، فاختر من بين هذه الأنهار أنهاراً من عسل مصفى، وبدأ بالحديث عنه، وشرح فوائده.

وفي جنة الفردوس وهي إحدى الجنات الثلاثة التي تحدَّث عنها المعري، وهي: جنة الفردوس وجنة

الرجاز، وجنة العفاريث. ولكلٍ من هذه الجنان نزلؤها الذين أدخلوا فيها بشفاعه أو بغيرها، بعد حصولهم على صكوك التوبة والمغفرة.

ففي جنة الفردوس أدخل تسعة من الأعلام المشهورين من المصنفين واللغويين والنحويين والرواة، أمثال: الميرد وابن دريد والضبي والأخفش الأوسط، وثعلب وسيبويه، والكسائي وأبي عبيدة والأصمعي وغيرهم. يقول: "وكانني به - أدام الله الجمال ببقائه- إذا استحق تلك الرتبة يبقين التوبة، وقد اصطفى له ندامي من أدباء الفردوس، كأخي ثماله وأخي دوس ويونس بن حبيب الضبي، وابن مسعدة المجاشعي، فهم كما جاء في الكتاب العزيز: " ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصبٌ وما هم منها بمخرجين " (الفجر / 47- 48). فصدر أحمد بن يحيى قد غُسل من الحقد على محمد بن يزيد فصارا يتصافيان

ويتوافيان ... وأبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه قد رخصت سويداء قلبه من الضغن على علي بن حمزة الكسائي وأصحابه ، لما فعلوا به في مجلس البرامكة . وأبو عبيدة صافي الطوية لعبد الملك بن قريب ، قد ارتفعت خلتها عن الريب ، فهما كأربد ولبيد أخوان ... "والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" (الرعد / 23-24) .

فأبو العلاء قد جمع في هذا المشهد بين هؤلاء العلماء الذين كانوا يختلفون في الحياة الدنيا، لكونهم متعاصرين ومتنازعين، وهاهم الآن في هذا المجلس، وقد صفت قلوبهم، ونزعت الضغائن من صدورهم، وهم جالسون على سرر متقابلين، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب.

وترتبط بفكرة الثواب والعقاب فكرة مهمة جداً وهي المغفرة، فيذكر المعري الشعراء والأدباء ممن كانت لهم مواقف وأقوال تدفع بهم إلى الجحيم، فغفر لهم لبعض ما ورد على ألسنتهم من عبارات توحى بالإيمان أو توجب المغفرة، أو شعر جيد قالوه في مدح رسول الله p. فغفر الله لهم، وكتب لهم الجنة.

فهذا عبيد بن الأبرص التحق برفاقه في الجنة ببركة بيت قاله، ويسأل ابن الفارح عبيد بن الأبرص الأسدي بم غفر الله له: فيقول: « أخبرك أنني دخلت الهاوية، وكنت قلت في أيام الحياة:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخبئ

وسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل يُنشد ويخف عني العذاب حتى أطلقت من القيود والأصفاد، ثم كرر إلى أن شملتني الرحمة ببركة ذلك البيت وإن ربنا لغفور رحيم» .

عبيد إذن دخل الجنة ببركة بيت من الشعر يحمل معنى إسلامياً عميقاً، فهو يتضمن معنى الآية الكريمة: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة/186).

ويسأل ابن الفارح زهير بن أبي سلمى: بم غفر الله له وقد كان في زمان الفترة والناس هم لا يحسن منهم العمل؟ فيجيب زهير: كانت نفسي من الباطل نفوراً، فصادفت ملكاً غفوراً، وكنت مؤمناً بالله العظيم، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء فمن تعلق به سكان الأرض سلم. فعلمت أنه أمر من أمر الله، فأوصيت بني، وقلت لهم عند الموت: إن قام قائم يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه. ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين. وقلت في الميمية. والجاهلية على السكنة، والسفهُ ضارب بالجران:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهَ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهُمَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمَ

فهو إذن دخل الجنة لأنه كان مؤمناً بالله العظيم، ولأنه أوصى بنيه بتصديق الرسول الأمين. والبيتان السابقان يتضمنان معنى من القرآن الكريم. ففي البيت الأول تضمين للآية الكريمة: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ) (النحل/19)، وفي البيت الثاني تضمين للآية الكريمة: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ) (الانفطار/10-11). وأيضاً للآية: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ) (الحج/70). ويسأل عدي بن زيد العبادي كيف كانت سلامته على الصراط ومخلصه من بعد الإفراط؟ فيرد عدي: إني كنت على دين المسيح، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يُبعث محمد فلا بأس عليه، وإنما التبعة على من سجد للأصنام، وعُدَّ في الجَهْلَةِ من الأنعام.

فهو إذن دخل الجنة لأنه من أتباع الأنبياء.

ويسأل النابغة الذبياني بم غفر له. فيجيب: « إني كنت مقراً بالله، وحججت البيت في الجاهلية، ولم أدرك النبي p فتقوم الحجة علي بخلافه. وإن الله تقدست أسماؤه عز ملكاً وجل، يغفر ما عظم بما قلَّ» .

فالنايعة دخل الجنة لأنه كان مؤمناً بالله العلي العظيم، ولأن شعره كان دليلاً على إقراره بالواحد القهار.

أما النايعة الجعدي فقد شفعت له حنيفيته، وكانت سبباً في دخوله الجنة، وقد طلب منه ابن القارح أن ينشده أبياتاً له على رويّ الشين. (وذكر تلك الأبيات) فيقول الجعدي إنه ما جعل الشين قط رويّاً، فيبرر ابن القارح نسيانه بانشغاله بنعيم الجنة من شراب ولحوم طير وغير ذلك من متع الجنة. يقول ابن القارح مبيناً ذلك: «يا أبا ليلى، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء، وشغلك شراب ما جاءتك بمثله بابل ولا أذرعات، وثنتك لحوم الطير الرائعة في رياض الجنة، فنسيت ما كنت عرفت، ولا ملامة إذا نسيت ذلك: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ، هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكئون، لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدعون) (يس/55-57)».

هذه هي نعم أهل الجنة التي أعدّها الله لعباده المتقين فالله تعالى يخبر في آياته عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم.

أما أعشى قيس، فقد منّ الله عليه، وأدخله جنته بعد أن صار من جهنم على شفير، وينس من المغفرة والتكفير. ويلتفت إليه ابن القارح «إذا هو بشاب غرائق، غير في النعيم المفائق، وقد صار عشا حوراً معروفاً، وانحناء ظهره قواماً موصوفاً، فيقول: أخبرني كيف كان خلاصك من النار، وسلامتك من قبيح الشنار؟ فيقول: سحبتني الزبانية إلى سقر. رأيته رجلاً في عرصات القيامة يتلألأ وجهه تلالو القمر، والناس يهتفون به من كل أواب: يا محمد، يا محمد، الشفاعة الشفاعة!! نمثُ بكذا ونمُثُ بكذا. فصرختُ في أيدي الزبانية: يا محمد أغثنِي فَإِنَّ لي بك حُرمة! فقال: يا علي بادره فانظر ما حرّمته! فجاءني علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه، وأنا أعتل كي ألقى في الدرك الأسفل من النار، فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القاتل:

أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمُتُ
فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ
مَوْعِدًا

إلى قوله:

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ
أَغَارَ لَعْمَرِي فِي الْبِلَادِ
وَأُنْجِدًا

ويقول الأعشى: قلتُ لعلّي: وقد كنتُ أومن بالله وبالحساب وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء... فذهب علي إلى النبي p، فقال: يا رسول الله، هذا أعشى قيس قد روي مدحه فيك، وشهد أنك نبي مرسل. فقال: هلا جاءني في الدار السابقة؟ فقال علي: قد جاء، ولكن صدته قریش وحبّه للخمر. فشفع لي، فأدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمرًا، فقرت عيناى بذلك، وإن لي منادح في العسل وماء الحيوان. وكذلك من لم يتب من الخمر الساخرة، لم يسقها في الآخرة».

فالأعشى شفع له شعره، ومنه داليتة في مدح الرسول p، وإيمانه بالله والحساب والبعث. فدخل الجنة وعد من

أصحاب النعيم، وحظي بما أراد في الدار الآخرة من العسل وماء الحيوان.

ومن خلال الحوار بين لبيد بن ربيعة وابن القارح، يعبر لبيد عن تعجبه من دخول الأعشى جنة عدن وبعد أن يروي

ابن القارح أبياتاً للأعشى تصور انغماسه في اللهو والملذات كوصف الخمرة وشربها، وعلاقاته مع الغانيات. يقول: «فلا

يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون قاله تحسیناً للكلام على مذهب الشعراء، وإما أن يكون فعله فغفر له: (قل يا عبّادي الذين

أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر/53). «إِنَّ اللَّهَ

لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (النساء/116)

فالله تعالى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء من عباده، وهو يغفر الذنوب جميعاً ما عدا الإشراك به، وقد اعتمد على بعض آيات القرآن الكريم في طلب المغفرة.

وتصادفنا هنا إحدى الشبهات الواردة في رسالة الغفران. وهي الجراءة على تقرير مصاير الشعراء في الغفران، ما بين الجنة والنار. ولا أحد يدري غير الله مصيرهم في الآخرة.

إلا أن أبا العلاء قد احتاط في ذلك من التباس عالمه الآخر بالحياة الآخرة، واحترس من الظنّ به أنه حكم على هذا الشاعر أو ذاك، بأنه من أهل الجنة أو أهل النار، ويبدأ الرحلة بابن القارح إلى عالمه الآخر فيعقدها بمشيئة الله. قال بعد المقدمة، يعلّق على ما افتتح به ابنُ القارح رسالته من تمجيد الله والثناء عليه: « فقد غرس لمولاي الشيخ الجليل، إن شاء الله، بذلك الثناء شجرٌ في الجنة لذيذٌ اجتناء... ».

وقد تابع أبو العلاء إملاء رسالته متنبهاً إلى قصد المشيئة الإلهية، فتسمعه بعد انتهاء الرحلة، وتفرّغه للردّ على رسالة ابن القارح، يعرض لقضية اتهام بشار بن برد بالزندقة فتتداعى أفكاره، ويذكر أنه جاء ببشار مع الشعراء المعذّبين في جحيم الغفران ومن ثمّ يستدرك. فيقول متحرّجاً: « والله العالم بحقيقة الأمر. ولا أحكمّ عليه- يعني: بشار بن برد- بأنه من أهل النار، وإنما ذكرتُ ما ذكرتُ - في جحيم الغفران- لأنني عقدته بمشيئة الله، وإن الله لحليمٌ وهابٌ ».

فهو ما أدخل بشاراً في جحيم الغفران إلا في تصوره الأدبي، أمّا في الواقع التاريخي لقضية اتهام بشار بالزندقة، فحسبُه أن يقول: « والله العالم بحقيقة الأمر ».

والمعري حين عرض رؤياه لعالمه الآخر عقد الأمر كله بمشيئة الله، وصرح بأنه على وجه التمني والتصور، إذ

يقول، وهو يمضي بابن القارح إلى الجنة في أول مشهد: « وكأني به، إذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة، وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس ».

وقد شغل الشماخ بن ضرار بنعيم الجنة عن قصيدتيه التي على الزاي، والتي على الجيم، فيسأله ابن القارح عن تلك القصيدتين، فيجده قد نسيهما، فلا يذكر منهما بيتاً واحداً. فينشده ابن القارح قصيدته التي على الزاي، فيجده بها غير عليم، ويسأله عن أشياء فيها فيصادفه بها غير بصير، فيعتذر الشماخ عن ذلك بقوله، مصوراً ذلك النعيم المقيم والفوز الكبير مستعيناً بآيات الذكر الحكيم: « شغلّتي لذائذ الخلود عن تعهد هذه المنكرات (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاحٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (المرسلات/41-42-43) إنما كنت أسقُ هذه الأمور وأنا أمل

أن أفقر بها ناقة، أو أعطى كيل عيالي سنة... وأنا الآن في تفضيل الله، أعترف في مرافد العسجد من أنهار اللبن: فتارةً ألبان الإبل، وتارة ألبان البقر، وإن شئت لبّن الضأن فإنه كثيرٌ جَمٌّ . وكذلك لبّن المعز، وإن أحببتُ ورداً، من رسل الأراوي، فرب نهر منه كأنه دجلة أو الفرات. ولقد أراني في دار الشقوة أجهّد أخلاف شياهُ لجبات، لا يمتلئ منهن القعب ».

لذائذ الخلود إذن هي ما شغلت ابن ضرار عن قصيدته، وجعلته ينسى كلامه -كما حدث مع النابغة الجعدي- شتان

إذن بين ما يراه ويحصل عليه في دار الخلود وبين ما كان يحصل عليه في دار الشقاء. هذا جزاء المحسنين.

وفي جنة المعري صنوفٌ عديدة من الملذات، كالخمر وهي خمر لم يحلم بمثلها كل وصاف الخمر، ولحوم شهية من

الضأن والمعز والبقر والإبل، وأبجاج العكارم وجواز الطواويس والسمن من دجاج الرحمة وفراريج الخلد.

ويلاحظ هنا أن أبا العلاء إذ يخالف مذهبه في تحريم ذبح الحيوان، لم ينسَ أن يحتاط بمثل قوله حين ارتفع صياح الطير والغنم لرؤية المدينة: « وذلك كلّه بحمد الله لا ألم فيه، وإنما هو جدُّ مثل اللعب، فلا إله إلا الله الذي ابتدع خلقه من غير روية، وصوّره بلا مثال ».

هذه هي مآدبة المعري في جنته، فيها كل ما تشتهي الأنفس، يقول: « فإذا حُصِلَت النحوصُ فوق الأوافاض، والأوافاض مثل الأوضام بلغة طيء، قال زاد الله أمره من النفاذ: أحضر في الجنة من الطهارة الساكنين بحلب على ممر الأزمان، فتحضر جماعة كثيرة، فيأمرهم باتخاذ الأطعمة، وتلك لذة يهبها الله، عز سلطانه، بدليل قوله تعالى: (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^{٧١} وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ » (الزخرف/71-72-73) ».

هذه الجنة التي وعد بها الله المتقون، اجتمع لهم فيها طيب الطعام والريح وحسن المنظر، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة.

فالمعري اختار هذه الآيات التي تكمل صورة المائدة التي أعدها للشعراء والأدباء في جنته، وتجعلها أكثر غناءً بأطيب المذاذات الخالدة. « فإذا أتت الأطعمة، افترق غلمانها الذين كأنهم اللؤلؤ المكنون، لإحضار المدعوين، فلا يتركون في الجنة شاعراً إسلامياً، ولا مخضرمًا، ولا عالماً بشيء من أصناف العلوم، ولا متأدياً إلا أحضره، فيجتمع بجدٍ عظيم. والبجد: الخلق الكثير ».

ويمعن أبو العلاء في تصوير المذاذات والنعم واشتهاء المدعوين الذين حضروا تلك المآدبة. يقول: « ويعبرُ بين تلك الأكراس، أي الجماعات، طاووسٌ من طاووس الجنة يروق من رآه حسناً، فيشتهيه أبو عبيدة مصوصاً، فيتكون كذلك في صحفة من الذهب، فإذا قضي منه الوطر، انضمت عظامه بعضها إلى بعض، ثم تصير طاووساً كما بدا. فتقول الجماعة: سبحان من يحيي العظام وهي رميم! ».

ويتابع أبو العلاء حديثه عن مذاذات الجنة، فيقول في أور الجنة: « وتمر إوزة مثل البختية، فيتمناها بعض القوم شواء، فتتمثل على خوان من الزمرد، فإذا قضيت منها الحاجة، عادت، بإذن الله، إلى هيئة ذوات الجناح. ويختارها بعض الحاضرين كردناجاً، وبعضهم معمولةً بسماق، وبعضهم معمولةً بلبن وخل، وغير ذلك، وهي تكون على ما يريدون ».

ومن المذاذات في جنة الغفران النساء اللواتي تغيرت صورهن عما كن عليها في الدار العاجلة، وأصبحن ذوات

جمال باهر. إذ يخلو ابن القارح بحوريتين من الحور العين. إحدهما توفيق السوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد على زمان أبي منصور محمد بن علي الخازن، وقد أصبحت أنصع من الكافور بعد أن كانت سوداء. والأخرى حمدونة التي كانت في الدار العاجلة تسكن في باب العراق بحلب، وأبوها صاحب رحي وتزوجها رجلٌ يبيع السقط، فطلقها لرائحة كرها من فيها. وكانت من أقبح نساء حلب. ولكن الله أنعم عليها وأصبحت من الحور العين، وعندما سألها ابن القارح مم تضحكين؟ أجابته: فرحاً بتفضل الله الذي وهب نعيماً، وكان بالمغفرة زعيماً. أتدري من أنا يا علي بن منصور؟. فيقول: أنت من حور الجنان اللواتي خلقك الله جزاءً للمتقين. وقال فيكن: (كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن/58).

إن جنة القرآن الكريم ماثلة في ذهن أبي العلاء، ولم تغب عن مخيلته لحظة واحدة، لذلك نرى ملامحها موجودة هنا وهناك في كلّ تعبير من غفرانه، يعزز هذا وجود الشاهد القرآني الذي يوسّع آفاق الصورة، ويجعل المعنى المراد أدق وأفصح.

واستكمالاً للصورة السابقة يتحدث عن الحور العين بادئاً بآيات من الذكر الحكيم: (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً

فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) (الواقعة/35-38). والحور العين على ضربين: ضربٌ خلقه الله في

الجنة، وضربٌ نقله الله من الدار العاجلة لما عمل الأعمال الصالحة، ويطلب ابن القارح من الملك أن يحذّنه عن الحور اللواتي لم يكن في الدار الفانية، وهنا يمضي ابن القارح إلى شجرة من شجرة الحور، فيكسر ثمرة فتخرج منها جارية

حوراء عيناء، تبرق لحسنها حوريات الجنان، فيسجد ابن القارح إعظاماً لله القدير. ويقول: هذا كما جاء في الحديث: أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، بله ما أطلعتهم عليه.

وهنا جاء أبو العلاء بهذا الحديث القدسي الذي ساعد في تأكيد الفكرة، وتوسيع الصورة وإعطائها بعداً أعمق. وقد جاء هذا الحديث في صفة الجنة. وهو بتمامه: عن النبي p . قال: قال الله Y: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. مصداق ذلك في كتاب الله.. (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (السجدة/17).

وأخيراً يحدثنا أبو العلاء عن الراحة العظمى التي ينالها ابن القارح في الجنة، يقول: «ويذكر- أذكره الله بالصالحات، ما كان يلحق أبا الندام، من فتور في الجسد من المدام، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن يُنزف له لب، ولا يتغير عليه حُبُّ فإذا هو يخال في العظام الناعمة دبيب نمل، أسرى في المقمرة على رمل... ويتكى على مفرش من السندس، ويأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفروش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة، وإنما هو زبرجد أو عسجد، ويكوّن البارئ فيه حلقة من الذهب تُطيف به من كل الأشراء، حتى يأخذ كل واحد من الغلمان وكل واحدة من الجواري المشبهة بالجمان، واحدة من تلك الحلق، فيحمل على تلك الحال إلى محله المشيد بدار الخلود، فكلما مر بشجرة نصخته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور، وبمسك ما جني من دماء الفور، بل هو بتقدير الله الكريم. وتتاديه الثمرات من كل أوب وهو مستلق على الظهر: هل لك يا أبا الحسن، هل لك؟ فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إلى فيه، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية «وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» (يونس/10)». والمعري في هذا المشهد يستحضر آيات الذكر الحكيم عندما أشار إلى سرر أهل الجنة، فكانه يتمثل قوله تعالى في سورة الغاشية: (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ، وَنُفَاقٌ مَّصْفُوفَةٌ) (13-14-15). وهكذا فإن أبا العلاء قد حشد لابن القارح كثيراً من الملذات المادية والمتع الحسية، وهي جميعها مستوحاة من القرآن الكريم الذي يجمع كل ما يخطر على البال من صنوف النعيم المادي في الدنيا ويحشد كل الملذات التي اشتهاها المؤمن، وجميع الخيرات التي يتمناها.

فقد جاء في القرآن الكريم في تصوير الجنة قوله تعالى:

- (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) (ق/36).
- (خُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) (الرحمن/74).
- (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاقِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَدَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) (الصافات/40-49).
- (جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) (فاطر/33).

- (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ * مُتَكَنِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعَا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) (الإنسان/12-21).

- (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَذْبٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا

خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَعًا) (الكهف/31).

والأمر نفسه في حديثه عن جحيم الغفران، إذ نجده يستحضر مشاهد كثيرة من القرآن الكريم، فهاهو يستهل كلامه عن شعراء النار بوصف إبليس: « وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية»^٥. فالمعري نقل إلى جحيمه بعض عناصر جحيم القرآن مثل الزبانية وهم رمز للعذاب، فهم الذين يزبون الناس ويدفعونهم إلى النار. والأغلال والسلاسل ومقامع الحديد والسعير.

ويتطرق لذكر بشار بن برد، لأن له يداً عند إبليس لتفضيله على آدم في الحياة الدنيا. يقول: « وإن في الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر، فما فعل بشار بن برد؟ فإن له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم: كان يفضلني دون الشعراء، وهو القائل: إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار النار عنصره وآدم طينه والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحق، ولم يزل قائله من الممقوتين.

فلا يسكت من كلامه، إلا رجل في أصناف العذاب يُغَمِّضُ عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم، فيفتحها الزبانية بكلايب من نار، وإذا هو بشار بن برد. قد أعطي عينين بعد الكمه، لينظر إلى ما نزل به من النكال»^٥.

أضاف هنا من أساليب العذاب: الكلايب من نار وهي بأيدي الزبانية. وإذا رجعنا إلى الآيات التي تصوّر الجحيم، نجد المعري قد تمثّلها بدقة في تصوير العذاب الذي لحق بالشعراء. فمن ذلك، الحوار الذي أجراه بين ابن القارح وإبليس، يقول إبليس للعين للشيخ: « وإن لي إليك حاجة، فإن قضيتها شكرتك يد المنون، فيقول: إني لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت في أهل النار، أعني قوله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) (الأعراف/50) »^٥.

فالله سبحانه وتعالى حرم طعام أهل الجنة وشرابهم على الكافرين.

ويبدو جزاء الكافرين في النار أيضاً عند لقاء ابن القارح بأوس بن حجر، ويسأله عن قصيدة له، وللنابغة الذبياني مثلها. فيقول أوس: قد بلغني أن نابغة بني ذبيان في الجنة فأسأله عما بدا لك، فلعله يخبرك، فإنه أجدر بأن يعي هذه الأشياء، فأما أنا فقد ذهلت: نارٌ توقد، وبنانٌ يُعقد، إذا غلب علي الظمأ، رفع لي شيء كالنهر، فإذا اغترفت منه لأشرب وجدته سعيراً مضطرباً... ولقد دخل الجنة من هو شرُّ مني، ولكن المغفرة أرزاق، كأنها النشب في الدار العاجلة»^٥.

هذا السعير المضطرب، وهذا العذاب الشديد لا يبتعد عما جاء به الذكر الحكيم. ولا يخفى على أحد صرخة الشكوى، وصيحة الاحتجاج المرّ الذي يقوى حتى يشبه أن يكون اعتراضاً على قضاء الله تعالى، فأوس يقول: « لقد دخل الجنة من هو شرُّ مني، ولكن المغفرة أرزاق...» فالمعري لا يلغي بشرية أصحاب النار، فهناك الحقد والشتم والاحتجاج والتحريض والذم والشكوى والشماتة والنسيان.

ويستعري انتباه ابن القارح شخص في النار، لا يكاد يتبينه، «فيقول: من أنت أيها الشقي؟ فيقول: أنا أبو كبير الهذلي، عامر بن الحليس... فيقول أبو كبير الهذلي: كيف لي أن أقضم على جمرات محرقات لأرد عذاباً غدقات؟ وإنما كلام أهل سقر ويلّ وعويل، ليس لهم إلا ذلك حويل، فاذهب لطيتك، واحذر أن تشغل عن مطيتك»^٥.

يبين هنا بعض ما يحدث في الجحيم من تعذيب، فهناك (الويل والعويل، وسقر الملتبهة- والجمرات المحرقات).

ويلتقي ابن القارح بالأخطل، وهو يتصوّر ألماً وجوعاً، فيقول له: « أخطأت في أمرين، جاء الإسلام فعجزت أن تدخل فيه، ولزمت أخلاق فيه، وعاشرت يزيد بن معاوية وأطعت نفسك الغاوية وآثرت ما فني على باقي، فكيف لك بالإباق؟ فيزفر الأخطل زفرة تعجب لها الزبانية، ويقول: أه على أيام يزيد أسوف عند عنبراً...»^٥.

يوضح المعري سبب دخول الأخطل جهنم، ويذكره بخطباته.

ولنقرأ هذا الحوار الذي يصوّر الجحيم، ونرى فيه الزبانية، وإبليس وله كنيستان أبو مرة وأبو زوبعة، ومالك خازن

جهنم. فيقول ابن القارح للأخطل: « عليك البهلة! قد ذهلت الشعراء من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب، وما شذت

عن كفر ولا إساءة. وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله. فيقول للزبانية: ما رأيته أعجز منكم إخوان مالك! فيقولون: كيف

زعمت ذلك يا أبا مرة؟ فيقول: ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه؟ قد شغلكم وشغل غيركم عما هو فيه! فلو أن فيكم

صاحب نحيزة قوية، لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر، فيقولون: لم تصنع شيئاً يا أبا زوبعة! ليس لنا على أهل الجنة سبيل»^(١).

وفي نهاية المطاف يعبر الأخطل عن ندمه الشديد.
ومما يتعلق بذلك أيضاً تصوير موقف الحشر، حيث يحدثنا المعري عن أنواع العذاب التي تلحق الشوس الجبابرة من الملوك، وكذلك النسوة ذوات التيجان، والشباب من أولاد الأكاسرة. وهذا في الحقيقة صدى لخطط المعري على فساد الحياة السياسية في عصره، وقبح رأيه في الحكام، حيث يقول في حديثه عن تميم بن أبي بن مقبل، وهو أحد العوران الخمس المذكورين في الرسالة: « وإن حفظك لمبقى عليك، كأنك لم تشهد أهوال الحساب، ومناذي الحشر يقول: أين فلان ابن فلان؟ والشوس الجبابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم، والنسوة ذوات التيجان يصرن بالسنه من الوقود، فتأخذ في فروعهن وأجسادهن، فيصحن: هل من فداء؟ هل من عذر يُقام؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاعون في سلاسل النار، ويقولون: نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الغانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع وأياد فلا فادي ولا مُعين! فهتف داع من قبل العرش: (أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) (فاطر/37) لقد جاءتكم الرسل في زمان، وبذلت ما وكد من الأيمان، وقيل لكم في الكتاب: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (البقرة/281). فكنتم في لذات السخرة واغليين وعن أعمال الآخرة متشاغلين، فالآن ظهر النبا، لا ظلم اليوم، إن الله قد حكم بين العباد».

هذه صورة من صور العذاب في جحيم الغفران المأخوذ من جحيم القرآن الكريم، حيث الزبانية الذين يدفعون الكفار إلى النار، وألسنة الوقود التي تحرق أجسادهم وسلاسل النار التي يتصايحون بسببها. وفي خاتمة المشهد يذكر باليوم الذي توفى فيه كل نفس ما كسبت من غير أن تظلم، فحول لابن القارح أن يسترجع ما كان قد حدث له في هذا اليوم «فيقول، أنطقه الله بكل فضل، إن شاء ربه أن يقول: أنا أقصُّ عليك قصتي...».

هذه بعض مشاهد العذاب القوية التأثير: مشهد إبليس وبشار، ومشهد الجبابرة، ومشهد أوس بن حجر. إلا أننا نرى أبا العلاء يوجز في وصف العذاب أو العقاب الذي حلَّ بأهل النار، مقارنَةً مع وصف النعيم الذي ناله أهل الجنة، فهو أحياناً يقدِّم لنا الشعراء في جهنم بعبارات تصف عذابهم وصفاً سريعاً موجزاً، فعلمقة بن عبدة عابِسٌ يستضحك (ص188)، وعنترة العبسي متلدد في السعير (ص184)، وطرفة بن العبد يشتهي الهدء والسكون (ص196)، وأبو كبير الهذلي يقول: وإثما كلام أهل سقر ويلٌ وعويل (ص200)، والأخطل التغلبي يتصور (ص201). هذا وقد ذكر المعري عدداً من شعراء الجحيم دون أن يشير إلى عذابهم أو عقابهم كامرئ القيس، والحرث الشكري، ومهلل، والشنفرى الأزدي...

وسنذكر هنا بعض الآيات الكريمة التي استفاد المعري من ألفاظها وصورها ومعانيها في تصوير جحيمه:
- (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) (القمر 48-47).

- (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ) (الحج 19-20-21).
- (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) (غافر/71-72).
- (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ « (الحاقة/30-31-32).

- (وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (سبا/33).
- (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (الرعد/5).
- (فَلْيَذُقْ نَادِيَهُ * سَنَدُغُ الزَّبَانِيَةَ) (العلق/18).

- (وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ) (الشعراء 87-91).

- (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ) (النساء/56).

- (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَابًا * لَا بُدَّ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) (النبأ/20-25).

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ) (الغاشية/1-6).

ولا بُد من القول هنا، أنه لا مجال للمقارنة بين آيات الذكر الحكيم التي تصوّر الجحيم وبين جحيم الغفران، لأن أبا العلاء استوحى -كما رأينا- معاني هذه الآيات واستفاد منها، وأخذ من صورها وألفاظها لتصوير جحيمه. ونحن لا نوافق الدكتور بنت الشاطي، فيما ذهبت إليه عندما قالت: « هذا بعض ما وصف به القرآن الكريم الجحيم وعذابها، وإنَّ آية واحدة من هذه الآيات، قد تفوق كل جحيم الغفران، قوّةً وهولاً وشدّةً عذاباً ».

فلا تصحّ هذه المقارنة بين آيات القرآن الكريم وغفران أبي العلاء، لأنّ المعري ليس في صدد هذه المقارنة، ولم يقصدها أبداً.

وبعد دراستنا للثواب والعقاب أو الجنة والنار في رسالة الغفران، يمكننا أن نستنتج مع الدكتورة بنت الشاطي أنّ في جنة أبي العلاء وجحيمه ملامح واضحة من الجنة والجحيم في القرآن، ولا مجال للتردد في القول بأنه أخذ أكثر مادته لعالمه الآخر من القرآن الكريم، وهو في كل ما أخذ من ذلك، يقدم معه الشواهد القرآنية... ولكن هذه الملامح لا تعدو أن تكون مادة سخيّة، صاغ منها أبو العلاء، مع غيرها من مواد، عالمه الآخر، وما كان يستطيع، وما ينبغي له أن يتمثل جنته وناره، بمعزل عما رسخ في عقيدته ووجدانه وثقافته من الصورة القرآنية للحياة الآخرة.

وترى بنت الشاطي أيضاً « أنّ أبا العلاء لم يجاوز المدى فيما أتاح لابن القارح من نعيم جنته في الغفران، وما يغلب عليه من حسّ السخرية والتهكم، ليس سخريةً بالمعتقدات، وإنّما السخرية كلّها بابن القارح والتهكم كلّهُ عليه ».

وكذلك كان كتابه الفصول والغايات زاخراً بالأدلة القوية الصريحة على إيمان المعري بالثواب والعقاب، مستأنساً

في كلّ ما يقول بآيات القرآن الكريم، من قريبٍ أو بعيدٍ. يقول: « والله نظرٌ في العالم دقيق، لا يمنع أن يكون جسّدُ الصالح إذا قُبِرَ في نعيم، وجسّدُ الكافر في عذاب أليم، لا يعلم به الزائرون وعابدُ الله ليس بغيبين... ».

إنّ المعري لا يعتقد بالبعث فقط، بل يعتقد بعذاب القبر ونيعمه. فجزاء المؤمن النعيم الدائم في الجنة، أما الكافر فهو في عذاب أليم في الجحيم.

ويقول أيضاً: « الديار خالية، والأجساد في الحفر بالية، والأرواح عند ربّنا متعالية، لا يُعلم أنعيمٌ هي فيه أم عذاب ».

فمن الأرواح ما هو في نعيم مقيم، ومنها ما هو في عذاب عظيم، وهذا أمرٌ لا يدركه البشر، وإنّما هو بيد الله وحده. ويقول: «أطلبُ منزلة البر، عن ملك المستقر، خالق النفع والضر، وعالم كل مسر... وإلى الله الملتهج، يمهل أمره و يفجأ، وهو على إنشائك قديرٌ، وبجزاء الخير جدير ».

يحدد أبو العلاء صفة من أهمّ صفات الله تعالى وهي قدرته على كلّ شيء، وجزاء الإنسان على عمل الخير، وعقابه على الشرّ، ويكرر هذا المعنى في قوله: «... أمّا الخيرُ فلا يخيبُ، وأمّا الشرُّ فاللهُ على جزائه قديرٌ، ليس للكافر أبداً من نجاح ».

إذن لا بدّ أن يلاقي العبدُ ربّه، فيُثاب على عمله إن كان خيراً، ويُعاقب إن كان شراً، وكأنّ المعري يتمثل قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة/7-8).

ويؤكد مرة أخرى أن الله تعالى لا يغفل محاسبة الإنسان على عمله قائلاً: « أتظنُّ والظنُّ كاذبٌ، أن الله يغفل فلا يحاسب، بغير ذلك شهدت الكواكب ».

وَيُلْحَقُ فِي طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْوُصُولِ إِلَى رِضَا اللَّهِ وَنَيْلِ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ يَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ مَنْ لَا يَعْزُبُ عَلَيْهِ الْغُفْرَانُ، لَوْ كَانَتْ الذُّنُوبُ سُوداً صَارَتْ بَشْرَتِي كَحَلْكِ الْغَرَابِ، وَأَصْبَحْتُ دُمِي كَالْحَبْرِ الْمُسْتَعْتَعِ لِلْكِتَابِ، وَأَعْدَيْتُ مَا جَاوَرَنِي مِنْ وَقْتٍ وَمَكَانٍ، حَتَّى يَكُونَ مَقْعَدِي فِي الشَّمْسِ الصَّافِيَةِ مَظْلاً وَأَنَا فِي رَأْدِ الضَّحَاءِ».

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ أَيْضاً: « مَا أَحْسَنْتُ فَأُطْلَبُ الْجَزَاءُ، لَكِنْ أَسَأْتُ فَمُرَادِي الْغُفْرَانُ، وَمَنْ لِي بِالْوَقْفَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ: لَا أَكْرَمُ وَلَا أَهَانُ».

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَوْمَ الْبَعْثِ الْعَظِيمِ. يَقُولُ: « وَقَعُ الْحَافِرُ، وَالنَّقْعُ الْنَافِرُ، وَنَزِيبُ الْيَعَاثِرِ، يَشْهَدُنَ أَنَّ الْكَافِرَ عَانَدٌ إِلَى رَبِّ ظَافِرٍ، إِنْ شَاءَ فَإِنَّهُ غَافِرٌ».

فَالْأَقْوَالُ السَّابِقَةُ جَمِيعُهَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى إِيْمَانِ الْمُعْرِي بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَيَتَضَحُّ هَذَا أَيْضاً فِي رِسَالَتِهِ، إِذْ يَقُولُ فِي رِسَالَةِ الْمُنِيحِ: « أَفَلَدَتْنَا جَنَانٌ؟ أَمْ وَضَحَ لِأَهْلِهَا الْغُفْرَانُ؟ أَمْ نَشَرُوا بَعْدَمَا قَبَرُوا؟ أَمْ جُزُّوا الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا؟».

نَلْمَسُ هُنَا إِيْمَانَهُ وَاضِحاً بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَمَنْ ثُمَّ إِيْمَانَهُ بِالثَّوَابِ، وَهُوَ هُنَا السَّمَاءُ السَّابِعَةُ جِزَاءَ صَبْرِهِمْ.

وَكُتِبَ يُعْزِي بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ، وَمِنْهُمْ خَالَهُ أَبُو الْقَاسِمِ ابْنُ سَبِيكَةَ بِأَخِيهِ أَبِي بَكْرٍ وَكَانَ قَدْ تَوَفَّى بِدَمَشْقٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: « فَأَمَّا الْمَاضِي، نَضَرُ اللَّهُ وَجْهَهُ، فَقَدْ بَلَغَ سُؤْلُهُ، وَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (وَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (النساء/69). إِنْ فَارَقَ مِنْ دَمَشْقٍ رُبُوعَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ، فَقَدْ وَرَدَ مَعَ الْحُورِ الْعَيْنِ (كَأْسٍ كَانَتْ مَزَاجُهَا كَافُورًا) (الإنسان/5). زُودَ لِرَحِيلِهِ مَلْبَساً فَقَدْ عَوِضَ مِنْهُ سَدَساً وَإِنْ رَجَلَ عَنْ جَوَارِ الْإِخْوَانِ، فَقَدْ جَاوَرَ رَبَّهُ فِي دَارِ الْحَيَوَانِ، وَظَعَنَ مِنْ مَنَازِلِ الْحَرَجِ إِلَى مَنَازِلِ الْبَقَاءِ وَالْفَرَجِ (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص/83)».

فَلَيْسَ هُنَاكَ أَدَلٌّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى إِيْمَانِ الْمُعْرِي بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَقَدْ ذَكَرَ الْآخِرَةَ، وَالْحُورَ الْعَيْنِ، وَالسَّنَدَسَ، وَدَارَ الْحَيَوَانِ، فَهُوَ (الْمُتَوَفَّى) إِنْ تَرَكَ دَارَ الشَّقَاءِ فَقَدْ انْتَقَلَ إِلَى دَارِ الْحَيَوَانِ، وَإِنْ تَرَكَ مَنَازِلَ الْحَرَجِ فَقَدْ رَجَلَ إِلَى مَنَازِلِ الْفَرَجِ، وَقَدْ دَعَمَ كَلَامَهُ بِآيَاتٍ دَالَّةٍ عَلَى الثَّوَابِ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ.

وَفِي رِسَالَةِ الْمَلَائِكَةِ أَوْضَحَ أَبُو الْعَلَاءِ ضَمْنَ الْمَعَانِي الْوَارِدَةَ فِي الرِّسَالَةِ بَعْضَ الْأَفَافِ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِمَسْأَلَةِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. مِنْ ذَلِكَ لَفْظُ الزَّبَانِيَةِ. يَقُولُ: « وَهَلْ أَتُودِدُ إِلَى مَالِكٍ، خَازِنِ النَّارِ، فَأَقُولُ: رَحِمَكَ اللَّهُ، مَا وَاحِدَ الزَّبَانِيَةِ؟ فَإِنْ بَنَى آدَمَ فِيهِ مَخْتَلَفُونَ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ: الزَّبَانِيَةُ لَا وَاحِدَ لَهُمْ مِنْ لَفْظِهِمْ وَإِنَّمَا يَجْرُونَ مَجْرَى السَّوَاسِيَةِ أَيْ الْقَوْمِ الْمُسْتَوِينَ فِي الشَّرِّ... وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: وَاحِدَ الزَّبَانِيَةِ زَبْنِيَّةٌ، وَقَالَ آخَرُونَ وَاحِدَهُمْ زَبْنِيٌّ أَوْ زُبْنِيٌّ...».

وَيَقُولُ مَالِكٌ عِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ تَصْرِيفِ "سَقَرٍ": « مَا أَجْهَلُكَ! وَأَقَلُّ تَمْيِيزَكَ! مَا جَلَسْتُ هَاهُنَا لِلتَّصْرِيفِ، وَإِنَّمَا جَلَسْتُ لِعِقَابِ الْكُفْرَةِ الْقَاسِطِينَ».

وَكَذَلِكَ أَوْضَحَ مَعَانِي السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) (ق/21)، أَيْ: مَلِكٌ يَسُوقُهُ إِلَى الْمَحْشَرِ، وَمَلِكٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ. وَمَعْنَى ثَانٍ: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَشَهِيدٌ عَلَيْهَا بِمَا عَمِلَتْ، وَمَعْنَى ثَالِثٍ: السَّائِقُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالشَّهِيدُ الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ.

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يُشِيرُ إِلَى الْأَدْبَاءِ الَّذِينَ لَحَقَهُمْ عَفْوُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَدَخَلُوا الْجَنَّةَ -كَمَا فِي الْغُفْرَانِ- يَقُولُ: « وَهَلْ أَجِيءُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ خَمَانِ الْأَدْبَاءِ قَصُرَتْ أَعْمَالُهُمْ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَلَحَقَهُمْ عَفْوُ اللَّهِ، فَزَحْزَحُوا عَنِ النَّارِ، فَتَفَقَّ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَتَقُولُ: يَا رِضْوَانُ! لَنَا إِلَيْكَ حَاجَةٌ... فَيَقُولُ رِضْوَانُ: مَا حَاجَتُكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُنَا: إِنَّا لَمْ نَصِلْ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ لِنَقْصِيرِ أَعْمَالِنَا، وَأَدْرَكْنَا عَفْوَ اللَّهِ ﷻ، فَنَجُونَا مِنَ النَّارِ فَبَقِينَا بَيْنَ الدَّارَيْنِ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَنْ تَكُونَ وَاسِطَتَنَا إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْ مِثْلِنَا، وَإِنَّهُ لَقَبِيحٌ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَنَالَ هَذِهِ النِّعَمَ وَهُوَ إِذَا سَبَّحَ اللَّهَ لَحْنًا. وَلَا يَحْسَنُ بِسَاكِنِ الْجَنَّةِ أَنْ يَصِيبَ مِنْ ثَمَارِهَا فِي الْخُلُودِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ حَقَائِقَ تَسْمِيَتِهَا».

«وَهَكَذَا يَمْضِي أَبُو الْعَلَاءِ فِي تَصْرِيفِ مَوَادِّ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ السَّنَدَسِ، شَجَرَةِ طُوبَى، مَاءِ الْحَيَوَانِ، الْحُورِ الْعَيْنِ، الْإِسْتَبْرَقِ، الْعَبْقَرِيِّ، سَفَرَجَلِ الْجَنَّةِ. يَقُولُ مِثْلًا:

- « الَّذِي يَطْوُهُ الْمُؤْمِنُونَ وَيَفْتَرِشُونَهُ... » ص 27.
- وَشَجَرَةِ طُوبَى الَّتِي يَسْتَظِلُّ بِهَا الْمُتَّقُونَ وَيَجْتَنِبُونَهَا آخِرَ الْأَبَدِ... » ص 28.
- « وَالَّذِينَ يَشْرَبُونَ مَاءَ الْحَيَوَانِ فِي النِّعَمِ الْمَقِيمِ... » ص 34.
- « وَمَنْ هُوَ مَعَ الْحُورِ الْعَيْنِ يَخْلُدُ... » ص 36.
- « وَكَيْفَ يَسْتَجِيزُ مِنْ فَرَشِهِ مِنَ الْإِسْتَبْرَقِ أَنْ يَمْضِيَ عَلَيْهِ أَبَدٌ وَهُوَ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَجْمَعُهُ جَمْعَ التَّكْسِيرِ... »

ص 38.

- « وَهَذَا الْعَبْقَرِيُّ الَّذِي عَلَيْهِ اتِّكَاءُ الْمُؤْمِنِينَ: إِلَى أَيِّ شَيْءٍ نَسَبُ... » ص 39.

وَبَعْدَ أَنْ يَصِلَ إِلَى غَايَتِهِ يَقُولُ: « وَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَارِفِينَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، قَدْ أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ الْعِلْمَ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فَلَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْوُلَدَانُ الْمَخْلُودُونَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَقَعْ إِلَيْهِمْ. وَإِنَّا لَنَرْضَى بِالْقَلِيلِ مِمَّا عِنْدَهُمْ جِزَاءً عَلَى تَعْلِيمِ الْوُلَدَانِ. فَيَبْتَئِسُ

إليهم رضوان ويقول: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاعِيَهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْنَابِ مُتَكِنُونَ) فانصرفوا رحمكم الله، فقد أكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه، وإنما كانت هذه الأشياء أباطيل زخرفت في الدار الفانية فذهبت مع الباطل».

وكأن هذه الرسالة بحثٌ مفصّلٌ في الجنة والنار أو الثواب والعقاب، فهي قريبة فيما تتناوله من رسالة الغفران. » فعلى الرغم من كونها تتناول مسائل صرفيّة، فإنّ طابع الغفران يبدو في الملائكة، في اختيار العالم الآخر مسرحاً للرواية، وفي أسلوب الحوار الذي قدّم فيه جوابه عن المسائل التي سئل عنها، وفي مناقشاته الطويلة لأقوال النحاة واللغويين، وفي تفننه في عرض ثروته اللغوية. كما تجد في الملائكة مثل الذي رأيته في الغفران من ظواهر أسلوبية، كالاستطراد والاستقصاء، والجمع».

ونحن نجد نقاط مشتركة بين الرسالتين. ويهمننا من تلك النقاط ما يلي: في الغفران حديث طويلٌ عن محاولات الشيخ ابن القارح مع رضوان، وتزلفه إليه بالشعر والقصيد لعلّه يأذن له بالدخول إلى الجنة، بعد أن استطلّ مدّة الحساب، فيأبى عليه ذلك، ويقول: «إِنَّكَ لَغَبِينُ الرَّأْيِ، أَتَأْمَلُ أَنْ أَذِنَ لَكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! (وَاتَى لَهُمُ التَّنَاضُوحُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) (سبأ/52) ».

فإذا انصرف إلى خازن آخر يقال له زفر وأنشده مدائحه فيه. قال: «لا أشعر بالذي حممت- أي قصدت... فما بغيتك؟ فذكرتُ له ما أريد. فقال: والله ما أقدر لك على نفع، ولا أملكُ لخلق من شفع».

هذه المحاولات شبيهة بمحاولاته في رسالة الملائكة مع ملك الموت: «فأقول: أمهلني ساعةً حتى أخبرك بوزن عزرائيل، فأقيم الدليل على أنّ الهمزة زائدة فيه. فيقول الملك: هيهات! ليس الأمر إليّ (إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (يونس/49). أم تراني أداري منكراً ونكيراً فأقول: كيف جاء اسمكما عربيين منصرفين وأسماء الملائكة أكثرها من الأعجمية مثل إسرافيل وجبريل وميكائيل؟ فيقولان: هات حجتك وخلّ الزخرف عنك. فأقول متقرباً إليهما: قد كان ينبغي لهما أن تعرفا ما وزن ميكائيل وجبريل على اختلاف اللغات فيهما، إذ كانا أخويكما في عبادة الله فلا يزيدهما ذلك عليّ إلا غلطة».

وفي نهاية دراستنا لقضية الثواب والعقاب نودّ الإشارة إلى ضرورة الربط بين هذه القضية وقضية الجبر والاختيار، فقد رأى أحد الباحثين أنّ أبا العلاء كان مضطرباً في مسألة الثواب والعقاب أو التكليف يقول: «على أن تقريره الجبر المطلق أوقعه في حيرة وارتياح كبيرين، فمن الناحية الدينية لا تستطيع أن تستبين رأيه في التكليف ولا في البعث فهو مضطرب فيهما أشدّ الاضطراب، ذلك لأنّ الجبرية إما أن الله يقدّر عليك العمل، ويقدر عليك الجزاء كما تقول الجهمية، وهو عبث يأباه المعري على الله. وإمّا أن تقدّر عليك العمل ولا جزاء وهو ما يلائم العقول حالة تقدير العمل، ولكنه يخالف الدين صراحةً».

ونحن نقول: إنّ أبا العلاء كان واضحاً وصريحاً في هذه المسألة، ولم يكن متردداً أو مضطرباً، وبما أن الإنسان - كما ذكرنا سابقاً- مجبرٌ في أمور ومختار في أمور أخرى، فهذا يعني إثبات الثواب والعقاب في مواضع، وإنكاره في أخرى، فالثواب والعقاب لا يكون إلا في حالة يكون فيها الإنسان مختاراً بين أمرين، ومن حقّه أن يختار بين هذا الفعل أو ذلك، وعلى هذا فالإنسان عند المعري مكلف ومسؤول عن أفعاله، وبالتالي فهو مستحقّ الثواب والعقاب عليها شرعاً وعقلاً.

هـ- الرسائل:

لا يوجد لدينا أدلة أو نصوص صريحة وكافية من نثر المعري توضّح لنا تأثير القرآن الكريم في مدى إيمانه بالمعجزات والرسالات. إلا أن ذلك قد بدا واضحاً في شعره، ولكننا سنحاول أن نبين رأي أبي العلاء في نثره حسب موضوع البحث.

إنّ الإيمان بالله تعالى قمة العقائد الإسلامية، ويجيء بعد الإيمان بالله تعالى الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بأنّ محمداً خاتم الرسل، ولا شك أنّ من آمن بالله وآمن بكلامه ووعدته ووعده، أصبح سهلاً عليه أن يؤمن بما جاء به رسل الله من توجيه وتعليم. وعلى هذا نصّ القرآن الكريم على أنه يجب على المسلم أن يعترف بالرسائل السابقتين ويكتبهم الصحيحة، وبما جاؤوا به من مبادئ، لأنها مبادئ لم تتغير، وإنما زاد الإسلام عليها، أو عدّل فيها حسبما اقتضاه تطور المجتمع».

قال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (الشورى/70).

وقال أيضاً: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) (البقرة/285).

يتضح من هذه الآيات أن الإيمان برسالات الرسل السابقين جزء من الإسلام، وأن الإسلام لا يفرّق بين الرسل، وأنهم جميعاً متساوون.

ونجد أبا العلاء يساوي بين الأنبياء، ويرى أنّ لا فرق بين سيدنا محمد p والسيد المسيح v. يقول: لا تبدأوني بالعداوة بينكم فمسيحكم عندي نظير محمد»

ربما كان في قوله إشارة إلى قوله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة/285).

والمعري يدعو - في قوله السابق- إلى الإخاء بين الديانات، إذ إن جميعها تدعو في جوهرها إلى الخير وإلى عبادة الله وحده.

ونجده في رسالة الغفران يذكر الرسول p كثيراً، وقد استقى معظم صورته وأخيلته من السيرة النبوية ليزين بها معالم الغفران ومشاهده وهو يكتفيها حسب طبيعة الحدث أو المشهد. فقد تحدث عن الشفاعة النبوية، كما تحدث عن أزواج الرسول p وأولاده. والمشاهد النبوية كثيرة، فمن هذه المشاهد التي استرعت انتباهنا مشهد الشاعر الأعشى الذي اعتدل انحناء ظهره، وارتدّ بعد عشاء بصيراً، وقد تشفّع له علي بن أبي طالب «فيقول: سجتني الزبانية إلى سقر، فرأيته رجلاً في عرصات القيامة يتلأل وجهه تلالؤ القمر، والناس يهتفون به من كلّ أوب: يا محمد يا محمد، الشفاعة الشفاعة!! نمّت بكذا ونمّت بكذا. فصرخت في أيدي الزبانية: يا محمد أعثني فإن لي بك حُرمة! فقال: يا علي بادره فانظر ما حرّمته؟ فجاءني علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه، وأنا أعتل كي ألقى في الدرك الأسفل من النار، فزجرهم عني، وقال: ما حرّمك؟ فقلت: أنا القائل:

أَلَا أَيُّهَذَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَمْتُ فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرَبَ مَوْعِدَا

فَأَلَيْتُ لَا أَرْتِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تُلَاقِي
محمداً

نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعْمَرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا

ويقول الأعشى: قلت لعلي: وقد كنتُ أوّمن بالله وبالحساب، وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء فمن ذلك قولي...

فذهب عليّ إلى النبي p، فقال: يا رسول الله، هذا أعشى قيس قد روي مدحه فيك، وشهد أنك نبيّ مرسل. فقال: هلا جاءني في الدار السابقة؟ فقال علي: قد جاء، ولكن صدته قريش وحبّه للخمر. فشفع لي، فأدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمرًا...»^٥.

وبهمنا من هذا المشهد أن نقول إنّ ما شفع للأعشى فدخل الجنة هو إيمانه بالله تعالى، والبعث والحساب، وشهادته أن محمداً p نبيّ مرسل. وهذا يعني أن المعري يؤمن برسالة سيدنا p. والحقيقة أن نتاج المعري حافلٌ بالمعاني الدينية التي تدحض فكرة اتهامه في دينه. فقد امتلأ بذكر الأنبياء والصحابة والتابعين في أساليب فنية جميلة داعية إلى الاقتداء بهم والتشبه بأخلاقهم. فقد فضّل المعري محمداً p على سائر الأنبياء، يقول في مدحه:

دَعَاكُمْ إِلَى أَعْلَى الْأُمُورِ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ الْعَوَالِي فِي الْقَنَا
حَدَاكُمْ عَلَى تَعْظِيمِ مَنْ خَلَقَ الضُّحَى كَالسَّوَابِلِ
فَصَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَشَهَبَ الدُّجَى مِنْ طَالِعَاتٍ وَأَفَلِ

وَمَا فَتَّ مَسْكَاً ذِكْرُهُ فِي الْمَحَافِلِ^٦

كما يؤثر الإسلام على سائر الشرائع وسبب ذلك، كما ذكر، هو أن الإسلام دين عمل اجتماعي حتّى على الورع، واقتصد في فرض العبادات، ودعا إلى النظافة، ونهى عن اتهام النساء العفيفات وحرّم الخمر ووضع الزكاة، وجاء بالخلق الحميد، وهو في كل ذلك خصب المثل العليا التي يرفعها المعري أمامه وأمام البشر»^٧.

ويقول أيضاً في اللزوميات يمدح الإسلام:

وَأَنْ لِحَقِّ الْإِسْلَامِ خُطْبٌ يُغْضُهُ، فَمَا وَجَدْتُ، مَثَلًا لَهُ، نَفْسٌ وَاجِدُهُ

ويخبرنا أبو العلاء في رسالة الغفران أن التآله غريزة تدفع الإنسان إلى الاعتقاد بدين من الأديان، يقول: « والتآله موجود، يُحسب من الأُلجاء الحرائز، ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه من الأكابر. فيلبث معه في الدهر الغابر، والذين يسكنون في الصوامع، والمتعبدون في الجوامع، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المختبر، لا يُميزون الصدق من الكذب لدى

المعبر، فلو أن بعضهم ألقى الأسرة من المجوس لخرج مجوسياً، أو من الصابئة لأصبح لهم قريباً سيئاً. وإذا المجتهدُ نكَّب عن التقليد. فما يظفر بغير التبليد، وإذا المعقول جعل هادياً، نفع برّيه صادياً، ولكن أين من يصبرُ على أحكام الفعل ويصقل فهمه أبلغ صقل؟ هيهات! عدم ذلك في من تطلع عليه الشمس ومن ضمنه في الرمم رمس، إلا أن يشدَّ رجلٌ في الأمم، يُخصَّ من فضلٍ بعمم»^٥.

فالإنسان بفطرته يعتقد بوجود إله يتحكم في هذا الكون. والطفل يأخذ عن آبائه وأسرته دينه، دون تمييز الصدق من الكذب. وكأنه يشير بطرف خفي إلى الحديث المروي عن المصطفى p: «يولد الإنسان على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجسانه»^٦. فالإنسان رهن بينته التي يولد فيها ويعيش فيها، لكنّه إذا حكم عقله، بعد أن يشبَّ عن الطوق، فيما أخذه، ورفض النقل والتقليد، لاقى في ذلك عنتاً، أقلّه أن يتّهم بالتبليد، ملمحاً إلى أنه قد يتعرّض إلى الموت بتهمة الزندقة فالمعري ينتقد إيمان النقل والتقليد، فالفرق شاسع بين أن تؤمن بعقلك، وبين أن تؤمن بنقلك. فهو يؤمن بالعقل ويجعل منه إماماً يهدي صاحبه إلى الخير وحماً يهدي الناس إلى فهم الدين فهماً صحيحاً. ولأنه يهتدي بنور العقل نجده يرفض كثيراً مما جاء من أحاديث وأخبار تعجُّ بها كتب السير والتاريخ، لأنها لا توافق العقل. لذلك يرفض كل ما نسب إلى الجن من أشعار، وكذلك لا يقبل ما نُسب لأدم n من أبيات محتجاً لذلك بأن لغة آدم في الجنة كانت العربية، لكنها على الأرض صارت اللغة السريانية، لهذا لا يمكن أن يكون آدم قد نظم مثل تلك الأشعار.

وبوحي من عقله أيضاً راح يكذب الأخبار والخرافات التي نسبت إلى بعض الصحابة وغيرهم من أولياء الله الصالحين. وهو يصف هذه الأمور بأنها محض كذب واختلاق، ولا سيما تلك الأخبار التي تكشف الغيب، لأن الإنسان عاجزٌ عن معرفة ما يخبئه له الغد، ومن هنا يرى أن ما نُسب إلى عليّ t ضلالةٌ قديمة.

وقد انتقد المعري في موقفه من النبوة عندما قال: «العقل نبيٌّ، والخاطر خبيٌّ، والنظر ربيٌّ، ونور الله لهذه الثلاثة معينٌ»^٧. وقال أيضاً في اللزوميات:

أَيُّهَا الْغُرُّ إِنْ خُصِصَتْ بِعَقْلٍ فَاسْأَلْنَهُ فُكْلٌ عَقْلٍ نَبِيٌّ

وهذه المسألة من المسائل التي قام فيها الخلاف بين أئمة الكلام، وانقسم فيها أهل السنة إلى قسمين. فذهب جمهور الماتريدية وعامة مشايخ سمرقند إلى أنه تعالى لو لم يبعث للناس رسولاً لوجب عليهم بعقولهم معرفة وجوده تعالى ووحدته واتّصافه بما يليق به من الحياة والعلم والقدرة وغيرها. وذهب جمهور مشايخ الأشاعرة إلى أنه لا يجب إيمان ولا يحرم كفر قبل بعث الرسل^٨.

وهناك من يدافع عن المعري في هذا الشأن، ويرى أنه لم يقصد بيان مذهبه أو شرح معتقده بل جرى مجرى الشعراء في أفانينهم الشعرية، من الخيال والكذب، فهم يقولون ما لا يفعلون. ولا يمكن أن يُحكم على المعري بصحة إيمانه بالرسل والنبوات إلا من أقواله المثبتة في ذلك، وكثيرٌ من أقواله لم يرد به الطعن على الأديان نفسها، بل أراد أهلها ومنتحليها، لتفريطهم فيها أو إفراطهم^٩.

وقد أجمع كثيرٌ من الباحثين أن أبا العلاء كان منكراً جاحداً بصحة النبوات، وقد نصّ على ذلك في اللزوميات، إذ قال:

إِنَّ الشَّرَائِعَ أَلْقَتْ بَيْنَنَا إِحْنًا وَأَوْدَعَتْنَا أَفَانِينَ الْعَدَاوَاتِ
وَهَلْ أُبَيِّحَتْ نِسَاءُ الْقَوْمِ عَنْ غُرُضٍ لِلْغُرَبِ إِلَّا بِأَحْكَامِ النَّبَوَاتِ
هَفَّتِ الْحَنِيفَةُ وَالنَّصَارَى مَا إِهْتَدَتْ وَيَهُودُ حَارَتْ وَالْمَجُوسُ مُضَلَّلَةٌ
إِثْنَانِ أَهْلُ الْأَرْضِ: ذُو عَقْلٍ بَلَا دِينَ وَآخَرُ دَيْنٍ لَا عَقْلَ لَهُ

ويرى الدكتور طه حسين أنَّ هذا يدل على أن روح الرجل لم يكن روح مؤمن بالنبوات ولا مصدق للأنبياء، وإن كان قد آمن بالله واطمأنَّ إليه. وقد بيَّن المصادر التي ألفت أبا العلاء في هذا الجود، فهو يرى أن أبا العلاء لم يختار الخروج على الأنبياء وإنما تلك عقيدةً لزمته كارهاً لأسباب ما نطن أنها خفية أو غامضة، فقد بيَّن أن الحياة الدينية كانت في عصر أبي العلاء سينةً شديدة القبح. وكذلك الحياة الخلقية وغيرها من ألوان الحياة العامة. كما أن حياة أبي العلاء الخاصة كانت مملوءة بالهموم والأحزان، وأن الناس ما كانوا يقصرون في الإساءة إليه. فلا جرم كره ما اتفقوا عليه من سياسة ودين، ومن أخلاق وعادات. وهو بعدُ قد قرأ فلسفة اليونان والهنود، وهم لا يؤمنون بالنبوات، ولا يعترفون بالأنبياء، غير أن الخطأ الذي وقع فيه كارهاً من غير شك هو أنه حمل على الدين ذنب أهله. وعاب الشرائع بآثام أصحابها.

ويرى أبو العلاء أنَّ الأنبياء هم سبب الشرور والخلافات، فقد روي عن القاضي أبي يوسف ن القزويني. قال: قال لي أبو العلاء المعري: ما هجوتُ أحداً قط. فقلت له: صدقت إلا الأنبياء عليهم السلام، فتغير لونه.

قال الدكتور طه حسين: ليس من الحق أن أبا العلاء لم يهجُ أحداً إلا الأنبياء، ولكن الحق أن أبا العلاء قد هجا الناس جميعاً ومنهم الأنبياء، هجا الناس جميعاً، وذلك شائع في اللزوميات كلها.

ويرى الدكتور سناء خضر أن المعري لم ينكر النبوة، كما أنه لم ينكر وجود الله من قبل، فالنبوة من عند الله فلا يمكن أن يؤمن بالكلّ وينكر جزءاً من أجزائه، فهو رجل العقل والمنطق. ولكنَّ المعري يبغي الكمال والمثال في كلِّ شيء، فعندما يرى ما هو غير كامل في كلِّ مناحي الحياة والفكر، يحاول أن يظهر ما فيه من نقائص حتى تكتمل صورته المثالية في ذهنه. والدليل على ذلك مدحه للدين الإسلامي ورسوله الكريم في أكثر من موضع.

ومما سبق نقول إن أبا العلاء كان مؤمناً برسالات الرسل، ولم ينكر النبوة، يؤكد ذلك إيمانه القوي والمطلق بالله Y، وإيمانه بالنبوة جزء من إيمانه بالله تعالى، ويؤيد ذلك أيضاً مدحه سيدنا محمداً P، ومدحه الدين الإسلامي، والكتاب الكريم.

الفصل الثاني

تجليات التأثير الفني الجزئي

1- الاستشهاد:

إنَّ القرآن والحديث من أبرز المصادر الأساسية التي اعتمدها أبو العلاء في كتبه ورسائله، فاستشهد بالعديد من الآيات والأحاديث، واستوحى منها المعاني المختلفة، كما اقتبس كثيراً من آيات الذكر الحكيم. وإذا ما جئنا إلى رسالة الغفران نرى أن القرآن كان مادة مهمة اعتمدها المعري واقتبس منها مادة غفرانه. وهنا يتبادر إلى ذهن القارئ الأسئلة التالية: كيف تمكَّن أبو العلاء من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم، وبأبي منها؟ ومتى؟ ولم؟

لقد عمد أبو العلاء، وهو يُدخل هذا الجنة ويدخل ذاك النار، إلى ترصيع رسالته بآيات من القرآن الكريم في ثلاثة وسبعين موضعاً؛ خمسة وأربعون منها في القسم الأول الذي تضمَّن الحديث عن ندامي الفردوس والنزهة فيه وعن شعراء الجنة، وجنة العفاريث، ثم الوصول إلى المطلع على نار جهنم، حيث يعود ابن القارح من هناك إلى محلّه في الجنة.

وثمانية وعشرون موضعاً في القسم الثاني، الذي هو ردُّ أبي العلاء على رسالة ابن القارح، وقد أورد أبو العلاء جميع آيات هذا القسم على لسانه مباشرة. على حين أنَّ الآيات التي جاءت على لسانه في القسم الأول لم تتجاوز تسع حالات في الصفحات التالية (ص40 في موضعين - 50-60-62-141-149-156-228) وعلى لسان ابن القارح في تسعة عشر موضعاً في الصفحات (ص86-87-92-98 في موضعين - 104-108-122-126-149-153 في موضعين - 174 في موضعين - 214-215 في موضعين - 219 في موضعين).

كما جاءت مرتين على لسان عدي بن زيد العبادي ص85-86، ومرة على لسان الشماخ ابن ضرار ص115، ومرة على لسان أهل العلم من الرواة ص90، ومرة على لسان الراجز روبة بن العجاج ص227، ومرة على لسان الشاعر حسان بن ثابت ص113، ومرة على لسان الشاعر عمرو بن أحمر ص116، ومرة على لسان داع من قبل العرش ص121، ومرة على لسان شيخ الجن، وهو أبو هدرش ص162، ومرة على لسان حمزة بن عبد المطلب ص126، ومرة على لسان أحد القراء وهو العطاردي ص186، ومرة على لسان طرفة بن العبد ص196، ومرة على لسان خلق من آل طالب ص130، ومرة على لسان رضوان خازن الجنان ص124 وثلاث مرات على لسان الحية ص220.

وكان أبو العلاء يأتي بالآية كاملة، أو يأتي بجملة منها، وأحياناً يأتي بأكثر من آية واحدة. وغالباً ما كان ينصّ على أنّه يستشهد بكتاب الله ولكن دون إحالة إلى موطن الشاهد من السورة في المصحف، وكان يمهّد لاستشهاده بأكثر من طريقة، من مثل قوله:

بدليل الآية ص40

بدليل قوله تعالى ص50-130-141-156-290

كما جاء في الكتاب العزيز ص60

كما قيل ص86

ويتلو هذه الآية ص88
كما جاء في الكتاب الكريم ص90-113-149
ولولا أن في الكتاب الكريم ص109
أما سمعت الآية؟ ص116-126
فهتفت داع من قبل العرش ص121
وقيل لكم في الكتاب ص121
ذكرت الآية ص122
وأما قوله الحكاية عن عازر ص149
أليس في الكتاب الكريم ص153
إن الآية سبقَتْ في أهل النار أعني قوله تعالى ص174
أما سمعت قوله تعالى؟ ص174
إن أبا رجاء العطاردي قرأ ص186
حسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوة في فرقان محمد p ص214
وقرأ بعضهم قوله تعالى ص215
فكيف سمعته يقرأ ص219
في قوله تعالى ص220-410
إن الله سبحانه وتعالى قال ص227
مصر التي قال فيها فرعون كما جاء في القرآن الكريم ص287
لأن الآية شهدت عليهم بالتخزص وقول الأباطيل ص299
وقد جاء في الكتاب الكريم ص305
ولكن حكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى ص320
وفي الكتاب العزيز ص323-406-417
قراءة حمزة ص326
وفيما خُوطب به النبي p ص366
وكثير من الذين يتلون الآية ص377
أصحاب موسى الذين جاء فيهم ص410
ولم يكن أبو العلاء يلتزم هذه الطريقة دائماً في التمهيد للشاهد القرآني، ولكنه كان مراراً يأتي ببعض الآية دون قرينة تشعر بذلك، ودون أن ينبّه القارئ إلى ذلك، وهذا داخل في الاقتباس والتضمين كما سنرى.
وهو في باب الاستشهاد كثيراً ما كان يأتي بالآية كاملة كما في حديثه عن ندماء الجنة، فهم كما جاء في الكتاب العزيز: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (الحجر/47-48) والاستشهاد بالآية كاملة كثيراً في الرسالة كما في ص109-121-122-126-149-153-156-214-227. وهو إما أن يأتي بوسط الآية كما جاء في وصف رسالة ابن القارح: إذ أتني بالآية: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) وهي من قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ) (فاطر/10). وفي حديثه عن شكوى الدهر: جاء بالآية: (وما يهلكنا إلا الدهر) وهي من قوله تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجن/24).
أو يأتي بآخر الآية كما جاء على لسان ابن القارح:، إذ يتلو هذه الآية: (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) وهي من قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) (الشورى/29).
وكقوله في الرد على ابن القارح: وإن البشر لكما جاء في الكتاب العزيز: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وهي من قوله تعالى: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (المؤمنون/53) وقد يأتي أبو العلاء بأول الآية كما في حديثه عن تصحيف أصحاب الحديث: وفي الكتاب العزيز: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) وهي من قوله تعالى: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النمل/65).

وكذلك كان للحديث الشريف الأثر ذاته، فقد استشهد به المعري للتعبير عن آرائه والاحتجاج لها، والبرهنة عليها، وتقويتها وتدعيمها، فلا يخفى علينا ما في الأحاديث من عمق التأثير وقوة الدلالة. وهذه الأحاديث هي تسعة: خمسة في القسم الأول من الرسالة جاء ثلاثة منها على لسان ابن القارح، وحديث واحد على لسان أبي العلاء، وآخر على لسان أسد القاصرة. وفي القسم الثاني، وهو في الردّ على ابن القارح، استشهد المعري بأربعة أحاديث، جاءت صريحة على لسانه مباشرة.

ولا شك في أنّ أبا العلاء أوردها لأغراض محددة واضحة سنبينها في فصل لاحق. وفي رسائله التي خصّ بها جماعة من أهل العلم والفضل، نجد فيها المدح والتهنئة والتعزية والشفاعة والوصف والنقد ومسائل أخرى، وهو فيها مفكّر، متأمل أحداث عصره، ناقد للمجتمع، يعرض في نقده للعادات والتقاليد. ويتخذ نقده ضرباً من التهكم والسخرية. وفي أثناء ذلك كله اعتمد القرآن الكريم والحديث الشريف كأساس أول في بناء آرائه وتقديم اقتراحاته، وعرض بضاعته من العلم في اللغة والنحو والأدب والعروض، وقد تعددت مواطن استعانه بالقرآن الكريم إذ بلغت خمسين موطناً بين استشهدا واقتباس. وبلغت مواطن الاستشهاد أربعة وعشرين موطناً جاءت كلها على لسان أبي العلاء، وهو يمهّد للشاهد القرآني بصيغ محددة من مثل:

فكأنما قيل لهم ص30

فتلوت عليه هاتين الآيتين ص67-68

ما قال موسى عليه السلام لأهله ص68

كما قال الله تعالى ص108

وهي قوله جلّ اسمه ص109

حدث في أناس قيل فيهم ص112

وفي الكتاب الكريم ص122

كما قال الله جلّ اسمه ص132-180-259

كما قيل فيه ص171

وفي كتاب الله تعالى ص187

وفي الكتاب الأشرف ص256

قال الله سبحانه ص258

وكان المعري في أغلب الأحيان يأتي بالآية كاملة، كما في قوله عن نفسه، وقد عُدّت في أناس قيل فيهم: (تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة/134). وتجد ذلك أيضاً في الصفحات: 29-30-67-68-108-112-122-171-180-256.

وأحياناً يأتي بأول الآية كما في رسالته إلى أبي الحسن محمد بن سنان، وهي من قوله جلّ اسمه: (لَا يَكْفِ اللهَ نَفْسًا إِلَّا وُسْعُهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة/286).

أو يأتي بوسطها كما في رسالته إلى أبي طاهر المشرف بن سبيكة، إذا أورد قوله تعالى: (عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) وهي من قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (يوسف/21، والقصص/9).

أو يأتي بآخر الآية. كالآية التي ذكرها في رسالته إلى أبي طاهر، وهي قوله جلّ اسمه: (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) وهي من قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهَ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) (إبراهيم/24).

أما الحديث الشريف فقد كان له أيضاً أثرٌ عظيم وواضح في رسائل المعري. وقد وصل عدد الأحاديث الشريفة إلى ثمانية أحاديث، وظَّفها أبو العلاء في مكانها المناسب لتؤدي الغرض المناسب، وقد وردت في الصفحات التالية: ص 89- 118 (الحديث ذاته)- 121- 134- 137- 145- 187- 218- 253. وكذلك الأمر في رسالة الصاهل والشاحج التي وجهها أبو العلاء إلى عزيز الدولة فاتك الرومي والي حلب للمصريين. وموضوعها الرئيسي تصويرٌ لما كان من جفلة الناس لما يتوقعون من خروج باسيل ملك الروم لغزو حلب. وفي هذه الرسالة تتحدث الشخصوس الحيوانية عن عالم الإنسان، ولا يظهر أبو العلاء على المسرح إلا حينما يمهد للتمثيلية بتحيةٍ موجهةٍ إلى السيد عزيز الدولة والاعتذار عن مكاتبتة في شكوى بني أخيه المتعلقة بأرضٍ لهم يقال إن عليها مالا ينبغي أدائه إلى بيت المال، وإنها أرضٌ قاحلة، لو أنَّ البغل الذي يكدر فيها أنطقه الله تعالى بقدرته لجأر ممَّا يكابد فيها من عناءٍ ونصبٍ. وينسحب أبو العلاء بعد هذا التمهيد، والشاحج شاخصٌ على المسرح معصوب العينين، ثم يظهر الفرس وهنا يبدأ الحوار، بقدره الله تعالى، بين الصاهل والشاحج، الذي لا يكاد يسمع أنَّ الصاهل في طريقه من مصر إلى حلب، حتى يطمع في أن يحمل خاله الفرسُ مظلمةً شعرية. من نظمه إلى السيد عزيز الدولة في حلب.

ويأنف الصاهل من هذه الخؤولة المهينة التي يمتُّ بها إليه البغلُ، فيوسعه تحقيراً وسخريةً. ويتطور الجدل بينهما إلى خصومةٍ حادةٍ، فيقترح الصاهل أن يحتكما فيها إلى حمامةٍ (فاخته) كانت تحطُّ على غصنٍ قريب. ويرفض الشاحج تحكيم الحمامة وهي المشهورة بالكذب والحمق، ويقترح أن يكون الحكم بغيراً في إبلٍ وردت الماء هناك. وتغتاز الحمامة مما سمعت من قدح الشاحج فيها، فتسرع إلى الجمل، وتلقي إليه القصة، مع قلب كلام البغل فيها وفي أبي أيوب. ويتعقد الموقف قبل انكشاف مكيدة فاختة، ويريد أبو أيوب أن يكفر عن إساءته إلى الشاحج فيقبل رجاءه في إيصال مظلمته إلى السيد عزيز الدولة. وقد عدل فيها عن الشعر، ونحا بها منحى ابن دريد في (الملاحن)، وابن فارس في (فتيا فقيه العرب). ولا يفهم أبو أيوب منطق الشاحج في مظلمته، فيستحمقه ويظنُّ به مساً من خبل.

ويتأخر الخوض في أحداث حلب، ريثما يأتي الثعلب، ويفضي الحوار إلى صداقةٍ بينه وبين الشاحج فيسأله الشاحج أن يصنع له جميلاً بأن يتجول في المنطقة، وهو الطليق الحركة، المفتوح العينين ليأتيه بأنباء حلب، وحال أهلها في الخوف من غزو الروم وينقل إليه أخبار السياسة والحرب والبلاط والمجتمع. وتنتهي الرسالة بصوت أبي العلاء وهو يملئ تحية الختام للسيد عزيز الدولة.

وخلال ذلك كان أبو العلاء يدغم كلامه وآراءه في تلك الحوارات بالآيات الكريمة، في ثمان وثمانين موطناً. وتلك الآيات جاءت على لسان كلٍّ من:

المعري: ص 91 (ثلاث آيات).

الصاهل: ص 94 (آية واحدة).

الشاحج: في اثنين وأربعين موطناً: ص 95- 96 (آيتان)- 102- 171- 183- 191- 197- 198- 203- 226- 351 (آيتان)- 361- 362- 365- 372- 412- 418- 419- 426 (آيتان)- 428- 433- 472 (آيتان)- 483- 487- 496- 499 (آيتان)- 502- 609- 614- 615- 620- 622- 627- 636- 639- 640- 697.

البعير: في ستة وعشرين موطناً: ص 247 (آيتان)- 259- 262- 268- 269- 270- 271- 276- 287- 298 (آيتان)- 300- 306- 307- 318- 319 (ثلاث آيات)- 320- 321 (آيتان) - 322- 331- 341- 343. الثعلب: في ستة عشر موطناً: ص 511- 528- 539- 553- 555- 568- 647- 652- 654- 655- 656- 662- 664- 666- 677- 679.

وقد تعددت أيضاً في رسالة الصاهل والشاحج صيغ وصور الاستشهاد، وهي:

وفي الكتاب الكريم قوله تعالى، وقوله عزَّت كلمته ص 91

مصر التي قال فيها فرعون ص 94

كما نطق به القرآن الكريم من قوله تعالى ص 95

كما قال تعالت كلمته ص 96

وفي قوله تعالى ص 183- 287- 306- 361- 499- 555- 568

جاء في الكتاب الأعزّ ص 203
 قال الله سبحانه ص 226
 وفي الكتاب العزيز ص 247- 307- 482
 كما قال تعالى ص 259- 276- 511- 697
 وفي الكتاب الكريم ص 262- 341- 343- 365
 وهو الذي نزلت فيه هذه الآية ص 298
 وقد جاء في الكتاب العزيز ص 300
 أليس في الكتاب العزيز ص 319
 أليس في الكتاب الكريم ص 319- 620
 كأنك لم تسمع بقوله تعالى ص 320
 قيل فيهم ص 321
 واحتجوا بالآية ص 322
 قال الله تعالى ص 331- 636
 سمعت في الكتاب الكريم ص 412
 ألا ترى إلى قوله تعالى ص 418- 528
 أليس في الكتاب المجيد ص 428
 وفي الكتاب المحفوظ ص 433
 جاء في الكتاب الكريم ص 496
 وفي كتاب الله تعالى ص 502
 كما قرأ بعض الأعراب ص 539
 قال الله عزّ وجلّ ص 553
 وقال المفسّرون في قوله تعالى ص 568
 كما قال جلّ اسمه ص 627- 66
 رُوي أنّ النبيّ قرأ ص 652
 كما قرأ المدني ص 664
 قرأ الحسن البصري ص 677
 واتبع أبو العلاء الطريقة ذاتها التي سلكها في الغفران والرسائل من حيث الاستشهاد بكامل الآية أو
 ببعضها. فمن الاستشهاد بالآية كاملة قوله في مدح السيد عزيز الدولة. فهذا الأمير كما نطق به الكتاب
 الكريم من قوله تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
 (يوسف/22).

ومن استشهاد بعض الآية، وقد جاء بأولها. قوله تعالى: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)
 وهي من قوله عزّ وجلّ: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (النحل/8) .
 كما أتى أيضاً بآخر الآية كما في قول الصاهل عن مبدأ سفره. من مصر التي قال فيها فرعون: (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ، وهي من قوله تعالى: (وَنَادَى

فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (الزخرف/51).

وأحياناً يأتي بوسط الآية، كما في قوله تعالى: (نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) وهو من قوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (النور/35).

أما الأحاديث الشريفة فقد أكثر أبو العلاء من الاستشهاد بها كثرة ملحوظة، بالمقارنة مع باقي نتاجه، إذ بلغ عدد الأحاديث واحداً وأربعين حديثاً. وهذا عددٌ لا نجده في باقي كتبه. وقد وردت تلك الأحاديث على لسان ثلاثة حيوانات هي: الشاحج والبعير والثعلب. وكان للبعير الحظ الأوفر، إذ كان الحديث السلاح الأول والأقوى الذي استخدمه في مواجهة الشاحج والرد عليه، فأدرجه على لسانه في أربعة وعشرين موطناً. أما الشاحج فقد ورد الحديث على لسانه في ثمانية مواطن. وورد أيضاً على لسان الثعلب في تسعة مواطن.

وفي الفصول والغايات كان أبو العلاء -كما نعلم- يملئ الفقرة على طلابه ثم يختتمها بالغاية، وكأنها آخر القول في تلك المسألة ثم يتبع الفقرة بشرح الغريب من اللغة فيها، وهذه طريقته في كثير من كتبه، وهي تدخل في منهجه التعليمي، وفي أثناء الشرح كان يستعين بالقرآن والحديث بهدف التوضيح والشرح والتفسير فقط، كما درسنا في الفصل الأول.

وقد بلغت مواطن الاستشهاد بالآيات الكريمة ثلاثة عشر موطناً، في الصفحات التالية: 43- 68- 124- 235- 236- 246- 267- 286- 340- 391- 441- 456- 464، وكان أبو العلاء يختار من الآيات ما يخدم غرضه في الإفصاح عن معنى الكلمة كما في تفسير كلمة الهيام، يقال ناقه هياماً، والجمع هيم، ومنه قوله تعالى: (فُشَارِبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ) (الواقعة/55). وهي الإبل العطاش، التي لا تروى من الماء أبداً.

وكما جاء أيضاً في تفسير كلمة (العَرْفُ) وهي الرائحة الطيبة، وأحد الأقوال في قوله تعالى: (عَرَفَهَا لَهُمْ) أي طَيَّبَهَا، مِنَ الْعَرْفِ وهو الرائحة الطيبة. وقوله عَرَّ وَجَلَ مأخوذ من قوله تعالى (وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَهُمْ) (محمد/6).

ونظراً لأن الغرض من الاستشهاد كان واحداً وهو التوضيح والتفسير فإن صيغ الاستشهاد كانت واحدة أيضاً من مثل قوله: قال المفسرون في قوله تعالى (ص43- ص441)- فسّر قوله تعالى (ص68- ص391)- ومنه قوله تعالى ص267. ذلك على عكس ما وجدناه في الغفران والرسائل ورسالة الصاهل والشاحج التي تعددت فيها صيغ الاستشهاد أو التمهيد للشاهد القرآني. والأمر ذاته بالنسبة للاستشهاد بالحديث الشريف، فقد وصل عدد الأحاديث إلى عشرين حديثاً.

وفي عبث الوليد كان أبو العلاء يتحرى الوقوف على الغلط، فيصلحه وهذا ما يدل عليه قوله في فاتحة الكتاب: « أثبت ما في ديوان البحري ممّا أصلح من الغلط الذي وُجد في النسخة المكتوب في آخرها أنّها بخط ظفر بن عبدالله العجلي ».

وقد استعان في عمله بالآيات الكريمة التي تؤيد رأيه في النحو أو الصرف أو القراءات القرآنية، إذ وصل عدد الآيات إلى إحدى وعشرين آية. وبناءً على ذلك كانت طرقه في التمهيد للشاهد القرآني متقاربة، كقوله مثلاً:

حكي عن بعض القراء المتقدمين ص 23
ومن هذا النحو الآية ص 42
كما جاء في الكتاب العزيز ص 53
قرئت الآية على وجهين ص 109
وقد تأول بعض النحويين قوله تعالى ص 149
كما قال عز وجل ص 199
قرأ به نافع المدني في مثل قوله ص 222
الحسن البصري قرأ ص 226
ابن مسعود قرأ ص 228
قرأ ابن كثير ص 181

وكان أبو العلاء يأتي بكلمة من الآية أو بجملة قصيرة أو طويلة أحياناً، حسب ما يقتضيه الحال أو السياق. مثل قوله تعالى: (إنه كان خطأً كبيراً) (الإسراء/31) ص 23 - (لقد تقطع بينكم) (الأنعام/94) ص 42 - (الضالين) و (دابة) (الفاحة/7) و (العنكبوت/60) ص 68 - (طوبى لهم) (الرعد/29) ص 105 - (أليس منكم رجلٌ رشيدٌ) (هود/78) ص 221 - (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) (الرحمن/24) ص 228 - (أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم) (النساء/90) ص 149 .

أما الاستشهاد بالأحاديث الشريفة فقد كان قليل جداً فلم نجد سوى حديثين اثنين في الصفحتين (18 و 78) . وكذلك الأمر في شرح ديوان ابن أبي حصينة، فقد وظف المعري القرآن الكريم ثلاثة عشر موطناً، والحديث الشريف في خمسة مواطن في الصفحات (232-180-77-41-37) وكان يمهّد للشاهد القرآني بقوله:

- كما قال سبحانه ص 45-47
- قوله تعالى ص 83-109-215-220-226
- قال الله جلّ وعلا ص 84
- وفي الكتاب العزيز ص 59
- كما جاء في الكتاب العزيز ص 47

وفي زجر النابح الذي ألفه أبو العلاء للردّ على خصومه، إذ وسم من تكلم فيه ورماه بالمروق والإلحاد بالنابح، وهو الكلب الذي استحق أن يُزجر اتقاءً لناباحه. نجد أبا العلاء يسير على النهج نفسه في كثرة الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم والحديث الشريف لإثبات صحة رأيه، وإبعاد الشبهات والمطاعن عن شعره.

وقد وصل عدد الآيات القرآنية إلى خمسة وتسعين آية، منها موضعان يدخلان في باب الاقتباس (ص 22 وص 164). وهو يمهّد للشاهد القرآني بأكثر من طريقة من مثل:

بدليل قوله تعالى ص 3-10-93
وفي الكتاب العزيز ص 9-14-30-109-155
وقد نطق به القرآن الكريم في قوله تعالى ص 9-46
أليس قوله تعالى ص 11
وقد نطق به الكتاب العزيز لقوله تعالى ص 16
وقد جاء ذلك في الكتاب العزيز ص 39-58-117
قال عز من قائل ص 44
وقال في الحكاية عن آدم وحواء ص 44
كما قال سبحانه ص 48-104
وهذا مستنبط من الآية ص 48

قال أهل العلم في قوله ص61
أما سمع قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ونبيهم ص71
وهذا مستنبط من الكتاب العزيز من قوله ص81
وقال جلّت عظمته ص95
وفي الكتاب الكريم ص99
قال بعض المفسرين في قوله تعالى حكاية عن الملائكة ص132
يجب أن يؤخذ بأدب الآية ص138
أما سمع قوله تعالى في الحكاية عن الجن ص139
من ذلك قوله تعالى، أو لقوله تعالى ص12-16-19-30-36-112-120-141
ويختار من الآيات ما يخدم غرضه في دفع التهمة عنه، فيمكن أن يكون ذلك في أول الآية أو آخرها
أو وسطها، وكثيراً ما يأتي بكامل الآية كما في قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (الجمعة/11).
ومن أول الآية: قوله تعالى في الكتاب العزيز: (وَمَكْرُؤٌ وَاكْرُؤٌ وَاللَّهُ) وهو من قوله تعالى: (وَمَكْرُؤٌ وَاكْرُؤٌ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (آل عمران/54).
ومن وسط الآية: قوله تعالى في الكتاب العزيز: (وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) وهو من قوله عز وجل: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) (ص/24).
ومن آخر الآية: قوله تعالى: (وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) وهي من قوله تعالى: (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (الانفطار/19).
وكذلك فقد استشهد أبو العلاء بالحديث الشريف فوصل عدد الأحاديث إلى ثمانية عشر حديثاً.
وفي رسالة الملائكة، التي تشتمل على أجوبة عن المسائل التي سُئِلَ عنها أبو العلاء وهي ست عشرة مسألة وإحدى وعشرون مادة في مقدمة الرسالة، كان القرآن الكريم مرجعاً أساسياً في شرح وتصريف مواده وتفصيل تلك المسائل. إذ كانت أمثلته كلها من القرآن الكريم خاصة فيما يتعلق بالقراءات القرآنية، وقد بلغ عدد مواطن الاستشهاد بالذكر الحكيم واحداً وثلاثين موطناً. أمّا صيغ الاستشهاد فكان أغلبها مرتبطاً بالقراءات القرآنية، باستثناء مواضع قليلة جداً، فمن ذلك:

وفي الكتاب الكريم ص23
وفي الكتاب العزيز ص23-32-33-128
قرأ بعض القراء ص32
قرأ في الكهف ص32
مثل قوله عز وجل ص57
وقرأ مكوزة الأعرابي ص75
وقرأ بعض الأعراب ص92
وقرأ يحيى بن وثاب ص124
قرأ بذلك الكوفيون ص133
قرأ بعض الناس ص158
قراءة ابن عامر ص200
قراءة ابن كثير ص202
قرأ الحسن ص215

جاءت في القرآن أشياء لم يكثر مجيئها في كلام العرب منها مهيمن ص228.
وفي رسائله إلى داعي الدعاة الفاطمي كان القرآن والحديث حجة قوية واضحة تمسك بها أبو العلاء في الدفاع عن آرائه ومعتقداته في مسألة تحريم اللحم واللبن وكل ما يصدر إلى الوجود من منافع الحيوان،

فجاء الاستشهاد بالقرآن الكريم في ثلاثة عشر موطناً، والاستشهاد بالحديث الشريف في ستة مواطن. وكان تقديره للشاهد القرآني قريباً جداً مما رأيناه سابقاً، من مثل قوله:
وفي الكتاب الكريم ص 385
وفي الكتاب العزيز ص 391-393-414
وتتلو الآية ص 393
وفي الكتاب الأشرف ص 393
قال سبحانه ص 394
كقوله تعالى ص 411-414-419
وكُلَّمَا صَغُرَ حُجْمُ الرِّسَالَةِ قَلَّ الاسْتِشْهَادُ بِالْقُرْآنِ وَالحديث، كما في رسالة الهناء، إذ لا نجد إلا شاهداً قرآنياً واحداً (ص 19).
وكذلك الأمر في رسالة الأخرسين، إذ كان الاستشهاد بالقرآن في موضعين فقط (ص 352) و(ص 360).

2- الاقتباس والتضمين:

الاقتباس: تضمين النثر أو الشعر شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما، ويجوز أن يُغيّر في الأثر المقتبس قليلاً. وجاء في المعجم الشامل: الاقتباس: أي يُضمّن القائل كلامه بعضاً من القرآن الكريم إجماعاً، وبعضاً من الحديث الشريف على خلاف لأنّ بعض البلاغيين يرفضون تسمية مُضمّن الحديث اقتباساً بل تضميناً. ويُقبل من المقتبس أن يضع من القرآن في الخطب والمواعظ والعهود والمدائح النبوية، ويُباح له أن يُضمّن من القرآن في الغزل والرسائل والقصص، ولا يُقبل أبداً أن يُضمّن ما نسبته الله تعالى إلى نفسه.

وذكر القاضي أبو بكر الباقلاني أنّ تضمين القرآن في الشعر مكروه، وأئمة البيان جَوّزوه، وجعلوه من أنواع البديع، وسمّاه القدماء تضميناً، والمتأخرون اقتباساً.

إنّ الاقتباس أو التضمين عنصرٌ فني بارز في نثر أبي العلاء. فقد ضمّن كلامه القرآن الكريم دون أن يصرّح بأنه من القرآن. وغرضه هو أن يستعير من قوة القرآن وبيانه وفصاحته قوّةً وبياناً وفصاحةً. معبراً بذلك عن براعة فائقة في إحكام الربط بين كلامه والكلام المضمّن، وقَلَمًا كان أبو العلاء يغيّر في الأثر المقتبس كما سنجد في أمثلتنا اللاحقة.

استخدم أبو العلاء الاقتباس والتضمين بكثرة واضحة في رسالة الغفران ومجموعة الرسائل ورسالة الصاهل والشاحج. وكان الاقتباس قليلاً جداً في باقي نثره كرسالة الملائكة وزجر النابج ورسالة الهناء ورسائله إلى داعي الدعاة الفاطمي. وكان معدوماً في عيث الوليد والفصول والغايات.

نقف أولاً عند رسالة الغفران، فنجد فيها ستة وثلاثين اقتباساً، ثلاثة وعشرون اقتباساً في القسم الأول في الصفحات التالية (50- 62- 71- 84- 86- 92 (في موضعين)- 93- 95- 98 (في موضعين) – 104- 115- 121 (في موضعين)- 124- 133- 149- 162- 180- 196- 224- 228). وثلاثة عشر اقتباساً في الرد على ابن القارح، في الصفحات (312- 320- 321- 324- 328- 329- 338 (في موضعين)- 346- 358- 377- 379).

وكان أبو العلاء يكرّر الأثر المقتبس في أكثر من مكان حسب ما يتطلب السياق، كما في الآية الكريمة: «إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (البقرة/156) التي جاءت على لسان ابن القارح في حوارهِ مع النابغة الجعدي ثم جاءت مرة أخرى في حوارهِ مع رضوان خازن الجنان. وكما في قوله تعالى: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (المؤمنون/14) التي وردت في حوار ابن القارح مع امرئ القيس في القسم الأول، وكذلك وردت في القسم الثاني في وصف القرآن الكريم.

وكان أبو العلاء يغيّر قليلاً في الأثر المقتبس، كما في الأمثلة التالية: في حديثه عن نعيم الجنة وأنهار العسل المصفى. يقول: «ويعارضن تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية إلى الأنوار، ولا هو في موم متوارٍ، ولكن قال له العزيز القادر: كن فكان، وبكرمه أعطى الإمكان» ففي

كلامه تضمنين لقوله تعالى في سورة يس: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (الآية 82) . وكذلك قوله تعالى في سورة النحل: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) (الآية 40). وعندما يرى ابن القارح قصرين منيفين في الجنة، وهما لزهير بن أبي سلمى المزني وعبيد ابن برص الأسدي يعجب من ذلك ويقول: « هذان ماتا في الجاهلية، ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء » . وكرر هذا الكلام في مجلس الغناء الذي تحول فيه رفء من إوز الجنة إلى ذلك جواركواعب يرفلن في وشي الجنة وبأيديهن آلات الطرب. فيعجب ابن القارح، ويقول: « وليس ببديع من قدرة الله جلّت عظمتُه وعزّت كلمتُه، وسبغت على العالم نعمتُه، ووسعت كل شيء رحمته، ووقعت بالكافر نعمته » . فقله: « لكن رحمة ربنا وسعت كل شيء » وقوله: « ووسعت كل شيء رحمته » اقتباس من قوله عز وجل: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (غافر/7). فنقول الجارية لابن القارح: « وما الذي رأيت من قدرة بارئك؟ إنك على سيف بحر، لا يدرك له عبر- سبحان من يحيي العظام وهي رميم » ففي هذا القول: سبحان من يحيي العظام وهي رميم تضمنين للآية الكريمة: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس/78). وورد هذا القول أيضاً على لسان جماعة من أهل العلم في الحديث عن طاووس الجنة، بزيادة كلمة سبحان على الآية. إذ تقول الجماعة: سبحان من يحيي العظام وهي رميم.

ومن ذلك أيضاً قول عدي بن زيد: فدخلت الجنة أرزق فيها بغير حساب وهو مأخوذ من سورة غافر: (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الآية 40).

كان أسلوب المعري في الاقتباس كأسلوبه في الاستشهاد، فقد يضمن كلامه آية واحدة أو آيتين كاملتين. وفي الأغلب والأعم كان يضمن كلامه الجملة الأخيرة من الآية القرآنية، وأحياناً يقتبس جملة من وسط الآية. فمن تضمنينه الآية كاملة قوله في وصف مجلس علماء اللغة في الجنة (ص62): (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (الرعد/23-24). وقوله على لسان ابن القارح (ص86): (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) (الروم/18). ونجد ذلك أيضاً في (ص92-98 (آيتان) -115-196-328-329-377).

وكان يحذف كلمة أو كلمتين من الآية ليدرجها في سياق كلامه، فهاهو يحذف كلمة قالوا من قوله تعالى (ص104): (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) (فاطر/34-35).

وفي حديثه عن العلوي البصري حذف كلمتين هما (خالد بن) فيها من قوله تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) (هود/107).

ومن تضمنين وسط الآية وآخرها، قوله على لسان داع من قبل العرش: فالآن ظهر النبأ، لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد. فقله لا ظلم اليوم اقتباس من قوله تعالى: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (غافر/17). وفي تضمنين وسط الآية انظر أيضاً ص312. وقوله إن الله قد حكم بين العباد مأخوذ من قوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) (غافر/48).

وفي وصف القرآن الكريم ضمن أبو العلاء القرآن الكريم في موضعين. الأول: وهو من الآية الكريمة: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر/21).

والموضع الثاني قوله تعالى: (فتبارك الله أحسن الخالقين) وهو مأخوذ من آخر الآية: (ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون/14).

وفي تضمنين آخر الآية انظر (ص84-320-346-358-379-224-228).

وإذا ما ذهبنا إلى مجموعة الرسائل فإننا نلاحظ أيضاً كثرة الاقتباس من القرآن الكريم. ففيها سبعة وعشرون اقتباساً في الصفحات التالية: (26-29-33-87 (في موضعين)-109-108-97-89-123-131-132-154-163-182-189 (في موضعين)-196-197-229-231-243-244 (في موضعين)). وبضاف إليها ثلاثة مواضع في مجموعة الرسائل التي حققها الدكتور عبد الكريم خليفة وهي (ص253-268-281).

وكما فعل في رسالة الغفران كان يكرر الأثر المقتبس في أكثر من مكان. من مثل قوله تعالى: (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) إذ كررها في ثلاثة مواطن في (ص87-163-189). وهو من الآية الكريمة: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة/156). إلا أن السياق، وهو الحديث عن الموت والفناء، كان يتطلب منه ذلك.

كما كرر قوله تعالى: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (الحديد/20 وآل عمران/185) في ثلاثة مواطن ص(231-196-109). وقد ذكرها مرتين في نفس الرسالة ونفس السياق، وهو تعزية خاله أبي القاسم بن سبيكة بأخيه أبي بكر. وهي آخر الآية من قوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) (آل عمران/185).

وفي رسالته إلى خاله أبي طاهر المشرف بن سبيكة يذكر كتاب أبي سعيد السيرافي النحوي الذي يشرح به كتاب سيبويه. يقول: « وهو —أدام الله تأييده— من الملامة في أحسن لامة، فلا يبعثه تعذر الحاجة على اللجاجة، أهو الكتاب المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون، إنما هو أباطيل لياة، وتعليل في أيام الحياة (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ».

ففي هذا القول اقتباسان: الأول أجرى فيه أبو العلاء بعض التعديل، وهو من قوله تعالى في سورة الواقعة: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) والاقتباس الثاني من (سورة الحديد/57 وآل عمران/185).

وكتب أيضاً إلى أبي طاهر في بعض أوباته من العراق: « جعل الله سيدي من الذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يفتروا وكان بين ذلك قواماً » بحذف الواو من الآية الكريمة: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (الفرقان/67).

وأجرى أبو العلاء هذا التغيير أيضاً في رسالته إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي يقول: « وألقي إلينا كتاب كريم، صدر عن حضرة السيد الحبر ومالك أعنة النظم والنثر، قراءته نُسكٌ وختامه بل سائره مسكٌ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ».

ففي قوله اقتباس من الآية الكريمة: (خَتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين/6). ويتضح هذا في نفس الرسالة في قوله: « أ فبلدتنا جنان؟ أم وضح لأهلها الغفران؟ أم نشروا بعدما قبروا؟ أم جزوا الغرفة بما صبروا؟ فهم يُلَقَّونَ فيها تحيةً وسلاماً » . فهنا اقتباس من قوله تعالى: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا) (الفرقان/75).

ونجده أيضاً يضمن كلامه آية كاملة كما في رسالة المنيع (ص33) ورسالته في تعزية خاله أبي القاسم بأخيه أبي بكر، إذ توالى ثلاثة اقتباسات. يقول: « فأما الماضي، نضر الله وجهه — فقد بلغ سؤله، ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، إن فارق من دمشق ربوة ذات قرارٍ ومعين، فقد ورد مع الحور العين » كأس كان مزاجها كافوراً ».. فقد جاور ربه في دار الحيوان، وظعن من منازل الحرج إلى منازل البقاء والفرج » تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ».

الاقتباسان الأول والثاني كاملان. أما الاقتباس الثاني وهو « كأس كان مزاجها كافوراً ». (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) (الإنسان/5).

ومن تضمينه أول الآية ما جاء فيما كتبه إلى خاله أبي القاسم وقد علم بوفاة أمه: « كتابي - أطال بقاء سيدي- ما طَلَعَ صَبِيرٌ وَرَسَا ثَبِيرٌ- مِنْ مَعَرَّةِ النِّعْمَانِ وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ». فقوله فيه تضمين لقوله تعالى: (لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (الأنعام/67).

ومن تضمين وسط الآية وآخرها قوله عن نفسه بعد أن آب من بغداد: « لا يدري الرجل بِمَ يُوَلِّعُ هَرْمُهُ، وَلَا إِلَى أَيِّ أَجْمَةٍ يَسُوقُهُ جَدُّهُ » ولو كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ... وانصرفْتُ وماءٌ وَجْهِي فِي سِقَاءٍ غَيْرِ سَرِبٍ، مَا أُرْقُتُ مِنْهُ قَطْرَةٌ فِي طَلَبِ أُنْبٍ وَلَا مَالٍ، وَقَدْ فَارَقْتُ الْعَشْرِينَ مِنَ الْعَمْرِ مَا حَدَّثْتُ نَفْسِي بِاجْتِدَاءِ عِلْمٍ مِنْ عِرَاقِي وَلَا شَأْمٍ » من يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا»، والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها».

ففي قول أبي العلاء اقتباسان: الأول من وسط الآية الكريمة: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/188) (وانظر في ذلك أيضاً ج2/281، تح: د. خليفة). والاقتباس الثاني من آخر الآية الكريمة: (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) (الكهف/117).

ونجد ذلك أيضاً في (ص89-131-132-182-231- وأيضاً ج2/253- تح: د. خليفة).
والحال ذاتها نجدها في رسالة الصاهل والشاحج. إلا أن عدد مواطن الاقتباس كان قليلاً بالمقارنة مع الغفران والرسائل. فهناك ستة عشر اقتباساً فقط وردت في الصفحات التالية: (96-102-191-226-271-318-321 (في موضعين) -647-615-614-609-426-351-331-350).

وكعادته كان يكرر بعض الآيات، كقوله تعالى: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، إذ عَمَدَ إلى تضمينها في كلامه خمس مرّات في الصفحات التالية (226-271-321-350-426).

وكان يغيّر قليلاً في الأثر القرآني كما ورد في ردّ البعير على الشاحج جميع ألغازه وادّعاءاته التي أدلى بها في مظلمته. يقول البعير « وادّعت أن البارة تسافر كما يسافر الركبان، وقد روي عن ابن عباس أن بعض جبال مكة- وأغلب ظني أنه أبو قبيس- كان من جبال خراسان فجاء مهاجراً إلى مكة... فأما البارة فقريّة من قُرى الشام دامرة المسجد ليس بينها فرق وبين غيرها من غنّ القرى. وقد كان وقع بها حريق من الروم وغيرهم، فليت شعري في ظنك، هل أحدثت لها النار مزاجاً حيوانياً تقدّر به على السّفَر؟ سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً ».

ففي نهاية قوله اقتباس من الآية الكريمة: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) (الإسراء/43) مع اختلاف واضح بين السياقين، فالآية التي تسبق الآية المذكورة هي قوله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا). فالآية تشير إلى أولئك المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، تعالى الله عن ذلك. ولا شك في أن أبا العلاء قد ضمّن هذه الآية من باب التعظيم والتهويل والمبالغة. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشاحج أراد بالبارة جمع بائر مثل حائك وحاكّة وبائع وباعة. من قولك: برئت الشيء إذا اختبرته». وكان ذلك على سبيل التلاعب بالألفاظ.

وأحياناً كان أبو العلاء يحذف كلمة واحدة ليُدْرَج الآية في سياق كلامه فلا تميّز عنه فهاهو الشاحج يطلب من الصاهل أن يوصل رسالته إلى السيد عزيز الدولة. يقول: « وقد عزمْتُ يا خالي أن أستودعك رسالة إلى حضرة هذا الأمير لئذْ يُدَكِّرَ بي ولاية العدل (فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ). فأبو العلاء حذف الواو وفعل الأمر ذكّر من قوله تعالى: (وَذِكْرُ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات/55).

وهو يضمّن كامل الآية في قوله على لسان الشاحج: « وكم ترى من شيخٍ عائِدٍ إلى منزله وهو يهدُجُ في عصاه، قد لَقِيَ شِدَّةً من العيش فأقسم أنّه لا يَفِرُّ إِنْ وَقَعَ إِرْجَافٌ ثَانٍ... (وَمَنْ نَعَرَهُ نَكَسَهُ فِي الْخَلْقِ أَفْلا يَعْقِلُونَ) (يس/68).

وقد يضمّن كلامه وسط الآية للحجة والبرهان فها هو الشاحج يحتجّ ويردّ على الصاهل ادّعاءه قائلاً « وأما قولك إنّ صوتي جنسان: حممةٌ وشحيحٌ، وأنه لا يُبْنَى منها النظام، فإنّ الأشياء لها جُمْلٌ، والجُمْلُ

لها تفصيل، والتفصيل له تأويل «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم». فهنا اقتباس من قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران/7). ونجد هذا الشكل من الاقتباس في ص 609.

أما اقتباس آخر الآية فهو كثير جداً، من ذلك تصريح الشاحج أنه كان ينحى في كلامه منحى ابن دريد في الملاحن وابن فارس في (فتيا فقيه العرب). يقول: «ألم أبدأ في خطابك بأني قد جمعت أخباراً على نحو ما ذكره ابن دريد في الملاحن وابن فارس في فتيا فقيه العرب؟ فإننا لله وإنا إليه راجعون...» «فصبر جميل» والله المستعان على ما تصفون».

فهنا اقتباسان الأول من قوله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة/156) والثاني من قوله تعالى: (وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (يوسف/18). ونجد ذلك أيضاً في الصفحات (102-321-647).

وتضاعل الاقتباس والتضمين كثيراً في رسالة الملائكة إذ لا نجد إلا ثلاثة اقتباسات (ص2- ص9). اثنان في مقدمة الرسالة في قوله: «فأنشأتُ متمثلاً ببیت صخر:

لعمري لقد نبهت من كان نائماً
وأسمعت من كانت له أذنان

إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور أولئك ينادون من مكان بعيد».

الاقتباس الأول من قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) (فاطر/22).

والاقتباس الثاني من قوله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ) (فصلت/44).

والاقتباس الثالث ظهر من خلال حوار مع ملك الموت حول وزن عزرائيل. يقول: «أمهلي ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل فأقيم الدليل على أن الهمزة زائدة منه، فيقول الملك: هيهات ليس الأمر إلي إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

فهنا اقتباس من قوله تعالى: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (يونس/49).

وفي زجر النابح نجد اقتباسين فقط. الأول جاء في رد المعري على من اتهمه بإنكار البعث في بيتين في اللزوميات. وهما:

- 1- وَنَوْمِي مَوْتُ قَرِيبُ النُّشُورِ وَمَوْتِي نَوْمٌ طَوِيلُ الْكَرَى
- 2- نَوْمٌ خَالِقُنَا إِنَّا صَرِينَا لِنَشْرَبِ ذَاكَ الصَّرَا

قال أبو العلاء في الرد على من اعترض عليه في البيت الثاني: «تأمل الخالق لمن ليس هو في الدين يالق فأما الطائفة الذي يومئ إليهم هذا الممّوه فلا يعتقدون بالله الأمل، ولا يسرعون للأخرى العمل» وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» وإنما ينسب إلى هذه النحلة من قال، وهو الوليد بن يزيد...». ففي رده تضمين من آخر الآية الكريمة: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) (الشعراء/227).

والاقتباس الثاني وهو قوله تعالى: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة/156)، بإضافة الفاء إلى إنا. وهذا الاقتباس موجود بكثرة في نثر المعري.

وفي رسائله المتبادلة مع داعي الدعاة الفاطمي نجده يضمن كلامه بعض الآيات القرآنية في ثلاثة مواطن (ص391-393-394) كما جاء في حديثه عن حياته الزاهدة. يقول: « فلما رأى العبد العاجز اختلاف الأقوال وأيقن بنفاد وزوال وبلغ ثلاثين عاماً سأل ربّه إنعاماً فرزقه صوم الدهر فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا في العيدين وصير على توالي الجديدين ولزم الإمساك عن المأكّل إلا أن يلحقه المرض فيخاف معه الجرض وظنّ اقتناعه بالنبات يثبت له في العاقبة جميل الإثبات. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير». فالعبارة الأخيرة اقتباس من قوله تعالى: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/188).

ونجده يضمن آية كاملة في سياق حديثه عن الإيمان بالبعث. يقول: « فتبارك الله العظيم القادر على أن يحرق بورقة خضراء من فوق الراكدة والغبراء. (أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (يس/81-83).

وفي رسالة الهناء اقتباس واحد ذكره في سياق الحديث عن قدرة الله تعالى يقول: « ولو جاز أن تنتشق الطامية لغير الكليم، لانفرق له غير مُليم، (وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) ».

ففي قوله اقتباس من الآية الكريمة: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود/44).

تلك أهم مواطن الاقتباس والتضمن التي وقفنا عندها في نثر أبي العلاء، ويهّمنا هنا أن نعرف أن أغراض هذا الاقتباس أو الغاية من توظيف الآية الكريمة كانت متعددة ومتنوعة فقد يكون ذلك بهدف الشرح والتوضيح أو التفسير أو الحجة والبرهان، أو الهزل والتهكم، أو الرد على الخصم.. وهذا هو موضوع دراستنا في الفصل الثالث إن شاء الله.

ونلاحظ من خلال دراستنا السابقة أن الاقتباس كان مقتصرًا فقط على القرآن الكريم دون الحديث الشريف، على عكس ما وجدنا في الاستشهاد الذي شمل هذين الأثرين الشريفين معاً.

3- الإشارة والتلميح:

التلميح: هو في الاصطلاح أن يشير ناظم هذا النوع في بيت أو قرينة سجع إلى قصة معلومة أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتره، أو إلى مثلٍ سائرٍ يجريه في كلامه على جهة التمثيل. وأحسنه وأبلغه ما حصل به زيادة في المعنى المقصود، وسمّاه قومُ التلميح بتقديم الميم كأنَّ الناظم أتى في بيته بنكتة زادت ملاحه.

وكان لأبي العلاء إشاراتٌ كثيرةٌ في نتاجه زادت قوّة وفصاحةً وبلاغةً في المعاني والأسلوب. ممّا جعل أدبه قريباً من العقول والقلوب في آنٍ معاً. ويمكننا أن نتساءل هنا:

- أين تجلّت مواضع الإشارة والتلميح؟ وهل بدت في كتاب أو رسالة أكثر من غيرها؟ ولماذا؟

- وما أثر ذلك في نثره؟

أشار أبو العلاء مرتين في غفرانه إلى خبر قرآني معروف وهو خبر الشياطين التي تُرجم من السماء لمحاولتها استراق السمع على لسان الجني أبي هُرَش، حين يقول: « اللَّهُ دُرُكٌ يَا أَبَا هَذَرَشْ! لَقَدْ كُنْتُ تُمَارِسُ أَوَابِدَ وَمُنْدِيَاتٍ، فَكَيْفَ أَلَسْنَتُكُمْ؟ أَيْكُونُ فِيكُمْ عَرَبٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الرُّومِ، وَرُومٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الْعَرَبِ، كَمَا نَجِدُ فِي أَجْيَالِ الْإِنْسِ؟ فَيَقُولُ: هِيَ هَاتِ أَتِيهَا الْمَرْحُومُ؛ إِنَّا أَهْلُ ذِكَاةٍ وَقَطْنِ، وَلَا بَدْءَ لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ الْأَلْسَنِ الْإِنْسِيَّةِ، وَلَنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِسَانٌ لَا يَعْرِفُهُ الْإِنْسِ. وَأَنَا الَّذِي أَنْذَرْتُ الْجِنَّ بِالْكِتَابِ الْمُنْزَلِ: أَدَلَّجْتُ فِي رُفْقَةٍ مِنَ الْخَائِلِ نَرِيدُ الْيَمْنَ، فَمَرَرْنَا بِيَثْرَبَ فِي زَمَانِ الْمَعْوِ، أَيِ الرُّطْبِ، ف (سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) (الجن/1-2). وعدتُ إلى قومي فذكرتُ لهم ذلك، فتسرّعت منهم طوائفٌ إلى الإيمان، وحثّهم على ما فعلوه أنّهم رُجموا عن استراق السمع بكواكب مُحَرَقَاتٍ ».

ويقول في مكانٍ آخر في المعنى ذاته:

58- إِنَّا لَمَسْنَا بِعَدَمِكُمْ فَاعْلَمُوا بِرَقْعٍ، فَاهْتاجَتْ بَشَرُ بَنِيْسٍ
59- تَرْمِي الشَّيَاطِينَ بِنِيرَانِهَا حَتَّى تَرَى مِثْلَ الرَّمَادِ الدَّرِيْسِ»

فهنا يشير أبو العلاء إلى قوله تعالى في سورة الجن: (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) (8-10).

وأيضاً إلى قوله تعالى في سورة الحجر: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ¹⁷ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شُهَابٌ مُبِينٌ) (16-18). تخبرنا الآيات الكريمة السابقة عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً p وأنزل عليه القرآن. وكان من حفظه له أن السماء مُلئت حَرَساً شديداً وحقّت من سائر أراجئها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يُدرى من الصادق، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز ولهذا قال الجن: « وأنا لمسنا السماء... » فمن يروم أن يسترق السمع يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يحقه ويهلكه. ولا ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء أشرُّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً». وفي آيات سورة الحجر يذكر الله تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال « ولقد جعلنا في السماء بروجاً » أي جعلنا في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب « وزيناها للنّاظرين » أي زيناها بالنجوم ليُسّر الناظر إليها « وحفظناها من كلّ شيطان رجيم » أي حفظنا السماء الدنيا من كلّ شيطان لعين مطرود من رحمة الله « إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شُهَابٌ مُبِينٌ » أي إِلَّا مَنْ اخْتَلَسَ شَيْئاً مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ فَأَدْرَكَهُ وَلَحِقَهُ شُهَابٌ ثاقِبٌ فَأَحْرَقَهُ.

وفي حوار ابن القارح مع الجني الشاعر أبي هدرش حول أشعار الجن، يحدثه أبو هدرش عن قصيدة امرئ القيس: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل) وأن باستطاعته أن يملي ألف كلمة على هذا الوزن، على مثل: منزل وحومل، وألفاً على وزن: منزل وحومل، وألفاً على: منزل وحوملاً، وألفاً على: منزل وحومله، وألفاً على: منزل وحومله... فيقول، وصل الله أوقاته بالسعادة: « أيها الشيخ، لقد بقي عليك حفظك! فيقول: لسنا مثلكم يا بني آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة، لأنكم خُلِقْتُمْ مِنْ حَمًا مَسْنُونٍ، وَخُلِقْنَا مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ».

ولا تخفى علينا هنا الإشارة إلى قوله عز وجل في سورة الأعراف: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) (11-12). وقوله أيضاً في سورة الحجر: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ²⁶ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ²⁷ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ²⁸ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ²⁹ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ³⁰ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ³¹ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ³² قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) (28-33).

وتصادفنا إشارات كثيرة وردت على لسان أبي هدرش في قصيدته التي يصف فيها توبته وإنابته إلى الله، بعد حديثه عن أشكال التحول المختلفة، وأعمال الشرّ الكثيرة التي قام بها في حق بني آدم. يقول:

19- ثُمَّ اتَّعَظْتُ وَصَارْتُ تَوْبَتِي مَثَلًا مِنْ بَعْدِ مَا عَشْتُ بِالْعَصِيَانِ مشهوراً

20- حَتَّى إِذَا انْفَضَّتْ وَنُودِي: إِس- رافيلٌ ويحك ، هَلَا تَنْفُخُ الصُّورَا

21- أَمَاتَنِي اللَّهُ شَيْئاً، ثُمَّ أَيْقَظَنِي لمبعثي، فَرَزَقْتَ الْخُلْدَ مبروراً

في البيت الثاني إشارة إلى الآية الكريمة التي تتحدث عن يوم البعث: (وَنُفِّخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) (يس/51). وأيضاً الآية الكريمة: (وَنُفِّخُ فِي الصُّورِ فَصُيِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) (الزمر/68).

والبيت الثالث يشير إلى قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الجاثية/26). وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ) (الحج/66). والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وفي قصيدته عن الرجم إشارات كثيرة متنوعة، منها قوله:

25- ونفتري جنّ سليمان كي نطلق منها كل غاو حبيس

54- وقلّت للجنّ: ألا يا سجدوا لله، وانقادوا انقياد الخسيس

56- بلقيس أودت ومضى ملكها عنها، فما في الأذن من هلبسيس^٥

ففي البيت الأول لا تخفى علينا الإشارة إلى قوله تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) (سبا/12) فالله تعالى سخر لسليمان من الجنّ عمالاً يعملون له ما يشاء، ولا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، ومن خرج منهم عن الأمر كذبته ونكل به.

وفي البيت الثاني الذي يخاطب به أبو هدرش الجنّ بأن يسجدوا لله تعالى وحده لا شريك له. وفيه إشارة إلى قوله تعالى: (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) (النمل/25).

والمقصود في هذه الآية قوم بلقيس، ملكة سبا، الذين عبدوا الشمس من دون الله تعالى، وخضعوا لإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له، الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات.

وفي البيت الثالث إشارة إلى قصة الملكة بلقيس مع النبي سليمان عليه السلام، وقد ذكرنا ذلك في فصل سابق.

وفي أحد مشاهد الغفران يصوّر أبو العلاء الشجار الحارّ بين الأعشى والنابعة الجعدي، ويحتدّ النقاش بينهما، ويشتدّ الصراع، ويثب النابعة على الأعشى فيضربه بكوز من ذهب. ويحاول ابن القارح الإصلاح بين الشاعرين المتخاصمين، ويهددهما ذاكراً أنه يجب الحذر عند مرور ملك موكل بأمن الجنة، ويخشى أن يسمع بذلك فيرفع حديثه إلى الجبار الأعظم، ويهددهما بما حدث لآدم في بدء الخلق حين أخرجه الله من جنته بذنّب حقيّر. يقول: « يجب أن يُحذَرَ من مَلِكٍ يَعْبُرُ فِيرى هذا المجلس، فيرفع حديثه إلى الجبار الأعظم، فلا يجزّ ذلك إلا إلى ما تكرهان، واستغنى ربنا أن تُرْفَعَ الأخبار إليه، ولكن جرى ذلك مجرى الحَفْظَةِ في الدار العاجلة، أما علمتما أنّ آدم خرج من الجنة بذنّب حقيّر فغير آمنٍ من وَلَدٍ أن يُقَدَرَ له مثلُ ذلك! ».

ويظهر من قول المعري تلميح واضح إلى معنى قرآني، وهو أن الله سبحانه وتعالى خصّص ملائكة حفظة كراماً كاتبين يكتبون جميع الأعمال. يقول جلّ شأنه: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (الانفطار/10-12).

كما نلاحظ أيضاً إشارة واضحة إلى قصة آدم عليه السلام، عندما خالف أوامر الله تعالى واتبع الشيطان الرجيم. بعد أن أنعم الله عليه وأسكنه هو وزوجه الجنة، ونتيجة عصيانهما أوامر الله طردهما من جنته. يقول تعالى: (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)^{١٩} فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين^{٢٠} وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين^{٢١} فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين^{٢٢} قالاً ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين^{٢٣} قال اهبطوا بغضكم لبغض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين). (الأعراف/19-24).

وفي الحوار الذي أجراه أبو العلاء بين ابن القارح وإبليس، يقول الأخير: «... ولكن أسألك عن خبر تخبرني به: إنَّ الخمر حُرِّمَتْ عليكم في الدُّنْيَا وأُحِلَّتْ لَكُمْ في الآخرة، فهل يفعل أهلُ الجنة بالولدان المخْلِدينَ فَعَلَ أَهْلُ القَرِيَّاتِ؟ فيقول: عليك البهلة! أما شغلك ما أنت فيه؟ أما سمعت قوله تعالى: (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة/25)؟».

هنا يشير المعري إلى قصة قوم لوط بن هاران بن تاج عليهم السلام، وكان لوط قد نزع عن محلّة عمه الخليل عليهما السلام، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، ولها أرض وقرى مضافة إليها. وأهلها من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طويّةً وأردنهم سريرةً وسيرةً، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وقد ابتدعوا فاحشةً لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين. فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرهم، فأحلّ الله بهم من البأس الذي لا يردّ بما لم يكن في خلدكم وحسبانهم، ولهذا ذكر الله تعالى قصّتهم في غير ما موضع من كتابه المبين.

وتكثر، في نثر المعري، الإشارات إلى ما كان من أمر النبي سليمان عليه السلام والهدد، من مثل ذلك الحوار الطويل بين البعير والشاحج حول ما ادّعاه الشاحج على عليّ عليه السلام من أنّه كان قد استعان بالغرّاب في كثيرٍ من أمره، وكان يستخرج له الماء من الأرض. ولقيته عقيبَ فَعَمَّتْ بالأذنيّة جميع أصحابه ولم تضُرّه في نفسه، لأن النبي ﷺ دعا له. وكان الهدد يكلمه بكلامٍ كثيرٍ يفهمه عن الهدد جميع الحاضرين^{٢٠}.

ويردّ عليه البعير قائلاً: « وأما قولك إنه كان يستعين بالغرّاب على طلب المياه، فلم يرو ذلك أحدٌ من أصحاب الأخبار. وأيّ علمٍ للغرّاب بمكان الماء وهو يسلكُ القَفَرَ فيموتُ فيه من العطش؟ ولو قلت إنَّ الهدد كان يعينه على ذلك لذهبت مذهباً، لأنّه جاء في الحديث أنّ سليمان صلى الله عليه كان يستعين بالهدد على طلب الماء لأنه كان قباقيباً، أي مهندساً! »^{٢١}.

ولعلّ فيما تقدم إشارةً وتلميحاً إلى قوله تعالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ^{٢٢}) لَأَعَذَّبُكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) (النمل/20-21). وذلك أنّ الطيور كان على كلّ صنفٍ منها مقدّمون يقومون بما يطلب منهم، ويحضرون عنده بالنوبة، كما هي الجنود عند الملوك. وكانت وظيفة الهدد على ما ذكره ابن عباس وغيره، أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء. وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض، فإذا دلّهم عليها حفروا وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم. فلما طلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقدّه ولم يجده في موضعه من خدمته.

كما يردّ البعير على قول الشاحج السابق بأن الهدد كان يكلم عليّاً بكلامٍ كثيرٍ يفهمه عن الهدد جميع الحاضرين. يقول: « وادّعت أن الهدد كان يكلمه بكلامٍ يفهمه الحاضرون فكذبت وأحلت. ما زعم ذلك زاعم سواك. ولو أنّ عليّاً فهم كلامه بخاصّةٍ يهبها الله له، لما جاز أن يفهم كلامه غيره. كما أنّ سليمان لم يكن أحدٌ من أهل عصره يدّعي المعرفة بكلام الهدد ولا أغراض النمل »^{٢٣}.

وهنا يقصد أبو العلاء بكلام الهدد ما قاله الهدد عن الملكة بلقيس وقومها من أنهم كانوا يعبدون الشمس من دون الله تعالى، وإضلال الشيطان لهم، وصدّهم عن عبادة الله وحده لا شريك له. وذلك كلّ في قوله تعالى: (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنِيٍّ يَقِينٍ^{٢٤} إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ^{٢٥} وَجِدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ^{٢٦}) لَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ^{٢٧} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ^{٢٨} قَالَ سَتُنظرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ^{٢٩} أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) (النمل/20-26).

وفي قول أبي العلاء إشارةً أيضاً إلى النمل في الآية الكريمة: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ^{٣٠}) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (النمل/17-18). فإله تعالى يخبرنا في تلك الآيات عن نبيه سليمان عليه السلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجنّ والإنس والطير التي تظله بأجنحتها من الحرّ وغيره، وعلى كلّ من هذه الجيوش الثلاثة وزعة- أي نقباء- يردّون أوّله على آخره فلا يتقدّم أحدٌ عن موضعه الذي يسير فيه، ولا يتأخّر عنه، قال تعالى: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

ونجد بعض هذه الإشارات في كتابه زجر النابح الذي يردّ فيه أبو العلاء اتّهامات وادّعاءات خصومه على أقواله في اللزوميات. من ذلك قوله:

سَعَى آدَمَ جَدُّ الْبَرِيَّةِ فِي أَدَى لَذَرِيَّةٍ فِي ظَهْرِهِ تَشْبَهُ الذَّرَا
تَلَا النَّاسُ فِي النِّكَرَاءِ نَهَجَ أَبِيهِمْ وَغَرَّ بَنُوهُ فِي الْحَيَاةِ كَمَا غَرَّا

قال أبو العلاء في الردّ على من اعترض عليه في هذين البيتين: « هذا مأخوذٌ من الكتاب الكريم لأنّه قد نطق بعصيان آدم عليه السلام وهبوطه إلى الأرض بما فعل من الجريرة. وفي الكتاب الكريم: « فدلّاهما بغرور... » وأما قول الناس إنّ آدم عليه السلام أشقى بنيه بخروجه إلى هذه الدار فهو مشهورٌ منكر. وقد روى أصحاب الحديث أنّ آدم صلى الله عليه لما هبط إلى الأرض وقع على شوك فتألّم وتذكّر ما كان فيه من النعيم. وقال الطائي:

لا تنسين تلك العهود فإنما سميت إنساناً لأنك ناسي

وإنّما أصل ذلك أن أصحاب التاريخ والنقل يزعمون أنّ اشتقاق الإنسان من النسيان. ومبتدأ ذلك أنّ آدم نسي ما عهّد إليه فسمي إنساناً. وهذا يوافق مذهب الكوفيين في إنسان لأنهم يجعلونه على (إفعان) . ويعتقدون أنّ أصله النسيان».

يشير أبو العلاء إلى قصة عصيان آدم عليه السلام، وطرده من الجنة، وهبوطه إلى الأرض. وهذا مذكور في سورة الأعراف (19-25) كما أسلفنا. وفي كلام أبي العلاء إشارة إلى الحديث الشريف. قال البخاري: حدّثنا قتيبة، حدّثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي p. قال: « حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم. قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله p - فحج آدم موسى».

وفي قصّة نسيان آدم تلميح إلى الآية الكريمة: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) (طه/115). فالإنسان سمي إنساناً لأنّه عهد إليه فَنَسِيَ. والله سبحانه وتعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كلّ الثمار ولا يقربا شجرة الخلد في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها. قال عز وجل: (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى¹¹⁹ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى¹²⁰ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى¹²¹ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى¹²² قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) (طه/117-123).

وفي رسالة الهناء التي وضعها أبو العلاء ليهنئ بها رجلاً من معاصريه كتّى عنه بأبي فلان، فقال في مدحه ما يمكن أن يتحوّل ببركته ما هو مستحيل إلى ممكن جائز، من مثل انفراق البحر، وانسراب حيتانه، ونضوب مائه وعود ملحه وأجابه أحلى من عسل النحل، وطيران سفينته محمولة على متن الهواء كما حمل عرش الملكة بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين. يقول: « ولو جاز أن تنشق الطامية لغير الكليم، لانفرك له غير مليم. » وغيض الماء، وقُضي الأمر واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم

الظالمين». وقالت الحيتان المتفكّنة، ما حدث نضوب الماء، إلّا لخطب قُضي من السماء، فمن هذا الرجل الصالح الذي عمل خيراً في الصرعين، ودأب في صلاح الشرّعين، فتولّى الله عن الإنس كفاءه، وحفظ له في الدارين وفاءه، ولا يمتنع في القدرة أن يَغْدُبَ لبركتيه الماء الأجاج فيعود كأنّه من التّل مجاج، أو تسير السفينة على اليبس نُضيء كإضاءة القبس، في يد متعجل وشيك، وليس ذلك بمنال بشيك، أو تحملها الريح الهامة كحملها عرش المؤمنة بلقيس إذا مُثِلَ خيراً أو قيس»^{٥٠}.

ففي البداية إشارة إلى قصة هلاك فرعون وجنوده، إذ تمادوا في مخالفتهم لنبيّ الله ورسوله وكنيسته موسى بن عمران عليه السلام، وقد أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا ينتهون. وقد قال المفسّرون إنّ بني إسرائيل استأذنوا فرعون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره. وكان في الأمر مكيدة بفرعون وجنوده. فساروا طالبيين بلاد الشام، فلما علم فرعون بذهابهم حنق عليهم كلّ الحنق واشتد غضبه عليهم، وجمع جنوده ليلحقهم. يقول تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبِعُونَ^{٥٢} فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ^{٥٣} إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ^{٥٤} وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ^{٥٥} وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ^{٥٦} فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ^{٥٧} وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ^{٥٨} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ^{٥٩} فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ^{٦٠} فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ^{٦١} قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ^{٦٢} فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ^{٦٣} وَأَزْلَفْنَا^{٦٤} ثُمَّ الْآخَرِينَ^{٦٥} وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ^{٦٥} ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ^{٦٦}) (الشعراء/52-66).

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفوا أثرهم كان في جيش عرمرم، وقد أدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان. فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون، إنّنا لمدركون؛ وذلك لأنّهم اضطروا في طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه. والجال عن يسرتهم وأيمانهم وهي شاهقة منيفة. وفرعون قد واجههم في جنوده وجيوشه، ولما تفاقم الأمر وضاق الحال أوحى ربّ العرش الكريم إلى موسى الكليم أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق بإذن الله، وهكذا كان ماء البحر قائماً كالجبل الكبير. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكلّ سبط طريق، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبساً كوجه الأرض. وأنجى الله موسى وبني إسرائيل ومن تبعهم على دينهم، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم أحدٌ إلّا هلك.

ونجد أيضاً إشارة إلى قصّة عرش بلقيس الذي نقل من بلاد اليمن إلى بيت المقدس بأمر من النبي سليمان عليه السلام، فقد ذكرنا سابقاً ما أخبر به الهدد النبي سليمان عن الملكة بلقيس وقومها، فأرسل سليمان كتابه إليها يتضمّن دعوته لهم إلى طاعة الله وعبادته وحده. فأرسلت بلقيس بهديتها إلى النبي سليمان، ولم تكن تعلم أنّ سليمان لا يقبل منهم شيئاً لأنهم كافرون، فردّها، وقال لأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم، ولأخرجهم من بلدهم وهم أدلة عليهم العار والدمار. فلما بلغهم ذلك عن نبيّ الله لم يكن لهم بدّ من السمع والطاعة، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة، وأقبلوا مع ملكتهم مطيعين خاضعين، فلما سمع بقدمهم عليه قال لمن بين يديه ممّن هو مسخر له من الجان ما قصّه الله عنهم في القرآن: (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ^{٣٨} قَالَ عَفِيتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ^{٣٩} قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَ شْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ^{٤٠} قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ^{٤١} فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ^{٤٢} وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ^{٤٣} قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (النمل/38-44).

ونقرأ أيضاً العديد من هذه الإشارات في كتابه الفصول والغايات، وهدفه منها هو الوعظ والإرشاد والنصح. إذ أشار أبو العلاء إلى قصص بعض الأنبياء مثل هود وصالح وموسى ونوح وغيرهم عليهم السلام أجمعين.

يقول أبو العلاء: «أحلفُ يا نفسُ ولكِ الحلفُ. لقد ضيّعتِ آخرتكِ ودنياكِ، ما وُفِّقَ رجلٌ أَمِنَ اللهَ وخشيَ الناسَ... ظَلَمْتَ فُجْزيتِ أو ابتَهَلِ عليكِ داعٍ، إن بَكَرَ السَّمَاءِ يوماً عندكِ لَرَاحٍ، لا يَكُفُّكِ القليلُ ولو أَنْصَفْتَ لَقُلْتَ كَفَافٍ. عَقَقْتِي يا نفسِ فجزتكِ عَقَاقٍ».

يشير المعري إلى بكر وهو ولد ناقة صالح عليه السلام التي عقرها قوم صالح فخالفوا وأمر الله ورسوله، إذ جعلها لهم آية. قال تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ (هود/65)). وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار ابن سالف فعرقبها، فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيا فهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا على الجبل، ورغا ثلاث مرات، فلماذا قال لهم صالح: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام» أي غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا أن يلحقوه بالناقة، ثم يقولوا لأوليائه إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإتهم لصادقون في قولهم. يقول تعالى: (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) (النمل/49-51). فهم قد تحالفوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، ولكن لم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين.

ويشير أبو العلاء إلى قصة الناقة وعقرها في مكان آخر، فيقول: «من تسبيح الله رغاء عقيرة قدار وتسبيح القصواء ناقة محمد عليه السلام».

ويقول أيضاً: «وربك أولع بالأنفس غرامها. خش وأبر، ستر بالقبر، أصون من الوبر في الوبر، إن بر القائل فرحم الله آل ببر، إن الدنيا بغي ألفت دونك قرامها إن إبراهيم أبرأ الهيم، وقوم هود، جعلوا الجبال كالوهد، فانظر هل ترى من ثمود، ضارب وتد أو ناصب عمود.

يا فرسُ تدعين صيدَ الرُّبْدِ وصيدَ العَيْنِ، إِنَّ النفسَ لا تُسْبِقُ حِمَامَهَا. إِنَّ لثِيماً رُزِقَ كُلَّ يومٍ من الذهبِ شُموساً بعددِ ليالي موسى، لَطَافاً صغاراً، لا تُضيءُ كلُّها غاراً، فجعل يَزْنُها ويختزنها، لا يدفع من القالة مَلَامَهَا».

فلننظرُ أولاً في قوله: إِنَّ إبراهيمَ أبرأَ الهيمِ. الهيمُ، كما وضَّحها أبو العلاء في التفسير، جمع هيماء وهو من الهَيَامِ والهَيَامِ، وهو داءٌ يصيب الناقةَ فلا تُروى من الماء. ويقالُ الهَيَامُ كالحُمَّى تصيب الإبلَ من شربها بعضَ المياه. ودواءُ الهيماء أن يقطع حبلَ ذراعها.. والمعنى أن إبراهيمَ p جاءَ بالدين فأبرأَ من الكُفْرِ. فهو يلمِّحُ إلى قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الذين كانوا يعبدون الأوثان، وقد بيَّن إبراهيم بالُطف عبارة وأحسن إشارة بطلان عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزقٍ أو نصر، ولكنهم ظلُّوا على طغيانهم وعصيانهم. إلا أن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى آلهتهم فكسرها بقدم وجعلها حطاماً، ثم وضع القدم في يد كبيرهم إشارة إلى أنه غار أن تُعبد معه هذه الأصنام الصغار. يقول جلَّ شأنه: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ⁵¹ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ⁵² قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ⁵³ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ⁵⁴ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ⁵⁵ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ⁵⁶ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ⁵⁷ فَجَعَلَهُمْ جَذَآءًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ⁵⁸ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ⁵⁹ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) (الأنبياء/ 51-60).

وفي قوله: قوم هود جعلوا الجبال كالوهد. إشارة إلى هلاك قوم عاد الذين عصوا ربَّهم، وكانوا يعبدون الأصنام. فدعاهم رسول الله إليهم هود بن عبدالله إلى عبادة الله وحده، فكذبوه وتمادوا في طغيانهم وجبروتهم، فأرسل الله عليهم رياحاً دَمَرَتْ كُلَّ شَيْءٍ فلم تدع أحداً من عاد إلا هلك. يقول تعالى: (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ⁶⁰ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) (الأحقاف/ 24-25). وقد (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا) (الحاقة/ 7).

ومما يتعلق بقصة قوم عاد ما ذكره المعري عن الوفد الذي ذهب للاستسقاء عند الحرم، فراحوا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان (وهما قينتان لمعاوية بن بكر الذي نزلوا عنده بظاهر مكة). يقول: « ما قالت الجرادتان لوفد عاد؟ قالتا ما الله به عليم، فشغلتهما عن استغفار الواحد الرحيم طال الأمدُ فلم يُعْلَم القيل، دَرَسَ خبر الناسك المريب».

وفي قوله: فانظر هل ترى من ثمود، ضاربٍ وتدٍ أو ناصبٍ عمودٍ. إشارة إلى هلاك قوم ثمود وهم أيضاً كفروا برَّبِّهم، وأفسدوا في الأرض، فبعث الله إليهم صالح بن عبيد رسولاً يدعوهم إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة، ولم يزل النبي صالح يدعوهم إلى الله فلا يزيدهم دعاؤه إلا نفوراً، وقالوا له: إن كنت صادقاً فاتنا بآية فكانت الناقة التي خرجت من الأرض، فقال لهم صالح عليه السلام: (هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ) (الأعراف/ 73). فلما ملَّوها عقروها، فقال لهم: (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) (هود/ 65) فأهلكهم الله إلا الذين آمنوا منهم قال تعالى: (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (النمل/ 53).

أما قول أبي العلاء: إِنَّ لثِيماً رُزِقَ كُلَّ يومٍ من الذهبِ شُموساً، بعددِ ليالي موسى لطافاً صغاراً، لا تُضيءُ كلُّها غاراً، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) (البقرة/ 51)، وأيضاً إلى قوله تعالى: (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (الأعراف/ 142).

أي وعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة وأكملناها بعشر ليالٍ فتمَّت المناجاة بعد أربعين ليلة قال الزمخشري: روي أن موسى وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتابٍ من عند

الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه (تغير رائحته) فتسوّك فأوحى الله تعالى إليه: أما علمت أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك! فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة (وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) أي كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع (وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) أي وأصلح أمرهم ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم الله.

وفي سياق الكلام عن قدرة الله تعالى، وأن كلّ شيء محكوم بالمشيئة الإلهية. يقول: «وَالْمَنِيَّةُ أَخَذَتْ بِالنَّاصِيَةِ أَخَذَ الْأَسْرَ بِنَاصِيَةِ الْأَسِيرِ... لَا تَنْبِذَ الْحَلِيفَ بِالْخَلِيفِ فَإِنَّ الْوَفَاءَ مِنْ رَبِّكَ بِمَكَانٍ. إِنَّ الْحَمَامَةَ حَلَّاهَا بِالطُّوقِ، أَمْرٌ مِنْ تَحْتٍ وَفَوْقَ، وَلَوْ شَاءَ جَعَلَ الرَّيْمَ ذَا بَرِيمٍ، فَارَضَ بِقِسْمِكَ فَإِنَّكَ بَعِينَ اللَّهُ يَغَيِّرُ مَا شَاءَ مِنَ الْأَنَامِ».

فقوله (إِنَّ الْحَمَامَةَ حَلَّاهَا بِالطُّوقِ) إشارة إلى قصة نوح عليه السلام والطوفان، وقد ذكرناها فيما سبقت دراسته بالتفصيل. إلاّ هنا يلجّح إلى نهاية القصة، وهو ما روي عن ابن عباس من أنه كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً، وأنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وأن الله وجّه السفينة إلى مكة. فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب، فوقع على الحيف فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأثته بورق الزيتون، ولطخت رجلها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية، وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها العربية، وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

وفي نفس المعنى يقول في الصاهل والشاحج: «وقد بلغك دعوة نوح p لها. وأداؤها الأمانة له لما أرسلها».

وفي رسائله المتعددة المضامين تستوقفنا إشارات عديدة متنوّعة هادفة. من ذلك ما جاء في رسالته إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي المعروفة برسالة المنيح ففي مطلعها يقول: «ولولا ما حَظَّرَهُ الدين من القمار، وعابه من رأي الجَهْلَةِ الأعمار، وأنّ شريعة الإسلام اعترضت دون إجابة الأزلّام، لضربنا عليه بالسبعة الفائزة، والثلاثة التي ليست لحظ بالحائزة. ومعاذ الأحلام أن يطمئنّ خلد المنافس الشحيح إلى أحكام النافس والمنيح، وإنما كانت أولياء سيّدنا جَعَلَ اللهُ لَشَانَهُ كوكبَ الرجم وحادي النّجم، تيسرُ على إقامة الصحيفة في المنازل للأنس المطلوب، لا على مقادير السّحاء من ذلك الطّرس المكتوب. وأحسبهم يوقعون عليها السهمة الواقعة على كفالة البتول، والحاكمة في السّفر بين صواحب الرسول...».

ففي كلامه إشارة إلى الآية الكريمة التي حرم الله سبحانه وتعالى فيها الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. تقول الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة/90).

وفي قوله: «وأحسبهم يوقعون عليها السهمة الواقعة على كفالة البتول» إشارة إلى قصة كفالة البتول في التنزيل العزيز: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران/37).

(كفّلها زكريا) وفي قراءة (كفّلها زكريا) أي جعله كافلاً لها. وإنّما قدّر الله كون زكريا كافلاً لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً، ولأنّه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما. وعلى هذا كانت في حضانة خالتها.

ويقول في نفس الرسالة مشيراً إلى طريقة الرسائل آنذاك: «وقد كان فيمن مضى قومٌ جعلوا الرسائل كالوسائل، وتزينوا بالسجع تزئين المخول بالرجع، ما رَقُوا في درجته، ولا وضعوا قدماً على محبّته لكنهم تعابنوا فما تباينوا، وتناضلوا فلم يتفاضلوا... ولما وردت مع عبده موسى تلك الغرائب المؤنسة، والقلائد المنفوسة، كانت بمنزلة الآيات التسع التي ألفاها الرحمنُ على ابن عمران، أبطلت كيد

السحار، وعصفت بهشيم الأشعار، وورد في ألواح عصوان، الميمية والواوية، فوجد في وطنه أشباح أوزان تتخيل، وأنقاء أذهان تتهيل (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)^{٤٠}.

يبدو لنا - وكما يرى الدكتور عبد الكريم خليفة - أن أبا القاسم المغربي زار المعرة وهو صغير، ثم ذهب مع أبيه إلى مصر، فكتب منها رسالة إلى أبي العلاء وأرسل معها قصيدتين ميمية وواوية، فأجابه أبو العلاء عنها بهذه الرسالة المعروفة برسالة المنبح^{٤١}.

وفي قول المعري إشارة إلى الآيات التسع التي ألهاها الله على نبيه موسى، وهي: العصا واليد في قوله تعالى: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)^{٤٢} اسلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (القصص/31-32).

فقوله تعالى: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) أي إن موسى هرب ولم يلتفت، فناده ربه: (يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)، فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها: (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)،

ويقال إنه وضع يده في كم مدرعته، ثم وضع يده في وسط فمها، فلما استمكن منها عادت كما كانت عصا ذات شعبتين. ثم أمره الله تعالى بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها، فإذا هي تتلأل كالقمر بياضاً من غير سوء- أي من غير برص ولا بهق- ولهذا قال تعالى: (اسلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) قيل: معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك. وقال تعالى في سورة النمل: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (الأنعام/12).

ذكرنا آيتين وهما العصا واليد، وهما البرهان المشار إليهما في قوله تعالى: (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) ومع ذلك سبع آيات آخر، فتصبح تسع آيات بيّنات، وهي المذكورة في آخر سورة الإسراء، حيث يقول تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا^{٤٣} قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) (101-103). وهي مبسطة في سورة الأعراف في قوله عز وجل:

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ^{٤٤} فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^{٤٥} وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ^{٤٦} فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) (130-133).

أما قوله تعالى: (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) فهو اقتباس من سورة الشعراء التي تبين في عدد من آياتها المناظرة التي جرت بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون. يقول عز وجل: (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمُنَافِقُونَ أَمْ أَنْتَ لَنَا لَاحِقٌ إِنَّ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ^{٤٧} قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ^{٤٨} قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ^{٤٩} فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ^{٥٠} فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ^{٥١} فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ^{٥٢} قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (41-48).

هكذا انتهت المناظرة بنصرة الحق على الباطل والإيمان على الكفر، إذ تحولت عصا موسى إلى حية عظيمة تبتلع ما ألقى السحرة من الحبال والعصي في حركة سريعة والناس ينظرون ويتعجبون. فهؤلاء الذين استنصر بهم فرعون، غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى، وسجدوا لله رب العالمين، رب موسى وهارون.

فكما أن عصا موسى عليه السلام كانت الأقوى والمنتصرة والمتفوقة على عصي سحرة فرعون، فإن قصيدتي أبي القاسم كانتا الأفضل والأقوى بين القصائد، فلم يرَ دونها إلا أشباح أوزان تتخيل وأنقاء أذهان تتهيل.

ويتابع أبو العلاء قوله: « ... عاش حاسدُهُ بالخُلُقِ الشَّكْسِ والجَدِّ المنعكس، مشاهد للأدب محضورة ومحافل بالمذاكرة معمورة، كما يتخذ تقيُّ الخلف مواطئ زكي السلف، مواقف يتخيرها لطهارتها،

ومساجدَ يتدبرها لأثارها، وإنما فضل الطور بالكليم، والمقام بإبراهيم، ولقد سمونا بمجاورته قبل محاورته، سموّ الثبريّ بجوار النبي...»^{٥٠}.

ففي قوله: « وإِنَّمَا فَضَلُ الطُّورِ بِالْكَلِيمِ » إشارة إلى قوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ

بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (القصص/29-30).

وفي قوله: « والمقام بإبراهيم » إشارة أخرى إلى قوله عزَّ وجلَّ: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ »^{٥١} فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران/96-97). وقوله تعالى: « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » أي إنّ المسجد الحرام فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها مقام إبراهيم وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، وفيه زمزم والحطيم وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود. أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقّيته أن يكون قبلةً للمسلمين؟ « ومن دخله كان آمناً » وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحرم بدعوة الخليل إبراهيم « رب اجعل هذا البلد آمناً ». لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »، و « من دخله كان آمناً » يعني حرم مكة، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء^{٥٢}.

وفي رسالته إلى أبي القاسم المغربي لما أنفذ إليه إصلاح المنطق الذي ألفه وفيها وصف المختصر والثناء بفضله والتنبيه على كثرة فوائده. يقول: « وقد تأملتُ شواهد إصلاح المنطق، فوجدتها عشرة أنواع في عدة إخوة الصديق، لما تظاهروا على غير حقيق، وتزيدُ على عشرةِ بواحد، كأخ يوسف لم يكن بالشاهد...»^{٥٣}.

فهنا إشارة إلى النبي يوسف عليه السلام وإخوته العشرة. حيث كان ليعقوب من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً، وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام. وقوله « تزيد على عشرةِ بواحدِ كأخ يوسف » إشارة إلى أخيه أي شقيقه لأُمّه: بنيامين^{٥٤}. وأبو العلاء يلمح إلى

قصة يوسف مع إخوته الذين حسدوه على محبة أبيه له ولأخيه بنيامين أكثر منهم، وهم عصابة فاتفقوا على إبعاد يوسف ليخلو لهم وجه أبيهم، فألقوه في الجب.

وفي قول أبي العلاء إشارة إلى الآية الكريمة: (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ...) (يوسف/46).

ويستطرد أبو العلاء، في الرسالة ذاتها إلى الحديث عن حكم إعادة اللفظ مرتين. يقول: «وأقول بعدُ في إعادة اللفظ، إنَّ حكم التأليف في ذكر الكلمة مرتين، كالجمع في النكاح بين الأختين، الأولى جَلُّ يُرَامُ، والثانية بَسْلٌ حَرَامٌ، كيف يكون في الهودج لميسان وفي السبَّة خميسان؟»^{٥٠}.

يشير في كلامه إلى الآيات الكريمة التي تتحدث عن تحريم المحارم من النسب، والجمع بين الأختين معاً في التزويج، إلا ما كان في الجاهلية فقد عفى الله عنه. يقول جَلَّ وعلا: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) (النساء/23).

ويتابع أبو العلاء قائلاً: « فليت شعري ما يطلبُ أقْبَسَ ذَهَبٍ، أم قَبَسَ لَهَبٍ؟ بل يتشرفُ بالأخلاق الباهرة، ويتبرَّك بالأحساب الطاهرة... وقد أب من سفرته الأولى ومعه جذوة من نارٍ، إن لمست فنارُ إبراهيم، أو أونسَت فنار الكليم...»^{٥١}.

وهنا إشارة إلى قوله تعالى: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (الأنبياء/69) وإشارة أخرى إلى قوله تعالى: (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) (النمل/7).

وفي رسالة التعزية التي أرسلها إلى خاله أبي القاسم ابن سبيكة يقول: « وما خلد حيوان برِّي، ولا عائِم في اللَّجَج بحريٍّ، سلَّ عن حوتِ التَّهَم ذَا النون، هل سلم من المنون...»^{٥٢}.

نعم لم ولن يسلم أحدٌ من الموت لا الإنسان ولا الحيوان حتى الحوت الذي التهم سيدنا يونس عليه السلام نالت منه يد المنون، وهنا يلْمَح أبو العلاء إلى قصة يونس مع الحوت، ويذكرنا بقوله عزَّ وجلَّ في الكتاب العزيز: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ^{١٣٩} إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ^{١٤٠} فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ^{١٤١} فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ^{١٤٢} فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ^{١٤٣} لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (الصفافات/139-140).

والمقصود أنَّه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه- وهم أهل نينوى من الموصل والذين استمروا على كفرهم- ركب سفينة في البحر فلجَّت بهم وما جت وكادوا يغرقون. فاشتدوا فيما بينهم أن يقتربوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة، فوقعت القرعة على سيدنا يونس فألقي في البحر، وبعث الله عز وجلَّ حوتاً عظيماً فالتقمه، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً، فطاف به البحار كلها. وقيل: « لما استقرَّ في جوف الحوت حسب أنَّه قد مات فحرَّك جوارحه فتحرَّكت فإذا هو حي فخرَّ لله ساجداً وقال يا ربَّ اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحدٌ في مثله».

وبذلك نجد أن مواطن الإشارة والتلميح قد تعدَّدت، إذ أشار أبو العلاء إلى العديد من قصص الأنبياء صلوات الله عليهم. كما أشار إلى كثير من المعاني القرآنية، كما في خبر الشياطين التي تُرجم من السماء، وخلق الإنسان من طين وإبليس من نار. ومعانٍ أخرى كثيرة. وقد كثرت التلميحات التي تتعلَّق بالوعظ والنصح والإرشاد كما درسنا.

ومن الملاحظ أنَّ هذه التلميحات كانت كثيرة في رسالة الغفران والفصول والغايات والرسائل. وقليلة في الصاهل والشاحج ورسالة الهناء وزجر النابج. وكان لها دورها الكبير في إغناء أدب أبي العلاء، حيث منحتة جمالاً وقوة وملاحة.

4- استيحاء المعاني:

الاستيحاء: أن يأتي الكاتب بمعانٍ جديدة تستدعيها مطالعته في كتب غيره^{٥٠}. ولنا أن نتساءل هنا: من أين استوحى أبو العلاء معانيه وأفكاره؟ وكيف صاغها تلك الصياغة الفنية الرائعة، وأين تجلّى إبداع أبي العلاء، وكيف؟ ولماذا كرّر كثيراً من معانيه المبتكرة في أكثر من موطن؟.

ففي وصف رسالة ابن القارح يقول: « قد وصلت الرسالة التي بحرّها بالحكم مسجور، ومن قرأها مأجورٌ، إذ كانت تأمر بتقبّل الشرع، وتعيّب من ترك أصلاً إلى فرع، وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة... ولعلّه سبحانه، قد نصّب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء، وتكشف سجوف الظلماء، بدليل الآية: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (فاطر/10) ».

لا شك في مبالغة أبي العلاء في وصف كلمات ابن القارح. هذه الكلمات التي تصعد وترتقي إلى السماء بفضل الله تعالى. وكأنه نظر إلى الآية الكريمة التي تقول: « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (المعارج/4).

وفي وصف نعيم الجنة تحدّث أبو العلاء كثيراً عن شجر الجنة، فقد وظّف فكرة الشجرة في بدء الرحلة يقول: « وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنوية بقوله: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ^{٥١} تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) (ابراهيم/24-25) ».

ويقول في وصف شجر الجنة: « فقد عُرس لمولاي الشيخ الجليل، إن شاء الله، بذلك الثناء، شجرٌ في الجنة لذيذٌ اجتناءً، كلُّ شجرةٍ منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظلٍّ غاطٍ، ليست في الأعين كذات أنواط... والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قيامٌ وقعود، وبالمغفرة نيلت السُّعودُ يقولون، والله القادر على كلّ عزيز: نحن وهذه الشجرة صلةٌ من الله لعلّي بن منصور، نخباً له إلى نفخ الصور ».

واستخدم أيضاً الشجرة في ختام الرحلة يقول: « فكلما مرّ بشجرةٍ نضحتْ أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور، ويمسك ما جني من دماء الفور، بل هو بتقدير الله الكريم، وتناديه الثمرات من كلّ أوبٍ وهو مستلقٍ على الظهر: هل لك يا أبا الحسن، هل لك؟... ».

فكان أبا العلاء قد استوحى هذه الفكرة من الحديث الشريف الذي يشير إلى الشجرة في قصّة إسراء الرسول p، وهو: حدّثنا محمد بن علي الصائغ قال: حدّثنا سعيد بن منصور عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله p: « بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفي، فقامت إلى شجرة فيها كوكري الطير فقع في أحدهما وقعدت في الآخر. فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين، وأنا أقلب طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إليّ جبريل كأنه حلس لاطٍ فعرفت فضل علمه بالله عليّ. وفُتح لي باب من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرفة الدر والياقوت. وأوحى إليّ ما شاء الله أن يوحى ».

فتعبير أبي العلاء (كل شجرة تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب) نجده في الحديث السابق وهو قوله (فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين)، وهما أفقا المشرق والمغرب.

إلا أن أبا العلاء قد أبدع في وصف الأشجار، إذ لاحظنا ذلك في وصف أشجار الحور ذوات الثمار الشهية من السفرجل والرمان والتفاح، فإذا كسر الثمرة تخرج منها «جارية حوراء عينا تشرق لحسنها حوريات الجنان».

وإذا ما قرأنا ذلك المشهد الذي يجسّد الراحة الكبرى التي يتنعم بها ابن القارح والنعيم المقيم الذي يتلذذ به، فإننا نجد أبا العلاء يستلهم معاني آيات الذكر الحكيم ويستوحي صورته بأسلوبٍ فنيٍّ رائع جميل. يقول: « ويتكىء على مفرش من السندس، ويأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة، وإنما هو زَبْرَجْدٌ أو عَسَجْدٌ، ويكوّن الباري فيه خلقاً من الذهب تطيف به من كلّ

الأشياء حتى يأخذ كل واحد من الغلمان وكل واحد من الجوّاري المشبّهة بالجُمان، واحدة من تلك الخلق، فيحمل على تلك الحال إلى محلّه المشيّد بدار الخلود،... وتتاديه الثمرات من كلّ أوب وهو مستلق على الظهر: هل لك؟ فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إلى فيه...»^{٥٠}.

يا أبا الحسن، هل لك؟ فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إلى فيه...»^{٥٠}.

فقله (ياأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة...) مستوحى من قوله تعالى في سورة الغاشية: (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمٌ ^٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ^٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ^{١٠} لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ^{١١} فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ^{١٢} فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ^{١٣} وَأَكْوَابٌ ^{١٤} مَوْضُوعَةٌ ^{١٥} وَنَمَارِقُ ^{١٦} مَصْفُوفَةٌ ^{١٧} وَزَوَاجٍ ^{١٨} مَبْنُوتَةٌ ^{١٩}) (16-8).

وقوله: «فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إلى فيه» مستوحى من الآية الكريمة: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ^١ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا ^٢ كِتَابِيهِ ^٣ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ ^٤ حِسَابِيهِ ^٥ فَهُوَ ^٦ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ^٧ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ^٨ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ^٩) (الحاقة/19-23). أو الآية الكريمة: (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ^١ جَنَّةٌ وَحَرِيرًا ^٢ مُتَّكِنِينَ ^٣ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ^٤ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ^٥ وَدَانِيَةٌ ^٦ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ ^٧ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ^٨) (الإنسان/12-14).

وفي وصف المأدبة في الجنة يقول: « فإذا أتت الأَطعمة، افترق غلمانها الذين كأنهم اللؤلؤ المكنون، لإحضار المدعوين، فلا يتركون في الجنة شاعراً إسلامياً ولا مخضرمًا، ولا عالماً بشيء من أصناف العلوم، ولا متأديباً إلا أحضره»^{٥١}.

فوصفه الغلمان بأنهم اللؤلؤ المكنون مستلهم من قوله عز وجل: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ^١ غِلْمَانٌ ^٢ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ ^٣ مَكْنُونٌ ^٤) (الطور/24).

ويقول حميد بن ثور، بعد أن ذكره ابن القارح بأبيات ذكر فيها الزبدة: « لقد شغلْتُ عن زبد، وطرَد النافرة من الربد، بما وهب ربي الكريم، ولا خوف علي ولا حزن»^{٥٢}.

فقله «ولا خوف علي ولا حزن» مستوحى من آيات القرآن الكريم. يقول تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ^١ لَا خَوْفٌ ^٢ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^٣) (يونس/62) ويقول أيضاً: (يَا عِبَادِ ^١ لَا خَوْفٌ ^٢ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ^٣) (الزخرف/68).

وقد أبدع أبو العلاء في وصف المطلع، وأبدع في وصف ألوان العذاب الذي حلّ بأصحاب الجحيم. ولعلّه قد استلهم فكرة المطلع من قوله تعالى: (قَالَ قَائِلٌ ^١ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي ^٢ قَرِينٌ ^٣ يَقُولُ أَفَأَنْتَ ^٤ لِمَنِ الْمَصْدَقِينَ ^٥ أَفَأَنْتَ ^٦ تَرَايَا ^٧ وَعِظَامًا ^٨ أَنَا ^٩ لَمَدِينُونَ ^{١٠} قَالَ هَلْ ^{١١} أَنْتُمْ ^{١٢} مُطَّلِعُونَ ^{١٣} فَاطَّلَعَ ^{١٤} فَرَأَاهُ ^{١٥} فِي سَوَاءِ ^{١٦} الْجَحِيمِ ^{١٧} قَالَ تَاللَّهِ ^{١٨} إِنْ ^{١٩} كِدْتَ ^{٢٠} لَتَرْدِينِ ^{٢١} وَلَوْلَا ^{٢٢} نِعْمَةُ ^{٢٣} رَبِّي ^{٢٤} لَكُنْتُ ^{٢٥} مِنَ ^{٢٦} الْمُخْضَرِينَ ^{٢٧}) (الصافات/51-57).

يقول عن الخنساء: « فإذا هو (ابن القارح) بامرأة في أقصى الجنة قريبة من المطلع إلى النار، فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا الخنساء السلمية، أحببت أن أنظر إلى صخر فاطلعتُ فرأيتُهُ كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه...»^{٥٣}.

ويقول أيضاً عن إبليس: « فيطلّع فيرى إبليس، لعنه الله، وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية...»^{٥٤}.

فإبداع أبي العلاء في وصف المطلع ووصف مشاهد الجحيم وألوان العذاب كان مصدره الأساسي القرآن الكريم، كما نرى.

ويقول أبو العلاء متحدثاً عن نفسه في رسائله: « وأحلف ما سافرتُ أَسْتَكْثِرُ من النشب، ولا أَتَكْثُرُ بِلِقَاءِ الرجال، ولكن أَثَرْتُ الإقامة بدار العلم، فشاهدتُ أَنْفَسَ مكانٍ لم يُسْعَفِ الزمن بِإقامتي فيه... فلقد وصفوني بما لا أَسْتَحَقُّ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم، وعرضوا علي أموالهم عَرْضَ الجَدِّ، فصادفوني غير جدلٍ بالصفات، ولا هَشٍّ إلى معروف الأَقوام، ورحلتُ وهم لرحيلي كارهون، وحسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون»^{٥٥}.

إنَّ قوله (حسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون) وقوله في مكان آخر (وحسبي الله وحده) من المعاني التي تكررت بكثرة ملحوظة في رسائله، وكلامه هذا مأخوذ من الآيات الكريمة التي تشير إلى ضرورة التوكل على الله تعالى في كل شيء. منها قوله عز وجل: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة/129). وقوله: (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) (يوسف/67).

ويقول أبو العلاء مذكراً بالموت بين الفينة والأخرى: « فتعالى الله قادراً، وما ترك وافياً ولا غادراً، إلا جرعه كؤوس المنية... فإذا الملك وجنوده همود، قد لقي ما لاقتة ثمود فلا إله إلا الله يُفني الأمم وهو باق، ولا تقدر عبده على الإباق... وهل يخلد أحد من البشر، أو ينجو الخير من الشر، إن الله حكم بالفناء بعد إطالة النصب والعناء... وإلى زوال كل الممالك، إلا ملك الخالق، فإنه لا يزول».

وهنا تستوقفنا الآية الكريمة التي دقق النظر فيها أبو العلاء، واستوحى منها معانيه تلك، وهي: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (الرحمن/27).

والموت ينال من الإنسان والحيوان أيضاً، فهاهو يحدثنا عن شغواء (عقاب) راحت تصطاد غزالاً، فإذا بالثعلب ينال منها، ويجعلها قوتاً لليلة. يقول: « ... فأرادت أن تضرب به على المقعد هزلاً، فخانت تأمل درك خير، فحضض عنها الظفر بالمير، ومرت على ريد ناب، فأعنت جناحها بأخواب، فسقطت وهي برمق، في الأرض النزهة أو الغمق، فأقبل إليها ثعالة وطال ما أزهقت نفسه، وأثكلته ولده وعرسه، فجعل أشلاءها لليلة قوتاً، وكان أجلاً موقوتاً، وترك بشاهق فرحاًها، ولخاها القدر ما لخاها».

هذه القصة القصيرة تحدثنا عن الأجل المحدود للإنسان والحيوان معاً، وكأن المعري يستلهم معاني الآية الكريمة: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (يونس/49). وكذلك قوله: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (نوح/4).

وبما أن أبا العلاء في فصوله وغاياته كان يقدم المواعظ والنصائح والإرشادات، ويمجد الله سبحانه

أحسن تمجيد وأروعه، ويقرّ له بالعبودية والعجز. فقد كانت معانيه مستوحاة من القرآن الكريم والحديث

الشريف. وهنا سنذكر تلك الأقوال والمعاني، ومصدرها من القرآن أو الحديث.

- يقول: « من ذخرَ جميلاً وجده عند الله... يكفيك من الإبل ذودٌ أو ذودان، ناقةٌ للحلب، وأخرى للمزكّب، وثلاثة لحمل الأعباء. ما قالت الجرادتان لوفد عاد؟ قالتا ما الله به عليم، فشغلناهم عن استغفار الواحد الرحيم، طال الأمد فلم يُعلم القيل، درس خبر الناسك والمريب، وربنا المحيي والمميت، لا يخفى عنه وادسٌ حديث، إن الثناء عليه لأريج... ».

- (من ذكر جميلاً وجده عند الله) هذا المعنى ولده المعري من الآيات الكريمة التالية، كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق/6) وقوله أيضاً: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل/97)، وقوله: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (فصلت/46).

وقول المعري (وربنا المحيي والمميت) استيحاء من قوله تعالى: (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (الأعراف/158). أو قوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) (الدخان/8).

- وفي عدم اليأس من رحمة الله تعالى يقول المعري: « لا تقنطن أيها الإنسان، فإنَّ بُلْعَتَكَ عند الله الكريم، والرزق يطلبك وأنت تبصر الأحلام... » وفي مكان آخر من فصوله يقول: « لا آيس من رحمة الله، ولو تظمت ذنوباً مثل الجبال سوداً كأنهن بناتٌ جمير... ». ويحضُّ على ذلك أيضاً في الأيك والغصون قائلاً: « لا تياس من رحمة ربك فإنه كريم. ولا تأمن من غضب خالقك فإنه بئيس ». هذا المعنى استوحاه أبو العلاء من قوله عز وجل: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/53).

- وفي تقوى الله يقول: « واتق الله بالعدو والأصل، كفيتني ربِّ شقاء الدنيا فاكفني شقاء الآخرة ». والقرآن الكريم زاخرٌ بهذا المعنى يقول تعالى: (وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) (الأعراف/205) ويقول أيضاً: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (الرعد/15).

وعن الصوم يقول المعري: « كَفَرَتِ البريئة وربُّها حلِيم، صومُ الأبد أفضلُ من صومِ المفطر على حرام، فإذا صُمتَ من المأثم فعند ذلك صُمتَ عن الطعام... ».

وكأنَّ المعري قد نظر إلى الحديث الشريف: « من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ».

يقول أبو العلاء: « استغنى الله عن كلِّ العابدين، وشغلَّ الأدميُّون ببناء بيت شعر وبيت شعر، وجدار من مدَر، فبيوتهم في الأجلة كبيوت العناكب واهية الرواق والكفاء ». هذا المعنى نجده في الآية الكريمة: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت/41).

وفي سياق الحديث عن القدرة الإلهية يقول المعري: « قد ضلَّ وخاب من يُعاند الفردَ المعبود، خالقَ ما جَمَدَ وماج، من ريح وجبل وماء، عارفَ ما يهجس في قلب الفازر، كما يعرف شعاع النهار، سيَّان عنده الخفي والظاهر، والبعيد والمكثَّب، أقرَّ البسيطة ورفع الأنوار، لو شاء لرد اليفن إلى الشباب ». وفي

نفس المعنى يقول أيضاً: « رفع السماء وأطلع قمرها فأنزل إلى عباده مطرها، وأرسي الأرض وأقرها، وثبتت يذبلها وشمامها... ».

ولعل الآيات التي استوحى منها أبو العلاء معانيه هي قوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا) (نوح/19). وقوله أيضاً: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ¹⁷ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ¹⁸ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ¹⁹ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ²⁰ فَذَكِّرْ²¹ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) (الغاشية/17-21).

وعن الصلاة يقول: « مالك عن الصلاة وإنياً، قم إن كنت ممانياً... » ولا يخفى علينا هنا أن أبا العلاء ولد هذا المعنى من قوله تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) (النساء/142).

وبما أن كتابه هذا هو في تسبيح الله وتمجيده، فقد كان زاخراً بتلك المعاني، من ذلك قوله: « ليتني سبّحت الله مع الرعد القاصف، والبرق اللاصف، والهبوب العاصف، والحمام الهاتف على الغصنة الرطاب ».

وهنا نذكر قول الله تعالى في تسبيح الرعد: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) (الرعد/13).

وفي بعض وصاياه يقول: « أوصيكم إن نفعت الوصاة، إذا أشفيت على مورد جرهم وعاد ألا يلج عليّ أس ولا يكثر حولي العواد، ولا تبكين عندي باكية، ولا يحسن نادبي في الثدّاب ».

فأبو العلاء يوصي بعدم النياحة والبكاء. وهذا يذكرنا بالحديث الشريف الذي نهى فيه الرسول p عن النياحة والطعن في الأنساب والأنواء. فقد قال رسول الله p أربع من أمر الجاهلية لن يدعهنّ الناس: النياحة والطعن في الأنساب والأنواء، يقول الرجل سقينا بنوء كذا وكذا والإعداء أجرب بعير فأجرب مائة فمن أعدى الأول.

ويوصي المعري المرأة قائلاً: « لا أحمدُ نساءً عصيين الأزواج وقعدن على ظهور الركائب حواج البيت ومعتمرات. العوان لا تُعلم الخمرة، فاتقن الله في نفوسكن، وإذا غدوتن للحاجة فغير عطرات. إنسجن في النسيج، وخذن عيدان العوسج، واشتغلن بالمغزل عن الغزل، ولا تلقين بالأشر أشرات ».

ولا شك أن في كلامه استيحاء واضح من القرآن الكريم والحديث الشريف. يقول تعالى: (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ) (النور/31). وقول المعري: « ولا تلقين بالأشر أشرات » يذكرنا بالحديث النبوي الشريف: جاء عن ابن مسعود. قال: سمعت رسول الله p نهى عن النامصة والواشرة والواصلة والواشمة إلا من داء.

وفي نعم الله يقول المعري: « نعم الله كثيرة العدد لا يحصيها العباد، تجدد كنبات الأرض وقطر السماء، هذه في كلّ حين، وذاتك في كلّ عام ».

وفي هذا المعنى يقول تعالى: (وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل/18) ويقول أيضاً: (وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم/34).

ويقول أبو العلاء في سعة رحمة الله: « غشيت رحمة الله كلّ الحيوان، وتكفل بالرزق لكلّ المتغذيات، وعلم ما كان وما يكون بغير اكتساب، وأرسل المحن أجوراً للمتعبدين ». وعندما يبتهل في دعائه يسأل الله سبحانه أن يوسعه من رحمته قائلاً: « كلّت الألسن عن صفتك. نؤمن بك ومن بكم ونثق بقوتك. ونسألك أن توسعنا من رحمتك ». وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (غافر/7).

ويخاطب أبو العلاء خالقه بأروع عبارة وأجمل أسلوب قائلاً: « أشكرك وأنا مقرّ بالعجز عما يجب لك. خلقتني ضعيفاً فعبدتك عبادة الضعفاء... وهل غيرك مبرىء للسقيم! سبحانك مولى وعضداً، ما فاتك فائت، ولا أحاط بك علم ولا ظن. خشعت لك الجن والإنس. وحكمت على خلقك بالفناء. لا يخلد سواك شيء ».

وهنا نجد ثلاثة معانٍ مستوحاة من القرآن الكريم: المعنى الأول قوله: «وهل غيرك مبرئٌ للسقيم» وهو مستوحى من قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ⁷⁸ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ⁷⁹ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ⁸⁰) (الشعراء/78-80). والمعنى الثاني قوله: «خشعت لك الجن والإنس» وهو من قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات/56). والمعنى الثالث قوله: «حكمت على خلقكم بالفناء. لا يخلد سواك شيء». وهو مستوحى من قوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (الرحمن/27).

وهذا المعنى الأخير من المعاني التي ألح عليها أبو العلاء وكررها بكثرة في فصوله. يقول: « قد غاب القمر، وما فني السمير. وكلُّ شيء غير الله فانٍ». ويقول أيضاً: « إنَّ الجبابرة رامت الخلود فإذا هو لا يمكن ولا يستطيع، ولا يخلد إلا جبار السموات». وكذلك يقول في نفس الفكرة: « وليس غير إلهك من باقٍ. إن سفيف القوم لا يجزغ من شفيف اللوم، فلم نفسك قبل أن يلومك الناس واعلم أن خالقك بالمرصاد».

والعبارة الأخيرة من قول المعري مستوحاة من الآية الكريمة: (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ⁸¹ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ) (الفجر/13-14) والموت يصيب الإنسان في كل مكان. يقول: «فهل سمعتم بمكان، ليس فيه للموت استمكان؟ هيهات هيهات! إن الموت نزل على الجبل والبراث». ولا يفوتنا هنا قوله عز وجل: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ) (النساء/78).

ولا ينسى أبو العلاء ما يطرق به الموت من سكرات. يقول: «لا تبك جنازة الزق المريض... وإذا اغتبطت فاذكر ما يطرق به الموت من السكرات». وفي هذا يقول عز وجل: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) (ق/19).

ويحاسب الله تعالى الإنسان على أعماله بعد موته. يقول: « أتظن والظن كاذب، أن الله يغفل فلا يحاسب، بغير ذلك شهدت الكواكب. يا نفس لا يلفتتك عن التقوى لافئ، إن الزمن لك عافت، تكفئك غدا الكوافئ، والتراب لأعظمك رافئ، وبذلك قضى عليك أحكم الحاكمين».

فالله سبحانه وتعالى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويحاسب الإنسان عليها. يقول تعالى: (يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف/49).

وفي أكل مال اليتيم يقول أبو العلاء: « على أي شيء هجم بك مفدك؟ على مال يتيم! خابت يداك، لقد كمة في ذلك أسوداك، ألا يُقْنَعُكَ حَظُّكَ وَبَدَاكَ، قتلك غيئك فما ودأك... وأكل السحت يكسب الدرد، واليد المفسدة عن قليل شلاء، فابل نفسك قبل أن ينزل بك البلاء».

هذا النهي عن أكل مال اليتيم مستوحى من الآيات الكريمة التي تنهى عن هذا الفعل السيء. يقول تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (الأنعام/152) ويقول أيضاً: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) (الإسراء/34).

ويتحدث في بعض أقواله عن يوم البعث العظيم. يقول: « إنَّ الفقيرَ مجفوء، والله عفوُّ الرأس أميم، والعظم رميم، وربك باعث الرمام».

يقول تعالى في هذا المعنى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ) (يس/78).

ويقول في الدعوة الدائمة إلى ذكر الله تعالى: « فادع الله بالليل والنهار... وربك يولد ويعقم، ويعز من يشاء ويقم، فاذكره على السفن، وفي سروج الخيل وأكوار الإبل وعلى بنات صعدة وبنات شماج». فقله: « وربك يولد ويعقم» مستوحى من قوله تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ⁸² أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (الشورى/50).

وأيضاً من المعاني التي استوحاها أبو العلاء من القرآن الكريم قوله: « الرزق بيد الله مَنْ أراد حَرَمَ، ومن أراد أكرم... ». وهو مستوحى من قوله تعالى: (زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (البقرة/212). وقوله أيضاً: (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) (الشورى/19).

ويقول المعري في معنى آخر: « غفرانك اللهم. عرفت الدنيا لو نفعت المعرفة، وعلمت أنها أخون من الورقاء، وشتر العلم علم لا يُنتفع به... والرب يُستجار لا يخرج مما يقضيه الجمد ولا الحيوان، ولا يفعل إلا ما رضي وشاء، وغير متعلق به الزيغ والخطأ ولا شيء من الدنيات ». فقله: « وشتر العلم علم يُنتفع به » مأخوذ من الحديث الشريف إذ كان رسول الله p يقول: « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر. اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها ».

وقوله: « ولا يفعل إلا ما رضي وما شاء » مستلهم من قوله تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) (الإنسان/30). وقوله أيضاً: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (التكوير/29).

ويتحدث عن الخيانة ويرى أنها جنسان، يقول: « الخيانة جنسان: خيانة الضمير فتلك لا يشعر بها غير الله، والخيانة الظاهرة تنقسم على أقسام: خانت العين بنظر واطلاع، والأذن في إصغاء واستماع واللسان في قول واختراع، والفم بمأكل مضاع، واليد في اكتساب مال المسياح، والقدم إذا نقلها للآثم ساع. وكل عضو أعانك على الخيانة فقد خان، وخيانة الفرج أقبح الخيانات... ».

وقد جاء عن النبي p : « إن الله كتب على ابن آدم حظاً من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ». ويقول في غفران الذنوب: « إن الله منجز الوعود، بعث سحابة ذا رعود، أشرف بمثل الفند ولعب بسيف الهند، والقدرة أرتك البارق ملتها... فسبحان الخالق غافراً ومعذباً ».

فقله « سبحان الخالق غافراً ومعذباً » مستوحى من الآية الكريمة: (تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة/284).

ويقول في معنى آخر: « الدنيا كالمنام أجدر بالغم فيها أن يكون فرحاً بعدها. ولو أن الأكل ذكر اسم الله على كل أكلة يرفعها جاز ألا ينضر بطعام ».

وهنا يستوقفنا الحديث الشريف: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة... عن وهب بن كيسان سمعه من عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاماً في حجر النبي p . وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي: « يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك ».

ويرى مخاطباً النفس المجهشة: « أيتها النفس المجهشة مهلاً، قرب مما تك فلا تقولي كلاً، بليت وحسرتك لا تبلى... ».

وكانه قد استوحى معناه من قوله تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي) (الفجر/27-30).

والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. يقول المعري: « إن نزلت نُمِرَ بضمير، وبنو عدي بالبدي، فإن الله من شاء هدى ». وهذا المعنى مستوحى من قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (إبراهيم/4) أو قوله: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ) (الرعد/27).

ويخبرنا عن زوال الدنيا، وتغير حال الإنسان من الشباب إلى الهرم: يقول: فيا حالية لا تحسبي حالك خلخال السابق، ولا طوقك طوق العكرمة... تصيرين بعد الغانية ذات العجز الرдах، إلى حال الفانية ذات العجز العجوز، يبرم بك ولدك فبئس ما جازاك! لقد حملت فوضعت، وغذوت

وأرضعت، وسهرت لأجله والناس نياماً، وآثرته على نفسك في أشياء كثيرة، فما حفظك ولا رعاك، ليس الميت لحى بوصيل، أسمل ثوب فنيد، وهرم عود فترك بالمرح»^٥.

وكان المعري قد نظر إلى قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) (الأحقاف/15) وقوله: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَقِ وَلَا تنهزهما وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) (الإسراء/23).

وفي الحض على الصبر يقول: «اصبر على ما حكم ربك»^٦، وهذا مستوحى من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة/153).

وتقل المعاني المستوحاة في رسالة الصاهل والشاحج، كما في معاني التسبيح والتمجيد التي تكررت في نتاج أبي العلاء كقوله: «فتسبيح الحجر وما جرى مجراه، إنما هو أثر الصنعة فيه، وشهادته للعاقل إذا رآه: أن له بارئاً قديراً يفعل ما يريد»^٧.

هذه المعاني مستوحاة من الآيات الكريمة التالية: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التغابن/1).

- (تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء/44).

وقول المعري: إن له بارئاً قديراً يفعل ما يريد. مستوحى من قوله تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) (هود/107). وقوله تعالى: (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) (البروج/15-16).

ويقول في شأن الصلاة، في معرض حديثه عن أبي تمام: « وإن كان حبيب ضيع صلواته، فإنه لضال بفلواته، لا يبلغ فيه كيد الغداة، ما بلغ إهمال غداة. كم ضد نكص عنه ذا بُهر، وليس كذلك صلاة الظهر، إن تركها فإنها شاهدة، وفي الشكية له جاهدة. وكم من قصر، يُشيد في الجنة بصلاة العصر، ومِسْكٍ في الجنة متأرجح، لمُصَلِّي المغرب ليس بالحرَج، وحوَر أنشئ ببديع الإنشاء، لمن حافظ على صلاة العشاء. وقد جاء في الحديث النَّهْيُ أَنْ تُسَمَّى العتمة. وروي: لا تُخَدِّعُوا عن اسم صلاتكم فإنما يُعْتَم بِجَلَابِ الْإِبِل. وفي حديث آخر: إِنَّ العتمة اسم بنت الشيطان. وإن من يعجز عن أداء تلك الركعات، ليستعمل على نية عاتٍ»^٨.

ولا يفوت أبا العلاء أن يتحدث عن فضل الصلوات الخمس. وهنا نستحضر أقوال المصطفى p في هذا الموضوع: - عن جابر قال: قال رسول الله p: « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر غمر على باب أحدكم. يغتسل منه كل يوم خمس مرات فما يبقى ذلك من الدنس؟»^٩.

وفي حديث آخر: عن عمرو بن عبسة قال: قال رسول الله p: «... ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة، فإن حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفء فصل...»^{١٠}.

ومعنى (يستقل الظل بالرمح) أي يقوم مقابله في جهة الشمال ليس مائلاً إلى المغرب ولا إلى المشرق وهذه حالة الاستواء^{١١}. وفي وقت الاستواء تسجر جهنم، فليس من المناسب أن تكون فيه الصلاة. وقوله (فإذا أقبل الفء) بيان لوقت صلاة الظهر وذلك عندما يقبل الفء.

وفي حديث آخر عن الصلاة الوسطى التي قد تضيع على كثير من الناس بسبب النوم أو العمل لذلك حظيت بعناية خاصة. يقول تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) (البقرة/238) وعن ابن عمر أن رسول الله p قال: « الذي تقوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»^{١٢}. فالحديث يبين أهمية صلاة العصر ومكانتها، فالذي تقوته صلاة العصر يكون كمن فقد أهله وماله.

وفي حديث آخر عن صلاة المغرب: عن أبي أيوب، قال سمعت رسول الله p يقول: « لا تزال أمتي بخير- أو قال على الفطرة- ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم». أي قبل أن تشتد الظلمة فتشتبك النجوم.

وفي فضل صلاة الصبح وصلاة العشاء، وهما أثقل صلاة على المنافقين، لأتھما من الصلوات التي يكون الناس في وقتيهما قد أخذوا إلى الراحة والنوم، ولو كانوا يعلمون ما فيهما من الفضل لأتوهما ولو حبواً على الركب. جاء الحديث التالي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله p : « إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ».

5- في سياق الوصف والتصوير:

لقد وظّف المعري القرآن الكريم والحديث الشريف في سياق الوصف والتصوير، مما جعل الصورة لديه أكثر إقناعاً ووضوحاً وبياناً، وقد اتّضح ذلك بشكل ملحوظ في رسالة الغفران؛ إذ اعتمد في تصوير الجنة والجحيم على أسلوب القرآن الكريم في ذلك. فكان القرآن المعين الأول والمرجع الأساسي الذي استمدّ منه قوّة الصورة وجمالها وتأثيرها في المتلقي، ودورها في الإقناع.

وقد كان التصوير هو « الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المحسّنة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة. فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية. فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر فيردّها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كلّ عناصر التخيل... إنها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة».

وهاهو أبو العلاء يصف نعيم الجنة، وقد استعان في تقديم هذه الصورة بآيات الذكر الحكيم والحديث الشريف، فيصف أولاً شجر الجنة. فكل شجرة تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظلّ وارفٍ، والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قياماً وعوداً، وتجري في أصول ذلك أنهارٌ من ماء الحيوان، وأنهارٌ صغيرةٌ من اللبن، وأنهارٌ صغيرةٌ من الرحيق المختوم، وفي تلك الأنهار أوانٍ على هيئة الطير السابحة، بعضها في الجارية وبعضها في الشطّ، ينبع من أفواهاها شرابٌ كأنّه من الرقة سراب، لو شرب منه الحكمي (أبو نواس) لحكم أنّه الفوز القدّميّ، وفي الجنة أيضاً أنهارٌ من عسل مصفى. يقول: « ويعارضُ تلك المدامة أنهارٌ من عسل مصفى

ما كسبته النحلُ الغادية إلى الأنوار، ولا هو في مومٍ متوارٍ، ولكن قال له العزيز القادر: كن، فكان، وبكرمه أعطى الإمكان. وهاً لذلك عسلاً، لم يكن بالنار مُبْسِلاً! لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ما قُدر له عارضٌ مومٍ، ولا لبس ثوبٍ المحموم، وذلك كلّه بدليل قوله تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) (محمد/15) ».

ذلك عرضٌ لألوان النعيم: أنهارٌ من ماء، وأنهارٌ من لبن، وأنهارٌ من خمر، وأنهارٌ من عسل. كلّ شيء هنا بلا حساب، وكل شيء هنا لا ينضب له معين، وهذه الأنهار من نوع أجود، ومن طعم أذّ، ومع هذا كلّه فاكهةٌ من كلّ الثمرات. هذا كلّه في ناحية، والخلود في النار والماء الحميم يقطع الأمعاء ويشوي البطون في الناحية الأخرى.

هذا وصفٌ دقيقٌ لنعيم الجنّة، وقد ورد هذا الوصف في قول المصطفى p : حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الحريري عن حكيم بن معاوية أبي بَهْز عن أبيه قال: سمعتُ رسول الله p يقول: في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ثم تشقّق الأنهار منها بعده. وكلّما سنحت الفرصة زاد أبو العلاء في بلورة هذا المشهد، وأكسبه مزيداً من الدقّة والبراعة في الوصف والتخيل، كقوله: « فأما الأنهار الخمرية، فتلعب فيها أسماكٌ على صور السمك بحرية ونهرية، وما يسكن منه في العيون النبعية، ويظفر بضروب النبت المرعية، إلا أنه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر، المقابلة بالنور الباهر. فإذا

مَدَّ المؤمن يده إلى واحدةٍ من ذلك السمك، شرب من فيها عَذْباً لو وقعت الجرعة منه في البحر الذي لا يستطيع ماءه الشارب، لحلت منه أسافل وغوارب، ولصار الصمرُ كأنه رائحةٌ خُزَامِي سَهْلٍ، ...».

وقد ذكرنا في الفصل السابق أنَّ أبا العلاء وصف في غفرانه ثلاث جنات هي جنة الفردوس وجنة العفاريت وجنة الرِّجَاز. ففي جنة الفردوس وصف أبو العلاء اجتماع تسعة من الأعلام المشهورين من المصنفين واللغويين والنحويين والرواة. يقول: « وكأني به، أدام الله الجمال ببقائه، إذا استحقَّ تلك الرتبة، بيقين التوبة، وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس، كأخي ثمالة وأخي دَوْس، ويونس بن حبيب الضبي، وابن مسعدة المجاشعي، فهم كما جاء في الكتاب العزيز: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ⁴⁷ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (الحجر/47-48)، فصدر أحمد بن يحيى هنالك قد غُسِّلَ من الحقد على محمد بن يزيد، فصارا يتصافيان ويتوافيان، كأنهما ندمانا جذيمة مالِكٌ وعقيل، جمعهما مبيتٌ ومقيل. وأبو بشر، عمرو بن عثمان سيبويه قد رَخِصَتْ سويداءُ قلبه من الضغنِ على علي بن حمزة الكسائي وأصحابه، لما فعله به في مجلس البرامكة. وأبو عبيدة صافي الطوية لعبد الملك بن قُريب، قد ارتفعت حلَّتُهما عن الرِّيب... (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ⁴⁸) (الرعد/23-24) ».

أبرز ملاحظة هنا هي دقة أبي العلاء في وصف المجلس والجمع بين هؤلاء العلماء الذين كانوا يختلفون في الحياة الدنيا لكونهم متعاصرين ومتنازعين، وهامهم الآن جالسون على سرر متقابلين وقد صفت قلوبهم، ونزعت الضغائن من صدورهم. قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض زيادةً في الإنس والإكرام. وقال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد. وقد روي أن أهل الجنة يدخلون الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غلٍّ. وما أروع اقتباسه الآية الكريمة: « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ... » فقد جاءت في مكانها المناسب لتزيد الوصف جمالاً وقوةً، فهاهي الملائكة تدخل عليهم من هنا ومن هناك للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفدُّ عليهم الملائكة مسلمين، مهنئين بما حصل لهم من الله من التقريب، والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام. وعندما أراد أبو العلاء أن يصف يوم القيامة العظيم، في حوار ابن القارح مع عمرو بن أحمر نجد الشاهد القرآني الوسيلة الأولى في هذا الوصف. يقول ابن القارح: « فأين عمرو بن أحمر؟ فيقول عمرو: ها أنا ذا. فيقول: أنشدني قولك:

بَانَ الشَّبَابُ، وَأَخْلَفَ الْعُمُرُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ وَالذَّهْرُ

وقد اختلف الناس في تفسير العمر، فقيل: إنك أردت البقاء، وقيل: إنك أردت الواحدَ من عُمُور الأسنان، وهو اللحم الذي بينها. فيقول عمرو متمثلاً:

خَذَا وَجْهَ هَرَشَى أَوْقَافَهَا، فَإِنَّهُ كَلَا جَانِبِي هَرَشَى لَهُنَّ طَرِيقُ

ولم تترك في أهوال القيامة غُبراً للإنشاد، أما سمعت الآية؟ : (يَوْمَ تَرَوْنها تَدْهُلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) (الحج/2) ».

هذا مشهدٌ حافلٌ بكل مرضعةٍ تشغل لهول ما ترى عن أحبِّ الناس إليها، والتي هي أسفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له، وتضع كلُّ ذات حملٍ حملها لشدة الهول، وترى الناس سكارى من شدة الأمر الذي صاروا فيه وقد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

وحينما جاء ابن القارح إلى حمزة بن عبد المطلب ح يمدحه، فلما أقبل عليه بوجهه أنشده الأبيات فزجره حمزة، وتلا الآيات التي تبين هول ذلك اليوم وحال الناس وقتئذٍ: يقول: « أما سمعت الآية: » لكلِّ

امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»؟ فقلت: بلى قد سمعتها، وسمعت ما بعدها: (وَجُودَ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ³⁸ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ³⁹ وَوُجُودَ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ⁴⁰ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ) (عبس/38-42) «.

فقوله تعالى: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» أي هو في شغلٍ شاغلٍ عن غيره، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث عن ابن عباس قال: قال رسول الله p : «تحتشرون حفاة عراة مشاة غرلاً» قال: فقالت زوجته: يا رسول الله ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه». أو قال: ما أشغله عن النظر. ويكون الناس هنالك فريقين، وجوه مسفرة أي مستنيرة، ضاحكة مستبشرة أي مسرورة فرحة، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة- «وجوه يومئذ عليها غبرة...» أي يعلوها ويغشاها قتره أي سواد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله p : «يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم» قال فهو قوله تعالى: «وجوه يومئذ عليها غبرة». وقوله تعالى: «أولئك هم الكفرة الفجرة» أي الكفرة قلوبهم الفجرة في أعمالهم. وفي وصف المأدبة التي صنعها ابن القارح في الجنان، وجمع فيها ما أمكن من شعراء الخضرمة والإسلام، والذين أصلوا كلام العرب، وجعلوه محفوظاً في الكتب، كان القرآن عنصراً أساسياً ومهماً في وصف تلك الوليمة. يقول: «فاذا حصلت النحوض فوق الأفاض، قال، زاد الله أمره من النفاذ: أحضروا من في الجنة من الطهارة الساكنين بحلب على ممر الأزمان فتحضّر جماعة كثيرة، فبأمرهم باتخاذ الأطعمة، وتلك لذة يهبها الله، عزّ سلطانه، بدليل قوله تعالى: (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ⁴¹) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁴² لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) (الزخرف/71-73). فاذا أتت الأطعمة، افترق غلمانها الذين كأنهم اللؤلؤ المكنون لإحضار المدعوين، فلا يتركون في الجنة شاعراً إسلامياً، ولا مخضرمًا، ولا عالماً بشيء من أصناف العلوم، ولا متأديباً إلا أحضروه...».

ساهمت الآيات الكريمة في دعم الوصف وتوضيحه، فأهل الجنة منعمون فيها، لهم ما يشتهون، وما تلذّ أعينهم من طيب الطعام والريح وحسن المنظر، وهم خالدون فيها، لا يخرجون منها، ولا يبيعون عنها حولاً، قال أبو السعود: وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمالٌ للسرور، فإن كل نعيم زائلٌ موجبٌ لخوف الزوال. ثم قيل للمتقين، على وجه التفضّل والامتنان، إن أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إليكم، فإنه لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله وفضله. ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة، فلكم فيها من جميع الأنواع، فمهما اخترتم وأردتم فإنكم تُجابون إلى ذلك. كما يصف المعري ابن القارح بين حور الجنان، فقد التقى بحورية ضاحكة فاستغرب ضحكها وسألها عما يضحكها، فقالت: فرحاً بتفضّل الله الذي وهب نعيماً، وكان بالمغفرة زعيماً، وسألته من تكون، فقال لها: «أنت من حور الجنان اللواتي خلقك الله جزاءً للمتقين، وقال فيكن: «كأنهن الياقوت والمرجان» (الرحمن/58). فنقول: أنا كذلك بإنعام الله العظيم».

وقد كانت تُعرف في الحياة الدنيا باسم حمدونة، وقد تزوّجها رجلٌ يبيع السقط، ثم طلقها لرائحة كرهاها من فمها، وكانت من أقبح نساء حلب. وتعرّف على حورية ثانية، وهي امرأة سوداء، اسمها توفيق، وكانت تخدم في دار العلم ببغداد، وتخرج الكتب إلى النساخ. ويقول لها: «لا إله إلا الله، لقد كنت سوداء، فصرت أنصع من الكافور، وإن شئت القافور».

لم يجد أبو العلاء أروع من هذا الوصف الذي خصّ الله تعالى به الحور العين: «كأنهن الياقوت والمرجان» أي كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمريتهن. قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان.

وفي تفسير هذا الوصف قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان ههنا اللؤلؤ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا محمد بن حاتم... عن عبد الله بن مسعود عن النبي p قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها» وذلك قول الله تعالى: «كأنهن الياقوت والمرجان» فأما الياقوت فإنه حجرٌ لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت من ورائه.

كما نلمس البراعة في التصوير والتخييل عند أبي العلاء عندما تخيل صاحبه ابن القارح سعيداً بين الجنان، وتقوم على خدمته الحور العين والأوصاف والصور المستخدمة في هذا المشهد تدل على تأثير

القرآن الكريم الواضح في جنة الغفران. يقول: « وَيَتَكَيَّ عَلَى مَفْرَشٍ مِنَ السُّنْدُسِ، وَيَأْمُرُ الْحُورَ الْعِينُ أَنْ يَحْمِلْنَ ذَلِكَ الْمَفْرَشَ، فَيَضَعْنَهُ عَلَى سُرِيرٍ مِنْ سُرُرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا هُوَ زَبْرَجْدٌ أَوْ عَسْجَدٌ، وَيَكُونُ الْبَارِي فِيهِ حَلَقًا مِنَ الذَّهَبِ، تَطِيفُ بِهِ مِنْ كُلِّ الْأَشْرَاءِ، حَتَّى يَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْغُلَّامِ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجَوَارِي الْمَشَبَّهَةِ بِالْجُمَانِ، وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الْحُلُقِ، فَيَحْمِلُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ إِلَى مَحَلِّهِ الْمَشِيدِ بَدَارِ الْخُلُودِ، فَكُلَّمَا مَرَّ بِشَجَرَةٍ نَضَخَتْهُ أَغْصَانُهَا بِمَاءِ الْوَرْدِ قَدْ خُلِطَ بِمَاءِ الْكَافُورِ، وَبِمَسْكِ مَا جُنِيَ مِنْ دِمَاءِ الْفُورِ، بَلْ هُوَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ الْكَرِيمِ. وَتَتَادِيهِ الثَّمَرَاتُ مِنْ كُلِّ أُوبٍ. وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى الظَّهْرِ: هَلْ لَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ، هَلْ لَكَ؟ فَإِذَا أَرَادَ عَنُقُودًا مِنَ الْعَنْبِ أَوْ غَيْرِهِ انْقَضَبَ مِنَ الشَّجَرَةِ بِمَشْيِئَةِ اللَّهِ وَحَمَلَتْهُ الْقُدْرَةُ إِلَى فِيهِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَلْقَوْنَهُ بِأَصْنَافِ التَّحِيَّةِ: (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس/10)».

ذكرنا في فقرة سابقة أن أبا العلاء قد استوحى معاني بعض الآيات الكريمة التي ساعدته في تصوير هذا المشهد. إلا أن المعنى لا يكتمل هنا إلا بكامل الآية التي اقتبس منها، وهي: (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس/10). هذا هو حال أهل الجنة، إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه، قالوا سبحانك اللهم، فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله: «وتحييتهم فيها سلام». فإذا أكلوا حمدوا الله، فذلك قوله: « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين».

وزيادة في ابتكار الصور المتخيلة فقد أورد أبو العلاء أن الله خلق شجرة كبيرة من شجر الغُزْز، والغُزْزُ الجوزُ، وصور لنا ثمارها وهي مكتملة النضج، والابتكار يكمن في أن كل ثمرة من شجرة الجوز قد خرجت منها أربع من الحسان الجوارِي، لا يحصيهن عدٌ. وهن يرقصن على إيقاع مقطوعة شعرية من شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي.

ولا تخفى على أحد براعته في تصوير جنة العفاريت. يقول: « فيركبُ (ابن القارح) بعض دواب الجنة ويسيرُ، فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة، ولا عليها النور الشعشائي، وهي ذات أدحال وغماليل. فيقول لبعض الملائكة: ما هذه يا عبدالله؟ فيقول: هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد p، وذكروا في الأحقاف، وفي سورة الجن، وهم عددٌ كثيرٌ. فيقول: لأعدِلنَّ إلى هؤلاء فلن أخلو لديهم من أعجوبة. فيعوج عليهم، فإذا هو بشيخ جالس على باب مغارة، فيسلم عليه فيحسن الرد ويقول: ما جاء بك يا إنسي؟ إنك بخير لَسي، مالك من القوم سي!...».

إنَّ أبا العلاء قد اعتمد على القرآن الكريم فيما يتعلق بالجن وأحوالهم، وقد نصَّ على ذلك بسورتي الجن والأحقاف. وهاهو يصف جنة العفاريت. وهي ذات شكل خاص، ليست كجنة البشر فهي تلائم طبيعة الجن أنفسهم، وهي ذات أدحال وغماليل، وليس عليها النور الشعشائي. ولا بد أن نشير هنا أن وصفه للجنة أنها ذات أدحال وغماليل لم يرد في القرآن الكريم، وإنما هو خاص بغفران المعري. وقد جاء في أحد معاجم اللغة: الغملول، بالضم: الوادي ذو الشجر، أو الطويل القليل العرض الملتف، والرابية، وكل مجتمع أظلم وتراكم من شجر، أو غمام، أو ظلمة، أو زاوية. والدخل: نقب ضيق فمه، متسع أسفله حتى يمشي فيه، وربما أنبت السدر. أو مدخل تحت الجرف، أو في عرض خشب البئر في أسفلها، أو خرق في بيوت الأعراب، يجعل لتدخله المرأة إذا دخل داخل، والمصنع يجمع الماء.

وقد أشار المعري إلى العفاريت الذين آمنوا بمحمد p، وقد ذكرهم الله تعالى في سورتي الجن والأحقاف. قال تعالى في سورة الجن: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَإِنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا) (4-1).

كما أخبر عنهم في سورة الأحقاف بقوله: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ²⁹ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ³⁰ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ³¹ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ

مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (29-32).

ومناسبة هذه الآيات أن رسول الله ﷺ انطلق في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا مالكم، فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتتبعون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بوادي النخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم «إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً» وأنزل الله على نبيه ﷺ «قل أوحى إليّ أنه استمع نفرٌ من الجن». قال القرطبي: هذا توبيخ لمشركي قريش، أي إن الجن سمعوا القرآن وآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنتم معرضون مصرون على الكفر».

ونستمع هنا إلى ابن القارح، وهو يسأل الخيثعور عن أشعار الجنّ وآدابهم، فيقول: «أخبرني عن أشعار الجنّ، فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعةً صالحة. فيقول ذلك الشيخ إنما ذلك هذيان، لا معتمد عليه، وهل يعرف البشر من التنظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض؟ وإنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قلّ ما يعدوها القائلون، وإن لنا لآلاف أوزان ما سمع بها الإنس، ... ولقد نظمت الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدم بكور أو كورين. وقد بلغني أنكم معشر الإنس تلهجون بقصيدة امرئ القيس: (قفا نبك) ... وكلّ ذلك لشاعر منا هلك وهو كافر، وهو الآن يشتعل في أطباق الجحيم». ويطيل أبو العلاء الحديث عن شقاء ابن القارح في الدنيا بجمع الأدب، لكنه لم يحظ منه بطائل، فقد تقرب به إلى الرؤساء وبقي مع ذلك يشكو الحرمان، ويختتم هذا المشهد بقوله: «ويقول لذلك الشيخ: ما كنتك لأكرمك بالتكنية؟ فيقول: أبو هدرش، أولدت من الأولاد ما شاء الله، فهم قبائل: بعضهم في النار الموقدة، وبعضهم في الجنان. فيقول: يا أبا هدرش، مالي أراك أشيب وأهل الجنة شباب؟ فيقول: إن الإنس أكرموا بذلك وحرمانه، لأننا أعطينا الحولة في الدار الماضية، فكان أحدها إن شاء صار حية رقصاء، وإن شاء صار عصفوراً، وإن شاء صار حمامة، فمُنِعنا التصور في الدار الآخرة، وتركنا على خلقنا لا نتغير، وعوّض بنو آدم كونهم فيما حسن من الصور. وكان قائل الإنس يقول في الدار الذاهبة: أعطينا الحيلة، وأعطينا الجن الحولة».

فهو قد أشار إلى الجنّ المؤمنين وجنتهم، وأيضاً إلى أهل النار منهم. وقد أخبر الله تعالى عن الجنّ أن منهم المؤمن ومنهم الكافر. يقول تعالى: (وَأَنَا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا، وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نَّعْجِزَهُ هَرَبًا، وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا، وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا، وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) (الجن/11-15).

أما وصف الجحيم فنظّل عليه مع الخنساء وهي تنتظر إلى أخيها صخر، وهو كالجبل الشامخ، والنار تضطرم في رأسه. وتتجلّى معالمه بشكل أوضح مع إبليس وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل. وقد اقتبس أبو العلاء صور القرآن الكريم في وصف الجحيم، ونجده يورد نصّ آية من سورة البقرة يقول: « فيطلع فيرى إبليس، لعنه الله، وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل، ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية. فيقول: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدوّ الله وعدوّ أوليائه! لقد أهلكك من بني آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله... فيقول: ... وإنّ لي إليك حاجة، فإن قضيتها شكرتك يدُ المنون. فيقول: إني لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت في أهل النار، أعني قوله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) (الأعراف/50) ».

فالآية الكريمة تصوّر الله تعالى فيها ذلّة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شراهم وطعامهم وهم لا يجابون إلى ذلك لأن الله حرّمهما عليهم.

فالمعري إذن لم يقتصر على استخدام الألفاظ القرآنية، وإنما استمدّ أيضاً بعض الصور القرآنية في الجحيم والنعيم.

وفي مشهد آخر يصوّر أبو العلاء الأخطل التغلبيّ، وهو يتلوّى من جوعه وألمه، ويشارك إبليس في هذا الحوار. فيقول ابن القارح مخاطباً الأخطل: «أخطأت في أمرين، جاء الإسلام فعجزت أن تدخل فيه، ولزمت أخلاق سفيه، وعاشت يزد بن معاوية، وأطعت نفسك الغاوية، وأثرت ما فني على باقي، فكيف لك بالإباق؟ فيزفر الأخطل زفرة تعجب لها الزبانية، ويقول: آه على أيام يزيد أسوف عنده عنبراً، ولا أعدم لديه سيسنبراً، وأمزح معه مزح الخليل، فيحتملني احتمال الجليل... فيقول، أدام الله تمكينه: من ثم أتيت! أما علمت أن ذلك الرجل عاند، وفي جبال المعصية ساند؟ فعلام أطلعت من مذهبه: أكان موحّداً، أم وجدته في النسك ملحداً. فيقول الأخطل: كانت تعجبه هذه الأبيات: ... فيقول: عليك البهلة! قد ذهلت الشعراء من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب، وما شذهت عن كفرك ولا إساءتك. وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله فيقول للزبانية: ما رأيث أعجز منكم إخوان مالِك! فيقولون: كيف زعمت ذلك يا أبا مُرّة؟ فيقول: ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه؟ قد شغلكم وشغل غيركم عما هو فيه! فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية، لو ثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر. فيقولون: لم تصنع شيئاً يأبأ زوبعة! ليس لنا على أهل الجنة سبيل. فإذا سمع ما يقول إبليس، أخذ في شتمه ولعنه وإظهار الشماتة به».

نلاحظ هنا دقة المعري وبراعته في صياغة الحوار والتصوير، وهو إذ يحاور إبليس ويخاطب أهل النار ويجادلهم، ويذكر الأخطل بخطيئته، لا يبتعد عما جاء في الذكر الحكيم، حيث أهل الجنة وأهل النار يتراءيان ويتخاطبان. يقول تعالى: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ¹³ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ¹⁴، قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبُنُسَ الْمَصِيرُ (الحديد/13-15).

وننتقل هنا إلى مشهد آخر يصف فيه المعري جنة الرّجّاز، وهي ذات منازل صغيرة، ليست كقصور الفردوس. فأبو العلاء قد اختار لهم مكاناً متواضعاً كمكانتهم في الشعر. يقول واصفاً هذه الجنة: «ويمرّ بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنة، فيسأل عنها فيقال: هذه جنة الرّجّز، يكون فيها: أغلب بني عجلٍ والعجاج ورؤية وأبو النجم وحميد الأرقط وعذافر بن أوس وأبو نخيلة وكل من غفر له من الرّجّاز، فيقول: تبارك العزيز الوهاب! لقد صدق الحديث المروي: إنّ الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها، وإنّ الرّجّز لمن سفاسف القريض، قصرتم أيها النفر فقُصِر بكم».

فالمعري يسخر من الرّجّز والرّجّاز، لأنه لم يكن يحب الرّجّز، وقد جاء بالحديث الشريف ليدعم ويقوي هذا التهجم. وقد تهجم المعري على الرّجّز والرّجّاز في غير هذا المكان على لسان الشاعر امرئ القيس: «يُقال لي مثل ذلك، والرّجّز من أضعف الشعر، وهذا الوزن من أضعف الرّجّز».

ومعنى ذلك أن الرّجّاز وإن كانوا من أهل الجنة، فإنهم لن يبلغوا من النعيم ما بلغه الشعراء. ثم يجري أبو العلاء حواراً طويلاً بين رؤية وابن القارح، ويتفاقم الخصام، ويطرد رؤية ابن القارح من مكانه في جنته، كما في قوله: «أجنت لخصامنا في هذا المنزل؟ فامض لطيتك، فقد أخذت بكلامنا ما شاء الله. فيقول أسكت الله مجادله: أقسمت ما يصلح كلامك للثناء، ولا يفضل عن الهناء، تصكون مسامع الممتدح بالجنّدل، وإنما يطرب إلى المنّدل، ومتى خرجتم عن صفة جمل، تراثون له من طول العمل إلى صفة فرس سابح، أو كلب للقنص نابح، فإنكم غير الراشدين. فيقول رؤية: إن الله سبحانه وتعالى قال: (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ) (الطور/23). وإنّ كلامك لمن اللغو، ما أنت إلى النصفه بذوي صفو».

وقوله تعالى: «يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ» يصف خمر الجنة التي منّ الله بها المؤمنين، هذه الخمر لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان، ولا إثم أي فحش، كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا. قال الألوسي: أي يتجادبون فيها تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامي في الدنيا لشدة سرورهم. وقال قتادة: نزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفي عنها صدادع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش، ووصفها بحسن منظرها، وطيب طعمها».

وقد استنتج رؤية من خلال هذه الآية الكريمة أن كلام ابن القارح لغوٌ. أي باطلٌ. ويطول الحوار بين ابن القارح ورؤية ويستمتع أبوه العجاج إلى هذا الحوار فجاء يسأل المحاجزة بين هذين الطرفين المتخاصمين.

وقبل أن يصف أبو العلاء جنة الرجز يصف روضة الحيات. يقول: « ثم يضرب سائراً في الفردوس فإذا هو بروضة مؤنقة، وإذا هو بحيات يلعبن ويتماقلن، يتخاففن ويتماقلن، فيقول: لا إله إلا الله! وما تصنع حية في الجنة؟ ».

ويجب ألا ننسى أيضاً وصفه لمكان هو أقصى الجنة، أو لنقل تلك المنطقة الفاصلة بين الجنة والنار، هذا المكان بعيدٌ عن نور الجنة ونعيمها، وقريبٌ من النار وعذابها. وقد خصصه أبو العلاء للحطينة، وهو لم يصل إلى هذا المكان إلا بعد شدة وأذى وشفاعة من قريش. ويحدد أبو العلاء هذا المكان بقوله: « فيذهب، عرفه الله الغبطة في كل سبيل، فإذا هو ببيت في أقصى الجنة، كأنه حفش أمة راعية، وفيه رجلٌ ليس عليه نور سكان الجنة، وعنده شجرةٌ قمينةٌ ثمرها ليس بذاك ».

ويصف أبو العلاء الشجار الحاد بين الأعشى والنابعة الجعدي. وهو مشهد زاخرٌ بالسخرية من الشعارين معاً. فمن هذا المشهد قول الجعدي: « اسكت يا ضلّ بن ضلّ، فأقسم أن دخولكم الجنة من المنكرات، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله! لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار، ولقد صلي بها من هو خير منك، ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت: إنك غلط بك! ... ويثب نابعة بني جعدة على أبي بصير فيضربه بكوز من ذهب. فيقول (ابن القارح): لا عردة في الجنان إنما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السفلة والهجاج، إنك يا أبا ليلى لمتترع. وقد روي في الحديث، أن رجلاً صاح بالبصرة: يا آل قيس! فجاء النابعة الجعدي بغصية له، فأخذه شرط أبي موسى الأشعري فجلده لأن النبي p قال: من تعزى بعزاء الجاهلية فليس منا. ولولا أن في الكتاب الكريم: (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ) (الواقعة/19). لظنناك أصابك نزفٌ في عقلك ».

ويختتم أبو العلاء المشهد بوصف ابن القارح، وهو يحاول الإصلاح بين الشعارين المتخاصمين. والحديث الشريف كما ورد في مسند أحمد: سمعت رسول الله p يقول: من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكونوا ».

ويصف المعري النعيم الدائم الذي يتمتع به العوران الخمس، فأحد أهل الجنة بصراً هم الذين حُرِّموا نعمة الإبصار في الدنيا، وأجملهم عيوناً عوران قيس الخمس، وهم تميم بن مقبل العجلاني، وعمرو بن أحمر الباهلي، والشماخ معقل بن ضرار، وعبيد بن الحصين النميري، وحמיד بن ثور الهلالي. فهما هو شماخ بن ضرار قد شغله النعيم ولذا نذر الخلود عن قصيدته الزائفة والجهمية وأكد شماخ ذلك عندما تلا الآيات الكريمة: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ⁴² كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (المرسلات/41-43). وهي تصف جنة عباد الله المتقين الذين عبدوا ربهم بأداء الواجبات وترك المحرمات، وهم في جناتٍ وعيونٍ بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظلل اليموم، وهو الدخان الأسود المنتن، ولهم في هذه الجنة ما شأوا من سائر أنواع الثمار التي يشتهونها. جزاءً من الله تعالى لأنهم أحسنوا العمل ».

ويصف أبو العلاء يوم الحساب من خلال الحوار بين ابن القارح وتميم بن أبي. يقول ابن القارح: « ... كأنك لم تشهد أهوال الحساب، ومناذي الحشر يقول: أين فلان ابن فلان؟ والشوس الجابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم. والنسوة ذوات التيجان يُصرن بالسنّة من الوقود، فتأخذ في فروعهن وأجسادهن، فيصحن: هل من فداء؟ هل من عذر يُقام؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغون في سلاسل النار ويقولون: نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع، وأياد فلا فادي ولا معين! فهتف داع من قبل العرش: (أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) (فاطر/37).

لقد جاءتكم الرسل في زمان بعد زمان، وبذلت ما وُكِّدَ من الإيمان، وقيل لكم في الكتاب: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (البقرة/281) فكنتم في

لذات السخرة واغلين، وعن أعمال الآخرة متشاغلين، فالآن ظهر النبأ، لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد».

إلا أن مشهد تصوير ألوان العذاب لا يكتمل إلا بتمام الآية الكريمة التي جاء بها المعري وهي من سورة فاطر، وفيها يقول جلّ وعلا: (وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبِّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنّا نَعْمَلْ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمْ النَّذيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصيرٍ) (فاطر/37) . وفي هذه الآية يصف الله تعالى الكافرين، وهم في نار جهنم ينادون فيها ويجأرون إلى الله عزّ وجلّ بأصواتهم «ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» فهم يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول. قال القرطبي: أي نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمتثل أمر الرسل. وقد علم الربّ جلّ جلاله أنه لو ردّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون فهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم. ويخاطبهم بقوله: « أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر » أي أو ماعشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعت به في مدة عمركم؟ وجاءكم النذير وهو رسول الله ﷺ، ولم تهتدوا، فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء، فما لكم اليوم ناصر ينقذك مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

وفي الآية الثانية: «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله...» يؤكّد المعري عدل الله سبحانه في الحكم بين عباده. ولا يفوتنا هنا لفظ (الظلم) الذي كرّره أبو العلاء في هذا المشهد. ويؤكد مرة أخرى في ختام قوله عدل الله سبحانه من خلال اقتباسه قوله تعالى «لا ظلم اليوم» أي أن الله لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شرّ، بل يجزي الحسنة عشر أمثالها، وبالسّيئة واحدة. وأيضاً من خلال اقتباس قوله تعالى: «إنّ الله قد حكم بين العباد». أي إنّ الله قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقّه كلّ منا.

وهكذا اعتمد أبو العلاء في وصف عذاب الحشر على آيات الذكر الحكيم التي ساهمت في تدعيم الفكرة وتأكيد المعنى وإكسابه قوةً وجلالاً.

وهكذا فإنّ أبا العلاء قد تميز في غفرانه بأسلوبه الوصفي والتصويري المبهّر، إذ وصف لنا الجنة، ومن اجتمع فيها من الشعراء، وما ذكره، وما غفر لهم به فأدخلوا الجنة، ووصف المأدبة التي أقيمت في الجنة، وما دار فيها من كؤوس فيها شراب الجنة، وأوانٍ ذهبية وفضيّة، وأجناس الطير والحيوان ووصف ما فيها من حورٍ عِين، وأسرة، ومفارش سندسية، كما وصف المغنين والمغنيات تخدمهم جوارٍ من الحوار العين وغلّمان كأنهم اللؤلؤ المكنون، وأشخاص لهم من سحر العيون ما يبهر الناظرين من الجمال الأخاذ. وبالمقابل وصف أيضاً الجحيم وما يدور فيه من أشكال وصور العذاب. كل ذلك جاء مدعماً بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي وسّعت آفاق الصورة وزادتها جمالاً.

ولنا وقفات كثيرة مع الوصف في رسائله، ونجده يبالغ ويفتّر في وصف ممدوحه. ونظراً لأن أكثر ممدوحيه من المشتغلين بالأدب والبيان، فإننا نجده ينصرف إلى وصف ممدوحه بالبلاغة والبيان، وبلوغه من ذلك أرفع الدرجات، ثم يسحب على الرسالة كل ما يمكن أن يوصف به الكلام من شرف ورفعة منزلة. يقول في رسالته إلى أبي القاسم المغربي: «... وذلك أنا معشر أهل هذه البلدة وهب لنا شرف عظيم، وألقي إلينا كتاب كريم، صدر عن حضرة السيد الحبر ومالك أعنة النظم والنثر، قراءته نسلّك، وختامه بلّ سائر مسك،» وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» أجل عن التقييل فظلاله المقبلة، ونزّه أن يبتذل فنسخه المبتذلة، وإنه عندنا عزيزٌ ولولا الإلاحة على ما ضمن من الملاحاة، والخشية على دجى مداده من التوزع، ونهار معانيه من التشئت والتقطع، لعكفت عليه الأفواه باللثم، والموارن بالانتشاء والشم، حتى تصير سطورهم لمى في الشفاه، وخيلاناً على مواضع السجود من الجباه».

استخدم أبو العلاء القرآن الكريم في سياق الوصف من خلال قوله تعالى: «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» وهي مقبسة من الآيات الكريمة التي تصف نعيم الجنة المقيم وهي: (إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نعيمٍ²² عَلَى الْأَرْكانِ يَنْظُرُونَ²³ يَعْرِفُونَ فِي وُجُوهِهمْ نُصْرَةَ النعيمِ²⁴ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحيقٍ مَخْتومٍ²⁵ خَتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ) (المطففين/22-26). وسياق الآيات هو وصف نعيم المتقين في جنات الخلد، حيث السرور والدعة والبهجة وخمر الجنة، وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون وليتباه ويستبق إلى مثله المتسابقون، فهنا مجال واسع للتفاخر والتباهي.

وفي رسالة المغربي أيضاً مجالاً للتنافس والتفاخر بين الكتاب، فقراءة كتابه عبادة، وختامه بل سائر مسك، وهو كتابٌ عزيزٌ مصانٌ منزّهٌ عن الابتذال، هكذا يذهب أبو العلاء في تقدير الرسالة ومدح صاحبها بالأدب وامتلاك أعنة النظم والنثر، وبيان أثرها على القوم الذين قرؤوها، بل إنها عقدت ألسنتهم عن النطق وأصبح قلم البليغ فيهم مثل عود الناكث لا قيمة له ولا غناء فيه. يقول أبو العلاء: «فقد نزلت بهم خلّة، من خلال الأشقياء الكفار، وذلك أنهم بأسد البلاغة افترسوا، وبأسبابها عُقدت ألسنتهم فخرسوا، فكأنما قيل لهم «هذا يومٌ لا ينطقون، ولا يؤذون لهم فيعتذرون» (المرسلات/ 35-36) وإنما غرقوا في لُحّ التبانة فصمتوا، وسمعوا صواعق الإبانة، فحفتوا، فقلّم كاتبهم عودُ الناكب، وجواب بليغهم حيرة الساكت على أنهم قد راموا تصريف الخطاب فصرفوا، وعرفوا مكان فضله فاعتزفوا».

وهنا جاء الشاهد القرآني «هذا يوم لا ينطقون...» في موضعه المناسب؛ فالآيتان الكريمتان تبيّنان حال المكذّبين يوم القيامة حيث إنهم لا يقدرّون على الكلام ولا يؤذّن لهم فيه ليعتذروا بل قامت عليهم الحجة ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون».

وهذا كله يؤكّد المعنى الذي رمى إليه أبو العلاء وهو أنه لا مثيل لرسالة المغربي في قوتها وتفردّها وأنه لا يمكن لأحد أن يباريها.

وكتب إلى أبي طاهر المشرف بن سبيكة، وهو ببغداد يذكر له أمر شرح السيرافي وما جرى فيه من التعب. يقول: «وفي هذا اليوم -وهو يوم كذا- وصل كتابه، فسررت به سرور الظمان ورد نмира، والساهر صادف سميراً، وكان ما ضمنه من سلامته، بشرى لها تخفّ الأحلام خفة القائل ولا يُلام، «يا بُشراي هذا غلام»، والله يُمْنٌ باجتماع، ليس بعده من إزماع، وفهمت ما ذكره من أمر النسخة المحصلة، وهو -أدام الله عزّه- الكريم المتكرم، وأنا المثقل المبرم، جرى في التفضل على الرسم...».

ف قوله عزّ وجلّ «يا بشراي هذا غلام» يناسب وصف المعري أجواء سروره بوصول كتاب المشرف بن سبيكة، وهو مقتبس من الآية الكريمة: (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (يوسف/19). وفيها يخبرنا الله جلّ شأنه عما جرى ليوسف عليه السلام، حين ألقاه إخوته في الجب وتركوه وحيداً فريداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام، كما قيل. وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم، وهو الذي يطلب لهم الماء، فلما جاء البئر وأدلى دلوّه فيها، تشبّث يوسف عليه السلام فيها، فأخرجه واستبشر به وقال: «يا بشرى هذا غلام» قال أبو السعود: كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك، حيث فاز بنعمة جليّة.

ويقول أيضاً واصفاً حاله إثر وصول سلام صديقه أبي القاسم المغربي إليه: «كلما هم خيرى بالهمود، وأشرفت على الخمود، نعشني الله بسلام يردّ من حضرته، يجعل أثري كالروضة الحزينة، والبارقة المزنية، ولو كنت عن نفسي راضياً، لشرفنّها بزيارة حضرته، ولكني عنها غير راضٍ، وما أقربني إلى انقراض، وإنما أنا قضيض التمراد، ومتخلف المراد، قد عدت في أناس قيل فيهم: (تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة/134)، فإن نعمت أو شقيت، فدعائي يتصل بحضرته ما بقيت».

إن معاني هذه الآيات تلائم حال أبي العلاء، إنه مستقلّ بذاته، ووحيدٌ في بيته، ومنعزلٌ عن حوله ولا علاقة له بأحد من أسلافه الذين مضوا، فلهم أعمالهم وله أعماله التي يعود نفعها عليه.

ووصف حاله أيضاً في رسالته إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحى لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة. يقول: «وإنّ العامة عهدتني في صدر العمر، أستصحب شيئاً من أساطير الأولين فقالت عالم، والناطق بذلك هو الظالم، ورأيتني مضطراً إلى القناعة فقالت زاهد، وأنا في طلب الدنيا جاهد، وزاد تقول القوم علي، حتى خشيت أن أكون أحد الجهال الذين ورد فيهم الحديث المأثور: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزع من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا» فعدوت جِلْسَ رَبْعٍ كالميت بعد ثلاث أو سبع،

وحدثت علّة كُنِيَ عنها في المستمع، وعافت عن الحضور في الجمع، وفي الكتاب الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) (الجمعة/9)».

وقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم (باب رفع الظلم وقبضه) بلفظ: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جَهَالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

نلاحظ دقة أبي العلاء ومبالغته في تصوير حاله عندما دَعَمَ كلامه بالحديث الشريف الذي رأى فيه تجلياً قوياً لذاته. وقد أراد من خلال ذلك أن يبيّن للسيد عزيز الدولة سوء حاله وضعفه وسبب تخلفه عن خدمته.

وهاهو يصف بلدته المعرة التي وصفها ياقوت في معجم البلدان وابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب والرحالة الفارسي ناصر خسرو في كتابه سفرنامه وغيرهم، إلا أننا نطمئن لوصف ابنها أبي العلاء الذي أفنى عمره فيها. وهي -في وصفه- قليلة الماء سيئة الحال، وهي ضدّ ما قال تعالى في صفة الجنة في سورة محمد يقول المعري: « وهذه جملٌ من صفة المعرة هي ضدّ ما قال الله عزّ وجلّ « مثلُ الجنة التي وعد المتّقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ » (محمد/15). الآية اسمُها طيّرةٌ. وعند الله تُرجى الخيرُ. الموردُ بها مُحْتَبَسٌ. وظاهرُ ترابها في الصيفِ يَبَسُّ. ليس لها ماءٌ جارٍ ولا تُغرس بها غرائب الأشجار. وإذا أُبْرز لأهلها ذُبْحٌ. يؤمّلُ به لديهم الرّيحُ تحسبُه صيغٌ بخطرٍ. فكانما يُرمقُ به هلالُ الفطر. وقد يجيئها وقتٌ يكون فيها جدِّي المعز في العرة كجدي الفرقد».

ويصف أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج حال الناس وخوفهم من غزو الروم، وتصور ما يُحتمل أن يحدث في نفرة الجلاء عن ديارهم، فتحدّث عن ذوي العاهات والنساء والشيوخ والأطفال. وكأنّ ذلك اليوم الذي تركوا فيه ديارهم حاملين متاعهم وأطفالهم، كأنه يوم الحشر العظيم، والآيات الكريمة التي صدرت الوصف تعطي صورة كافية عن تلك الحال. يقول على لسان الشاحج: « فلما أسفر الصبحُ وظهرت الجالية بالفرث وبالأطفال، سمع الشاحج أصوات القوم، فجاز أن ينطقه الله سبحانه فيقول: « القارعة ما القارعة، وما أدراك ما القارعة، يوم يكون الناس كالفراس المبتوث » (القارعة/1-4) الآن صرّح الحقُّ عن محضه. وظهر نجيثُ القوم... إنا لله وإنا إليه راجعون. قربت بأساء الضياون وحضرت آجال الديكة والدواجن، ودنت منايا الحنتم...».

ولننظر إليه كيف يصف فرساً قوياً شديداً، تأتي المنية عليه، فكأنّه ما نعم بهذه القوة أو تلك الشدة. وهذا الوصف من أروع آيات الوصف الحسي عنده. يقول: « وما توسّنتُ أجفان المنية عن جواد يعبوب، ينسرح مع الريح الهبوب، يقابل الناظر بحسن جديد، ويحمل الذهب بالحديد. فضفاض الإهاب، ينتهبُ الطلق أيّ انتهاب، له حجولٌ من فضة، وحافرٌ من الزبرجد ما نُزّه عن كسر القضة، ما خُلِقَ نطيحاً ولا مُعرباً، ومتى ما سهل هاج طرباً، كان يُؤثّرُ بغبوق وصبوح، ويُفتقد عند هدء النُبوح...».

ولا تخفى علينا أيضاً براعته في الوصف المعنوي، كما في وصفه للمحبة. يقول: «ومثل المحبة مثلُ الخمر: كلما دبت في الجسم، كان أبلغ لها في تعبير الحلم».

ووصف أيضاً القرآن الكريم أروع وصف وقد ضمنه بعض الآيات القرآنية منحتة جمالاً وروعةً قائلاً: « وأجمع ملحداً ومهتداً، وناكبٌ عن المحجة ومقتدٍ، أنّ هذا الكتاب الذي جاء به محمدٌ ﷺ، كتابٌ بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالأرجاز. ما حذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال. ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهلٍ وحزون. ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الأرب. وجاء كالشمس اللانحة، نوراً للمسيرة والبانحة، لو فهمه الهضب الراكد لتصدع، أو الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر/21). وإنّ الآية منه أو بعض الآية، لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتألّئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق، (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون/14)».

وهكذا فقد تنوّعت نماذج الوصف عند أبي العلاء، فهناك الحسيّ المادي وهناك المعنوي. وقد نبّه إلى ذلك الدكتور صلاح رزق عندما قال: « ولقد تنوّعت نماذج هذا الوصف لدى أبي العلاء، فمنه

المعنوي، ومنه الحسي، وتتوَّعت تبعاً لذلك، معاني أبي العلاء في تناول كلِّ نوع في جدّة وطرافة. ولكن هذا لم يمنعه أن يضيف على بعض الأشياء المحسوسة الصفات المعنوية، أو العكس في ذكاء ومهارة وبعدٍ عن كلِّ خلطٍ أو استكراه»^{٥٠}.

وقد رأى الدكتور طه حسين أن أبا العلاء اعتمد في وصفه على غير المبصرات وإذا ما اضطر إلى حاسة البصر فإنّه يتكئ على من سبقه من الشعراء. يقول: «مثل أبي العلاء لا يتقن من الوصف ما يحتاج إلى الإبصار، وإنما يتقن ما يحيط به علمه من غير المبصرات. فإن تناول الأشياء المبصرة، فوصفها وفصل أجزاءها وحدودها، فليس يخلو من إحدى اثنتين: إمّا أن يكون عيالاً على غيره من الوصّاف المبصرين، فيأخذ عنهم ما قالوا، وينفخ فيه من نظمه روحاً خاصاً. وليس هو في هذه الحال واصفاً ولا شاعراً وإنما هو نظام، وإما أن يملكه الغرور، ويأخذه العجب، فيتناول الأشياء المبصرة بالوصف، والتفصيل، من غير أن يأتّم بغیره، أو يترسّم خطو شاعرٍ آخر. وهو في هذه الحال عرضة الخطأ الشائن، والسخب الكثير»^{٥١}.

وبهّمنا القول هنا إنّ أبا العلاء استمدّ براعته وقوّته في الوصف والتصوير من اعتماده على منهلين أساسيين غريزين هما القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد أصبغا على وصفه الكثير من الجمال والجلال.

6- في سياق الحوار

لقد أكثر أبو العلاء من استعمال الحوار في رسائله ذات الطابع المسرحي كرسالة الغفران ورسالة الصاهل والشاحج. وكان ابن القارح في رسالة الغفران يشكل المحور الأساسي في هذا الحوار، فالمعري يطلقه في رسالته ليجري حواراً يستغرق أغلب رسالته مع أصحاب الجنة وأصحاب النار من الشعراء والأدباء والرواة واللغويين والجنّ والحيوانات. فابن القارح بطل أساسي في رسالة الغفران وحوله أبطال ثانويون، وهو بطل يبدو مطيعاً لأبي العلاء لأنه يتقبل آراءه، ويجري على لسانه ما يشاء من مواقف وأقوال، وكأنّ البطولة الرئيسية تبدو موزّعة بين أبي العلاء نفسه وبين صديقه ابن القارح، أو لنقل إنّ هناك بطلاً خفياً وآخر ظاهراً، وكلا البطلين يؤثّر في حركة العمل من خلال تحريكه لشخصيات كثيرة تعدّ أيضاً أبطالاً معه في الميدان القصصي، كما ظهر في تناوله لكثير من الشعراء من كل العصور من قبله، إلى جانب تلك الشخصيات الهامشية التي تملأ فراغ العمل، وبها ومن خلالها تكتمل صورة الحدث»^{٥٢}.

وكان هذا الحوار وسيلة مهمة اعتمدها أبو العلاء لإبراز قدرته الفائقة وعلمه الواسع باللغة والشعر والتاريخ. كما أنه نافذة يطلّ منها أبو العلاء بآرائه الدينية والفلسفية والنقدية. وهذا الحوار يقوم على تراث ديني وأدبي ضخم، يوظفه المعري أحسن توظيف، ويستمدّ منه سلاسته أحياناً أخرى. وكان من أهم المصادر وأثرها:

أ- القرآن الكريم:

حيث أجرى المعري على لسان بطله ابن القارح ومجموعة كبيرة من شخصيات أخرى عدداً هائلاً من الآيات القرآنية. إذ عاد في حواراته تلك إلى القرآن الكريم أكثر من خمس وأربعين مرة وقد ساق هذه الآيات إما بطريقة الاقتباس والتضمين، أو بطريقة الاستشهاد، وهذه الآيات -كما أسلفنا في دراستنا السابقة- منها ما يرصد أهوال يوم القيامة وما فيه من حساب وعقابٍ وجزاء (وهذا هو النوع الأول)، كما جاء في حوار ابن القارح مع عمرو بن أحمر. حيث قال الأخير: «ولم تترك في أهوال القيامة غُبراً للإشهاد، أما سمعت الآية؟: (يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) (الحج/2)»^{٥٣}.

ومنها ما جاء على لسان داع من قبل العرش: وهو قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (البقرة/281)»^{٥٤}.

ومنها ما جاء أيضاً على لسان حمزة بن عبد المطلب من خلال حوارهِ مع ابن القارح الذي جاءه بأبياتٍ في المديح يتوسط بها للدخول إلى الجنة. فقال ابن عبد المطلب: «ويحك! أفي مثل هذا الموطن تجبني بالمدح؟ أما سمعت الآية: (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) (عبس/37). فقلت: بلى قد سمعتها وسمعتُ ما بعدها: (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ^{٥٥} ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ^{٥٦} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا

قَتَرَةٌ^{٤١}، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (عيس/37-42) .

والنوع الثاني من هذه الآيات يرصد الجنة ونعيمها ولداتها، وما أعد فيها للمؤمنين. من ذلك ما جاء على لسان عدي بن زيد: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأعراف/43) . وكقوله تعالى على لسان ابن القارح: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ^{٤٢} الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) (فاطر/34-35) .

وكذلك ما جاء على لسان الشَّامِخ بن ضرار، في حوارهِ مع ابن القارح، كقوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَغُيُونَ^{٤٣} وَفَوْقَ إِكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ^{٤٤} كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (المرسلات/41-43) . وفي حوار ابن القارح والناطقة الجعدي يصف ابن القارح نعيم الجنة من خلال استشهاده بالآية الكريمة التي أضفت على الحوار قوَّة ووضوحاً. يقول: « يا أبا ليلى، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء، وشغلك شرابٌ ما جاءتك بمثله بابلٌ ولا أذرعاتُ، وتنتك لحوم الطير الرائعة في رياض الجنة، فنسيت ما كنت عرفت. ولا ملامة إذا نسيت ذلك، (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ^{٤٥} هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأُرَائِكِ مُتَكِوُونَ^{٤٦} لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ) (يس/55-57) » .

وفي الحوار الدائر بين فاطمة بنت محمد p وجماعة من آل أبي طالب رضي الله عنهم. يقول: « فلما حان خروجها ونادى الهاتف: أن غَضُوا أَبْصَارَكُمْ يا أهل الموقف حتى تعبرَ فاطمة بنت محمد p اجتمع من آل أبي طالب خلقٌ كثيرٌ، من ذكور وإناتٍ، ممن لم يشرب خمرًا، ولا عرف قط منكرًا. فلقوها في بعض السبيل، فلما رأتهن قالت: ما بال هذه الزرافة؟ ألكم حالٌ تذكر؟ فقالوا: نحن بخير، إنا نلتذ بتحف أهل الجنة، غير أنا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرَّع إلى الجنة من قبل الميقات، إذ كنا آمنين ناعمين بدليل قوله: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ^{١٠١} لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ^{١٠٢} لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) (الأنبياء/101-103) . » .

ويحدثنا عن الحور العين في الجنة من خلال حوار ابن القارح مع ملك من الملائكة حول هذه النعمة العظيمة التي أعدّها الله تعالى لعباده المتقين. يقول: «ويمرُّ ملكٌ من الملائكة، فيقول: يا عبدالله. أخبرني عن الحور العين، أليس في الكتاب الكريم؟ : (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً^{٣٦} فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا^{٣٧} عُرْبًا أَثَرَابًا^{٣٨} لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) (الواقعة/35-38). فيقول الملك: هنّ على ضربين: ضرب خلقه الله في الجنة لم يعرف غيرها، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل الأعمال الصالحة» .

كما يحدثنا أيضاً عن الحور العين في حوارهِ مع حورية من حوريات الجنان، وهي حمدونة، تقول الحورية: «أ تدري من أنا يا علي بن منصور؟ فيقول: أنت من حور الجنان اللواتي خلقك الله جزاءً للمتقين، وقال فيكُن: (كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن/53). فتقول: أنا كذلك بإنعام الله العظيم...» . أما النوع الثالث من الآيات الكريمة فيرصد الجحيم وما فيه من ألوان العذاب وأشكال العقاب. من ذلك ما جاء في حوار ابن القارح مع تميم بن أبيّ، إذ هتف داع من قبل العرش: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) (فاطر/37) .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في حوار ابن القارح مع إبليس، وفيه يصور عذاب الكافرين في جهنم، « فيقول (إبليس): من الرجل؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب، أتقرب به إلى الملوك. فيقول: بنس الصناعة! إنها تهبُّ غَفَّةً من العيش، لا يتسَّع بها العيال، وإنها لمزلةٌ بالقدم، وكم أهلكت مثلك! فهنيئاً لك إذ نجوت، فأولى لك ثم أولى! وإن لي إليك حاجة، فإن قضيتها شكرتك يد المنون. فيقول: إني لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت في أهل النار، أعني قوله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) (الأعراف/50) » .

ب- الحديث الشريف:

أجرى أبو العلاء على ألسنة بعض شخصياته أحاديث نبوية شريفة، كما جاء في حوار ابن القارح والنابعة الجعدي عندما يثب النابغة على أبي بصير ويضربه بكوز من ذهب. فيقول ابن القارح: « لا عربة في الجنان، إنما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السفلة والهجاج، وإنك يا أبا ليلى لمتترّج. وقد روي في الحديث، أنّ رجلاً صاح بالبصرة: يا آل قيس! فجاء النابغة الجعدي بعُصبةٍ له، فأخذه شُرط أبي موسى الأشعري فجلده لأن النبي p، قال: من تعرّى بعزاء الجاهلية فليس منّا ».«

وقد يوظف أبو العلاء في حوارات شخصياته أحاديث قدسية كما في حوار ابن القارح مع الملك في سياق الحديث عن حور الجنان. يقول الملك: خُذْ ثمرةً من هذا الثمر فاكسِرْها فإنّ هذا الشجر يُعرف بشجر الحوار. فيأخذ سفرجلةً أو رمانةً أو تفاحةً، أو ما شاء الله من الثمار، فيكسرها، فتخرج منها جاريةٌ حوراء عيناؤها تبرقّ لحسنها حوريات الجنان، فتقول: من أنت يا عبدالله؟ فيقول: أنا فلان بن فلان. فتقول: إني أمّتي بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة. فعند ذلك يسجدُ إعظاماً لله القدير ويقول: هذا كما جاء في الحديث: أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، بلّهُ ما أطلعتهم عليه».«

ومن ذلك أيضاً الحديث الذي ورد على لسان ابن القارح في حديثه عن جنة الرجز. يقول: « ويمرُّ بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنة، فيسأل عنها فيقال: هذه جنة الرجز، يكون فيها... فيقول: تبارك العزيز الوهاب! لقد صدق الحديث المروي: إنّ الله يحبُّ معالي الأمور ويكرهُ سفاسفها، وإنّ الرجز لمن سفاسف القريض، قصّرتُم أيها النفر فقصّرت بكم».«

ج- الشعر

وكثيراً ما كان أبو العلاء يوظف في حوارات شخصياته عدداً كبيراً من الأشعار، أشعاراً جاهلية وأخرى إسلامية، فقد قرأنا أشعاراً لزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد والنابعة الذبياني، وامرئ القيس، ولبيد بن ربيعة، وحسان بن ثابت، والخطيب وبشار بن برد وغيرهم كثير.

وهكذا فإن توظيف القرآن والحديث في سياق الحوار، قد جعله غنياً وعميق الدلالة والتأثير، مما جعله أكثر مصداقية وواقعية.

وقد ساهم هذا الحوار في التعريف بالشخصيات والكشف عن أفكارها، فمن هذه الحوارات التي تعرّف فيها الشخصيات بنفسها، قول الأعشى وهو يعرّف بنفسه: « وقد كنتُ أوّمن بالله وبالحساب وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء».«

وقول زهير بن أبي سلمى: « كانت نفسي من الباطل نفوراً فصادفتُ ملكاً غفوراً، وكنتُ مؤمناً بالله العظيم».«

كما أنّ الحوار وسيلةٌ مهمةٌ لنقل أفكار الشخصيات. فها هو أبو العلاء يكشف عن أفكاره ومواقفه من خلال حوار شخصياته، كقوله عن جنة الرجز: « ويمرُّ بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنة، فيسأل عنها، فيقال: هذه جنة الرجز».« وبذلك يكشف أبو العلاء عن موقفه من الرجز والرجاز، فهم لا يستحقّون أن يدركوا مرتبة الشعراء ومنزلتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ويكشف أبو العلاء أيضاً عن موقفه من الصدق وغيابه في علاقاتنا، والكذب وتحكّمه في حياتنا حيث يقول على لسان آدم عليه السلام: « كذبتُم على خالقكم وربكم ثم على آدم أبيكم، ثم على حواء أمكم، وكذب بعضكم على بعض، ومآلكم في ذلك إلى الأرض».«

وفي رسالة الصاهل والشاحج كان الحوار عنصراً أساسياً فيها. وقد ذكرنا أن موضوعها الأساسي هو رصد الأحداث السياسية والاجتماعية للعصر وتفسيرها، وتصوير حال الاضطراب وما كان من جفلة الناس وخروجهم عندما سرى الخبر بأنّ ملك الروم قد نهد إلى أرض المسلمين قاصداً غزو حلب. وتبدأ الرسالة مع أبي العلاء حينما يمهد للتمثيلية بتحية موجهة إلى السيد عزيز الدولة، ثم يذكر مظلمة أبناء أخيه في مالٍ تطلبه الخزانة من أرضهم القاحلة، ثم يصف صعوبة الأرض بحيث تودّ البهية لو تسافر بين المشرق والمغرب ولا تعمل في هذه الأرض. ثم ينسحب أبو العلاء ويتوارى مفسحاً المجال لظهور الشخصيات الحيوانية التي يدور بينها الحوار في مشاهد متصلة، ويتتابع عرضها على امتداد الرسالة. فهذه الرسالة تقوم على صيغة الحوار بين الحيوانات التي يتوالى ظهورها بتوالي مشاهد الرسالة وبين الشاحج، وهو الشخصية المحوريّة والطرف الثابت في الحوار، الذي تتعاقب على طرفه الآخر بقية

الشخصيات (الصاهل والجمل والضبع والثعلب). فأبو العلاء لا يظهر إلا في تحية البدء والختام، وكذلك في فواصل نقل الحديث بين المتحاورين.

ويبدأ الحوار بين الصاهل والشاحج، فيسأله الشاحج عن مبدأ سفره، فيقول الصاهل: «من مصر التي قال فيها فرعون: (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الزخرف/51) تلك صبرة الذهب وأمّ النعيم وينبوع النصفة».

ويطلب الشاحج من خاله الصاهل أن يوصل له رسالته إلى السيد عزيز الدولة، ويأنف الصاهل من هذه الخولة المهيبة التي يمتّ بها إليه البغل، ويتطور الجدل بينهما إلى خصومة جادّة، فيقترح الصاهل أن يحتكما إلى فاختة، ويرفض الشاحج ذلك لأنها مشهورة بالكذب والحمق. ويقترح أن يكون الحكم بغيراً. يقول الشاحج: « ومن ظلمك وإعناتك أنك دعوتني إلى تحكيم حكم العامة تضرب المثل بكذبه فنقول: أكذب من فاختة! أفتراني أجعل حكماً على نفسي من قد شُهر بهذه الشيمة؟ ومن استرعى الذنب ظلم، ومن صدّق كلّ بارقٍ أخلف. ولكن اطلب حكماً سوى هذه فقد اشتهر عنها ما تعلم. ولا تدعني إلى الغراب فإن رسول الله ﷺ سماه فاسقاً. ولستُ بمحكم أهل الفسق، ولا إلى الزرياب. فإن به صرحاً وإن كان عالماً باللغات منصرفاً في أجناس القول، ولو عدلت عن ذوات الجناح إلى ذوات الأربع لكنت أقرب إلى النصفة. وهذه الإبل قد جاءت للورد فإن شئت أن تستظهر لعلمك فاجعل الحكم بعضها توفق في ذلك».

وقد أدرج أبو العلاء في حوارات شخصياته عدداً كبيراً من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ومجموعة هائلة من الأشعار.

ونجد حديث الشخصية يمتدّ صفحات طويلة، كما رأينا في ردّ البعير على الشاحج الذي امتد حديثه من الصفحة (235) إلى الصفحة (350). وذلك بعد أن أثار الشاحج في رسالته مجموعة من القضايا، على سبيل التورية والإلغاز، إذ يورد أخبار الأئمة عليهم السلام كالحسن والحسين وفاطمة الزهراء وعلي رضي الله عنهم أجمعين. وأخبار بعض النار والبلدان والبهايم والطيور. ثم ينطلق البعير في ردة مؤيداً كلامه بعدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة. كما في قوله: « وزعمت أنّه (عليه السلام) كان يجيز التيمم من التراب وعليه أحوال البغال. فمن حدثك هذا؟ أبغى أسنده لك عن بغل؟ لا اختلاف بين الفقهاء أن بول مالا يؤكل لحمه ليس بطاهر. وإنما جاءت الرخصة في أحوال الإبل، أ فحسدتنا على ذلك يا لعين؟ أليس رسول الله ﷺ أمر العرنيين أن يخرجوا إلى الإبل فيصيبوا من أحوالها وألبانها؟ والعرب إلى اليوم فيهم من يشرب أحوال البكرات في الربيع من غير علة دعتهم إلى ذلك. أذكرت ما ذكرت ليفتخر به رهطك، وإنهم من ذلك الفخر لبراء؟».

وكقوله أيضاً: « وزعمت أنه كان يأكل الصقر، وقد علم ربك بطلان ما تذهب إليه. "أعلي" عليه السلام يفعل ذلك وقد جاء محمد ﷺ بتحريم سباع الطير صقرها وبازيها وعقابها وغير ذلك من الصوائد؟».

ومن يستقري ردّ البعير على الشاحج يجد أنه اعتمد بشكل أساسي على أحاديث الرسول ﷺ وسيرته الشريفة. بالإضافة إلى الآيات الكريمة التي تؤيّد هذا الرأي أو ذاك ولكن بشكل أقل بكثير من توظيف الحديث الشريف.

وبعد هذا الردّ الطويل الذي قارب مئة وخمس عشرة صفحة. يأتي الشاحج ليفسر ويحلّ ألغاز رسالته. يقول: « إن الشكّين متباعدان: أريها السُّها وتريني القَمَر... ألم أبدأ في خطابك بأني قد جمعت أخباراً على نحو ما ذكره ابن دريد في (الملاحن) وابن فارس في (فتيا فقيه العرب)؟ فإنّا لله وإنا إليه راجعون: إذا قطعن علماً بدا علّم... « فصبّر جميل والله المستعان على ما تصفون» (يوسف/18)».

ومن تفسير بعض الألغاز قوله: إنما الحسن والحسين كئيبا رمل الغزتهما عن الحسن والحسين صلى الله عليهما والعلّي: الفراش الشديد الصلب، والاشتقاق يدل على أنه العالي. فهذا الذي عنيت بقولي: إن فاطمة -صلى الله عليها- لم ترَ علياً في بيتها. (ص352).

وأحوال البغال: السراب. (ص359).

والصقر: الدبس، ألغزته عن الصقر من الطير. (ص356).

وهكذا فإن أبا العلاء قد استخدم في حوارهِ أسلوب التلاعب بالألفاظ، مما يدفعه إلى تفسير العديد من الألفاظ، مستعيناً في ذلك بالقرآن الكريم والحديث الشريف.

ويظهر البعير معلّقاً على ما سمع من شرح وتفسير الشاحج، ومستبعداً أن يفهم عزيز الدولة منطق البهائم، ويذكر أنّه غير خائف من دعاء الشاحج عليه. يقول: « وأما تخويفك إياي بدعائك، فإن الوحش الرائعة تبتهلّ على الأسد منذ كانت الخليفة، وما لقي من دعائها إلا خيراً. وكذلك خشاش الطير يدعون على الباز والأجلد، وما يزدادان بذلك إلا رغبةً في صيدهن. والظباء والشماسم يرغبن إلى الله في هلاك الذئب والكلب الصائد، فما سُمع منهن دعاءً».

ويردّ الشاحج على البعير بمزيدٍ من الدعاء عليه، ويتفنّن في الدعاء، ثم يبدأ في تفسير ما ساقه من دعاء على وجه التورية.

وتظهر أمّ عامر (الضبع) في حوارها مع الشاحج وسؤالها له رغبةً في الاسترشاد بمعرفته، فراحت تستفتيه في كناها (أم عامر وأم عمرو وأم عويمر)، إلا أنّ الشاحج كان يهزأ ويسخر من حمقها، وقد علم أنّها من أحمق البهائم. وطلبت منه في نهاية الحوار أن توصل رسالته، ولكنه رفض. تقول: « الآن علمتُ صدقك وتحاملُ أبي أيوب عليك. ولي صديقٌ من كلاب حلب حرسها الله، يخرج إليّ في الليالي المقمرة، وبينه وبين بعض كلاب الصيد مودةٌ. فألقِ إليّ ما تريد، ألقه إلى الكلب الحلبي، يُلقه الكلبُ إلى صديقه من الكلاب الصائدة، يُلقه ذلك إلى البازي فيبلغ لك ما في نفسك. فيقول: جُزيت خيراً. إنّ إسنادك لبعيد، وقد يُست من بلوغ الأمنية واليأس إحدى راحتين، وصبرتُ على أمر الله لأنّي سمعتُ في الكتاب الكريم: (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيقٍ ممّا يمكرون) (النحل/127)».

فأبو العلاء قد استخدم الحوار في سياق السخرية والتهكم. وهكذا نجد أنّ القسم الأول من الرسالة من الصفحة (90) إلى الصفحة (412) يدور الحوار فيه بين الشاحج وكلّ من الصاهل والجمل والضبع على التوالي. وفي القسم الثاني وهو الذي يتعلّق بأحداث حلب، ويكون الحوار فيه بين الشاحج والثعلب فقط. ويفضي الحوار بينهما إلى صداقة عميقة يتبادلان فيها النصيح. وهنا يطلب الشاحج من الثعلب أن يتحوّل في المنطقة، وهو الطليق الحركة المفتوح العينين، ليأتيه بأبناء حلب وحال أهلها في جفلة الخوف من غزو الروم، فمن أخبار ثعالة أنّ العامة يخبرون أنّ زعيم الروم نهّد إلى أرض المسلمين. وأن رسالة عزيز الدولة إلى الطاغية في الكف عن الغزو لم يأت جواب عنها، وبصوّر بوادٍ جفلة الناس، وتصوّر ما يُحتمل أن يحدث في نفرة الجلاء عن ديارهم خوف الغزو. ويبيد الثعلب مشورته لو أنهم يقبلون بطريق الجلاء على الفأل والطيرة. يقول: « وإذا بلغوا «جبل جوشن» فالجوشنُ جنةٌ يُدفع بها الشرُّ. وإذا رأوا حفر الخندق فحملوه على ما تقدّم، فإنّ شطر هذه الكلمة فالان يدلان على السعادة: حنّ يشبه حنّ العدو، إذا استأصله... ودق، يشبه دقّ الجيش إذا هزمه. وكذلك يفعل السيد عزيز الدولة- أعزّ الله نصره- بجيوش الأعداء. و "قويق" النهر، يشبه صدرُ لفظه الأمر للجماعة بالتوقّي، كما قال تعالى: (فُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً) (التحريم/6).

كما يذكر أخباراً عن مرض بسيل وشيخوته وفسقه وفجوره. وولد له غير شرعي، جعل له ولاية العهد. ثم يودّع الثعلب الشاحج، ليعود بالأخبار بعد شهرين. يقول: جُلْتُ من بعد مفارقتك في أشراء البلاد، وأتيتك بجواب الأبناء. فأخبرني عن حالك وحال أرضك، أخبرك بعجائب لديّ إن شاء الله».

فيبدأ الشاحج في وصف ما يتصور من حال الجالين عن البلد في العودة إلى ديارهم، باستخدام طريق الفأل والطيرة. يقول: « ولو كان الجالون إلى هذا الموضع، لحقوا بأرض "بالس" لكانت أوفق وأخفض. واسمها إذا حُمِلَ على الفأل. مأخوذٌ من: أبلَسَ العدو، إذا يئس عنها. قال العجاج: يا صاح هل تعرف رسماً أكرسا قال نعم أعرفه، وأبلَسا

وانحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرَطِ الْأَسَى

فيكونُ بالسّ، فاعلاً من هذا، على حذف الزوائد، وإن لم يأت عنهم: بلَس، في معنى أبلَس، لأنهم قالوا: أورس فهو وارس، وإنما وارسٌ على: ورس. وقال العجاج:

وَمَهْمَهُ هَالِكٌ مَنْ تَعَرَّجَا

إنّما هو: مُهْلِك، في بعض الأقاويل. وكذلك قوله تعالى: (وأرسلنا الرياح لواقح) (الحجر/22) إنّما هو ملاقح، جمع ملقح... وإن جعلتها (أي بلدة بالس) فاعلاً من البلس، أي التين، فحسبك من خيرٍ وميّز. أليس

في الكتاب الكريم: (والتين والزيتون) (التين/1)؟ وقد جاء في الحديث المأثور: « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُهُ، فَلْيَدْمَنْ أَكْلَ الْبَلَسِ ». ».

ويقول أيضاً: « ويمرون في قفولهم بـ "كفر نوران" وإذا قسمناها للفأل وحملناها عليه، فنوران: تنثية نور، وقال الله تعالى: (نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء) (النور/35) ولو سميت رجلاً بنورين، لجاز فيه وجهان: أحدهما أن ترفعه في الرفع فتثبت فيه الألف، وتنصبه وتخفصه بالياء، فتقول: جاءني نوران، ورأيت نورين، ومررت بنورين. والآخر أن تثبت الألف فيه وتُعرب النون فتقول: هذا نوران، ومررت بنوران. وإنما ذكرت ذلك لأنك إذا أضفت كفراً إلى نوران وفتحت النون، فكأنه اسم رجل قد سمي بتنثية نور، أقرت فيه الألف... وإن شئت تأولت "نوران" على أنه: نور أن. ».

فأبو العلاء يوظف القرآن والحديث في حوارات شخصياته، وهذا التوظيف لأغراض مختلفة، وقد يكون الغرض هو دراسة وبحث بعض القضايا والمسائل النحوية كما رأينا.

ثم يبدأ الثعلب بقص الأخبار الجديدة عن استعداد العدو للحرب، والإرهاص بهزيمته وتوقع النصر عليه بالفأل للمسلمين والطيرة للعدو، بأسماء بلدان الشام، وبأسماء رياحين الشام وثماره، وبأسماء أصحاب الطاغية. يقول: « فأما "عزاز" فتعز العدو، أي تغلبه من قوله تعالى: (وعزني في الخطاب) (ص/23)... وأما معرة النعمان فمعرة للعدو، من قوله تعالى: (فتصيبكم منهم معرة غير علم) (الفتح/25) أي شدة. وقال بعض أهل اللغة: المعرة نجوم في السماء دون المجرة. فإن صحَّ ذلك فهي فأل، أي هي عزيمة كعز النجوم. و "كفر طاب" من: كفر العدو، إذا دفتته. وقال جل اسمه: (كما ينس الكفار من أصحاب القبور) (المتحنة/13). ».

ومن أسماء النباتات قوله: « وأما التفاح، فتف وأخ. والثف: وسخ الأذن. والآخ، زعم بعض أهل اللغة أنه بياض البيض، وهو طعام رديء. وإن شئت كان الآخ، حكاية وجع... وأما الفرصاد، فإذا قسمناه للطيرة فهو: فر وصاد. أي: فر ودار. والمصاداة المداراة والمدافعة. وقد قرأ الحسن البصري: (صاد، والقرآن ذي الذكر) (ص/1) وهو من المصاداة. ».

وذكر من أسماء أصحابه مما يحمل على الفأل والطيرة: البطارقة، بطاء رقة. والبطاء جمع بطى، والرقعة الفضة. من قوله p: « في الرقة ربع العشر ». أي: يؤسرون فلا تؤخذ منهم الفضة، بل يُفدون بالذهب، فتبطل رقتهم لذلك، إذا كانت لا تقبل منهم. والواحد بطريق. فإذا قسمناه على حكم الطيرة فهو: بط ريق. فقولك: بط، أمر من: وَبَطَّ يَبُطُّ، إذا ضعف ونقص. ».

هكذا يمضي أبو العلاء في تفننه في عرض ثقافته اللغوية والنحوية مدعمة بالشواهد والأدلة الكثيرة من القرآن والحديث والشعر، وذلك على لسان الثعلب في حوارهِ الطويل مع الشاحج الذي يخبره من خلال ذلك عما تتحدث به العامة. من مثل، خروج متطوعين للقتال، وسبب الفساد بين عزيز الدولة وبسيل. كما حكى بعض العامة أيضاً أن الطاغية صرح بعزمه على استرداد ديار المسلمين بالشام، وكذلك ما أمر به عزيز الدولة من حفر خندق حول حلب. إلى آخر ذلك من أخبار. وتنتهي الرسالة بصوت أبي العلاء، وهو يملئ تحية الختام للسيد عزيز الدولة، وكان طوال الرسالة متوارياً خلف الستار، يحرك شخصيات رسالته ويلقنها ما صاغ لها من حوار.

وكذلك فإن أبا العلاء في رسالة الملائكة اتبع أسلوب الحوار الذي قدّم فيه إجاباته عن المسائل التي سئل عنها. فقد جعل أبو العلاء نفسه كأنه أشرف على الموت، وجاءه ملك الموت فأراد أن يدافعه، فذكر له أصل ملك، ثم دار الحديث بينه وبين منكر ونكير، إلى أن جرى بينه وبين رضوان، خازن الجنان، وهدف أبي العلاء من وراء ذلك هو إيصال هذه المباحثات والمسائل إلى المتلقي بغير سامة ولا ملل، فأورد بعضها على شكل محاور جميلة مع ملك الموت، وبعضها على سبيل التعجب ممن يتمتع بشيء من النعيم وهو لا يعرف اسمه ولا وزنه ولا معناه.

يقول أبو العلاء: "أفتراني أَدافع ملك النفوس فأقول: أصل ملك: مألِك وإنما أخذ من الألوكَة وهي: الرسالة ثم قلب ويدلنا على ذلك قولهم: الملائكة في الجمع لأنَّ الجموع تردّ الأشياء إلى أصولها... فيقول الملك: ... إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد، وإلا فاحسأ وراءك! فأقول: فأمهلي ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل فأقيم الدليل على أنَّ الهمزة زائدة فيه، فيقول الملك: هيهات! ليس الأمر إلي (إذا جاء أجلهم

لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (يونس/49) أم تراني أداري منكراً ونكيراً، فأقول: كيف جاء اسمكما عربيين منصرفين، وأسماء الملائكة أكثرها من الأعجمية مثل إسرافيل وجبرائيل وميكائيل؟ فيقولان هات حجتك وخلّ الزخرف عنك».

ويقول أيضاً في حوارهِ مع مالك، خازن النار: « وهل أتودد إلى مالك، خازن النار، فأقول: رحمك الله، ما واحد الزبانية؟ فإنّ بني آدم فيهم مختلفون: يقول بعضهم: الزبانية لا واحد لهم من لفظهم. وإنما يجرون مجرى السواسية، أي القوم المستوين في الشرّ... ومنهم من يقول: واحد الزبانية؟ زبينة، وقال آخرون: واحدهم: زبنيّ أو زُبنيّ ».

7- توظيف أسلوب النصّ القرآني (في الفصول والغايات):

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب وأساليبهم في التعبير، ونهج في لغته نهجهم من إيجاز وإطناب وكناية ومجاز، وما إلى ذلك من ضروب التعبير، إلّا أنه استطاع أن يتحدّى العرب، وهم أهل بلاغة وبيان، بأسلوبه الرائع، وبيانه المعجز، وأن يجعل هذا التحدي هو معجزة الرسول ﷺ النبي الأمي، ودليله على صحة نبوّته وصدقه.

والقرآن الكريم مصدر كلّ ثقافة أصيلة واعية. إذ نهلت منه جميع الدراسات النقدية والبلاغية، وقد أشار الأستاذ محمد خلف الله أحمد إلى هذه الحقيقة عندما قال: « منذ بدء الحياة الإسلامية إذن، أخذ القرآن مكان الصدارة بصفة كونه النصّ الأدبيّ الأوّل لهذه الأمة، والكتاب المبين المعجز هذا إلى كونه وحي السماء وأساس التشريع والقانون المنظم للسلوك، والمرشد الموجه إلى معالي الأمور. وإذا اجتمعت هذه الظروف لكتاب فمن الطبيعي أن يصبح محوراً لأهداف الفكر والتأليف في الأمة، وينبوعاً للكثير من جداول ثقافتها وحافزاً على العناية بكثير من فروع العلم التي يمكن أن تعين على فهم هذا الكتاب وإدراك أسرارهِ ».

وأبو العلاء قد أمعن النظر في كتاب الله وتمكن منه، فاستفاد من أسلوبه وبيانه وطريقته في التعبير والأداء، فوضع كتابه الفصول والغايات الذي حاكى فيه أساليب القرآن الكريم. وقد أثار هذا الكتاب جدلاً كبيراً بين معاصريه وناقديه، إذ اتُّهم فيه بمعارضة القرآن الكريم. وقد يكون السبب في أن الناس واجهوا أبا العلاء بهذه التهمة أنّهم رأوه يسمّي كتابه باسم (الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات) فظنّوا أنّه يقصد بذلك إلى المعارضة في الأسلوب، وهو إنّما يقصد إلى أنّ هذه الفصول محاذية للقرآن من حيث ما فيها من تسبيح وحمدٍ وتمجيد وثناء على الله سبحانه وتعالى. وقد يكون من أسباب هذه التهمة ما في الكتاب من بعض أقسام تشبه أقسام القرآن.

نعم، لقد حاكى أبو العلاء في كتابه أسلوب القرآن الكريم في توزيع عباراته وتقسيمها، إذ عمد إلى تقسيم عباراته إلى أقسام تشبه أقسام الذكر الحكيم، ومن ذلك نذكر الأمثلة التالية: يقول: « ربّ اجعلْ عملي أحسن من الزّون، وصلاتي أطول من ظلّ القناة، وأملي أقصر من سالفَةِ الذباب. كلّ جبارٍ عاتٍ، وماضٍ من الناس وآتٍ، ينظر إلى جبار السموات، نظر المربوب إلى الرّابِّ ».

ويقول أيضاً: « أعظم ربّك فهو عظيم، وأحقّر نفسك وأنت الحقيّر، وما فعلت فهو ختَرٌ قليل، لا يُعجبُكَ جَمُّ رمادٍ، وبيتٌ مرتفع العماد، ونازٌ دائمة الاتّقاد تسطّع بجبلٍ أو وادٍ، ولا تفخرنّ بعقر الإبل وعبط المعزى اللّجاب ».

ويخاطب الدنيا في قوله: « أيتها الدنيا البالية، ما أحسن ما حلتك الحالية، أين أممك الخالية، إن نوبك لمتوالية، والنفوسُ عنك غيرُ ساليةٍ تتبّع أولاكِ التالية، والله أستجدُّ على تلك الصُّعدات ».

وكقوله أيضاً: « لو شاء الخالقُ أراكِ الحرب في شخصٍ يظهرُ عرضاً كالجوهر، تقولُ فتجهزُ: يا عقابُ حومي حومي، بينهم احلّقي وقومي، إن قيل للجائلةِ سومي، أشبعتِ قعيدك ولم تصومي، فسبحي ربك في الوكنات ».

وهكذا جاءت لغة أبي العلاء ذات إيقاع موسيقي جميل، خلّقه الجمل المتوازنة من جهة، واعتماده الفاصلة القرآنية من جهةٍ أخرى. والفاصلة القرآنية هي توافق حروف أواخر الآي في حروف الروي، أو الوزن، مما يقتضيه المعنى، وتستريح إليه النفوس» ومن الأمثلة على ذلك قوله:

«- إن الله هو المليك، لا يهلك ولكن يُهلك، والفلأك بعض ما يملك، والطرق إلى طاعته تنسلك، فخاب مَنْ يشرك، ما آخذ وما أترك! السعيد على العبادة مُبْتَرَكٌ. فاعتصم بربِّ الشمس والقمر، ومنشئ الشجر والثمر، ومالك القلة والأمر، من أفعال العُمر والعمر، ومن شرِّ كلِّ بشر، وهول المحشر».

- «كم حي بلغ الدرك، وحَدَّ ربه أو أشرك، وجمع لنفسه فما أترك، وارتحل إلى الرَّمْس فأرك. من بالشَّح أمرك، وعلى الدنيا أمرك، أخالفك الذي صَوَّرَكَ! كلاً وعظمتَه لقد أنذرك، هتكت ستر التوبة فسترك، وجاهزت بالمعصية فأحرك، واستنصرت به فنصرك، وهو أخفى بك من القُرباء».

- «إن الله إذا أذن أروى الشعب، من القعب، فسبحان مُروى الهائمين. والحليب، يُطلب من ذوات الصليب، وربُّك رازق الممترين. هل تقدر على التحجيب، لأسد الحبيب، وإذا شاء الله وُسِّمت أنوف الأعراء. من الرتب ركوب القتب، والله مُنْعِم الخافضين. ذهب شعوب، وفي يدها لعوب، وكلُّ للمنية أكيل إلا ملك الملوك ومذل المتكبرين».

ولننظر هنا إلى هذه المحاكاة القوية لأسلوب القرآن الكريم. يقول أبو العلاء: «وصيخ بالأرض اقبلي رهنك، وبالنزول فاغدري، وحيز المال ونُسي العهد، وانتوى عن الإنسان أنيسه ذو الود القديم». وهذا يذكرنا بقوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلي مائك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) (هود/44).

وقوله أيضاً مضمناً آية من القرآن: أدلت العائذة أباه، وأصاب الوحدة وربَّاه، والله بكرمه اجتباها، أولاه الشرف بما حباها، أرسل الشمال وصباها، ولا يخاف عقباها». فهو هنا قد ضمَّن كلامه الآية الكريمة (ولا يخاف عقباها) (سورة الشمس/15).

كما حاكى أبو العلاء القرآن الكريم في طريقة ذكر التعقيبات المناسبة للسياق والمنسجمة معه مثلما يختتم الله تعالى الآية الكريمة بقوله مثلاً: إن الله على كل شيء قدير. وذلك في سياق الحديث عن القدرة. وهنا نجد أبا العلاء يختتم كل فكرة معينة بعبارة قصيرة ملائمة للسياق. كقوله: «لِصَبِّ، في خصب، خير من فسيح ضاح، في جذب فصاح، والله كاشف الجدوب. فخذ من الكريم فدرة المهزل، ولا من اللئيم بدرة المجزل، والله أكرم الأكرمين. واهرب إلى الفضاء الإمليس، من شرِّ الجليس، والله ثاني المنفردين. وارض من الطوي، بالورد القطوي، والله مُروى الظامئين».

وكقوله أيضاً: «من كان أخوا القرم، فلا ينزلن عند البرم، فإن الأبرام، لا تشفي القرام، والله رازق البلاء والأكرمين. ربما كان الخير، مع الأخير، وعاد الأول، وليس عنده معول، والله مفرق الفضيلة على المتفضلين. حق للرضيع، أن يضيع، إذا أخرج من المهد، فقِف به في الوهد، وإلهنا برَّ بالمجفوين. ليس الرِّبُّ لبني قريط، ولا اللاب، منازل بني كلاب، فاطلب في مظانها الحاجات وربك المطلع إلى فاقة المحتاجين لا تاول لمفسد تاول، فإن الذيب، جديرٌ بالتعذيب، وقضاء ربك يدرك المفسدين».

هذه التعقيبات نجدها في قوله: (والله أكرم الأكرمين- والله ثاني المنفردين- والله مروى الظامئين) وفي قوله: (والله رازق البلاء والأكرمين- والله مفرق الفضيلة على المتفضلين- وربك المطلع إلى فاقة المحتاجين- وإلهنا برَّ بالمجفوين- وقضاء ربك يدرك المفسدين).

ونظراً لأن القرآن الكريم كان المعين الذي لا ينضب، الذي ألهم أبا العلاء كثيراً من معانيه، فإن أبا العلاء قد استوحى بعض أساليب القرآن في التعبير والأداء، مثل تكرار بعض القصص، وتكرار بعض المعاني القرآنية. ومن المعروف أن القصص التي وردت في القرآن الكريم قد جاءت لتقديم الموعظة والاعتبار بما حدث للأقوام السابقة، وكذلك فقد أوردها أبو العلاء في نتاجه للهدف ذاته. لهذا كانت هذه القصص قريبة إلى الأخبار والتاريخ. ونجده في رسائله يسرد قصص الأنبياء. كما رأينا في رسالته إلى خاله في التعزية. إذ حدثنا عن آدم، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب، وداود، وسليمان، ويوشع، وعيسى، ومحمد، عليهم السلام أجمعين.

وكان هذا التسلسل في قصص الأنبياء مستوحى مما جاء في القرآن الكريم في سورتي الأنبياء والشعراء. إذ يحدثنا الله جلَّ شأنه في سورة الأنبياء عن موسى، وهارون، وإبراهيم، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وذو النون، وزكريا عليهم السلام أجمعين. وفي سورة الشعراء يحدثنا عن موسى وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام أجمعين.

وكذلك فإن كثيراً من معاني الوعظ والإرشاد والنصائح قد تكررّت بكثرة ملحوظة في الفصول والغايات، والأليك والغصون، ونجد بعضها في الصاهل والشاحج. والهدف من تكرارها هو تبليغ المعنى وإيضاحه وإبرازه في أحسن صورة، إذ نجده يورد المعنى الواحد في عدة جمل وعبارات إلحاحاً عليه، ومبالغة في الشرح والتوضيح. وقد ذكرنا في فصل سابق بعض المعاني التي ركّز عليها أبو العلاء وألح عليها من مثل إثبات فكرة وحدانية الله تعالى، وقدرته الشاملة إضافة إلى معاني التسبيح والتحميد والذكر والثناء والتقوى والحمد. نأخذ مثلاً على ذلك حديثه عن الموت في الفصول والغايات والرسائل. يقول: « الموتُ أعظمُ الحدث، والجَدَث لا يَأْنَسُ بالجدَث » (ص6) - « والافتقَادُ يُذهِبُ الأحقاد. لمن أعظم وأجلُّ، وكلنا معه بالموت سجّل » (ص158) - « فهل سمعتم بمكان ليس فيه للموت استمكان؟ هيهات هيهات! إنّ الموت نزل على الجبل والبراث » (ص218).

- « أمرُ الآخرة جدُّ وأمرُ الدنيا جدُّ، وسيُصرمُ الإنسان ويُجدُّ، كما ذهب الأب والجَدُّ » (ص220).

- « وكلُّ للمنية أكيلٌ إلا ملكُ الملوك ومذلُّ المتكبرين » (ص227).

ولكن هل ظهور هذه الأساليب يجعلنا ننطلق إلى اتِّهام أبي العلاء بمعارضته القرآن الكريم. وهنا نرى ما يراه الدكتور شوقي ضيف بأنَّ أبا العلاء «ربما قلَّد أساليب القرآن الكريم في بعض جوانب من كتابه، ولكنه لم يرد بتقليده إلى المعارضة والتحدي، وإنما أراد مطلق التقليد الخالي من أيّ غرض من أغراض الإلحاد، وقد يكون من الأدلة على ذلك أن الكتاب كلّهُ ينساق في موجة عظيمة من تحميد الله وتمجيده، وأيضاً فإننا إذا تركنا هذه الجوانب القليلة في الكتاب ونظرنا في أساليبه نظرةً عامّةً وجدنا أبا العلاء يختار لنفسه فيه أسلوباً معقّداً تعقيداً شديداً، وهو تعقيد يقوم على استخدام اللفظ الغريب وما يُطوى فيه من أمثال وكلمات رمزية، وإن ذلك ليباعد الكتاب جملةً عن أسلوب الذكر الحكيم، ويجعله أسلوباً من طراز آخر هو طراز مذهب التصنُّع، وما انتهى إليه هذا المذهب عند أبي العلاء من عُقد وكلف كثيرة».

إلا أنّ خير ما نذكره هنا هو قول تلميذه ابن سنان الخفاجي (-466هـ) في دفاعه عن أستاذه، يقول: « وهذا الكتاب إذا تأمله العاقل علم أنه بعيدٌ عن المعارضة، وهو بمعزل عن التشبيه بنظم القرآن العزيز والمناقضة، وقد وضعه على حروف المعجم، ففي كلّ حرفٍ فصولٌ وغايات. فالغاية مثل قوله: "بناج" والفصل ما يتقدم الغاية، فيذكر فصلاً يتضمّن التمجيد والمواعظ، ويختتمه بالغاية على حروف المعجم، مثل "تاج وراج وحاج" كالمخمسات والموشحات».

وأبو العلاء في الشواهد السابقة يلتزم السجع، كما رأينا، فهل في التزام السجع معارضة للقرآن. وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنّ كلّ ما في كلام العرب من أسجاع معارضة للقرآن الكريم. ونقطة أخرى هي: كيف يضمّن أبو العلاء كلامه القرآن وهو يعارض القرآن فيما يكتب؟ وهذا ما رأيناه في قوله: « أدلّت العائذة أباها... أرسل الشمال وصباها، ولا يخاف عقباها » وكيف به يعارض القرآن وقد رأيناه في مبحث سابق، وهو الوصف والتصوير، يصف إعجاز القرآن، ويؤكّد رأيه في عدم القدرة على معارضته بأيّ طريقة كانت. يقول: « وأجمع ملحدٌ ومهتدٍ، وناكبٌ عن المحجة ومقتدٍ، أنّ هذا الكتاب الذي جاء به محمدٌ p، كتابٌ بهر بالإعجاز، ولقي عدوّهُ بالأرجاز، ما حُذِي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال. ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهلٍ وحزون. ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الأرب. وجاء كالشمس اللائحة، نوراً للمسرة والباحة لو فهمه الهضْبُ الراكذُ لتصدع، أو الوعولُ المعصمةُ لراق الفادرة والصدع: « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »... ».

وكذلك فإنَّ لأبي العلاء كتاباً اسمه "تضمين الآي" يأتي فيه بالفقرة من كلامه، ثم يتبعها بآية، أو بعض آية مضمنة معنى هذه الفقرة، فتلقى عليها من أنوارها ما يكسوها جمالاً. وقيل فيه « ومصنّف الشيخ (تضمين الآي) وهو إن لم نره فقد سمعنا خبره. يبين أنه بلغ في علم الكتاب المبالغ، ولا يضمن مثل ذلك التضمين الفائق البديع إلا من خرّجه القرآن هذا التخريج العظيم البليغ، ومن يهد الله فهو المهتد ».

وروي أن صالح بن مرداس، صاحب حلب، نزل على معرة النعمان محاصراً، ونصب عليها المجانيق، واشتدَّ في الحصار لأهلها، فجاء أهل المدينة إلى الشيخ أبي العلاء، وسألوه تلافياً الأمر بالخروج بنفسه إلى الأمير، وتدبير الأمر معه برأيه، إما بأموال يبذلونها له، أو طاعة يعطونها إياه.. فخرج إليه أبو العلاء، ويده في يد قائده وفتح له الناس باباً من أبواب معرة النعمان، وخرج منه شيخ قصير يقوده رجل، فقال صالح: هو أبو العلاء، فجيئوني به، فلما مثل بين يديه، سلّم عليه، ثم قال: الأمير

أطال الله بقاءه- كالنهار الماتع، قاطر وسطه، وطاب أبرده، وكالسيف القاطع، لأنّ متّنه، وخشّن حدّاه «خُذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين» (الأعراف/199). فقال صالح: « لا تثريب عليكم اليوم» (يوسف/92). قد وهبت لك المعرفة وأهلها، وأمر بتقويض الخيام والمجانيق. ورجع أبو العلاء وهو يقول:

نَجَى المَعْرِة من براثنِ صالح ربِّ يُعافي كلَّ داءٍ مُغضِلٍ
ما كان لي فيها جناحٌ بعوضةٍ الله ألحفهم جناحَ تفضّلٍ

لا يوجد أروع وأبلغ وأصدق تأثيراً من هذه الكلمات التي أخذها أبو العلاء من كتاب الله: «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين» ليصل إلى قلب الأمير وعقله. فلم يستطع الأمير ردّ هذه الدعوة من كتاب الله، بل أجابها بقول الله تعالى: « لا تثريب عليكم اليوم». وقد استمعنا في مبحثٍ سابقٍ إلى ماقاله أبو الفتح بن أحمد السروجي، في تلك الحادثة التي وقعت له مع أبي العلاء، حين دخل عليه وقت خلوة، وبغير علم منه، وسمعه يتلو القرآن ويبيكي. وقد تبين لنا من خلالها صحة دينه وقوة يقينه.

وقد بين محمد سليم الجندي بطلان ما زعمه ابن الجوزي والباخرزي والذهبي من معارضة أبي العلاء للقرآن الكريم. يقول: « وزعم ابن الجوزي والباخرزي والذهبي أن أبا العلاء عارض السور والآيات بكتاب الفصول والغايات. وربما كان فيهم من لم يطلع عليه. ولم يبين واحداً منهم ما يريد بالمعارضة فإن أرادوا المعارضة بالمعاني والأغراض والمقاصد فهذا باطلٌ لأنَّ أغراض القرآن الكريم كثيرة ومقاصده مختلفة منها شرع الأحكام وبيان بعض الشرائع التي كانت قبل الإسلام وقصّ الأخبار وما أشبه ذلك والفصول والغايات أغراضه قليلة ومقاصده محدودة لا تكاد تخرج عن تمجيد الله وعن العظات وقد تصدّى فيه إلى القول في الموسيقى والعروض والنحو ونحو ذلك مما ليس له أثرٌ في القرآن الكريم. وإن أرادوا المعارضة بالألفاظ فهذا باطلٌ أيضاً لأنَّ أبا العلاء التزم في كتابه هذا أن يكون آخر كلّ غاية على حرفٍ من حروف الهجاء وأكثر من السجع واستعمال الغريب واستشهد بأقوال الشعراء والحكماء والأمثال ونحوها، والقرآن الكريم خالٍ من ذلك كله. والذي اعتقده أنّ أبا العلاء كانت له ثروة في اللغة وباع طويل في الحكم وإطلاع واسع على العلوم المختلفة، فوضع هذا الكتاب على هذا النمط ليبين فيه قدرته في كل ما تقدم، وربما ذكرناه يتبين أن بين القرآن الكريم والفصول والغايات فروقاً متعددة في الألفاظ والمعاني».

كلّ ما سبق يؤكّد لنا أن كتاب الفصول والغايات أبعد شيء عن معارضة القرآن الكريم، وأن أبا العلاء لم تحدّثه نفسه أبداً بأن يعارض القرآن، وكيف يعارضه وهو الذي يردّ دائماً على مواده يعترف من بحره، ويتزوّد من بيانه، فكان القرآن دائماً في خاطره وعلى لسانه في كلّ ما كتب، إذ نجده يقيم لما يقول حجةً من كتاب الله، بما يستشهد ويضمّن من الآيات، ليكون ذلك مقطع القول والفصل، وفي جميع كتبه ورسائله خير شاهد على صحّة ذلك.

وقد تصدّى الدكتور طه حسين في كتابه مع أبي العلاء في سجنه لسؤال مهم وهو: هل قصد أبو العلاء إلى معارضة القرآن الكريم في الفصول والغايات كما ظنّ بعض القدماء؟ فأجاب بـ "نعم أو لا" نعم، إذا أريد بالمعارضة مجرد التأثير ومحاولة التقليد، ولا، إذا أريد بالمعارضة التحدي ومحاولة الإتيان بمثل سور القرآن. يقول: « نعم إن فهمنا من المعارضة مجرّد التأثير ومحاولة المحاكاة، إن فهمنا من المعارضة أنّ أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثلٌ أعلى في الفن الأدبي فتأثّر به وجدّ في تقليده، كما يتأثر كلّ أديب ما يُعجب به من المثل الفنية العليا. ذلك شيء لاشكّ فيه، فأيسر النظر في كتاب الفصول والغايات يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلّد قصار السور وطوالها. وليس المهم أنه وُفق في هذا التقليد أم لم يوفق، بل المحقق أن التوفيق لم يُقدّر له كما لم يُقدر لغيره، بل المحقق أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان. ولكن المهم أنّ هذه المحاولة ظاهرة ملموسة في الكتاب، وهي لا تضير الشيخ ولا تلزمه إثماً ولا حوباً ».

فأبو العلاء قد حاول أن يقلّد قصار السور وطوالها، لكنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان. ثم يذهب الدكتور طه حسين إلى أنّ أبا العلاء لم يكن في محاولته يستجيب للتحدي والإتيان بسورة مثل سور القرآن.

يقول: « وأنا لا أفهم من المعارضة الاستجابة للتحدي ومحاولة الإتيان بسورة أو سور مثل سور القرآن. فهذا خاطئ ما أحسّه خطر لأبي العلاء، فقد كان أشدّ تواضعاً من أن تبلغ به الكبرياء إلى هذا الحدّ، وقد كان أعقل من أن يطاول مالا سبيل إلى مطاولته، وقد كان أحرص على الاحتياط والتحفظ من أن يعرض نفسه لمثل هذا الخطر العظيم».

وقد عاد الدكتور طه حسين إلى القضية ذاتها عام 1944 في مقالة بعنوان "الفصول والغايات"، فأكد رأيه السابق، وطرح السؤال ذاته، وهو: هل أراد أبو العلاء في كتاب الفصول والغايات معارضة القرآن الكريم؟ فيقول: « أمّا أنا فأجيب على هذا السؤال في غير تكلف ولا تعمّل، فقد كان أبو العلاء أذكى قلباً، وأرجح عقلاً، وأنفذ بصيرةً، وأشدّ تواضعاً، وأحسن علماً من أن يحاول هذه المعارضة أو يقصد إليها. ولكنه كان كغيره من أدياء المسلمين معجباً بالقرآن مكبراً له مقدراً لروعته الفنية، فليس من شك في أنّه كان يتمثل أو يستحضر بعض أساليب القرآن حين كان يفكر في كثير من الفصول والغايات».

وقد أورد صاحب كتاب أوج التحري عن حيثية المعري نبذة من كتاب الفصول والغايات، ونفى بعد ذلك أن يكون المعري قد قصد به معارضة القرآن. يقول: « وهذا كلام إذا تأمل المتأمل علم أنّه بعيد عن المعارضة، وهو بمعزل عن التشبيه بنظم القرآن العزيز. والمناقضة».

وكذلك نرى الشاعر الفارسي ناصرو خسرو (394-453هـ) الذي زار المعرة سنة 438هـ يشير إلى أن خصوم المعري قد واجهوا أبا العلاء بتهمة معارضة القرآن الكريم منذ أخرج الكتاب يقول: « وقد وضع كتاباً سمّاه الفصول والغايات، ذكر به كلمات مرموزة وأمثالا في لفظ فصيح عجيب، بحيث لا يقف الناس إلا على قليل منه، ويفهمه من يقرؤه عليه. وقد اتهموه بقولهم: إنك وضعت هذا الكتاب معارضة للقرآن».

وهكذا فإننا نقطع عن يقين أنّ أبا العلاء كان بريئاً من التهمة التي ألصقت به، وهو لم يقصد بهذا الكتاب إلى إلحاد أو زندقة – كما قيل- بل إنّ كتابه ينطق إيماناً وتسبيحاً وتمجيذاً لله عزّ وجلّ. وأبو العلاء هو من هو في العقل والذكاء والدقة وفي العلم باللغة العربية وأسرارها ومكن جمالها، فلا يُعقل أن يخطر بنفسه في هذه المغامرة الخطيرة.

الفصل الثالث

الغاية التوظيفية للآية القرآنية والحديث الشريف

لقد تعددت الغاية التوظيفية للآية القرآنية والحديث الشريف فمن الشرح والتفسير إلى الحجة والبرهان، ومن السخرية والتهكم إلى الردّ على الخصوم.

1- الشرح والتفسير:

ذكرنا في فقرة سابقة أن أبا العلاء كان شديد العناية بشرح اللغة وتفسيرها، فلا يكاد يترك لفظاً يحتاج إلى الشرح إلا وقف عنده وفسره وأزال عنه الغموض والإبهام.

فالألفاظ المعري ذات بعدٍ تعليمي تحتاج إلى تفاسير وشروح نحوية وصرفية وعروضية. وكان المصطلح العلمي أحوج الألفاظ إلى الشرح والتوضيح، لهذا ضمّن المعري تعابيره طوائف من المصطلحات العلمية التي كان يفتنّ في التورية بها. ويفعل ذلك طلباً للبطانة التعليمية للفظ، بما يترتب عليه من تفسيرٍ وشرحٍ وتوضيح. وقد رأى كثير من الباحثين أنّ هدفه من ذلك هو إبراز مقدّراته العلمية واللغوية.

وقد وظّف أبو العلاء القرآن والحديث في سياق الشرح والتفسير بهدف الإفصاح والكشف والإبانة عن المعنى المقصود.

وفي الصاهل والشاحج يورد مجموعة من الألغاز ثم يفسرها مستنداً في ذلك إلى الآيات والأحاديث. ومن ذلك نذكر الأمثلة التالية:

- والضبُع: السَّنةُ الشَّديدةُ. ومنه الحديثُ المرفوعُ أن رجلاً جاء إلى النبي p ، فقال: «أكلتُنا الضَّبُعُ وتقطَّعتْ عِنا الخُنْفُ». ولا شكَّ في أنَّه p كان يكرهُ السَّنةَ الشَّديدةَ.

- والحَيَّةُ: الأرضُ التي قد سقاها الحَيَا (الماء). وفي الكتاب الكريم: (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (البقرة/164 والنحل/65، والجاثية/5).

- والنهرُ: الضوءُ والسَّعةُ، وهو أحدُ ما قيل في قوله تعالى: (في جنَّاتٍ ونَهَرٍ) (القمر/54). جاء في تفسير ابن كثير: «إن المتقين في جناتٍ ونهر» أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وفي صفوة التفاسير: «إن المتقين في جنات ونهر» أي في جناتٍ وأنهار. قال القرطبي: يعني أنهار الماء والخمر والعسل واللبن.

- والبرْدُ: النومُ. وهو أحد القولين في قوله تعالى: (لا يذوقون فيها برِّدًا ولا شرابًا) (النبا/24). وفي الفصول والغايات يقول بعد أن ذكر بيتاً من الشعر: «يعني بالبرْد: النوم من قوله تعالى: «لا يذوقون فيها برِّدًا ولا شرابًا»، ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى، أي لا يجدون في جهنم برِّدًا لقلوبهم ولا شراباً طيباً يتغذَّون به.

وفي صفوة التفاسير: «لا يذوقون فيها برِّدًا ولا شرابًا» أي لا يذوقون في جهنم برودة تخفف عنهم حرَّ النار، ولا شراباً يسكن عطشهم فيها. ولم يرد ما ذكره أبو العلاء في تفسير معنى الكلمة.

- والحطَّابُ: النَّمَامُ. والحطبُ: النَّميمةُ. وكذلك فسِّرَ في الكتاب الكريم. فقد قال تعالى في كتابه العزيز: « وامراته حمالة الحطب » (المسد/4). أي إنَّ زوجه أبي لهب، وهي من سادات نساء قريش، كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعنده، فهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، فهي تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه. هذا عن ابن مسعود، وعن مجاهد وعكرمة والسدي وغيرهم: « حمالة الحطب » أي كانت تمشي بالنميمة. قال أبو السعود كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنتثرها بالليل في طريق النبي p لإيذائه. وقال ابن عباس: كانت تمشي بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم.

- والقَرَّازُ: الذي يَثْبُ. وجاء في الحديث: « إن إبليس ليقزُّ القزة من المشرق إلى المغرب » وعنيث بالقزاز إبليس، وهو فعال من قز يقز. والقز الذي يتكلم، هو من قولك: رجلٌ قزٌّ، إذا كان يعرف الأشياء. والجارية: الشمسُ، لأنها تجري. وفي الكتاب الكريم: (والشمس تجري لمستقرٍ لها) (يس/38).

وفي حديثه عن شيخوخة بسيل طاغية الروم وفسقه وفجوره، وأنه وُلد له في اقتبال عمره يقول: «والذي يوجب ما وقع إلينا من أخباره، أنه في عَشْرِ السبعين. وقد يولدُ للإنسان وهو ابنُ اثنتي عشرة سنة. وقد روي أن عمرو بن العاص، كان أكبر من ولده عبدالله باثنتي عشرة سنة... فلو كان وُلد لهذا الرجل - وهو زائدٌ في السن عن هذا العدد الذي ذُكرَ لعمرو بن العاص رحمه الله - حتى يكون ابن خمس عشرة أو ابن ثمانين عشرة، وهي الأشدُّ في قول بعض المفسرين، لكان أولاده شيوخاً. لأن عطاء بن أبي رباح روى عن عبدالله بن عباس في قوله تعالى: (ثم لتكونوا شيوخاً) (غافر/67) قال: إذا بلغ الرجلُ أربعين سنة فهو شيخ. وقد اختلف في ذلك، فقال أصحابُ اللغة: إذا غلب البياضُ على السَّواد في اللَّحية فالرجلُ شيخ. وحكى فطربُ أن الرجل يُقال له من سبع عشرة إلى أربع وثلاثين شاباً، ومن أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين كهلاً، ثم هو شيخٌ إلى أن يموت. وقال المفسرون في قوله تعالى: (ويكلم الناس في المهد وكهلاً) (آل عمران/46): الكهل: ابنُ ثمانٍ وعشرين سنة، وقيل: ابنُ ثلاثين. وأقوال الناس تختلف في هذا اختلافاً شديداً. وقد تردد في أخبار النبي p أنَّ شاباً من قريش فعل وصنع. وهو المعنى بذلك. ولم يُعَثْ p حتى بلغ أربعين سنة». جاء في تفسير الآية «ثم لتكونوا شيوخاً» أي ثم لتصبحوا في سنِّ الهرم والشيخوخة قال الإمام الفخر الرازي: رتب تعالى عمر الإنسان على ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد،

والشيخوخة. وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النماء والنشوء وهو المسمى بالطفولة، إلى أن يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع ويبدأ فيه الضعف والنقص، وهذه مرتبة الشيخوخة. وما أورده المعري عن قطرب مأخوذ من هذا التفسير.

وفي حديثه عن عزيز الدولة يقول إنه يجعل ذا الرمح من البطارقة والرؤساء أجم. ويشرح معنى الأجم. فيقول: «وعنيث بالأجم الرجل يكون معه رُمح فإذا أخذ منه فهو أجم. قال عنتره: أَلَمْ تَعْلَمْ لِحَاكَ اللَّهُ أَنِّي أَجْمٌ إِذَا لَقِيتُ ذُوِي الرِّمَاحِ

وفي الحديث: «أمرنا أن نبني المساجد جمًا، والمدائن شرفًا» وهو من هذا المعنى. وفي وصف حال الجالين عن البلد عندما عادوا إلى ديارهم يوضح معنى الصربة التي تمر بها الجالية. وهي إما بالسین وإما بالصاد يقول: « وإذا اجتازوا بـ "الصَّرْبَةِ" والعامَّةُ تقولها بالسین تارةً، وبالصاد أخرى- فإن كانت بالسین فهي من قولك: سَرَبَ في حوائجه بالنهار. كما قال تعالى: (وساربٍ بالنيهار) (الرعد/10) أي اسربوا في مآربكم آمنين. وإن كانت بالصاد، فهي واحدة الصَّرْبِ من اللَّبَنِ. واللَّبْنُ طَيِّبٌ مباركٌ فيه. أليس في الحجر الموجود في أساس الكعبة لَمَّا كُشِفَتْ قَرِيشٌ عن أساس إبراهيم عليه السلام: «أنا الله ذو بَكَّةَ، خَلَقْتُهَا يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَبَارَكْتُ لِأَهْلِهَا فِي اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ؟» والأحاديث في فضل اللبن كثيرة».

وفي اسم بسيل ملك الروم يقول: « وإذا حملنا الفأل على التصحيف، فـ "بسيلُ نسيكُ إن شاء الله. والنسيكُ الذبيح، والنسيكَةُ الذبيحة تُذبح بمكة. قال النبي ﷺ لامرأة: «احضري موضع نسيكتك يُعْفَرُ لَكَ بِأَوَّلِ قِطْرَةٍ تَقَعُ» يعني: من الدم. والطاغيةُ يتقرب بدمه إلى الله كما يتقرب بدماء البُذُنِ». وقد جاء في النهاية في غريب الحديث: المنسك: المذبح. وقد نَسَكَ يَنْسُكُ نَسْكَاً، إِذَا ذَبَحَ. والنسيكَةُ: الذبيحة، وجمعها: نُسُكٌ».

وعندما يصف شجر الجنة في غفرانه يقول: « كلُّ شجرةٍ منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظلِّ غاطٍ، ليست في الأعين كذات أنواط، وذات أنواطٍ، كما يعلم، شجرةٌ كانوا يعظمونها في الجاهلية. وقد روي أن بعض الناس قال: «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ»». ذات أنواط: شجرة كانت تُعبد في الجاهلية وتُعلَّق عليها الأسلحة، وقد ذكر أبو العلاء الحديث الشريف الذي يوضح الفكرة .

وعندما أراد ابن القارح الزواج، نصحه أبو العلاء بالابتعاد عن الشابة والكبيرة الضعيفة من النساء. والزواج من المرأة المتوسطة العمر، وهي المرأة النَّصَفُ أي بين الكبيرة والصغيرة ولكي يفسر هذا المعنى جاء بالآية الكريمة التي تصف البقرة: (لا فارض ولا بكر، عوانٌ بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون) (البقرة/68) أي نصفٌ بين الكبيرة والصغيرة. وهي أقوى ما تكون من الدوابِّ والبقر. وقال السدي: العوان: النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها. وفي الفصول والغايات يكثر المعري من توظيف القرآن والحديث بهدف الشرح والتفسير. ومن

أمثلة ذلك:

يقول: « والله مُخَلَّفُ الظنُون، نزلت رحمةً من الرقيع إلى أهل البقيع، فأضاءت السَّدَف، في الجَدَف،

وذلك من نور الله يسير».

يقول في تفسير الرقيع: الرقيع: السماء، ويقال لكل سقف رقيع، ولذلك جاء الحديث بالتذكير لقوله عليه السلام: من فوق سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ، ولو كان مؤنثاً لوجب أن يكون من فوق سبع أَرْفَعٍ لأن فعلاً إذا كان للمؤنث جمع على أفعل.

قال النبي ﷺ لسعد بن معاذ حين حكم في بني قريظة: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أَرْقَعَةٍ، يعني سبع سموات. وكلّ سماء يُقال لها رقيع، والجمع أَرْقَعَة. وقيل الرقيع اسم سماء الدنيا، فأعطى كل سماء اسمها.

ويقول «لو كان الإنسان حبلاً، لتركته الحوادث ثُبلاً، فاكتبنا ربّ من المحسنين». والنُّبْلُ: الحجارة الصغار، ومنه الحديث في الاستنجاء: إتقوا الملاعن وأعدّوا النُّبْلَ. ويقول: «أحميدٌ عندك أم ذميمٌ أميرٌ كان عُرفُهُ كالذِّمام، خانَ الذِّمَّةَ وأدَّمتْ به المعيشة بعد ما التثم في الحرب ذميماً... كم أبرمت العضاء، وغلّت البرم للضيفان، وأبرم السائل، وبرم المسئول، واعتزلت الأمة بريماً. وزجر أهل الصرم الأصرمين، وركب الطالبون الصرماء ورأى أهل الصريمة صريماً». ويقول في التفسير: الذِّمَامُ: جمع ذَمَّةٍ وهي بئر قليلة الماء، وفي حديث النبي ﷺ «أنه ببئر ذَمَّةٍ». وأبرمت العضاء إذا ظهر برمها وهو ثمرها، والبريم: خيط فيه سوادٌ وبياضٌ، ويقال للقطيع إذا كان فيه معزٌ وضأنٌ بريماً. والصِرْمُ: البيوت القليلة من بيوت الأعراب، وفي حديث النبي ﷺ «فجعل المسلمون يُغيرون على ما حول تلك المرأة ولا يصيبون الصرم التي هي فيه». وجمع الصرم أصرام. والأصرمان: الذئب والغراب، سميا بذلك لانصرامهما من الناس أي انقطاعهما. والصرماء: الأرض التي لا ماء فيها. وأهل الصريمة: يحتمل وجهين: العزيمة والرملة.

والصريم من الأضداد: يقال لليل صريماً، وكذلك للصبح.

ففي معنى الذمام ورد حديث البراء: «فأتينا على بئر ذَمَّة فنزلنا فيها» سميت بذلك لأنها مذمومة.

ويقول: «لو ملأث الأرض عرفاً ورئاً، وبنيت الشرف إلى الثريا، تركت الأيام شرفي مهدوماً، كأنه لهب نار باخ». ويقول في التفسير: العرف: الرائحة الطيبة وغيرها، وفي المثل: «لا يعجز مسك السوء عن عرف السوء» أي الجلد الخبيث عن الرائحة الكريهة. وأحد الأقوال في قوله تعالى: (عَرَفَهَا لَهُمْ) (محمد/6) أي: طيبتها، من العرف وهو الرائحة الطيبة. والرَّيَا: الرائحة الطيبة لا غير.

ويقول: «كم أسلم وأفلت، والدنيا أمُّ مُقْلِتٍ، تعوق الإنسان وتألث، وتغرّه ثم تبلت، وتأخذ منه ما يكلث...». ويقول في التفسير: المُقْلِتُ: التي لا يعيش لها ولد. وتألثت: من ألث الأمر إذا حبسه، ويحتمل أن يكون من النقص من قوله تعالى: (لا يَلْتَكُم من أعمالكم شيئاً) (الحجرات/14). وتبلت أي تقطع. وكلت يكلث إذا جمع.

يقول: «والمحبون رجالان: محبٌ للطاعة، ومحبٌ تحت المعصية، فطوبى لأحد المحبين، ويا ويح الآخر لما خلا خلاء البعير». ويقول في التفسير: المحب: من أحبَّ البعير إذا برّك فلم يقم، وقد روي عن

أبي عبيدة في قوله تعالى: «إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ». أراد بأحببت: لصقت بالأرض لحبِّ الخير. والخلاء للناقة خاصة في قول أكثر الناس... والخلاء: مثلُ الحران، وفي الحديث النبي ﷺ «ما خلأت القصواء ولا عادتھا الخلاء، ولكن حبسها حابسُ الفيل» قال عليه الصلاة والسلام ذلك لما هبط من الثنية في غزاة الحديبية.

كما وظف القرآن والحديث في تفسير معاني أبياته في اللزوميات، لدفع ادّعاءات خصومه الذين بالغوا في إطلاق عبارات الاتهام عليه، والنقد والتجريح، فراح يندد بفهم خصمه الملتوي حيناً، وبتأويله المتجني في معظم الأحيان.

يقول في اللزوميات:
3- يا عالم السوء إما علمنا أن مصليك أتقياء
4- لا يكذبن امرؤ جهول ما فيك لله أولياء ٥

ويشرح أبو العلاء معنى هذين البيتين، ويفسر ما غمض منهما، قائلاً: «هذه مخاطبة لعالم السوء دون عالم الخير. ومعلوم عند كل ذي لب أنه ليس فيمن وُصف بذلك خير، ولا يُلتَمَس عنده مِير. ولو قال القائل لمن هلك من ثمود أو عاد: ما فيكم وليّ الله، لكان صادقاً بَرّاً. وفي هذه الأمة معشر كفرّة كلّهم يزعم أنّه لله وليّ، وأنّ شيوخه الذين يأخذ عنهم أبرار أتقياء. وكلّ فرقة مدّعية على الأخرى ضدّ ذلك. وفي الكتاب العزيز: (وإن كثيراً من الخلطاء ليُبغِي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) (ص/24).

وإنّ هذا لصدق خالص، ... وأمّا ذمّ المصلين الذين ينطوون على نيّة ليست بجميلة فقد نطق به الكتاب الكريم في قوله تعالى: (فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون) (الماعون/4-5). وقد كان بعض الناس ممّن شاهد النبي ﷺ يحضر الصلاة خلفه، ثم تبين أنه ضال مخالف بدليل قوله تعالى: (وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً، قل ما عند الله خيرٌ من اللّهُو ومن التجارة، والله خيرُ الرازقين) (الجمعة/11). كان دُخِيّة بن خليفة الكلبى يقدم بالتجارة من الشام، فإذا قرب من المدينة ضرب له طبل ليخرج إليه من يرغب في الشراء. واتفق أنّه قدم والنبي ﷺ في الصلاة. فلمّا سمع من خلفه صوت الطبل تركوه قائماً وتبادروا إلى التجارة فنزلت هذه الآية».

إن الشاهد القرآني قد جاء في موضعه الصحيح الذي يفسّر الحال، ويفصح عن المعنى بدقة وجلاء. ولا يفوت المعري أيضاً أن يذكر أسباب نزول الآية، كما رأينا في آية سورة الجمعة. وقد قيل إن التجارة كانت لدحية بن خليفة الكلبى قبل أن يسلم، وكان معها طبلٌ فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم، وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن إدريس عن حصين بن سالم بن أبي الجعد عن جابر. قال: قدمت غير مرّة المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت «وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها».

ويقول أيضاً:

1- أمورٌ تستخفُّ بها حلومٌ وما يدري الفتى لمن الثبورُ

ويقول في شرح معنى البيت: «هذا مبني على قوله تعالى: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (آل عمران/185) فقد عُلم أن جميع ما في الدنيا غرور وخدعة بدليل قوله: في هذه الآية وغيرها من الآيات، كقوله: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) (الأحقاف/20)، والطيبات المُنْع مما تستخفُّ بها العلوم.

«وما يدري الفتى لمن الثبور» أي ما يدري مَنْ يهلك في العاقبة ولا مَنْ يسلم. ومثل هذا متردد في الحديث المأثور وغيره من أخبار التابعين وأنه لا ينبغي أن يُحكَم على أحد أنه من أهل الجنة ولا من أهل النار، لأن الله يحكم فيهم كيف يشاء جَلَّتْ عظمتُه. وهذا البيت قائم بنفسه غير متصل بما بعده».

وكأنَّ أبا العلاء يجد في آيات الذكر الحكيم مبتغاه وملاذه الأخير الذي يطمئن إليه خلدُه، فيشعر المتلقي بتمام المعنى وكمال الفكرة ووضوحها، وأنه لا اختلال فيها ولا نقص.

ويقول في مكان آخر مبيِّناً أهمية العقل وأنه المرجع الأساسي في كلِّ أمر:

11- عليك العقل، وافعل ما رآه جَمِلاً، فهو مُشْتَارُ الشَّوَارِ.

يقول في توضيح معنى البيت: «عليك بالعقل تستعمله في بيعك وشرائك وطلب المصلحة لنفسك وافعل ما يرى فعله من برٍّ وصدقة... ويقال لهذا المعترض: أخبرنا عن قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن) (النساء/82) أيعقول أمروا أن يتدبروه أم بغير عقول؟ وكذلك قوله: (فاعتبروا يا أولي الأبصار) (الحشر/2) أ فأصحاب العقول خاطب أم من هو جارٍ مجرى السَّوام؟ ولو كان العقل لا يُرجع إليه لما كان لقوله تعالى: «وَلَا تُؤْثِرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا» (النساء/5) معنى يفاد لأنَّ العقل إذا لم يُرجع إليه فإنَّه لا فضيلة له على السفه».

ويقول مشيراً إلى تعدد الشرائع، وداعياً إلى التفكير والتأمل في مخلوقات الله:

10- والعقل يعجبُ للشروع: ممجَّسٍ وتحفٍ وتهوٍ وتنصُر!

11- فاحذر ولا تدع الأمور مضاعة وانظر بقلب مفكر متبصر.

ويُفسر أبو العلاء معنى البيتين مستنداً إلى القرآن الكريم، فهو يؤكد في كل حين أنه يرجع إلى القرآن والحديث في تفسيراته وتأويلاته. يقول متعجباً من جهل خصمه وقلة معرفته بالكلام: «ما أجهل هذا الملحد وأقل معرفته بالكلام. أيجعل التعجب من الشيء إنكاراً له، أي نفياً؟ فأبعده الله! أما سمع قوله تعالى في الحكاية عن الجن: (إنا سمعنا قرأناً عجباً) (الجن/1)؟ وإنما عجبوا من عظم شأنه وإعجازه. ولم يزل العجب والتعجب يقعان في أصناف الأقوال على معنى استحسان الشيء والمدح له... والتعجب الذي وضعه النحويون إنما هو من عظم الشيء لا من إنكاره والتهاون به. فالعقل يعجب من حسن التحنُّف وعظمه وعاجل منفعته. وإن من يجعل مثل هذا نكيراً لغير مأمون أن يدعي على القائلين: «لا إله إلا الله» أنهم ملحدون لأنهم ابتدؤوا في أول كلامهم بالنفي».

أما البيت الثاني فيرى المعري أنه متابع للكتاب العزيز لأنَّ فيه التحذير من عقاب الله سبحانه، وفيه دعوة إلى التفكير في عظيم مصنوعات الله وبديع قدرته، وذلك مندوب إليه في غير موضع من القرآن الكريم. كقوله تعالى: (ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار) (آل عمران/191).

ويقول في كلامه عن النحوم:

1- يا شهبُ إنك في السماء قديمة وأشرت للحكماء كلَّ مُشارٍ

2- أخبرت عن موتٍ يكون منجماً أفتخبرين بحادثٍ الإنشار؟

وكان القرآن مرجعه الأول في تفسير معنى هذين البيتين، إذ يقول: « ما خلثُ هذا المتكلم يفرق بين الخطأ والصواب، ولا يميز الحق الواضح من الأباطيل. وما الذي أنكره من القول للنجوم إنها قديمة؟ أفما علم أن العرب وغيرهم مجمعون على أن يقولوا: « فلان أقدم من فلان» وإن كان قبله بيوم فما زاد؟... »

« وأشرت للحكماء كلُّ مُشار:» أي دلت على الخالق سبحانه وممن استدلل بها إبراهيم p. وفي الكتاب العزيز: « وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ⁷⁵ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ» (الأنعام/75-76). وكذلك قوله تعالى: « فنظر نظرة في النجوم » (الصافات/88). وقال:

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ » (الأنعام/97).

أما البيت الثاني ففيه يذكر أبو العلاء ما يدعيه المنجمون من أن النجوم تدلّ على حين موت الرجل، وكم يعمر: خمسين سنة أم أكثر أم أقل؟ وقد خبر بأخبارها المنجم الذي يحدث بأحكامها وينظر في مجاريها ومنازلها. وقد ذكر المعري أن من الكلام ما يخرج على معنى العكس والاستهزاء. وشائع أن يُقال للرجل إذا كذب: «إنك لصادق اللهجة»! أي بالعكس من ذلك.

وقوله: «أ فتخبرين بحادث الإنشار»؟ أي أنكر عليها أن تقدر على ذلك وأنكر على المنجم أن يدعي ذلك كما ادّعه في الحياة الدنيا. وهذا ممّا يدخل في قوله تعالى: « يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا » (الأحزاب/63) ومن هذا النوع أن يسأل الرجل غيره حاجة لا يطيق قضاءها فيقول المسؤول للسائل: أتقدر أن تصعد إلى السماء؟ أي حاجتك متعذرة علي كتعذر الصعود إلى السماء.

ويقول أبو العلاء في شأن الأوهام والخرافات التي دخلت على العقائد الدينية، وهي ليست من أصل الدين:

11- أفيقوا أفيقوا يا غواة! فإنما دياناتكم مكر من القدماء»

يفسر هذا البيت مستعيناً بما جاء في القرآن عن تحريف التوراة. يقول: «المعنى أن أهل الكتاب كانوا يمكرون بأتباعهم. وفي الكتاب العزيز: (ومكروا ومكر الله) (آل عمران/54). وفيه : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُؤْيَا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» (البقرة/79). وهذا من المكر. وكثيراً ما يقول اليهود في ألفاظهم وحديثهم. ذكر قدمائنا كذا، وخبر قدمائنا ذلك. فبني الأمر على هذا النحو».

وفي شرح ديوان أبي الفتح ابن أبي حصينة. يقول أبو العلاء في تفسير معنى كلمة (الطخا) التي وردت في قول أبي الفتح، يمدح أبا العلوان ثمال بن صالح بن مرداس السلمي:

16- ولا مَرَهْفُ الْحَدِيثِ ماضٍ كَأَنَّهُ عَقِيقَةٌ بَرَقَ فِي طَخِي مَا تَقَشَّعَا»

(الطَخَا): يمدّ ويقصر، وهو يستعمل فيما غطى الشيء من سحابٍ أو ظلمة ليلٍ، أو وسخ، وفي الحديث المأثور: « مَنْ وَجَدَ عَلَى قَلْبِهِ طَخًا فَلْيَأْكُلِ السَّفَرَجَلْ».

ويقول أيضاً في شرح معنى كلمة (أبدع) التي جاءت في قول أبي الفتح:

27- أَبْدَعْتُ فِيهِ الْقَوْلَ حِينَ رَأَيْتُهُ يُعْطَى فَيُبْدَعُ فِي غِنَى مَنْ يُبْدَعُ»

ويقال (أبدع الشيء) وبدعه إذا أحدثه ولم يكن فعله من قبله أحد، والله (بديع السموات والأرض) (البقرة/117) أي مبدعهما.

2- الحجة والبرهان:

كثيراً ما كان أبو العلاء يوظف القرآن والحديث للاحتجاج لرأي ما أو قضية لغوية مهمة أو مسألة أثارت جدلاً. وهذا كان بارزاً في معظم نشره، كما سنرى.

ففي رسالة الغفران، تحدّث أبو العلاء عن عدد من الشعراء الذين اشتهروا بوصف الخمرة وشربها، كأبي نواس وعديّ بن زيد العبادي، وبيّن أن خمر الجنة تخالف خمر الدنيا صنعاً وطيباً وتأثيراً، وأن في الجنة أنهاراً من عسل مصفى، ويحتج لذلك بالآية التي تؤكد وتؤيّد كلامه. يقول: «ويعارض تلك المدامة أنهاراً من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية إلى الأنوار، ولا هو في مومٍ مُتوارٍ، ولكن قال له العزيز القادر: كن، فكان، وبكرمه أعطى الإمكان. واهأ لذلك عسلاً، لم يكن بالنار مُبسلاً! لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ما قُدِرَ له عارضٌ موم، ولا لبسٌ ثوبٌ المحموم، وذلك كلّ دليل قوله تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) (محمد/15)».

وعندما يصور الشجار الناشب بين النابغة الجعدي وأعشى قيس يؤكد أنّ خمر الجنة لا تُسكر، ولا تذهب بالعقل، ويدلّل على ذلك بالآية الكريمة: (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ) (الواقعة/19) وهنا يلوم ابن القارح النابغة الجعدي، ويصفه بأنه متسرّع، لأنه وثب على الأعشى وضربه بكوز من ذهب. ويأتي بالحديث الشريف الذي يؤكد سوء تصرّف النابغة يقول: «ويثبّ نابغة بني جعدة على أبي بصير فيضربه بكوز من ذهب. فيقول، أصلح الله به وعلى يديه، لا عريضة في الجنان، إنما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السفلة والهجاج وإنك يا أبا ليلى لمتترّع. وقد روي في الحديث أنّ رجلاً صاح بالبصرة: يا آل قيس! فجاء النابغة الجعدي بعصبة له، فأخذه شرط أبي موسى الأشعري فجلده لأن النبي p قال: من تعزى بعزاء الجاهلية فليس مثاً. ولولا أنّ في الكتاب الكريم «لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ» لظنناك أصابك نزفٌ في عقلك. فأما أبو بصير فما شرب إلا اللبن والعسل وإنه لوقورٌ في المجلس...».

وفي الحوار الدائر بين ابن القارح والنابغة الجعدي، يبرر ابن القارح نسيان الجعدي بعض ألفاظ الفصحاء مثل (رَبَشَ وَسُمِّهَ وَخَشَشَ...) بانشغاله بنعيم الجنة وما فيها من شراب ولحوم وفاكهة، ويتلو الآية الكريمة التي تصوّر هذا النعيم وتبرر موقف الجعدي. يقول: «ويقول الشيخ لنابغة بني جعدة: يا أبا ليلى، أنشدنا كلمك التي على الشين التي تقول فيها... فيقول نابغة بني جعدة: ما جعلت الشين قطّ رويّاً، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قطّ: رَبَشَ، وَسُمِّهَ، وَخَشَشَ. فيقول مولاي الشيخ الأديب المغرم بالعلم: يا أبا ليلى، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء، وشغلك شراباً، ما جاءتك بمنزلة بابل ولا أذرعات، وثنتك لحوم الطير الراتعة في رياض الجنة، فنسيت ما كنت عرفت، ولا ملامة إذا نسيت ذلك، (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ^{٥٥} هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكَوِّنُونَ^{٥٦} لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ) (يس/55-57). أما ريش فمن قولهم: أرضٌ ريشاء إذا ظهرت فيها قطع من النبات، وكأنها مقلوبة عن برشاء. وأما السُّمّة فشبّهة بالسفرة تتخذ من الخوص، وأما خشش فإن أبا عمرو الشيباني ذكر في كتاب الخاء أن الخشش ولد الطيبة».

ونجد لبيد بن ربيعة يتعجب من دخول الأعشى جنة عدن، وهو الذي أقرّ على نفسه بشرب الخمر، فيبرّر ابن القارح ذلك عندما يسوق آيتين كريميتين تبينان أن الله يغفر الذنوب جميعاً ماعدا الإشراف بالله تعالى. يقول: «ويقول لبيد: سبحان الله يا أبا نصير! بعد إقرارك بما تعلم، غُفِرَ لك وحصلت في جنة عدن؟ فيقول مولاي الشيخ متكلماً عن الأعشى: كأنك يا أبا عقيل تعني قوله... ونحو ذلك مما روي عنه، فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون قاله تحسناً للكلام على مذهب الشعراء، وإما أن يكون فعله فغفر له: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/53).

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (النساء/116)».

وبعد حوار طويل مع حسان بن ثابت الأنصاري، شاعر النبي p، إذ كان يدافع عنه ويهاجم أعداءه، ويتعرض أبو العلاء لقضايا لغوية تتعلق بشعر حسان، ثم يسأله أحدهم عن جنبه، فيقول حسان إنّ قومه أشجع العرب، وأنهم أجازوا الرسول p، وذكر آية تفسّر مواقف أمثاله. يقول أبو العلاء: «ويقول قائلٌ من القوم: كيف جنبك يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول: ألي يقال هذا وقومي أشجع العرب؟ أراد ستة منهم أن يميلوا على أهل الموسم بأسياقهم، وأجازوا النبي p، على أن يحاربوا معه كل عنود فرمتهم ربيعة ومضر وجميع

العرب عن قوس العداوة، وأضمرُوا لهم ضغن الشنآن، وإن ظهر مني تحرُّرٌ في بعض المواطن، فإنما ذلك على طريقة الحزم، كما جاء في الكتاب الكريم: (وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَفَدَّ بَاءً بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (الأنفال/16) «٠».

وفي موقف الحشر يتحدث ابن القارح عن يوم الحساب العظيم، إذ طال فيه واشتد الظمأ والحر، ولكي يعبر عن طول ذلك اليوم، يتذكر الآية الكريمة الملائمة لذلك يقول: « لما نهضتُ أُنْتَفِضُ من الريم، وحضرتُ حرصاتِ القيامة... ذكرتُ الآية: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَأَصْبَحَ سَبْرًا جَمِيلًا) (المعارج/ 4-5) فطال عليَّ الأمد، واشتد الظمأ والومد... وأنا رجلٌ مهيفٌ، أي سريع العطش، فافتكرتُ، فرأيتُ أمراً لا قوامَ لمثلي به»٠».

وفي موقف الحشر أيضاً يجعل أبو العلاء خلقاً من آل طالب ممن لم يشرب خمرأً، ولا عرف قط منكرأً، يجيبون فاطمة بنت النبي p، لدى سؤالها عن حالهم بأنهم لا يريدون أن يتسرَّعوا إلى الجنة قبل أن يحين الوقت لأنهم آمنون نائمون، ويستدل لهم على ذلك بالقرآن الكريم. يقول: « فلما حان خروجها (فاطمة)، ونادى الهاتف: أَنْ غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَوْقِفِ حَتَّى تَعْبُرَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ p، اجتمع من آل أبي طالب خلقٌ كثيرٌ، من ذكورٍ وإناثٍ، ممن لم يشرب خمرأً، ولا عَرَفَ قط منكرأً، فلقوها في بعض السبيل، فلما رأتهن قالت: ما بال هذه الزرافة؟ ألكم حالٌ تُذكر؟ فقالوا: نحن بخير، إنا نلتذُّ بتحف أهل الجنة، غير أنا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرَّع إلى الجنة من قبل الميقات، إذ كنا آمنين ناعمين بدليل قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ^{١٠١} لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ^{١٠٢} لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) (الأنبياء/101-103) «٠».

فالآية تتحدث عن سعادة أولئك المؤمنين بالله ورسله، فهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وقد أسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، فهم بعيدون عن النار لا يسمعون حسَّ النار ولا حركة لهبها وصوتها، وهم في الجنة دائمون، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ولا تصيبهم أهوال القيامة لأنهم في مأمن منها، وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم قائلين (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أي يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به.

وفي حديثه عن طاووس الجنة، الذي يشتهيه أبو عبيدة مطبوخاً ومنقوعاً بالخل، وبعد أن يُقضى منه الوطرُ تنضمُّ عظامه بعضها إلى بعض، فيعود طاووساً كما كان أول مرة، فنقول الجماعة: سبحان من يحيي العظام وهي رميم، ولكي يؤكد المعري هذه الفكرة يأتي بخير حجة ودليل على ذلك وهو قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة/260) «٠».

وبعد أن يجتمع ابن القارح بعدي بن زيد العبادي، ثم يلتقيان مع النابغتين، يصل إليهم الأعشى، فيصبح خامسهم، فيجد أبو العلاء في الآية التالية خير ما يناسب هذا السياق، وهي قوله تعالى: (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) (الشورى/29). يقول: « يا أبا سواده، ويا أبا إمامة، ويا أبا ليلي، اجعلوها ساعة منادمة، فإنَّ من قول شيخنا العبادي... فكيف لنا بأبي بصير! فلا تتم الكلمة إلا وأبو بصير قد خامسهم، فيسبحون الله، ويقدسونه ويحمدونه على أن جمع بينهم، ويتلو هذه الآية «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير»٠».

ويبدو لنا أن قصة آدم n قد شغلت أبا العلاء كثيراً، فقد تكرر ذكره كثيراً في الغفران. وهنا نقف عند أحد المشاهد المهمة، حيث يلقي ابن القارح آدم عليه السلام في الطريق إلى الجنان، ويسأله عما نُسب إليه من شعر يصطبغ برؤية فلسفية للحياة. فيقول آدم إنه لم يسمع به، ويعلِّل نسيانه بالآية القرآنية التي تثبت نسبة النسيان لآدم وأنه سمي إنساناً لنسيانه. يقول: «يا أباانا، صلى الله عليك، قد روي لنا عنك شعراً، منه قولك: ... فيقول: إِنَّ هذا القول حقٌّ، وما نطقه إلا بعض الحكماء، ولكني لم أسمع به حتَّى الساعة. فيقول: ... فلعلَّك يا أباانا قلته ثم نسيته، فقد علمتُ أن

النسيان متسرّع إليك، وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوّة في فرقان محمد p: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) (طه/115). وقد زعم بعض العلماء أنّك إنّما سميت إنساناً لنسيانك...».

ويبحث أبو العلاء مفهوم الزمن خلال حديثه عن المتنبي. يقول: «وأما شكيت أهل الزمان إليه، فإنّه سلك في ذلك مسلك المتقدمين، وقد كثر المقال في ذمّ الدهر حتّى جاء في الحديث: « لا تسبوا الدهر فإنّ الله هو الدهر». وقد عُرف معنى هذا الكلام، وأنّ باطنه ليس كظاهره، إذ كان الأنبياء، عليهم السلام، لم يذهب أحدٌ منهم إلى أنّ الدهر هو الخلق، ولا المعبود. وقد جاء في الكتاب الكريم: (وما يهلكنا إلا الدهر) (الجنّة/24).

وقد ذكر ذلك في رسالته إلى داعي الدعاة الفاطمي يقول: «فأما قول النبي p: «لا تسبوا الدهر فإنّ الله هو الدهر» فإنّما أراد أنّ الذي يقضي عليكم بذلك هو الحيّ القيوم الذي تسجد له الشمس والقمر وتشهد به كل المخلوقات. ولم تزل العرب تذرّ الدهر في قديم وحديث».

وخلّص بعد ذلك إلى وضع تعريف جديد مبتكر، يقول إنه لم يسبق إليه، «وهو أن يُقال: الزمان شيء أقلّ جزء منه يشتمل على جميع المدركات، وهو في ذلك ضد المكان، لأنّ أقلّ جزء منه لا يمكن أن يشتمل على شيء كما تشتمل عليه الظروف، فأما الكون فلا بدّ من تشبّهه بما قلّ وكثُر».

فالمعرّي دالّ على كلامه في ذمّ الدهر بالحديث الشريف والقرآن الكريم. ولا يعجب مما عيب على الشعراء من نسبة الفعل إلى الدهر، لأنّ هذه مقولة جاهليّة.

ويتحدث عن زندقة صالح بن عبد القدوس، فيقول إنه شُهر بالزندقة، ولم يُقتل، والله العلم، حتى ظهرت عنه مقالات توجب ذلك. ويخبرنا أنّ السيف هو الذي حمل صالح بن عبد القدوس على الرجوع عن الزندقة. ويؤكد أنّ من لا يتوب في الدنيا لا يقبل إيمانه مثبتاً كلامه بالقرآن الكريم والحديث الشريف الذي يبين فضل السيف، يقول: «وأما رجوعه عن الزندقة لمّا أحسّ بالقتل، فإنّما ذلك على سبيل الخلل. فصلّى الله على محمد، فقد روي عنه أنه قال: بُعثت بالسيف، والخير في السيف، والخير بالسيف. وفي حديث آخر: لا تزال أمتي بخير ما حملت السيوف. والسيف حمل صالحاً على التصديق، ورده عن رأي الزنديق، وتلك آية من آيات الله إذا هي ظهرت للنفس الكافرة، فقد فني لا ريب زمانها، ولا يُقبل هناك إيمانها: «لم تكن آمنّت من قبل» (الأنعام/157)، وللسّفه طلّ ووبل».

ويردّ أبو العلاء دعوى الذين ينسبون علم الغيب إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، عن طريق استشهاد بالحديث والقرآن اللذين يثبتان أن علم الغيب لله وحده. يقول: «وكذلك ادعاء من يدعي أنّ عليّاً عليه السلام، قال: تهلك البصرة بالزنج، فصحبها أهل الحديث: بالريح، لا أوْمُن بشيء من ذلك. ولم يكن عليّ عليه السلام، ولا غيره ممن يُكشف له علم الغيب، وفي الكتاب العزيز: (النمل/65). وفي الحديث المأثور: أنه سمع جوارِي يغنّين في عرسٍ ويقلن:

وأهدى لنا أكْبُشاً تُبْحِجُ في المربدِ
وزوجكِ في النادي ويعلم ما في غدِ

فقال: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله».

وفي معرض حديثه عن الهدى بعد الضلال يصرّح أنّ الصحابة رضوان الله عليهم، كلّهم كان على ضلال، ثم تداركه المقتدر ذو الجلال. ويرى أنّ التوفيق يجيء من الله سبحانه وتعالى بإجبار، ويستشهد على ذلك بالآية الكريمة: «ووجدك ضالاً فهدى» (الضحى/7)، وهي فيما خوطب به النبي p.

ويريد أبو العلاء أن يلفت نظر ابن القارح إلى أنّ باب التوبة مفتوح دائماً، ويجب ألاّ يئس من رحمة الله، فيذكر له الآية الكريمة التي تدعو إلى عدم اليأس. يقول: «وأما إشفائ الشيخ، عمّر الله خله بالجلد، وأراح سمعه من كلّ عدل، فتلك سجيّة الأنيس، لا يختصّ بها أخو الجين عن الشجاع البيئس. ومن القسوط تعرّض بالقسوط. (قل يا عبّادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) (الزمر/53). كم من أديب شرب وطرب ثم تاب وأجاب العتاب. فقد يضلّ الدليل في ضوء القمر، ثم يهديه الله بأحد الأمر، وكم استنقذ من اللجّ غريق، فسلمّ وله تشريق».

كما تحدّث أبو العلاء عن أبي الطيب المتنبي مراراً، وهو كما هو معروف متعصّب له كلّ التعصّب، فردّ على ابن القارح لأنه انتقد المتنبي «إذ ذمّ إلى هذا الزمان أهيله»، وتحدّث عن ولع المتنبي بالتصغير في الشعر، فجنده يستشهد بآية سورة الشعراء (ألم تر أنّهم في كلّ واد يهيّمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون) (الشعراء/225-226). ليؤكّد لابن القارح أنها شهدت عليهم بالتحرّص وقول الأباطيل، ومن ثم فهم مطلق لهم ما يقولون، وأن من هذا الإطلاق ولع المتنبي بالتصغير، ولذلك فإنّ اعتراض ابن القارح عليه لتصغير كلمة أهل في قوله السابق الذكر لا وجه له. إلّا أن الآيات قد استثنت من الشعراء جماعة وصفوا بالإيمان والعمل الصالح والانتصار للحقّ.

ويحدّثنا المعري عما اشتهر به أبو عيسى بن هارون الرشيد من تهكّمه بالصيّام. يقول: «فإن كان فرّ من صيام شهر، فلعلّه يقع في تعذيب الدهر و «لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» (يوسف/87). فالمعري يأمل له المغفرة، لذلك يستشهد بالآية الكريمة التي تدعو إلى عدم اليأس. ويجعل أبو العلاء العلويّ البصريّ في شقاء دائم، فقد رويت له أبيات تدلّ على تألّه، ولا يدفع أن تكون قيلت على لسانه، لأنّ من خبر هذا العالم حكم عليه بفجور ومين، وأخلاق تبعد من الزين. ولكي يدلّ على خلوده في العذاب يستشهد بآية تدلّ على الدوام والاستمرار، فيصفه بأنّه غرق في بحر طام يسبح فيه: (مَادَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) (هود/107) «.

كما تحدّث عن مذهب الحلويّة ورأى أنّ هذه المذاهب قديمة، تنتقل في عصرٍ بعد عصر، ويقال إنّ فرعون كان على مذهب الحلويّة فلذلك ادّعى أنه ربّ العزّة. وفي نهاية كلامه أطلق تعميماً واضحاً، مؤيِّداً بالقرآن الكريم، وهو قوله: «وبنو آدم بلا عقول، وهذا أمرٌ يلقيه صغيرٌ عن كبير، فيكون بالهلكة، أو في صبير: «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ إنّ هم إلا كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً» (الفرقان/44). فأبو العلاء لم يستثن أحداً، ولم يقف عند كلمة أكثرهم في الآية التي يقصد بها غير المؤمنين.

من المعروف أنه كانت بين أبي العلاء وبين كثير من المعاصرين له من أهل العلم مساجلات ومساءلات في أمر عقيدته، إذ كانت بعض أقواله مما يثير الشك في معتقده، وقد دعّم ذلك الشكّ هذا الموقف الذي وقفه إزاء تحريمه أكل الحيوان على نفسه، ثم دعوته إلى هذا التحريم، رحمةً بالحيوان. فكان هذا من أبي العلاء داعيةً إلى لفت الأنظار إليه من ناحية معتقده. وكان ممن شكّ في دين أبي العلاء داعي دعاة الإسماعيلية بمصر أبو نصر هبة الله بن موسى ابن أبي عمران- فجرت بين أبي عمران وبين أبي العلاء مكاتبات كثيرة. وقد وقف أبو عمران طويلاً عند قصيدة لأبي العلاء (اللزوميات ج1/295) بدأها بقوله:

غدوت مريض العقل والدين فالفني لتسمع أنباء الأمور الصحاح

فهو يقول إنه غير مطمئن إلى ما يرد إليه من بعض أمور دينه.
ثم يصرّح أبو العلاء بما مرض به عقله من بعض حقائق الدين، فيقول:
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح

فهو صريح في الدعوة إلى تحريم أكل لحم الحيوان، حتى الذي لا يذبح منه، كالسمك. ثم يقول:
وأبيض أماتٍ أرادت صريحه لأطفالها، دون الغواني الصرائح

فهو هنا يحرم كل ما يخرج من الحيوان، كالبيض واللبن وعسل النحل، كما يقول:
ودع ضرب النحل الذي بكرت له كواسب من أزهار نبت فوانح

ويبدأ أبو عمران رسالته متوجهاً إلى أبي العلاء بهذا السؤال: «... أسأله عن العلة في تحريمه على نفسه اللحم واللبن، وكل ما يصدر إلى الوجود من منافع الحيوان، فأقول: أليس النبات موضوعاً للحيوان يمتار منه، وبوجوده وجوده؟ وبقوة في الحيوان حساسة ما استولى على الانتفاع بالنبات؟ ولو لم يكن الحيوان، لكان موضوع النبات باطلاً لامتني له، وعلى هذه القضية، فإن القوة الإنسانية مستولية على الحيوان، استيلاء الحيوان على النبات، لرجحانها عليه بالنطق والعقل، فهي مسخرة له على أنواع من التسخير، ولولا ذلك، لكان موضوع الحيوان باطلاً. فتجافي الشيخ -وفقه الله- عن الانتفاع بما هو موضوع له، مخلوق لأجله، إبطالاً لتركيب الخلقة. ثم امتناعه من أكل الحيوان، ليس يخلو القصد به من أحد أمرين: إما أنه تأخذه رافة بها، فلا يرى تناولها بالمكروه. وما ينبغي له أن يكون أرأف بها من خالقها. فإذا ادعى أن تحليلها وتحريمها، إنما كان من بعض البشر- يعني به أصحاب الشرائع، وأن الله لم يبيح إراقة دم حيوان وأكله- كان الدليل على بطلان قوله، وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التي خلقها الله سبحانه على صيغة لا تصلح إلا لنتش اللحوم وفسخها، وتمزيق الحيوانات وأكلها. وإذا كان هذا الشكل قائم العين في الفطرة، كان جنس البشر وسيع العذر في أكل اللحوم، وكان من أحل لهم ذلك محققاً.

والثاني: أنه يرى سفك دماء الحيوان خارجاً عن أوضاع الحكمة، وذلك اعتراض منه على خالقه الذي أوجده. وإذا أنعم الشيخ وساق إلي حجة أعتمدها، رجوت كشف المرض الذي وقع اعترافي به».

تلك هي رسالة أبي عمران إلى أبي العلاء، يسأله فيها عن صحة هذا المذهب الذي ذهب إليه في تحريم أكل الحيوان. وفي رد أبي العلاء عليه نراه يدخل في جدل منطقي طويل، يثير خلاله قضية الخير والشر والجبر والاختيار، مدعماً كلامه بما أورده من القرآن الكريم وأقوال الرسول p. يقول: « فأول ما يبداً به أن قائلاً من البشر: إذا بنينا القضية المركبة من المسند والمسند إليه ولها واسطتان إحداها نافية والأخرى استثنائية فقلنا: الله لا يفعل إلا خيراً. أ فهذه القضية كاذبة أم صادقة؟ فإن قيل إنها صادقة رأينا الشرور غوالب وللخيرات الملتزمة قوالب فعلنا أن ذلك سرّ خفي لا يشعر به إلا الحفي. وفي الكتاب الكريم: (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَئِنْ قَامُوا الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) (النساء/78). فإن قال القائل: قد روي أن النبي p كان إذا أراد السفر قال: « اللهم إنا نعوذ بك من وعاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد» أ فهذه الأشياء التي تعوذ منها خيرات أم شرور، لا يكمل بها الشرور؟. فإن قال قائل: هي مخوفة منكورة، فقد أبطل القضية التي هي متقدمة، لأنها لما سلف طرود معدمة، وإن قال: القضية المذكورة لا تصح، فالسائل يسيء الأدب يلح. فإن قال: القضية منعكسة، وهي بعد بحث منكسة. فقد لزمه أن يقول: إن الله سبحانه يفعل الخير والشر، فإن أبى ذلك، رجع إلى ما يقوله المجوسي من أن للعالم خالقين: أحدهما: بُرذان وهو فاعل الخير. والآخر: اهرمز وهو فاعل الشر. ومعاذ الله أن نقول هذه المقالة بل نكرم شرعنا، ونبسّط في اتباعه شرعنا. ولما توفي إبراهيم n بكى عليه؟ فقيل: يا رسول الله. أنت تنهانا عن البكاء فقال: «تدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون». أ فموت إبراهيم مما كان النبي عليه الصلاة والسلام يراه خيراً أم شراً؟».

ويتابع أبو العلاء ذكر أمثلته كقتل الحسين وسم الحسن، واستشهاد حمزة بن عبد المطلب، وفجيرة أبي ذؤيب الهزلي بأولاده السبعة، معقباً على ذلك بقوله: هل في ذلك خير أم شر، ثم نراه يدخل بأبي عمران في متاهات كان قد حذر منها، إذ يمضي في رسالته قائلاً: « وللأسئلة أن يقول: إن كان الخير لا يريد ربنا -عزّت قدرته- سواه فالشر لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون قد علم به وإما أن يكون غير عالم به. فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون مريداً له، وغير مريد فإن كان مريداً فكأنه الفاعل كما أن القائل يقول: قطع الأمير يد السارق فالأمير قطعها إلا أنه لم يباشر ذلك بنفسه وإن كان غير مريد له فقد جاز عليه ما لا يجوز مثله على أمير، له في الأرض نظراء كثير، لأنه إذا فعل في ولايته شيء لا يرضاه، نكره أشد النكير، وأمر بزواله. وهذه عقدة قد جهد في حلها المتكلمون، من أهل الشرائع، فلم يجدوا لها إعلالاً وأصبح مقالهم ضلالاً».

كل ما يريد أبو العلاء قوله في رده على أبي عمران أنه مجبور في فعله، ولا يد له فيما يفعله، وكل

شيء بقضاء الله، ولا قدرة له على دفع قدره. ودلّ على ذلك بما أورده عن النبي p الذي يدل على أن

الإنسان خاضع لقضاء الله في كل شيء. وكذلك الآية الكريمة المأخوذة من سورة النساء التي تؤكد أن الحسنة والسيئة من عند الله وحده. فالله يخبر في هذه الآية عن هؤلاء المنافقين الذين إن أصابتهم حسنة قالوا هي من عند الله والمقصود بالحسنة الخصب، إذ تنتج مواشيهم وخبولهم ، ويحسن حالهم، وتلد نساؤهم الغلمان. وإذا أصابتهم السيئة، والمقصود بها الجذب والضرر في مواشيهم، تشاءموا بمحمد p ، وقالوا له هذه من عندك. فأنزل الله عز وجل: « قل كل من عند الله»، أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر».

ثم يقول أبو العلاء من قصيدته تلك، مستشهداً بقول الرسول الكريم، وبقول الله تعالى في القرآن الكريم ليدل على تحريم الصيد، ثم تحريم أكل لحمه:

ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح

« وقد نهى النبي p عن صيد الليل وذلك أحد القولين في قوله p: « أقرؤا الطير في وكناتها»، والإسلام ورد بأن لا يضار طائر ولا سواه. وفي الكتاب العزيز ما هو أعلم به من سواه، وذلك قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ) (المائدة/95). وقال في آخر الآية: (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ). وقال في موضع آخر: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (المائدة/1). فإذا سمع من له أدنى حس بهذا القول، فلا لوم عليه إذا طلب التقرب إلى رب السموات والأرض بأن يجعل صيد الحل كصيد الحرم وإن كان ذلك ليس بمحظور ».

إن أبا العلاء يستشهد بالآيات الكريمة التي يحرم فيها الله تعالى الصيد في حال الإحرام. وهذا يتناول، من حيث المعنى، المأكول، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين، عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله p قال: « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور. فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذلك أمره أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه »ومن قتله

ما قتل من النعم» أي من قتل الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاء يماثل ما قتل من النعم وهي الإبل والبقر والغنم. والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. فالقرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: «ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه».

والآية الثانية التي يحتج بها المعري هي الآية الأولى من سورة المائدة التي يحض الله تعالى فيها المؤمنين على التمسك بالعهود أي ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله. وقوله تعالى «أحللت لكم بهيمة الأنعام» وهي الإبل والبقر والغنم إلا ما سيئلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال. فكما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال فحرموا الصيد في حال الإحرام فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم فيما يأمر به وينهى عنه. واحتجاه بهذه الآيات لا يبرر له تحريم اللحم على نفسه.

وقول أبي العلاء «إن كان ذلك ليس بمحظور» إي إن صيد الحل ليس بمحظور، وهذا القول لا يتفق مع موقفه الجازم في تحريم أكل الحيوان، وتحريم كل ما يخرج من الحيوان على نفسه.

كما أن استشهاد أبي العلاء بالحديث الشريف ليتخذ منه حجة على تحريم الصيد، فيه تأويل خاطئ للمعنى، وهذا ما يراه الدكتور عبد الكريم الخطيب قائلاً: « ونقول إن استشهاد أبي العلاء بالحديث

الشريف « أقرّوا الطير في وكناتها» لِيَتَّخِذَ مِنْهُ حِجَّةً عَلَى تَحْرِيمِ الصَّيْدِ، ثُمَّ تَحْرِيمِهِ أَكْلَ لَحْمِهِ، هُوَ مِغَالَطَةٌ، وَتَأْوِيلٌ فَاسِدٌ لِّلْمَعْنَى الْكَرِيمِ مِنَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ p: « إِذَا ذَبَحْتُمْ، فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِيَحْدُثْ أَحَدَكُمْ شَفَرَتَهُ، وَلِيُزَيَّرَ بِهِمَتَهُ»... وَكَانَ p يَذْبَحُ أَضْحِيَّتَهُ بِيَدِهِ. أَمَّا تَحْرِيمُ صَيْدِ الْبَرِّ وَالْمُسْلِمِ فِي ثِيَابِ الْحَجِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ فَهُوَ أَمْرٌ عَارِضٌ فِي وَقْتِ الْحَجِّ فَقَطْ».

ثُمَّ يَمْضِي أَبُو الْعَلَاءِ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى أَبِي عِمْرَانَ، وَسَوْقَ الْحُجَجِ لِتَأْيِيدِ مَذْهَبِهِ فِي تَحْرِيمِ الْحَيَوَانَ، فَيَقُولُ: « وَقَدْ عَدَلَ سَيِّدُنَا الرَّئِيسُ إِلَى الْإِيمَاءِ بِأَنْ مِنْ تَرَكَ أَكْلَ اللَّحْمِ ذَمِيمٌ، وَلَوْ أَخَذَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ لَوَجِبَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَلَّا يَصْلِيَ إِلَّا مَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ إِذَا زَادَ عَنْ ذَلِكَ أَدَّاهُ إِلَى كَلْفَةٍ. وَاللَّهُ تَبَارَكَ اسْمُهُ لَا يَرِيدُ ذَلِكَ، وَلَوْ جَبَّ أَنْ الَّذِي يَكُونُ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ إِذَا أَخْرَجَ عَنِ الذَّهَبِ رُبْعَ الْعَشْرِ لَا يَحْسَنُ بِهِ أَنْ يَزِيدَ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ حُتَّتِ النَّاسُ عَلَى النِّفَقَاتِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى جَدَّهُ: (وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) (المنافقون/10). وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ) (البقرة/245). وَالْمَرَادُ بِالْقَرْضِ مَالٌ يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ لِأَنَّ زَكَاتَهُ دِينَ لِلْمَسَاكِينِ عَلَيْهِ... وَالْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ -يَعْنِي نَفْسَهُ- قَدْ افْتَقَرَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَلَوْ مِثْلُ بَحْضَرَتِهِ السَّامِيَةِ لَعَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ بَقِيَّةٌ لِأَنَّهُ يُسْأَلُ وَلَا أَنْ يَجِبَ لِأَنَّ أَعْضَاءَهُ مِتَّخَذَةٌ، وَقَدْ عَجَزَ عَنِ الصَّلَاةِ قَائِمًا، وَإِنَّمَا يَصْلِي قَاعِدًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ... وَإِنِّي لِأَعْجَزُ إِذَا اضْطَجَعْتُ عَنِ الْقُعُودِ فَرُبَّمَا اسْتَعْنْتُ بِإِنْسَانٍ فَإِذَا هُمْ بِإِعَانَتِي وَبَسْطِ يَدَيْهِ لِيَنْهَضَنِي اضْطَرَبَتْ عِظَامِي لِأَتَهَنَّ عَارِيَاتٌ مِنْ كِسْوَةٍ...».

ثُمَّ يَمْضِي أَبُو الْعَلَاءِ فِي مَدْحِ أَبِي عِمْرَانَ، وَالتَّهْوِينِ مِنْ شَأْنِ نَفْسِهِ، وَهَذَا نَتَسَاءَلُ هَلْ قَدَّمَ أَبُو الْعَلَاءِ جَوَابًا شَافِيًّا كَافِيًّا عَمَّا سُئِلَ عَنْهُ مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا تَرَكَ أَكْلَ اللَّحْمِ وَهَلْ اسْتَنْدَ فِي ذَلِكَ إِلَى دَلِيلٍ قَوِيٍّ وَحِجَّةٍ وَاضِحَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ؟

إِنَّهُ يَعِدُّ تَرْكَهُ أَكْلَ اللَّحْمِ ذَنْبًا يُحَاسِبُ عَلَيْهِ، لَا ذَنْبَ لَهُ غَيْرُهُ فَهُوَ السَّعِيدُ إِذِنْ «وَقَدْ رَضِيَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَهُوَ لَا يَطَالِبُ إِلَّا بِمَا فَعَلَ مِنْ اجْتِنَابِ اللَّحْمِ فَإِنْ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الرِّتْبَةِ فَقَدْ سَعِدَ».

وَلَا بَدَ لَنَا مِنَ الْوُقُوفِ عِنْدَ بَعْضِ النِّقَاطِ الَّتِي احْتَجَّ فِيهَا أَبُو الْعَلَاءِ بِالْقُرْآنِ أَوِ الْحَدِيثِ. وَهِيَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ كَانَتْ تَدْخُلُ فِي بَابِ الْإِسْطِرَادِ، خِلَالِ مِمَّا حَكَاهُ مَعَ دَاعِي الدَّعَاةِ الْفَاطِمِيِّ. فَهَاهُوَ الْمَعْرِي عِنْدَمَا أَرَادَ أَنْ يَصِفَ لَنَا حَيَاتِهِ، اسْتَمَدَّ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ حِجَّةً قَوِيَّةً تَصِفُ حَالَهُ، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَخْبِرَنَا مِنْ خِلَالِهَا أَنَّهُ مُجْبَرٌ فِي كُلِّ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ. يَقُولُ: «فَلَمَّا رَأَى الْعَبْدُ الْعَاجِزُ اخْتِلَافَ الْأَقْوَالِ وَأَيَقِنُ بِنِفَادِ وَزَوَالِ وَبَلَغَ ثَلَاثِينَ عَامًا سَأَلَ رَبَّهُ إِنْعَامًا فَرَزَقَهُ صَوْمَ الدَّهْرِ فَلَمْ يَفْطَرْ فِي السَّنَةِ وَلَا الشَّهْرِ إِلَّا فِي الْعِيدَيْنِ وَصَبَرَ عَلَى تَوَالِي الْجَدِيدَيْنِ وَلَزِمَ الْإِمْسَاكَ عَنِ الْمَأْكَلِ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَهُ الْمَرَضُ فَيَخَافُ مَعَهُ الْجَرَضُ، وَظَنَّ اقْتِنَاعَهُ بِالنَّبَاتِ يَثْبُتُ لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ جَمِيلُ الْإِثْبَاتِ. وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ. وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ:

(إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (النحل/37).

فَأَبُو الْعَلَاءِ يَضْمِنُ كَلَامَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: « وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ، وَهُوَ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/188).

فَهُوَ يَرِيدُ الْقَوْلَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِ اللَّهِ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفُوضَ الْأُمُورَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ.

وَعِنْدَمَا أَرَادَ أَنْ يَفْنِدَ رَأْيِي مِنْ لَا يَرَى الرَّجْعَةَ، وَأَنْ يَثْبُتَ إِيمَانُهُ بِالْبَعْثِ اسْتَعَانَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِيَقْدِمَ بَرَهَانًا قَوِيًّا وَوَاضِحًا عَلَى ذَلِكَ. وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۚ وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس/77-79). كَمَا يَقْتَنِسُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ) (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۚ) (يس/81-83). لِيَشْهَدَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ مُقَرَّرٌ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الرَّجْعَةِ، وَلِلْخَوْفِ مِنَ الْآخِرَةِ يَحَافِظُ عَلَى صَلَاتِهِ وَصَوْمِهِ وَيَعْتَصِمُ لَعَلَّهُ مَعْصُومٌ.

وفي حديثه عن زهده استطرد للحديث عن زهد عليؑ وتقصفه، معزراً كلامه بالقرآن الكريم فقد قال: «وروي عن بعض أهل العلم أنه قال في بعض خطبة: إنَّ غلته تبلغ في السنة خمسين ألف دينار. وروي أنه قدَّم إليه خبيض في الكوفة فقال: هل تعلمون أن رسول الله ﷺ أكله؟ فقالوا: لا، فأمر برفعه. وهذا يدل على أن المجتهدين – من الأنبياء والأئمة- يقصرون نفوسهم ويؤثرون ما يفضل منهم لأهل الحاجة، وفي الكتاب العزيز: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (الحشر/9)، فحسبهم من الشرف ما ذكر في هذه الآية من حميد الانتفاع والإيثار بالقليل».

وقد طلب أبو عمران في إحدى رسائله من المعري أن يتجنَّب في ردوده السجع ولزوم ما لا يلزم، لأن هدفه هو المعاني لا الألفاظ مما فتح الباب واسعاً أمام أبي العلاء للحديث عن السجع، وكراهية الرسول ﷺ له، مؤكداً كلامه بالقرآن الكريم وأقوال المصطفى ﷺ. يقول أبو العلاء: « وفهمتُ ما نهى عنه من اجتناب السجع. وقد أدبني بما قال النبي ﷺ حين قال له القائل لما ذكر الحنين: «أرأيت من لا شرب وأكل ولا صاح ولا استهل؟ أليس مثل ذلك بطل ويروى: يُطَلَّ..» فقال ﷺ: «أسجعا كالجاهلية؟».

ثم يعلل أبو العلاء سبب كراهية الرسول ﷺ للسجع. فيقول: « وإنما كرهه عليه السلام لأنه قد كثر في كلام الكهان، فنهى عنه غير محرَّم له. وقد روي عنه كلامٌ مسجوع في حديث جرير بن عبد الله البجلي. منه قوله – لما سأله عن المرعى والماء - : « خير الماء الشبم وخير المرعى السلم. إذا سقط صار دريناً. وإذا خبط جُعل لجيناً». ولو علمت الحمايم الساجعة أن الله سبحانه أو نبيه ﷺ يكره سجعها على الغصون لخرست عنه، وتبرأت منه وكذلك النوق الموصوفة بأنها ساجعات...».

ويحتج للسجع بقوله: « على أن الناس في الإسلام قد استحسنوا السجعات، وكثرت في خطبهم ومراسلاتهم، فقلَّ ما يخطب بخطبة على منبر إلا وفيها سجع. وأما خطباء العراق فمعهم خطب تكون من أولها إلى آخرها مسجوعة على الباء أو التاء أو غيرها من الحروف، وروي أنَّ بعض الملوك قال لبعض الفقهاء: بلغني أنَّك تحبُّ السجع فقال: نعم وقرأ عليه آيات من قوله تعالى: « **والشمس وضحاها**».

وهذا دفع أبو العلاء للحديث عن فواصل القرآن، فميَّز بين ضربين منها: الأول متباعد لا يجري مجرى السجع، والثاني يجري مجرى المسجوعات. يقول: « والفواصل التي جاءت في الكتاب الأشرف على ضرور: منها ما هو متباعد لا يجري مجرى السجع، وفيه ما يجري مجرى المسجوعات كقوله تعالى: « **والفجر وليالٍ عشر* والشفع والوتر**» (الفجر/1-3). وكذلك قوله: « **ألم تر كيف فعل ربك بعاد**» (الفجر/6) وإذا جاءت الكلمات مختلفات الإعراب- بعضها مرفوع وبعضها منصوب وبعضها مخفوض- فمن الناس من يرى ذلك سجعاً، ومنهم من لا يدخله باب المسجوع، فإذا اختلفت أوائل الكلمات في الضم والفتح والكسر ففيه اختلاف كما اختلفهم في الإعراب...».

وفي رسالة الصاهل والشاحج نرى أنَّ أكثر الشواهد التي أوردها أبو العلاء كانت من القرآن والحديث، حيث جاءت للاحتجاج لرأي ما، أو البرهنة على قضية ما، أو إثبات وتأكيد فكرة معينة. وإن أكثر ما ورد ذلك كان على لسان البعير عندما راح يردُّ على الشاحج ادعاءاته فيما أدلى به عن أخبار الأئمة وأخبار غيرهم من الناس والبلاد والطير والبهائم.

وهاهو الشاحج يدافع عن خؤولته وقربته للصاهل محتجاً لذلك بالقرآن الكريم، وأخبار الرسول ﷺ. يقول: « وأما زعمُك أني ادعيُّ قرابتك، فلو أنَّ الحبشي شهيدٌ أنه حامي، وتحطم الدين أخبرك أنه عاميٌّ، ومشى الدابة على أربع يُعلم أنها بهيمة. وصنِّي المقعد ينسبه إلى العكرمة دون كل قربي. فالجنسية قرابة بين المتجانسات. ثم ينقرع ذلك إلى ترتيب الأنواع: فالحيوان كلُّه جنسٌ بينه تقاربٌ بالجنسية، فقد جمعتني وإياك الحيوانية. وكوئنا من ذوات الأربع قرابة ثانية. وأخصُّ من ذلك أننا من ذوات الحافر.

وجائزٌ في المنطق أن يقول العبسي عنتره للرجل من ولد حام لا تضمه وأم العبسي قبيلةٌ من قبائل الحبشة ولا بلدٌ من بلادهم: يا خالي. وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول للرجل من هلال بن عامر: يا خالي؛ لأن بعض نسائهم ولدتْ بعض أجداده ﷺ، وقد يقول الشاب المقتبل للشيخ المسن، وليس بينهما قرابة ولا معرفة: ياعم. وهو يريد التقرب منه والتحنن... وذوات الجناح كلها إخوة لمكان الريش، وإن كان بعضها يعدو على بعض، وسباعها تقتنص بغائثها، غير حافلة بقرابة الجنس... والله تعالى جعلني وإياك قرنين فقال: « **والخيل والبغال والحمير لتركبوها**» (النحل/8)».

ثم راح الشاحج يحتج أيضاً لإمكان نظمته الشعر. وتحدث من خلال ذلك عن الشعر والرجز، فرأى أن الشعر جنس، والرجز نوعٌ تحته. وذكر في أثناء ذلك ما روي عن الرسول p من رجز. يقول: « وأما زعمك كأني أدعي نظم الكلم، فقول منك أنبأنا عن قلة تأملك وعجلتك في شؤونك. إذ كنت لا تعدم أحد أمرين: إما أن تبطل القياس، وإما أن تثبته... أليس الرواة يتناقلون أن الضبّ قال لولده، وقد احتقر عليه بعضُ المحنقرين:

أهدموا بيتك لا أباً لك وزعموا أنك لا أخاً لك

وأنا أمشي الدآلى حوالكا

فإن زعمت أن هذا سائغٌ للضبّ، فأجزه لغيره. وإذا نُطقَ باليسير من الموزون، فما الذي يمنع من النطق بكثيره؟ وقد تقدم أن الشعر نوعٌ من جنس، وذلك الجنس هو الكلام. وإذا صحّ ذلك قلنا: إن الشعر جنسٌ، والرجز نوعٌ تحته. وإنما ذكرْتُ ذلك خشية أن تذهب إلى أن الرجز ليس بشعر، كما قال ذلك بعضُ الناس محتجاً لما روي عن النبي p أنه قال:

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب

ولما جاء في الرواية الأخرى أنه قال:

هل أنت إلا إصبعٌ دميت

وفي سبيل الله ما لقيت

في أشباهٍ لهذا. ويحتجون بقولهم للذي يُنشئ الرجز: راجزٌ، وللذي يُنشئ غيره من القصيد: شاعر. وإذا ركبنا القضية الثنوية الكلية، فجعلنا المحمول جنساً والحامل نوعاً، فالقضية كذبٌ لا محالة. وإذا عكسنا ذلك فجعلنا المحمول نوعاً والحامل جنساً، كانت القضية صدقاً. فنقول: كل رجز شعرٌ، فيكون قولاً صادقاً. وإن قيل: كلُّ شعرٍ رَجَزٌ فذلك باطلٌ من المقول».

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة أخرى مرتبطة بها. وهي معرفة النبي p للشعر. وهنا يذكر أبو العلاء عدة آراء، كلّ رأي منها مؤيّد بالأدلة المناسبة. يقول: « وأما النبي p فقد اختلفت الأئمّة في شأنه وفي قوله تعالى: « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » (يس/69). فقالت طائفة: لا يكون النبي عليه السلام إلّا عالماً بجميع أصناف العلم الذي يعرفه آدميون. وإنما تُعبدُ p بتركه ذلك الفن كما تعبدُ بترك الزنا وشرب المسكر، وكان ذلك خالصاً له في نفسه دون غيره من المسلمين. وإلى هذه المقالة ذهب أصحابُ الشيعة، واحتجوا بأنّ فقد المعرفة بهذا الجنس، معدودٌ في بني آدم من النقص. ولا يبعثُ الله جل اسمه، إلّا أفضل من يكون في عصر المبعث. وقد كان أبوه p وجده وأعمامه ينطقون بالمنظوم... قالوا: فإن كان الشعر منقصةً، فلم استعملها السادة في الإسلام والجاهلية؟ وإن كانت فضيلةً فلم يُحرّمها الرسول p؟ وقالت طائفةٌ أخرى: قد يجوز أن يكون الأمر على ما ذكر هؤلاء، ويجوز أن يكون على غيره. لأنه p قال: «استعينوا على كل صناعة بأهلها». وفي الجائز أن يكون سلب منه العلم بهذا النوع لما بُعث، فكان ذلك له مثل الآية. وإنما معنى قوله تعالى: « وما علمناه الشعر » أنه جوابٌ لقول من قال من الكفار: « الذي جاء به محمدٌ شعرٌ » لأنه بهذه الآية نفى عنه المعرفة بهذا الضرب. وكان النبي p، إذا ذكر بيتاً صاباه أي لم يجئ به على جهته، حتى عُرف ذلك منه. مثل قوله بين "الأقرع وعيينة"، و "يأتيك من لم تزود بالأخبار"... وقال بعضُ الناس: لم يكن p يعرف الشعر ولا غيره من الصنائع، وإنما كانت الفضيلة بالرسالة».

وفي قوله تعالى «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين» يخبرنا الله عزّ وجل أنه ما علمه الشعر، والشعر ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته. ولهذا ورد أنه p كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زحفه أو لم يتمّه. وقال أبو زرعة الرازي: حدّثنا إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبي أنه قال: ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلّا يقول الشعر إلّا رسول الله p.

وقد روى البيهقي في دلائل النبوة أنَّ رسول الله ρ . قال للعباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه: «أنت القائل: أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة.

فقال: إنما هو عيينة والأقرع، فقال ρ : «الكل سواء» يعني في المعنى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا المغيرة عن الشعبي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ρ إذا استراث الخبر تمثّل فيه ببيت طرفة: ويأتيك بالأخبار من لم تزود. وهذا في شعر طرفة بن العبد في معلقته المشهورة وهذا المذكور منها أوله:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعده

وعندما يشتدّ الخلاف بين الصاهل والشاحج، يطلب الصاهل تحكيم الحمامة (الفاختة) ولكن الشاحج ينكر تحكيمها، إذ يضرب بها المثل في الكذب والحق، ويقترح تحكيم الإبل. يقول: «ومن ظلمك وإعناتك أنك دعوتني إلى تحكيم حكم العامة تضرب المثل بكذبه فنقول: أكذب من فاخنة! أفتُراني أجعل حكماً على نفسي من قد شهر بهذه الشيمة؟ ومن استرعى الذنب ظلم، ومن صدق كل بارق أخلف. ولكن اطلب حكماً سوى هذه فقد اشتهر عنها ما تعلم. ولا تدعني إلى الغراب فإن رسول الله ρ سمّاه فاسقاً. ولست بمحكم أهل الفسق، ولا إلى الزرياب، فإن به صرعاً وإن كان عالماً باللغات منصرفاً في أجناس القول. ولو عدلت عن ذوات الجناح إلى ذوات الأربع لكنك أقرب إلى التصفية. وهذه الإبل قد جاءت للورد فإن شئت أن تستظهر لعلمك فاجعل الحكم بعضها توفّق في ذلك».

فالشاحج يرفض تحكيم الحمامة لأنها مشهورة بالكذب، ويرفض أيضاً تحكيم الغراب لأنه من أهل الفسق كما قال رسول الله ρ .

وفي حديثه عن طائفة أخرى من الناس والبلاد، راح يحذر من البراز والقراز والحزاز، وبين من خلال القرآن الكريم جزاء من يفسد في الأرض. يقول: «وأقول للعجوز الصالحة أن تصون ولدها عن لقاء البراز، إنه لا يؤمن على السرقة ولا على القتل، إنما يبكر بدهاء وختل. وأقول للذي يبيع البلس أن والبقل: إياك وجوار البراز فإنه لا يؤمن على قدرك ولا مرجلك ولا مقدحتك فأما الصائغ وبائع السقط فيجب أن يكون هربهما من البراز شديداً. إنه لا يأمنه في الخلوة أحد إلا من شاء الله. وإن قدر ناسك ألا يصلي إلى جانب البراز فإنه حسن. سبحان ربنا العظيم، هل يصلي البراز في السفر لعله يعفر له؟ أم لا يفقر إلى الصلاة لعله أنه قد حقت عليه كلمة العذاب؟ فأني موقع لصلاته وزكاته؟... وإذا بلغ ابن البراز وكان على طريقة أبيه وظفر به السلطان، فيجب أن يستتيبه فإن تاب وإلا وقعت عليه أحكام أبيه. قال الله سبحانه:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ) (المائدة/33). فإذا انضاف إلى ما ذكر من أخلاق البراز أنه خراز، فإننا لله وإنا إليه راجعون!... فإذا كان الرجلُ بزازاً خرازاً قرازاً، فالمستغاث بالله ممّن تجتمع هذه الخلل فيه: أما البرّ فحدث عظيم، وأما الخرز إذا وقع في حين البرّ فنانبة ينسى البرّ معها ويغفره الصالحون عندها، وأما القرّ فأيسر من الخرز، وأصحاب القرّ قد يكونون صلحاء أحياناً».

فبعدما سرد أبو العلاء صفات البراز بيّن عاقبة أمره من خلال استحضار الآية الكريمة التي تشرح عاقبة المفسدين في الأرض بالقتل أو الصلب أو قطع أيديهم وأرجلهم.

وقد شرح أبو العلاء معاني هذه الألفاظ على لسان الشاحج الذي فسّر ألباز الرسالة فيما بعد. فالبراز الذي يسلب الناس ثيابهم. من قولهم: من عزّ برّ. والخراز: الذي يخزّ بالطعنة أو الرمية، أي يشكّ المرمي أو المطعون. والقراز: الذي يثب. وجاء في الحديث: «إن إبليس ليفرّ من المشرق إلى المغرب»، وعنيث بالقراز إبليس، وهو فعّال من قرّ يقرّ.

ويردّ البعير قول الشاحج أن علياً τ كان يأكل الصقر، مبيناً تحريم رسول الله ρ سباع الطير. وأنه

كان يعلم البازي أخلاق الصالحين، لينطلق من ذلك إلى الكلام عن الديك، فيرى أنه أولى بهذه المنفعة من

غيره، لأنه من صلحاء الطير، ويستطرد من خلال ذلك للحديث عن آباء الرسول p وأجداده. كما ينقد بعض الأحاديث المروية عن الديك والغراب. يقول: «وزعمت أنه كان يأكل الصقر». وقد علم ربك بطلان ما تذهب إليه. أعليّ u يفعل ذلك، وقد جاء محمد p بتحريم سباع الطير صقرها وبازيها وعقابها وغير ذلك من الصوائد؟ ولم يكفك ادعاؤك أنه كان يأكل الصقر حتى زعمت أنه كان يُعلم البازي أخلاق الصالحين. وما نعلمه علم طائراً شيئاً من ذلك. وكيف صار البازي أولى بتعلم صالح الشيم من الشاهين والحمامة وغيرهما من الطير الوداعة المتظاهرة بترك الشرور؟ وكيف زويت هذه المنفعة عن الديك هو وأسرته يتوارثون الأذان عن عهد "بلال بن رباح" ولا يزال مؤدّن منهم في أوقات الصلوات ما بقي في الأرض إسلام؟ أليس في الحديث الذي يُحكى عن "العزير" أن الله اختار من البهائم الضائنة ومن الطير الحمامة ومن الشجر الحبلّة؟ والديك لا يرتاب في أنه من صلحاء الطير... ولعلك زويت هذه الفضيلة عن الديك لأنه ربما أدّن بالصبح فنهض إل الكأس الشرب... أتواخذ المؤمن من الديوك بذنب الكافر، وتلزم برها جريمة الغوي؟ إنّ ذلك لجهل منك، وكلّ العالم في الإسلام لا يخلون من قرناء كانوا على الكفر، حتى اختلفت الأئمة في آباء رسول الله p وأجداده. فقالت الشيعة: لم يكن بينه p وبين آدم إلاّ رجل مؤمن. وروى غيرهم أحاديث في ضدّ ذلك كثيرة، منها أنه p قال لـ "عدي بن حاتم الطائي" وقد قال له: يا رسول الله، أخبرني عن حاتم. فقال: "أبي وأبوك في النار" وفي حديث أنه قال: "أطلع في النار فرأيت فيها قصي بن كلاب يجر قصبه، فسألته عن من بيني وبينه من الآباء، فقال: هلكوا". في أحاديث كثيرة. وفي الكتاب العزيز: « وإبراهيم الذي وفى. ألا تزر وزرّة أخرى » (النجم/37-38). وقرأ المدني :

« ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » (البقرة/119) بالجزم على النهي. فجاء في التفسير أن قال p: ليت شعري ما فعل أبواي؟ ف قيل له: «ولا تسأل عن أصحاب الجحيم...».

قوله تعالى « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم»: قراءة أكثرهم ولا تسأل بضم التاء، وفي قراءة أبي بن كعب وما تسأل، وفي قراءة ابن مسعود (ولن تسأل عن أصحاب الجحيم)، نقلها ابن جرير، أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك. وقرأ آخرون: « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » بفتح التاء على النهي، أي: لا تسأل عن حالهم، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله p : « ليت شعري ما فعل أبواي ليت شعري ما فعل أبواي ليت شعري ما فعل أبواي؟ فنزلت: « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » فما ذكرهما حتى توفاه الله Y .»

ونجده ينقد بعض الأحاديث، ورأى أنها أكاذيب يجب ألا يُلتفت إليها. من ذلك ما قيل عن منادمة الديك والغراب. يقول: « ولعلك سمعت ما يتحدث به الناس عن الزمان القديم من أن الديك والغراب كانا صديقين في الدهر الأول، وكانا يتنادمان. فشربا عند خمار أياماً فلما نفذ شراب الخمر وأحس الغراب أنه يريد الثمن، أصبح يوماً والديك نائم فقال للخمار: إني ماض فأيتك بحقك، وصاحبي هذا رهناً عندك على مالك، وذهب فلم يعد. فمثل هذا الحديث لا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما تلك أكاذيب تحدث بها أهل الكتب من اليهود والنصارى... ولعلك إذا صح معك هذا الحديث، تعيب الديك بالغفلة والبله وتقول: قد جرى له مع الغراب ما سلف وكان ينبغي أن يتأدب، لأن المثل القديم: « لا يُلسع المؤمن من جحر مرتين». وقد قيل إن النبي ﷺ قال ذلك لـ "أبي عزة" الشاعر وكان يهجو النبي ﷺ فأسر يوم بدر فأطلقه. فلما وصل إلى مكة عاد إلى ما كان فيه من الهجاء. فأتى به مرة أخرى أسيراً فسأله الإطلاق فقال عليه السلام: «لا يُلسع المؤمن من جحر مرتين...».

فأبو العلاء لا يترك أية فرصة للاستشهاد بأقوال وأخبار الرسول ﷺ ليؤيد بها آراءه. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أبا العلاء كان يريد بالصقر: الدبس، إذ ألغزه عن الصقر من الطير، والبازي الذي كان يعلمه أخلاق الصالحين هو البازي في معنى الظالم القاهر».

ويتخذ من حديثه عن الديك منطلقاً للحديث عن الحمام. إذ أشار إلى بله الديك وبله الحمام والبله من الناس. وقد قصد بالبله، جمع أبله، وهم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس وتكلم عما وصفت به الحمامة من النياحة والبكاء. ويستعين بأحاديث الرسول ﷺ في توضيح فكرته يقول: « ولا ريب أنك لم تر الحمامة أهلاً لتعلمها أحكام الدين، كما رأيت البازي أهلاً لذلك. لأن الحمامة بظنك مغنية، وتستدل على مذهبك بإجماع الشعراء. لأنها توصف بالغناء في سالف الدهر... وهؤلاء الذين شهدوا عليها بالغناء يصفونها أيضاً بالنياحة والبكاء. فهذان القولان متناقضان. أحدهما وصف بالفرح والآخر وصف بالحزن والترح. فعلى أي القولين تقول؟ إن كانت نائحة بأجر إن ذلك لمن المنكرات، وإنها لأثبت على هذا الخلق من "ابنة الجون" النائحة المشهورة التي كانت في العرب... وإن كانت تنوح لنفسها دون غيرها من الأنيس والطير فلعلك تؤاخذها بالحديث المروي عنه ﷺ: « ثلاثة من أمر الجاهلية: النياحة، والطعن في الأنساب، والأنواء». وهذه كلها دعوى من أهل الشعر، وليست الحمامة في الحقيقة مغنية ولا نائحة... وقد بلغك دعوة نوح ﷺ لها، وأداؤها الأمانة له لما أرسلها».

وهكذا فإن الحديث الشريف كان عنصراً أساسياً في جدل البعير مع الشاحج ورد مزاعمه. وتوصل في النهاية إلى أن صوت الحمامة هو تسبيح لله القادر المجيد، وليس بنياحة ولا غناء. ويقول البعير في رده بعض ادعاءات الشاحج: « وزعمت أنه كان يُعظم مكة، ولا يقول في الطائف إلا خيراً، ويأمر بضرب المدينة إذا عصت. وأني معصية تُخشى من يثرب وقد دعا لها رسول الله ﷺ؟ وهل تألم لضرب لو عصت أو تعلم به إذا عوقبت؟ فأرضها كانت تُعتمد بالضرب أم جُذرها المشيدة؟ أما الأرض فقد قال النبي ﷺ " « تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة» فأحسب من ضربها بعد ذلك متعدياً غير مُصيب. وأما الجذر فما الذي جنين حتى يُضرب؟ إنما هي حجارة وطين. ولعلك تذهب إلى أن السارق إذا نقب وأخذ متاع البيت وجبت على الحائط عقوبة. ولم يقل ذلك أحد من المسلمين. فإن عنيت بقولك إنه كان يأمر بضرب المدينة إذا عصت، أهل المدينة، كما قال تعالى: « واسأل القرية التي كنا فيها» (يوسف/82). فما الفائدة في إفرادك مكاناً دون مكان؟ لو قلت كان يأمر بضرب مكة إذا عصت، لكنك قد ذهبت في ذلك مذهباً».

وبعد أن تجشّم البعير عناء الرد، يتبين له أن الشاحج، يريد بالمدينة: الأمة، إذ ألغزها من مدينة الرسول ﷺ.

ويزعم الشاحج أن علياً ؓ كان يصلي إن اتفق له فوق العنز. وأنه كان يأمر بقتل الهلال كيف فُدر عليه، ويقعد في ضوء القمر وضوء الشمس. وهنا يرد البعير عليه مستعيناً في ذلك بالحديث والقرآن. يقول: « وزعمت أنه كان لا يكره الصلاة فوق العنز إذا اتفق ذلك له. والعنز ليست مما يركبه بنو آدم فيصّلوا فوقه. لو قلت: إنه يصلي فوق الناقة والجمال والفرس وغيرها من المركوبات، لجوز لك ذلك لأن النوافل تُصلى على أكوام الإبل وسروج الخيل، وقد يُسمح بصلاة الفريضة على ظهر الراحلة والفرس

عند شدة الخوف والمسايفة. وزعمت أنه كان يأمر بقتل الهلال أين طلع، وأي ذنب أذنب إليه الهلال؟ ومن يقدّر عليه من بني آدم؟ لو جاز قتله لجاز قتل القمر والشمس، ولم استحق الهلال أن يؤمر بقتله. وفي الكتاب الكريم: «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج» (البقرة/189) «».

فقد استبعد أبو العلاء قتل الهلال، وبين أهميته ودوره في حياة الناس من خلال توظيف الآية الكريمة في النص.

أما الصلاة على ظهر الراحلة فقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ على الراحلة قبل أي وجه توجه، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة.

وقد قصد الشاحج بالعنزة: الأكمة السوداء. والهلال: ضرب من الحيات ويقال هو الذكر منها. وقد ذكر الشمس والقمر مورياً. (ص356-357).

ويتعرّض الشاحج في بعض ادعاءاته على عليّ ع إلى قضايا تتعلّق بأحكام الدين الإسلامي كالطهارة والزكاة فيردّ عليه البعير، محتجاً بالقرآن الكريم، قائلاً: «وزعمت أنه كان يُجيز الكرّ على العدو وهو على غير طهارة ويتطهر بالكرّ. فهذا يحتمل معنيين: أحدهما أن تعني أنه إذا كان غير طهارة تجوز بها الصلاة ثم كرّ على العدو تطهر بالكرّ، فجاز له أن يصلي. فهذا فاسد لم يُجزه أحد من المسلمين. والآخر أن تعني أنه يتقرب إلى الله بالكرّ عليهم، لا أنه يقوم مقام الطهارة للصلاة. فهذا يجوز أن يكون كما قال تعالى: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» (التوبة/103). لا يريد أنهم إذا كانوا غير مُتأهّبين للصلاة قامت لهم تلك الصدقة مقام التأهّب، ولكنه يريد أنها تمحو ذنوبهم، كما قال كعب بن زهير (يمدح الأنصار):

يتطهرون كأنه نُسك لهم بدماء من علقوا من الكفار»

وقد أراد الشاحج بالكرّ: الغدير والجسي. (ص362).

ويتابع البعير رده وقد أكثر من الاحتجاج بالحديث الشريف. يقول: «وزعمت أنه كان لا يعجبه أن تدنو قرّة العين إليه. فهذا الإفك المبين: «إنا لله وإنا إليه راجعون» (البقرة/156) ما أجرأك على قيل البهتان! ما بعث الله من نبي ولا كان في أهل الأرض صالح إلا وهو يسره أن تقرّ عينه. أليس في الحديث المأثور: «وقرّة عيني في الصلاة؟». ولعلك تعني بقرّة العين امرأة كان اسمها كذلك في زمانه. فما بلغنا أنّ امرأة من أهله ولا أزواجه ولا إمائهم كانت تُعرف بقرّة العين. ولكن قد يجوز في الممكن أن يكون كما ذكرت، وإن صح ما ادّعيته من هذا القول فيجب أن تكون قرّة العين امرأة ليست له بمحرم، وقد جاء في بعض الأحاديث: «لأن أراحم جملاً قد طلي بقطران أحب إليّ من أن أراحم امرأة عطرة» فإذا كان الأمر على هذه الجهة فلا فائدة في خصوصيتك قرّة العين دون غيرها من النساء المعروفات ب: هندي ودغدي وجمل».

وقال البعير أيضاً مفصلاً الحديث عن الطيرة والشجاعة وذلك فيما زعمه الشاحج عن عليّ. يقول: «وزعمت أنه كان يواجه الأسد ولا يحفل به ويكره أن تمرّ به الضبع. وقد كانت الشجاعة مُسلمة له، ولا أعرف معنى دعوأك في أمر الضبّع. وقد روى عنه بعض أصحاب الأخبار أنه سُئل عن امرأة تزوجها. فقال: وجدتها ضبعاً طرطبة. أفعنيت هذا الحديث أم تعتقد أنه كان يتطير بالضبع؟ وحاشى لله، قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صقر». وقد جاء في بعض الحديث: «إن تكن الطيرة في شيء، ففي المرأة والدابة والدار». وكانت العقلاء من العرب في الجاهلية تعيب الطيرة وأهلها».

والمقصود بالأسد: الأسد من النجوم. (ص365).

الضبع: السنة الشديدة. ومنه الحديث المرفوع أنّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: «أكلتنا الضبع وتقطعت عنا الخنف. ولا شك في أنه كان يكره السنة الشديدة. (ص358).

ويستمر الشاحج في تلاعبه بالألفاظ عندما يزعم أن علياً كان يعطي كل واحد من أهله قطاً (وقد أراد بالقط النصيب ص362) فيردّ عليه البعير، محتجاً بالحديث الشريف. يقول: وزعمت أنه كان يعطي كل واحد من أهله قطاً ينتفع به. وقد يكون في الدار العشرة أو العشرون فينتفعون بالهرّ الواحد أو الهرة، وإنما الغرض في الهرّ الراحة من الرثائم. فلقد ادّعت أن أهل البيت عليهم السلام يرغبون في كثرة ذلك النوع في بيوتهم لغير الحاجة. ولعمري لقد جاء في الحديث: «ليست الهرة بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات» وقد يكون فيهنّ ما يأكل الحياء والعقارب، فلعلّك إلى هذا تذهب».

كما يحتجّ البعير للسحر، فيردّ على الشاحج ما ادّعه من أنه رأى جاموساً يخرج من بيضة، وقوله أنّ عجوزاً بدمشق ولدت بيضة. فلعلّ الشاحج يصدّق بالسحر الذي يجعل به الرجل حمراً أو المرأة فأراً. واحتجّ للسحر باستشهاده بالآيات الكريمة التي تدل على صحّة السحر. يقول: «وقد ذكرت الفقهاء أحكاماً للساحر، فهذا يدلّ على أنّ السحر عندهم صحيح». وفي الكتاب العزيز: «فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه» (البقرة/102). فأما سحره فرعون فقد اختلف فيهم الناس. والصحيح أنهم كانوا يخيلون أن العصيّ والحبال ساعية، فيما ترى العين. فأما نقل الطائر إلى غير جنسه والرجل إلى النعامة والطير، فهذا أمر يشهد المعقول بأنه مُحال. وقد روى بعض أصحاب الحديث أنّ الضبّ قدّم إلى النبي ﷺ فقال: «إنّ أمةً مُسخت». فلا أدري لعل هذا منها».

وقد أراد الشاحج بالبيضة: المرأة الكريمة. ولذلك قالوا: بيضة الخدر، وبيضات الخدر، والبيضة: الأرض البيضاء أيضاً. (ص366).

ويرى البعير أنّ الشاحج بالغ كثيراً في مزاعمه. عندما ادّعى أن لحم الشيطان يؤكل. وأخذ البعير يدحض دعواه تلك بما أدلى به من الآيات القرآنية التي تشير إلى خلق الجن من نار، فأى لحم له يؤكل. ويتبين له بعد ذلك أن الشاحج أراد بالشيطان ضرباً من الحيات خفيفاً (ص367). يقول: «ولقد جئت بالنكراء في ادعائك أن لحم الشيطان يؤكل. وقيل لـ "عامر الشعبي" ماذا تقول في لحم الشيطان؟ فقال: إن قدرّت عليه فكُلّه. فأبعدك الله، أليس في الكتاب العزيز: «والجان خلقناه من قبل من نار السموم» (الحجر/27) وفي موضع آخر: «وخلقّ الجانّ من مارج من نار» (الرحمن/15). فأى لحم له وهو نارٍ، والنار جوهرٌ لطيفٌ ليس يجري مجرى الطين؟ ولعلّك تذهب إلى أن الشيطان ليس هو الجانّ الذي غني، وذلك خطأ منك. أليس في الكتاب الكريم: «إلا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه» (الكهف/50). وكيف تظنّ أنهم يتوصلون إلى أكله؟ أيصيدونه بفخٍّ أم شركٍ؟ أم يحفرون له رُيبة كُرْبِيّة الأسد؟ ولو صدقت لكان غثّ اللحم خبيثه».

ولا يفوت الشاحج أن يدلي ببعض ادّعاءاته على قاضي حلب. فقد ذكر أنه كان يحبّ أن يدخل الجنة، ومع ذلك يبغض الحور العين. فيردّ عليه البعير مفصلاً الحديث عن الحور العين في الجنة، وخلق الله لهن. مؤيداً كلامه بالقرآن الكريم. يقول: «وما بلغت بأحد من أهل الأرض بغضة النساء والغنى عنهن، أن يُبغض الحور العين! ولأَيّ شيء يُبغضهن، وهنّ لم يُرَيْن قط، ولم يظهرن لبني آدم وهم في الحياة؟ وقد اختلف الناس فيهن، فقال قوم: هنّ خلقٌ خلقه الله عزّت قدرته، ليس من بني آدم، واحتجوا بالآية: «إنا أنشأناهن إنشاءً. فجعلناهن أبقاراً. غرباً أتراباً. لأصحاب اليمين» (الواقعة/35-38). وسئل بعض أصحاب رسول الله ﷺ عن الحور العين، فقال: «هن عجائزكم هؤلاء الدردُ الشمت». يحتجّ بأنهنّ يخلقن خلقاً ثانياً».

وقد أراد الشاحج بالحور العين النقص. (ص368).

وقد عالج أبو العلاء مسألة قول الشعر على لسان الجنّ في رسالته إلى أبي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري. وأثبت أنّ لكل شاعرٍ شيطاناً يقول الشعر على لسانه، ويتخلل كلامه الاستشهاد بالحديث الشريف الذي يقوي الفكرة ويدعمها.

يقول: «فليت شعري من يقول المنظوم في خاطره أجنبيّ مرد، أم ملكٌ بالعبادة تفرّد؟ قد جرث في ذلك، خلده مأهولٌ بالقرآن فلا يسلك عفريت في صدره، والملائكة لا تنطق بمثل شعره، ولا نعلم أحداً روى شعراً عن الملائكة، فأما الجنّ فقد ورد عنها ما يعلمه، منه أن كثيراً من أصحاب الحديث روى أن الجن ناحت على عمر بن الخطاب، فقالت:

قضيت أموراً ثم خَلَفْتُ بعدها بوائج في أكمامها لم تُفتق

فرغموا أن هذه الأبيات سُمعت قبل قتل عمر... وروى أصحاب السير أن سعد بن عبادة مال إلى سباطة قوم فبال ثم مال ميتاً. وأن الجنَّ قالت قد قتلنا سيد الخرج سعد بن عبادة فرميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده في أشباه لهذا لا تُحصى وله – أدام الله عزَّه – أن يحتج بقول النبي ﷺ لحسان بن ثابت لما أمره بإجابة شعراء قريش: روح القدس معك. فلمُدَّع أن يقول إن حسان ومن جرى مجراه من قالة الحق تعينهم الملائكة على ذلك...».

ثم راح يتحدث عن شياطين الشعراء وأن الجني الشاعر ينتقل من رجل إلى رجل ويحتج بالحديث لإثبات أن لكل إنسان شيطاناً. يقول: «ولا ينكرُ – أدام الله عزَّه – ما ذكرته من أمر الجنِّ، فقد علم أنه مشهور عند العرب أن لكلِّ شاعر شيطاناً يقول الشعر على لسانه... فرغموا أن مسحاً شيطاناً الأعشى، وقد روى أخباراً في ذلك كثيرة. لا ريب في أنه قد اطلع عليها، وحدثنا صديقه أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز رحمه الله عن أبي عبد الله بن خالويه عن ابن دريد حديثاً معناه ما أذكره. وهو أن أبا بكر بن دريد ذكر لأصحابه أنه رأى فيما يرى النائم أن قاتلاً يقول: لِمَ لا تقول في الخمر شيئاً؟ فقال: وهل ترك أبو نواس مقالاً... فقال له أبو بكر: من أنت؟ فقال: أنا شيطانك، وسأله عن اسمه، فقال: أبو زاجية، خبره أنه يسكن بالموصل، وقد روى أن الجن تطول أعمارهم حتى إن الواحد منهم يكون قد لقي نوحاً، ويلقى النبي ﷺ، فإن كان الشاعر منهم ينتقل من رجل إلى رجل، فيجوز أن يكون قد انتقل إليه – أدام الله عزه – صاحب النابغة أو الكندي... أوليس قد جاء عن النبي ﷺ حديث معناه أن الإنسان لا يخلو من شيطانٍ مُوَكَّلٍ به، قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا ولكني أعنت عليه فأسلم...».

ونص الحديث الشريف كالآتي: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً. قالت: فغرت عليه، فجاء، فرأى ما أصنع، فقال: «مالك يا عائشة، أغرت؟» فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك، فقال رسول الله ﷺ: أقد جاءك شيطانك؟ قالت: يا رسول الله، أومع شيطان؟ قال: نعم قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم. قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم...».

وفي نهاية الرسالة تحدث عن مشقة السفر وحمد الغربة: لأن المكارم لا تنال إلا بالجهد والتعب. ونجده يبين فضل العصا في السفر، التي ألبست صاحبها حلة الأنبياء. وهنا يؤيد كلامه بالآيات الكريمة عن سيدنا موسى ﷺ مبيّناً وظيفة العصا وفضلها كما بيّن فضل الحمار على الجواد في السفر. يقول: «وكم خير وُصل إليه بالعير، وكم راكب حمارٍ أفضل من راكبٍ جوادٍ غير ائتمارٍ، قال الله جلَّ اسمُهُ: «وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس» (البقرة/259). ولا بأس أن يسلب الله الرجل حلة الأغنياء فيلبس بتفضل الله حُلَّ الأنبياء، فيستعين على السفر بمطيةٍ أطلحية، ليست بالملومة ولا بالملحية، إذا حل في المنزل أغنته عن الملاء، بغنائها عن ماء وكلاء، وهي في التلف قريبة الخلف، حبذا تلك مطية، قال الله ﷻ: «وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى» (طه/18)».

وفي مطلع رسالته في تعزية خاله أبي القاسم، تحدّث عن قضاء الله وقدره وأن أمره نافذ فيما خلق، مؤيداً كلامه بمجموعة من الأشعار والآيات الكريمة. يقول: «ووصفتُ شوقاً أجده، لا تزال الذكرى تُنجد، وربّ سؤالٍ حفي، يُخبر عن اشتياقٍ خفي، والله يحفظ علينا رضاه، ويثبت على ما سرَّ أو حرَّز مما قضاه، والقدّر غالبٌ أبى، فالعياذ بالله أن تقول – كما قال المحاربي: اهتَزَّ عرشُ الله ذي الجلالِ لموتِ خالي يوم مات خالي

ولكن «إنا لله وإنا إليه راجعون» (البقرة/156)، «كلُّ من عليها فان» (الرحمن/26). والرجل دائبٌ في الأمل يُراخيه، قد أعير كلَّ شيءٍ حتى أخيه».

والله تعالى قد حكم بالخطوب على البلاد كما حكم بذلك على العباد. يقول: «وإنَّ الله سبحانه حكم ببقاء الخطوب على كُلِّ البلاد، كما حكم على العباد، فإن وقع خطبٌ بدمشق، فأَيُّ بلدٍ لم يشقَّ؟ وفي الكتاب الأشرف: « وإنَّ من قريةٍ إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً » (الإسراء/58) ».

وفي رسالته إلى أبي الحسن محمد بن سنان لما جاءه كتابه في أمر كليلة ودمنة، ووصف سروره لورود هذا الكتاب، وسروره لاستماعه، وسروراً ثالثاً هو خبر سلامته. كما وصف ألفاظ الكتاب أروع وصف، ووصف شوقه إليه، واعتذر عن تأخير إجابته اعتذاراً جميلاً مقبولاً مستعيناً فيه بآيات الذكر الحكيم. يقول: « وعجبت من ألفاظه التي ليست مسجوعةً سجع الجاهلية، ولا منثورة نثر كالم العامة، بل هي منظومة نظم اللؤلؤ البحري، متضوعة تضوُّع نسيم الروض السحري، وأما شوق أسود القلب إليه، فشوق أسود العين الساهرة إلى كراه، شهد بذلك الأزهران، وإني لأحفي المسألة وأخفي الدعوة، وأخفف بترك المكاتبة، وإنما أخرت الإجابة إلى هذا الحين عجزاً عما يُحقُّ علي، قال الله سبحانه: « وَإِذَا حِيلْتُمْ بِتَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها » (النساء/86). ولا أقدرُ على أحسن منها، قال جلَّ اسمه: « لا يَكْفُفُ اللهُ نفساً إلا وسعها » (البقرة/286). ولا ينسبني في هذا القول إلى النفاق، فلو كنتُ من أهله في الشبيبة، لوجب علي تركه عند إخراج اللِّمة... ».

وفي رسالة الهناء يشرح أبو العلاء في مدح أبي فلان، ودعا له أن يكون في مكان من سمو الدرجة، وعلو المنزلة يجاور فيه الأفلاك القائمة والنجوم السابحة، وأخبر أن هذه الهجرة أفضل من مهاجرة أخي كندة لأن هذا الأخير سلك تلك المسالك إثارةً للحرب وسعيًا في الفساد. وأما الأستاذ فمهاجرته لتأمين السارين من غائلة الأساد، ولذلك سوف يظفر بحسن العقابة في الدار العاجلة قبل الدار الآجلة، والموفق للعمل الصالح من أمَّن سالكاً، وأنقذ من براثن الموت هالكاً، وخلَّص أسيراً، وجَبَر كسيراً، ومن أحيأ نفساً فكأنما صنع صنيعاً، بعث أبناء الراكدة جميعاً. والراكدة هي الأرض الساكنة الهامدة التي ردت بركود ساكنيها، وموت من فيها، ولا شك أن عمارتها بالحياة، يُوجب الزلْفى عند الله ويضاعف الحسنات ويذهب السيئات. يقول تعالى: « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً » (المائدة/32). وأيُّ ثوابٍ يعدل ثواب من أعطاه الله من الأجر بعدد كل نفس أحيأها، وبمقدار كل روح أنقذها.

وفي رسالة الأخرسين يفصح أبو العلاء عن إيمانه بأنَّ الرجل الأخرس أفضل من ألف خطيب على ألف منبر. لأن الأخرس أظهر من أولئك الخطباء الذين يقولون بالسنتهم عكس ما تخفي صدورهم. يقول: « وقال رجلٌ من الصالحين: لأن يدعو لي رجلٌ أخرس أحبُّ إليَّ من أن يدعو لي ألف خطيب على ألف منبر لأنَّ ذلك يومئ إلى الله سبحانه بلسانٍ ما أفك ولا قال البهتان وأولئك جديرون أن يكونوا كما قال الله سبحانه «ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم» (آل عمران/167) ».

كما تحدث عن الصدقات الواجبة على السلطان مدعماً ذلك بالقرآن الكريم. يقول: «والسلطان المنصور المؤيد تجب عليه أنواع صدقات وهو قائم بها في كل الأوقات، والفقهاء مجمعون على أن ما سقته السماء وفيه العشر، وما سقي بالسانية ففيه نصف ما سقي بالسحاب، ولم تزل السلاطين تكره أن تنزع الشيء من أيدي أهل المحن اللازمة، وهؤلاء الجماعة يسألون السلطان أن يتصدق عليهم من جاهه ويقولون ما قال إخوة يوسف للعزیز: «أوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين» (يوسف/88)».

ونخلص إلى القول إن القرآن والحديث كانا عنصرين أساسيين تمسك بهما أبو العلاء لدعم وتأيد آرائه وأفكاره المتعددة. وقد ساهمت تلك الآيات والأحاديث في إقناع المتلقي، وتوسيع آفاق فهمه للنصوص.

3- السخرية والتهكم :

السخرية: سخر منه وبه، كفرح، سُخِرَ وسُخِرَ وسُخِرَ وسُخِرَ وسُخِرَ: هزئ، كاستسخر. والاسم: السخرية والسخري. ورجلٌ سُخِرَ يسخر من الناس. (و) (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) (هود/138). أي: إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلوننا. التهكم: الاستهزاء.

والتهكم: أن يأتي المتكلم بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في موضع الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء، فمن أمثلة وضع البشارة موضع الإنذار والوعد مكان الوعيد: (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (النساء/138). ومن أمثلة المدح في معرض الاستهزاء: (قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (البقرة/93) (إيمانكم) استهزاء بهم وتهكم. وجمال التهكم أنه يحمل سخرية عميقة وهجاء خفيًا يجعلانه أوقع في النفس وأكثر تنبيهاً وإثارةً.

لقد تضافرت مجموعة من الظروف على طبع نفسية أبي العلاء بطابع خاص، فأعلن السخرية من كل شيء وتهكم بكل شيء بأساليب متعدّدة. وبدا ذلك واضحاً في شعره ونثره اللذين يفصحان عن مزاجه بجلاء.

لاحظ أبو العلاء الدنيا ببصيرة واعية، فلم يجد فيها شيئاً يستحقّ العناء، ولم يجد فيها عناءً يجلّ عن السخر.

وقد وضحت هذه السخرية في نثره بصورة شديدة. بل ربّما كانت ملكة السخر هي أول ما يسترعي النظر من تصانيفه وثمار قريحته. وهذه الملكة أظهر ما تكون في رسالة الغفران، ففي هذه الرسالة كان المعري ساخرًا حادًا في السخر، يخرج التشاؤم مخرج التفاؤل، ويعرض اليأس في ثوب الأمل، ويبتسم من آمال الناس في الدنيا والآخرة، ثم يعود فيبتسم من ابتسامه.

وبدت السخرية واضحة من ابن القارح الذي كانت رسالته إلى أبي العلاء السبب المباشر الذي دعا أبا العلاء إلى إملاء رسالته. ولا بدّ أولاً من توضيح موقف أبي العلاء منه ورأيه فيه. وابن القارح، علي بن منصور الحلبيّ أديب معاصر لأبي العلاء، وهو شيعيّ من أهل الأدب، راوية للأخبار، وحافظ لقطعة كبيرة من اللغة والأشعار، قُوم بالنحو، وكان ممّن خَدَمَ أبا علي الفارسي في داره وهو صبيّ، ثم لازمه وقرأ عليه جميع كتبه وسماعاته، وكانت معيشته من التعليم بالشام ومصر، وكان مؤدّباً لأبي القاسم المغربي الذي ورّر بغداد، وله فيها هجو كثير، وكان يذمّه ويُعدّد معايبه.

ويبدو أنه لم يكن بين أبي العلاء وابن القارح سبقٌ تعارف شخصي أو لقاء، قبل أن يتبادلا رسالتيهما. وقد أراد ابن القارح أن يعتذر إلى أبي العلاء عن ضياع رسالة كان أحد أدباء العصر وهو أبو الفرج الزهرجي، قد أرسلها إليه مع ابن القارح لما علم أنّه في طريقه إلى حلب، فسرق عديلٌ له رحلاً من رحاله وفيه الرسالة.

وتبين لنا من رسالة ابن القارح أنه أراد أن يُسوِّغ لأبي العلاء موقفه من أبي القاسم المغربي، حين بلغه أن أبا العلاء ذكر هجاءه إياه. ويأتي ذكره لأول مرة على لسان أبي العلاء، فيما نقل ابن القارح نفسه في رسالته، حيث يقول: «بلغني عن مولاي الشيخ، أدام الله تأييده، أنه قال وقد ذُكرتُ له: أعرْفُهُ خبراً، هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي، فذلك منه، أدام الله عزَّه. رائعٌ لي، خوفاً أن يستسرَّ طبعي، وأن يتصوّرني بصورة من يضعُّ الكفر موضع الشكر».

وما كان أبو العلاء يجهل، حين ذُكر ابن القارح له أنه أديب حليبي، خدم أبا علي الفارسي وآل المغربي، لكن هجاءه أبا القاسم كان الصفة المميزة لشخصه والعنوان الدالّ عليه. والكلمة الجامعة التي تغني أبا العلاء عن مزيد تعريف بالرجل.

وشرع ابن القارح في رسالته يتملّق أبا العلاء، ويبسط له عذره في هجاء أبي القاسم المغربي وبغضه إياه. ويشكو له عذر الأصحاب وكيد الحساد وأفاعيل الزمن استدراكاً لعطفه ورحمته فوصلت رسالته تنضح نفاقاً وخبثاً.

وأملّى أبو العلاء ردّه على رسالة ابن القارح، ساخراً منه، وكانت مقدمة الغفران رمزاً لشخصيّته في وجدان أبي العلاء، ثم كانت المسرحية التي ألّفها معبّرة عن ذاته.

والمقدمة التي هي مفتتح الرسالة، وظاهر الأمر فيها أنها تحية إخوانية من أبي العلاء لابن القارح يعرب فيها عن مودة واشتياق للقاء صاحب حميم، وقد تبدو إملاءً من أمالي أبي العلاء اللغوية، موضوعه (القلب)، تفنن فيه في عرض محفوظه من الألغاز والأشعار، وهو يصطنع في أسلوب عرضها فن الإلغاز البديعي، فيما اختار من ألفاظ: الحماسة، والحضب والأسود. إذ يصف لابن القارح ما يجده في قلبه من حماسة الشوق إليه، وما يضمّره حُضْبُهُ من محبته وما يطويه أسوده من إعظامه مُلْغِزاً عن حبة القلب بالحماسة وهي شجر تألّفه الحيات، وبالحضب وهو الضخْم من ذكور الحيات. وملغزاً عن سويداء القلب بالأسود وهو الحية العظيمة. ومستطرداً في ثنايا ذلك كلّهُ إلى عرض المشتركات اللغوية للحماسة والحضب والأسود. وإيراد الأشعار المفسرة لألغازه.

ومثل هذه المقدمة لا يمكن أن تأتي عبثاً ولا من الهين أن نتصور أديباً يردُّ على رسالة إخوانية تلقاها من أحد أبناء بلده، فيلقاه بتحية متشحة بالسواد مشحونة بأنفاس الحياة بمختلف أسمائها وأنواعها وسمّها وتلوّيها وتقبّضها، وظهورها واختفائها. لقد تمثّل أبو العلاء وهو يصغي إلى رسالة ابن القارح مما تنتضح به من شرّ وخبث ومداهنة ونفاق الثعابين والحيات. فجاءت تحيته الرمزية استهلالاً لتقائماً لرسالته إلى الرجل الذي قال فيه حين ذكر له: أعرّفه خبراً، هو الذي هجا أبا القاسم المغربي.

وتصادفنا مسألة مهمة وهي الدعاء الذي يقرنه أبو العلاء باسم ابن القارح في كل مرة يذكره فيها، حتى صار لفظا الشيخ والدعاء متلازمين مع اسم ابن القارح لا ينفصلان عنه. وكان أبو العلاء يختار الدعاء الملائم للحال والسياق، حتى إنه صار متمماً للمعنى، «إذ يجب على الكاتب في الدعاء أن يتحرى الألفاظ الرائقة والمعاني اللائقة، ويتوخّى من ذلك ما يناسب الحال ويشاكل المعنى ويوافق المخاطب» وقد شغل هذا الدعاء مساحة كبيرة اتّخذ منه مجالاً واسعاً للسخرية والتهكم بابن القارح فمن ذلك على سبيل المثال: أدام الله الجمال ببقائه ص 60- حسن الله الأيام بطول عمره ص 63- أدام الله تمكينه ص 65- أكمل الله زينة المحافل بحضوره ص 69- أدام الله عزّه ص 72- ثبت الله وطأته ص 74- جعل الله أوقاته كلها سعيدة ص 205- أذكره الله بالصالحات ص 227- لازال خصمهُ مغلباً ص 226. وهذا ما أثار اهتمام الدكتورة فاطمة الحبابي ودفعها إلى التساؤل عن سبب ذلك تقول: «إن كثرة الجمل الدعائية في رسالة الغفران، تجعلنا نتساءل عن السبب الذي دعا أبا العلاء إلى المبالغة في إيرادها. فهل كان المعري، وهو يتفنن في اختيار جملة وتدقيقها، يرمي إلى إظهار طواعية اللغة العربية له، وإلى المبالغة في التناول على ابن القارح وتحديه؟ قد يكون، فكما لاحظنا، لم يجد أبو العلاء فرصة للتفاخر بثروته اللغوية إلا استغلّها. بل كثيراً ما كان يخلق الفرص لذلك».

ثم ينطلق أبو العلاء في السخرية المرّة اللاذعة، فأول آية نقرأها في رسالة الغفران هي ما استشهد به أبو العلاء ساخراً من سطور ابن القارح، بوصفها من الكلم الطيب الصاعد إلى السماء. يقول: «وقد

وصلت الرسالة التي بحرّها بالجمّ مسجور، ومن قرأها مأجور، إذ كانت تأمرُ بتقيل الشرع، وتعييب من ترك أصلًا إلى فرع. وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة، وعجبت من اتّساق عقودها الفاخرة ومثلها شفع ونفع، وقرب عند الله ورفع. وألفتها مفتحة بتمجيد، صدر عن بليغ مجيد، وفي قدرة ربّنا، جلت عظمته أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزح بمقال الزور يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين، ويذكره ذكر محبّ خدين. ولعله سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من الذهب معاريج من الفضة أو الذهب تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء، وتكشف سجوف الظلماء بدليل الآية: (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) (فاطر/10). وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنيّة بقوله: (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها) (إبراهيم/24-25). وفي تلك السطور كلم كثير، كله عند الباري، تقدّس، أثير».

فالمعري يسخر من رسالة ابن القارح عندما يصفها ذلك الوصف الدقيق، ويبالغ في ذلك عندما يقول بأن سطور ابن القارح ستعرج إلى السماء ويدعم كلامه بالآية القرآنية التي يقصد بها كلّ كلام طيب من ذكر ودعاء وتلاوة وتسييح وتمجيد ونحوه. ثم يأتي بالآيتين التاليتين اللتين تدعمان تلك السخرية وتزيدان من حدتها وقوتها. والمقصود من الآيتين هو عمل المؤمن وقوله الطيب وعمله الصالح وأن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كلّ حين ووقت وصباح ومساء. فالكلمة الطيبة هي كلمة الإيمان وكلمة التوحيد، وأبو العلاء لم يقصد إلى ذلك أبدًا.

وكان ابن القارح قد قصّ في رسالته إلى أبي العلاء عن إقامته في مصر، ومجالسته لبعض وزرائها، إذ قال: «ثم سافرتُ منها (من بغداد) إلى مصر، ولقيتُ أبا الحسن المغربي فألزماني بأن لزمته لزوم الظل، وكنتُ منه مكان المثل، في كثرة الإنصاف، والحنوّ والتّحاف». إلا أن أبا العلاء جعل المجالسة لملوك مصر وليس لوزرائها؛ ليسخر من ابن القارح، وليسوغ لنفسه الاستشهاد بقول فرعون عن نفسه، كما حكاه عنه القرآن الكريم. يقول: «وهو قدر الله له ما أحبّ، قد جالس ملوك مصر التي قال فيها فرعون، كما جاء في القرآن الكريم: (أليس لي مُلكٌ مصرَ وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) (الزخرف/51). وقد أقام بالعراق زمناً طويلاً، وأدام على الأدب تعويلاً، وبالعراق مملكةً فارس، وهم أهل الشرف والظرف، يُوفي صرفهم في الأطعمة على كل صرف، ولا ريب أنه قد جالس بقاياهم، واختبر في المعاشرة سجاياهم...».

وفي لقاء ابن القارح مع عدي بن زيد العبادي يسخر هذا الأخير من شاعرية ابن القارح ويقلل من أهمية شعره في الجنة. يقول عدي: «يا مكبور، لقد رُزقت ما يكبُّ أن يشغلك عن القريض، إنما ينبغي أن تكون كما قيل لك: (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) (المرسلات/43). قوله: يا مكبور يريد: يا مجبور، فجعل الجيم كافاً وهي لغة رديئة يستعملها أهل اليمن... فيقول، زاد الله في أنفاسه: إني سألت ربي عز سلطانه، ألا يحرمني في الجنة تلذذاً بأدبي الذي كنت أتلذذ به في عاجلتي، فأجابني إلى ذلك، (وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون) (الروم/18)». القصد من الآية الأخيرة هو الإشارة إلى أن التوفيق لعبادة الله وتسييحه هو نعمة كبيرة ينبغي أن يُحمد عليها، فأبو العلاء أراد تنبيه ابن القارح إلى أن العبادة خيرٌ له من أدبه.

ويخطر لابن القارح غناء القيان بالفسطاط ومدينة السلام وترجييعهن بميمية المخبل السعدي، فتندفع تلك الجوّاري اللواتي نقلتهن القدرة من خلق الطير إلى خلق الحور العين تلحن الميمية، ويدعو ابن القارح ندماؤه إلى سماعها، ويقول لهم: «ألا تسمعون إلى قول السعدي... إنه المسكين قال هذه الأبيات، وبنو آدم في دار المحن والبلاء يقبضون من الشدائد على السلاء، والوالدة تخاف المنية على الوالد، ولا يزال رعبها في الخلد. والفقر يرهّب ويُتقى، والمال يُطلب ويُستبقى، والسغب موجودٌ والظماء، والكمه معروف والكماء، ولم يُكفّف للغير عنان، ولا سكنت بالعمو الجنان فـ «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفورٌ شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب» (فاطر/34-35)».

فأبو العلاء جعل ابن القارح يتلو هاتين الآيتين، ليعبر عن ارتياحه وسعادته واطمئنان قلبه في دار المقامة والخلود.

وزيادةً في السخرية والتهكم من ابن القارح نجده يطلب من الشّماخ بن ضرار، بعد أن ينشده من قصيدته الزائفة، فيظهره أبو العلاء بأنه غير عليم بها وأن النعيم الدائم شغله عنها، فما يذكر بيتاً واحداً، وأنّ لذاذ الخلود قد شغلته عن تعهّد هذه المنكرات، ويجعله يتلو الآيات الكريمة: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ⁴²كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (المرسلات/41-43)».

وقريب من هذا ما يجيبه به الشاعر عمرو بن أحمر، حين يستنشده، وهو أن أهوال القيامة لم تترك لهم متسعاً للإنشاد، وكأنه ما سمع الآية الكريمة: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) (الحج/2)، ويعجب له إذ بقي معه شيء من رواية الشعر، فيقول ابن القارح بأنه كان يخلص الدعاء في أعقاب الصلوات، قبل أن ينتقل من تلك الدار، أن يمتعه الله بأدبه في الدنيا والآخرة، فأجابه إلى ما سأله وهو الحميد المجيد».

كما سخر أبو العلاء من أذعياء الشعر، فتكلم طويلاً في ضعف الرجز، وقصوره عن مراتب الشعر، وما يغلب عليه من خشونة وتكلف، وأفرد للرجز جنة خاصة جمع فيها رجاز العرب وهم الأغلب العجلي والعجاج ورؤية وأبو النجم وحميد الأرقط وعذافر بن أوس وأبو نخيلة، وكل من غفر له من الرجاز، ويروق لأبي العلاء أن يغري ابن القارح بانتقاص رجز رؤية وأبيه العجاج، فإذا رأى ابن القارح في رؤية من العظمة والكبر قال له: « لو سُبِكَ رَجَزُكَ وَرَجَزُ أَبِيكَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ قَصِيدَةً مُسْتَحْسَنَةً ».

ويتهم رؤية بأنه كان يأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق، وأنّ غيره أولى بالأعطية والصلوات. ويشند الجدال ويتفاقم الخصام، فيطرد رؤية ابن القارح من مكانه في جنته، ويعجب منه أنه جاء لخصامهم في هذا المنزل، ويصف كلامه باللغو، وبأنه لا يميل إلى الانتصاف والعدل تالياً الآية الكريمة: « يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ » (الطور/23)».

وكانت سخريته من ابن القارح لاذعةً مهينةً عندما جعله يتوسّل بالشعر لدخول الجنة، فهو يسخر الشعر في أسوأ غرض يمكن أن يستخدم فيه الشعر، وهو المدح لبلوغ النعيم في الدنيا والآخرة. يقول: « فلما أقمتُ في الموقف زهاء شهر أو شهرين، وخفتُ في العرق من العرق، زينت لي النفسُ الكاذبة أن أنظر أبياتاً في رضوان، خازن الجنان، عملتها في وزن:

قفا نَبِكْ من ذكرى حبيبٍ وعرفان

ووسمتها برضوان. ثم ضانكتُ الناسَ حتى وقفتُ منه بحيثُ يسمع ويرى، فما حفل بي، ولا أظنه أيةً لما أقول. فغبرتُ برهة نحو عشرة أيام من أيام الفانية، ثم عملت أبياتاً في وزن:

بان الخليطُ ولو طووعتُ ما باناً وقطّعوا من حبال الوصل أقراناً

ووسمتها برضوان، ثم دنوت منه ففعلتُ كفعلي الأول، فكأنني أحرك ثبيراً... فلما استقصيتُ الغرض فما أنجحتُ، دعوتُ بأعلى صوتي: يا رضوان، يا أمين الجبار الأعظم على الفراديس... أنا رجلٌ لا صبر لي على اللواب، أي العطش، وقد استطلتُ مدة الحساب، ومعى صكٌ بالتوبة، وهي للذنوب كلها ماحيةٌ، وقد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمك. فقال: وما الأشعار؟ فإني لم أسمع بهذه الكلمة قطّ إلا الساعة. فقلتُ: الأشعار جمعُ شعر، والشعر كلامٌ موزونٌ تقبله الغريزة على شرائط... وكان أهل العاجلة يتقربون به إلى الملوك والسادات، فجئتُ بشيء منه إليك لعلك تأذن لي بالدخول إلى الجنة، في هذا الباب، فقد استطلتُ ما الناس فيه، وأنا ضعيفٌ منيئٌ، ولا ريب أني ممن يرجو المغفرة، وتصحّ له بمشيئة الله تعالى. فقال: إنك لغيبين الرأي! أتأمل أن أذن لك بغير إذن من ربِّ العزة؟ هيهات هيهات! « أنى لهم التناوش من مكان بعيد » (سبأ/52)».

وخاب ظنّه أيضاً في مديحه لخازن آخر هو زفر، إذ عمل له قصيدةً، ووسمها باسمه، فأنشدها له، ولكّنه كأنما يخاطب صخرةً صماءً، واشتدّت خيبته حين قدّم مدحه إلى حمزة بن عبد المطلب الذي زجره بقوله: ويحك! أفي مثل هذا الموطن تجيئني بالمديح؟ أما سمعت الآية: «لَكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ

يغنيه» (عبس/37)؟ فقال ابن القارح بأنه قد سمعها، وسمع ما بعدها: (وَجُوءَ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةً³⁸ ضَاحِكَةً مُّسْتَبْشِرَةً³⁹ وَوُجُوءَ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ⁴⁰ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ⁴²) (عبس/38-42). وقال بأنه لا يقدر على إجابة طلبه، وأرسل معه رسولاً إلى علي بن أبي طالب τ ليخاطب النبي p في أمره⁴¹. ولما صار إلى باب الجنة، سأله رضوان عن الجواز الذي لا سبيل إلى دخول الجنة إلاّ به، فدهش بالأمر، وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»⁴².

فأبو العلاء يسخر من ابن القارح لالتماسه دخول الجنة لا بناءً على صالح الأعمال، ولكن بالوساطة لمجرد مدحه أهل البيت، وهو يسخر من دنيويته لأنه يحمل الدنيا معه إلى الآخرة، فما أن يرى الشعراء والرواة والنحاة، يتجادلون في أمور الشعر حتى ينسى أمر دخوله الجنة وينشغل بحديث الشعر عن خلاص نفسه.

كما سخر المعري من النحاة واللغويين، فعقد لهم في غفرانه مجالس ساخرة، وشغلهم بمجموعة من المسائل النحوية واللغوية والصرفية، وجعلهم في الفردوس متحابين بعد أن كانوا في الدار العاجلة متباغضين⁴³، وصاروا مصداقاً لقوله تعالى: (وَنَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ⁴⁴) (الحجر/47-48).

وكانّ أبا العلاء أراد أن يدعو ابن القارح إلى التسامح مع غيره، حين تفاعل بتوبته التي استحقّ بها أن يصطفي له بسببها ندامى من أدباء الفردوس. كما أنه يعرض به حين يقول إنّ الناس في الجنة يُغسلون من الإحن، ويتلو الآية الكريمة: (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ⁴⁵ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (الرعد/23-24).

وقد شغل النحاة ابن القارح حتى ضاع منه صكّ التوبة، فراح يلومهم على هذه الضجة. ويعقد بين اللغويين في جنته حواراً، فينصرفون عمّا هم فيه من نعيم، ليتجادلوا حول اسم سلاسل في الجنة. فيقول ابن القارح لمن حضره من أهل العلم: ما تسمّى هذه السلاسل بالعربية؟ فيرمّون، أي يسكتون، ويقول بعضهم: هذه تسمّى البواسن، واحدها باسنة، فيقول قائلٌ من الحاضرين: ممّن ذكر هذا من أهل اللغة؟ فيقول ابن القارح: قد ذكرها ابن درستويه، وهو يومئذٍ في الحضرة. فيقول له الخليل: من أين جئت بهذا الحرف؟ فيقول ابن درستويه: وجدته في كتب النضر بن شميل. فيقول الخليل: أتُحَقِّقُ هذا يا نضر، فأنت عندنا الثقة؟ فيقول النضر: قد التبس عليّ الأمر، ولم يحكّ الرجل، إن شاء الله، إلّا حقّاً⁴⁶.

وبمزيد من التهكم والهزاء يصور أبو العلاء طاووساً من طواويس الجنة يمرّ، فيشتهيه أبو عبيدة مطبوخاً، فيتكون كذلك في صفحة من الذهب، فإذا قُضي منه الوطر، انضمت عظامه بعضها إلى بعض، ثم يصير طاووساً كما كان، فينطق أبو العلاء العلماء الحاضرين بجملة مأخوذة من القرآن الكريم هي: سبحان من يحيي العظام وهي رميم. وقد أضاف عليها كلمة سبحان. ثم يستدل على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بالآية التي طلب فيها إبراهيم عليه السلام من ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة/260). ثم يبدأ بينهم نقاش عابث حول موضع يطمئن هل هي منصوبة أم مجزومة.

وحين تمرّ إوزة يتمناها بعض القوم شواء، فتتمثل على خوانٍ من الزمرد، فإذا قضيت منها الحاجة، عادت بإذن الله إلى هيئة ذوات الجناح، ويختارها بعض الحاضرين كردناجاً، وبعضهم معمولة بسمّاق، وبعضهم معمولة بلبن وخلّ... وغير ذلك وهي تكون على ما يريدون. وحين بلغوا ما تمنوه قال أبو عثمان المازني للأصمعي: يا أبا سعيد، ما وزن إوزة؟ فيقول الأصمعي: ألي تعرّض بهذا يا فصعل. وطال ما جئت مجلسي بالبصرة وأنت لا يُرفع بك رأس؟! وزن إوزة في الموجود إِفْعَلَةٌ، ووزنها في الأصل إِفْعَلَةٌ. فيقول المازني: ما الدليل على أنّ الهمزة فيها زائدة، وأنها ليست بأصلية ووزنها ليس فعلية؟ فيقول الأصمعي: أما زيادة الهمزة في أولها، فبذل عليه قولهم ورّ. فيقول أبو عثمان: ليس ذلك بدليل على أن الهمزة زائدة، لأنهم قد قالوا ناسٌ وأصله أناسيّ... وبعد جدل حاد وشجار وصراخ يقول المازني: تأوّل من أصحابنا وادّعاء لأنّ إوزة لم يثبت أن الهمزة فيها زائدة.

ونرى أبا العلاء يسخر من إشفاق ابن القارح على نفسه، وحرصه على دفع شهواته، فيذكر له الآية الكريمة التي ذكرها في حديثه عن الغفران الذي استحقه الأعشى وبه دخل الجنة: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) (الزمر/53).

ثم يتحدث أبو العلاء عن توبة ابن القارح (بإبتياعه عن الخمر) فيذكر اجتماع الشبان المقتبلين عليه والأدباء المتكهلين، وكل أشيب لم يبقَ من عمره إلا القليل. ليقنطسوا من آدابه، وليصغوا المسامع لخطابه. وزيادة في السخرية منه يتلو الآية الكريمة: (إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين) (هود/114).

وأبو العلاء كان يعرف أن ابن القارح كان سكيراً رغم ما ساقه في رسالته من التنديد بالخمر ومن زينوها من الشعراء. وابن القارح يعترف في رسالته إلى أبي العلاء بإقباله الشديد على الشهوات فقد أعلن أنه أضاع نصف عمره في الفسق. يقول: «وأنا تعبتُ وحفظتُ نصف عمري، ونسيْتُ نصفه. وذاك أني درست ببغداد وخرجتُ عنها وأنا طريّ الحفظ، ومضيْتُ إلى مصر فأمرجتُ نفسي في الأغراض البهيمية، والأعراض المؤتمية، وأردتُ بزعمي وخديعة الطبع المُلِيم أن أذيقها حلاوة العيش، كما صبرتُ في طلب العلم والأدب، ونسيْتُ أن العلم غذاء النفس الشريفة وصقيلُ الأفهام اللطيفة».

ولذا نجد أبا العلاء يتهم من توبة ابن القارح، فلا يجعلها توبة من القلب، تلازمه فتدخل صاحبها الجنة، ولكن مجرد حبر على ورق، كجواز سفر يمكن أن يضيع، فهي توبة مثبتة في ورقة يسميها المعري صك التوبة أخذ ابن القارح من قاضي حلب.

وفي موضع آخر يتحدث أبو العلاء عن البخل. وهذا يشير من بعيد إلى تهكمه بابن القارح، وإن لم يصفه صراحة بالبخل. يقول: « وإنا لنجد الرجل موقناً بالآخرة، مصداقاً بالقيامة معترفاً بالوحدانية، وهو يحجاً على النابح بعظم، وعلى الجارية بعارية نظم، كأنه في الأرض مُخلدٌ، وإن فني سهلٌ وجلدٌ. وكثير من الذين يتلون الآية: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِنْهَا حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة/261)، وهم بها مصدقون، ومن خشية

إلهمهم مشفقون، يضمنون بالقليل التافه، ولا يسمحون للسائل ولا الوافه، فكيف تكون حال من ينكر حديث الجراء، ولا يقبل عن الفانية حسن العزاء؟».

ويتحدث المعري عن الدنانير حديثاً طويلاً، ثم نجده يتعرّض لأمانة ابن القارح حين يصف دنائره بأنها مقدسات، وأنه لا يدفع إلى مقارض شيئاً من عيمه، أي مختاراته، وهذا يذكره بالآية التي وردت فيها كلمة دينار في كتاب الله: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) (آل عمران/75)، ويقول: « هذا قيل لرسول الله ﷺ، وقد كان في زمانه من يتحرّج، يتصمخ بالنسك ويتأرجح، فأما اليوم فلو آمن كتابي على نمي، لأسرعت إليه الظنن إسراع رمي، والرمي ههنا سحاب سريغ الإقشاع... وما عنيث بالكتابي، من نسب إلى توراة وإنجيل، دون من نسب إلى القرآن البجيل».

وكان ابن القارح قد ذكر لأبي العلاء خبر بنت أخته التي سرقت له ثلاثة وثمانين ديناراً، فيتخذ أبو العلاء من ذلك وسيلة للسخرية من ابن القارح، وقد تجاوز المبلغ الرقم سبعين، فيجمع له الآيات الكريمة التي ذكر فيها هذا الرقم، فإذا هنّ ثلاث آيات. يقول: «وإن كانت زائدة على الثمانين، فقد أوفت على عدة أصحاب موسى الذين جاء منهم: « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا» (الأعراف/155)، وعلى عدة الاستغفار المذكور في قوله تعالى: « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ» (التوبة/80)، وعلى عدة أذرع السلسلة في قوله تعالى: «فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ» (الحاقة/32)».

كما سخر أبو العلاء من ابن القارح عندما ذكر الزواج يريد الخدمة. وهذا ما دفع أبا العلاء لإبداء رأيه في هذه المسألة، فنصح أن يتزوج امرأة نصفاً، أي: متوسطة في العمر، ولذلك تلا عليه وصف الله Y، لعمر البقرة التي طلب من بني إسرائيل أن يذبحوها: «لَا فَارِضٌ وَلَا بَكَرٌ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ» (البقرة/68).

وقد سخر من ابن القارح أيضاً حين همّ بالزواج من كهلة، فسوّره وقد تسابقت العجائز والكهلات إلى خطبته لأنه « ليس بأول من طلب نجوراً، فتزوّج على السنّ عجوزاً كما قال: إذا ما أعرض الفتيات عني فمن لي أن تساعفني عجوزاً كان مجامع اللحيين منها إذا حسرت عن العرنيين كوز؟ »

ومن هذا المبدأ الرافض للزواج والتناسل، كره الكنى ورفض أن يكنى (أبا العلاء) ساخرأ من كنيته، ومستبدلاً إياها بكنية مناقضة: دعيث أبا العلاء وذلك ميين ولكن الصحيح أبو النزول

ويقول أيضاً بسخرية حزينة: « كنييت وأنا وليد أبا العلاء فكأنّ علاء مات، وبقيت العلامات، لا أختار لرجل صدقٍ ما ولد له ولد أن يدعى أبا فلان».

وكذلك كان للسخرية نصيب وافر في رسالة الملائكة الصرفية. إذ تبدو هذه السخرية من انشغال النحويين بالهين الساذج، وصرفهم حياتهم في بحث لغوي غير مهمّ، فهم في لحظات الاحتضار يتحاورون مع ملك الموت عن اشتقاق اسمه. وبعد عرضه الصراع بين النحاة في الاشتقاق العابت، يردّ الملك ساخرأ من أبي عبيدة النحوي الذي استشهد برأيه: «وما أبو عبيدة وما هذه الأباطيل إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد وإلا فاحسأ ورائك. فأقول: أمهلني ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل فأقيم الدليل على أنّ الهمزة زائدة فيه. فيقول الملك: هيهات ليس الأمر إليّ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

فأبو العلاء لم يثق بالنحو المتخّم بالتكلف والاصطناع، والتأويل، فهتف في كتابه الأيك والغصون: « يا نحو يا نحو. حُقّ لما كتب منك مَحُو. ما أنت وما الحاجة إليك. إنما يُفَقَّر إلى تقوى الله. ما أشغلني إذا نودي بي عن أحكام النداء. ما ترخيّم وضع. وكلامٌ ضم وجمع. جُرّ بالإضافة. ونصب على الإغراء».

وفي رسالة الصاهل والشاحج تتضح لنا سخرية أبي العلاء اللاذعة بالسيد عزيز الدولة وأبو العلاء لا يستعمل في رسالته الأسلوب المباشر في سخره المرّ بعزير الدولة، البطل غير المنظور على مسرح الصاهل والشاحج، وكذلك في سخره بابن القارح، البطل المشهود على مسرح الغفران، ونرى أبا العلاء يبالغ كثيراً في وصف الأمير عزيز الدولة على لسان الصاهل والشاحج. يقول الصاهل، بعد أن سأله الشاحج عن المحرد في سفره: «إلى حضرة مؤاس آس، قد بسط آمال الناس، أديب أدب ما هو بجديب ولا جادب. كاد يكون عدله في الأفاق مطراً، وتأرجت البلاد بثناء عليه فهمّ الجو أن يكون عطراً. أقام السوق للفصاحة، وأذكى القلوب بالتذكرة، وأيقظ العيون من طول الرقدة.

فيقول الشاحج: صدق زاعمٌ فيما زعم، إنه لكما تصفُ وأنعم. وهو على إدراكه جدُّ العظماء، ضاربٌ بالسهم الفائز من سهام العلماء. وليس كذلك جماعة الملوك، لأنهم يرهبون فلا يؤدّبون، وإذا كان أحدهم صغيراً، كان في الباطل واللعب مُغيراً، حتى إذا كبر أنف فلم يستأنف. وهذا الأميرُ كما نطق به الكتاب الكريم من قوله تعالى: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) (القصص/ 14 ويوسف/ 22). فالله القادر يبلغه أفضل آمال المجودين، إذ كان كما قال تعالت كلمته: (وكذلك مكناً ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (يوسف/ 21).

قد عرف خُدع الأزمان فأصبح من الثوب في أمان. يعتقد أن الإنفاق أفضل من الإشفاق، وأنَّ الدرهم إذا جُعِل في كيسٍ فما يزال في تنكيس... وكذلك ينبغي أن تكون شيمُ الأولياء...». فأبو العلاء يستحضر آيات الذكر الحكيم لتعظيم وتقويم صورة الممدوح، عزيز الدولة. وقد وردت الآية الأولى في قصة موسى عليه السلام. إذ ذكر الله تعالى أنه لما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً، يعني النبوة.

وقد وردت هذه الآية أيضاً في قصة يوسف ١، حيث ذكر الله تعالى أن يوسف لما استكمل عقله وتمّ خلقه آتاه الله العلم والفهم والتفقه في الدين والنبوة التي حباه بها بين أولئك الأقبام، وكذلك يجزي الله المحسنين، أي إن يوسف كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة الله تعالى. وفي الآية الثانية يخبرنا الله تعالى عن دور يوسف ١ في مصر، وما علمه الله من تأويل الأحاديث، أي تعبير الرؤيا.

إن هذه المعاني العميقة السامية التي تحملها هاتان الآيتان هي في وصف النبيين يوسف وموسى عليهما السلام فهذا الحديث خاصٌّ بالأنبياء فقط. إلا أن أبا العلاء قد وظفه في سياق مدح عزيز الدولة، وبما أنه لا مجال للمقارنة بين المقامين، فإن أبا العلاء ساق هاتين الآيتين للسخرية من عزيز الدولة على لسان الشاحج.

ويقول الشاحج في مكان آخر: « وإذا ركب السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء – أعز الله نصره - دعا له البرج والصور بدعاء يفهم».

فيردّ البعير قائلاً: « وأما قولك: إن السيد... فيجوز أن تكون عنيت بدعائهما له، حُسَن أثره فيهما. فإن مثل هذا يوجد في كلام العرب وغيرها كثيراً. وفي الكتاب الكريم: « وإن من شيء إلا يسبح بحمده» (الإسراء/ 44).

وقد قصد الشاحج بالبرج: جمع أبرج وهو الواسع العين. والصور: جمع أصور، وهو المائل العنق. إما خلقة وإما أن يكون لمرض.

وهكذا سلك أبو العلاء أسلوب التورية والإلغاز للسخرية والتهكم بالسيد عزيز الدولة. كما يعرّض أبو العلاء بالسيد عزيز الدولة عندما يصف حال الجالين، وخوفهم الشديد من غزو الروم وآثار هذا الخوف والفرع، وما عليهم للتخلص من هذه الحال إلا أن يتكلوا على السيد عزيز الدولة وحسن سياسته وإدارته التي تنقذهم من غزو الروم وشره. وقد سبق وأشار إلى أن أفعال السيد عزيز الدولة مثل الأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل. ومفعولاته الثلاثة هي الرعية، والعرب، والروم، وهو بحسن سياسته وتدبيره يستطيع أن يعمل فيمن بعدُ منه. فهو وإن كان مقيماً في حلب، فإن فعله يؤثر فيمن وراء الدروب. يقول: « أفلا ينظر هؤلاء القوم حقيقة النظر... ويؤتون عمراً الصمصامة، ويلقون السهم الأقد إلى الرأش بطبته، ويتكلمون بعد الله العظيم على سياسة السيد عزيز الدولة أمير الأمراء - أعز الله

نصره؟ فإنه شرابٌ بإنقاع! قد آل وائلٌ عليه، وركب الصعبة والذلول، وطعن بتامٍ وقصيرٍ، وضرب العدو بالجرار بعد الجراز، ... فمثله -أعز الله نصره- مثلُ السيف الصارم تجدهُ على الوحدة أهيب من النبل الزائدة في العدة، وفي الكتاب المحفوظ: « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين » (البقرة/249) .»

وقوله تعالى هنا هو جزء من الآية (249) من سورة البقرة، التي تخبر عن قلة عدد حزب الإيمان وهم أصحاب طالوت، وكثرة عدد حزب الكفار وهم أصحاب جالوت. فالآية تؤكد أن النصر يأتي من عند الله وحده ليس عن كثرة عدد ولا عُدده. فليتفائل هؤلاء القوم بالنصر على الروم، وإن كانوا قليلي العدد والعدة.

وقد تسامع الناس أن السيد عزيز الدولة ينظر في العروض للخليل، وتزاحم الشعراء على بلاطه، وهو يفحص بضاعتهم ويزنها. وينزلهم منازلهم التي يراهم أهلًا لها. وقد تذرّع أبو العلاء بشكوى بني أخيه التي اكتفى بالإشارة إليها في مقدمة الرسالة، ومضى يشخص الشاحج وقد نظم مظلمته التي يلتمس من يرفعها إلى السيد عزيز الدولة لما بلغه من نظر الأمير في العروض ومعرفته بأقدار الشعراء. ثم عدل عن المظلمة المنظومة، وصاغها بأسلوب الإلغاز والتورية عسى أن تُعرض على الفقهاء والشعراء في الحضرة العالية فتحتيرهم بالغازها. يقول أبو العلاء متحدثاً عن فروسية عزيز الدولة، وعن نظره في عروض الخليل: « ومن ذلك ما حدث به رجلٌ يُعرف بـ "علي بن محمد بن عبد الله العقيلي" أنه رآه في الزمان بحضرة ملاً عظيم من الأمراء والفرسان، يعمل بسيفين عن يمين وشمال والفرس تجري به أشد الجري، وأن هذا الرجل يأخذه الزممع مع هول ما يراه، وحُق له أن يزَمَعَ. ليس هذا من فعل الأدميين. ولو قال قائلٌ إنَّ ملكاً من الملائكة شهد يوم بدر على هذه الهيئة، لكان عجباً من الأنباء. ولو رأى محمد ابن يزيد المبرّد السيد عزيز الدولة -أعزّ الله نصره- وعمله بالسيفين، لعلم أن العطف على عاملين جائزٌ في قولك: زيدٌ في الدار والحجرة عمرو. ولم يلحقه شكٌ في ذلك.

وحدث هذا الرجل العقيلي أيضاً، أنه رآه بحلب، حرسها الله، وهو ينظر في العروض للخليل. وهذه قريبةٌ من الأولى في العجب: الملوك قد شُغلوا عن الفروض فما بالُ النظر في العروض؟! فالتهمك واضح هنا وكأنه يقول نريد أن نرى أثر هذه الشجاعة والفروسية في صدّ العدو وكذلك حين يظهر بمظهر المادح إياه لاهتمامه بالشعر والعروض وهو الهازئ الساخر المتهمك بمن ينشغل بالعروض عن الفروض، وبالشعر عن حماية الحدود وسدّ الثغور.

ونظراً لأن أبا العلاء كان صادقاً في كلّ شيء. فإن صدقه هو الذي حدد مسار أدبه. فاتخذ موقفاً محدداً من شعر التكسب، وراح يسخر من المديح قائلاً: « المديح في كلّ زمان. ما رفع قدر مشنم ولا يمان. وما الذي أفاده رسول الله ﷺ لما امتدحه كعبٌ وحسان. وهل يلتئم بالمدح شعبٌ؟ ».

ويسخر من شعر التكسب، فيقول على لسان الشاحج: «ومع هذا فإن كرهت أن أتصور بصور أهل النظم المتكسبين الذين لم يترك سؤالُ الناس في وجوههم قطرةً من الحياء، ولا طولُ الطمع في نفوسهم أنفةً من قبيح الأفعال». لأن الآية تشهد عليهم بالتخَرُّص وقول الأباطيل: « ألم تر أنهم في كلّ واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون » (الشعراء/225-226).

فالشعر عنده «إذا جُعل مكسباً لم يترك لشاعر حسباً، وإذا كان لغير مكسب حسن في الصفات والنسب. مالم تُسبّ المحصنة، وتعدّ للعار المُرصفة. وإذا رأيت الشاعر فلا تقل: « والشعراء يتبعهم الغاؤون » (الشعراء/224). فإن الآية وُصلت باستثنا. وجني السيئة شرُّ الجنى. لا تجهلوا فضيلة الشعر فإنه يذكر الناسي، ويحلّ عزمة الفاتك، ويعطف مودة الكاشح ويشجع الجبان: وإن أشعر بيت أنت قائله بيتٌ يقال إذا أنشدته: صدقا»

وبذلك نجد أبا العلاء قد وظّف الآية والحديث بغرض السخرية والتهكم من بعض أبطاله، كابن القارح بطل الغفران وعزيز الدولة بطل الصاهل والشاحج، وهذا ساهم في تدعيم وتقوية هذا الجانب من أدب المعري.

4- الرد على الخصوم:

ذكرنا في الفقرة السابقة أنَّ أبا العلاء عانى كثيراً من أعدائه وحساده الذين تقوّلوا عليه ما لم يقل، وقد بالغوا في تهجمهم عليه إلى حدّ توجيه التهم إليه في دينه والتشكيك في معتقده. ومبعث هذه التهم في الأكثر الغالب ثلاثة أمور: أولها مسلك المعري في حياته ونسكه وزهده وترهّبه وامتناعه عن أكل الحيوان وما ينتجه. وثانيها كتاب الفصول والغايات وهو كتاب أملاه المعري بأسلوبه المنمّق المعروف في تمجيد الله وحمده. فزعم خصومه أنّه أراد به معارضة القرآن. وثالثها ديوانه المشهور لزوم ما لا يلزم، وما ورد فيه من أقوال لا يخلو بعضها من جرأة وعنفٍ ونقدٍ قاسٍ لرجال الأديان وأصحاب المذاهب والطرق من كلّ ملةٍ وطائفة، كما لا يخلو بعضها الآخر من غموض يبعث على التساؤل والاستفسار.

وقد حاول أبو العلاء دفع هذه التهم عن نفسه فزجّ نفسه في مناظرات مع خصومه كما رأينا في رسائله المتبادلة مع داعي الدعاة الفاطمي. وكان محور المناظرة قصيدة أبي العلاء في اللزوميات، التي ذكر فيها مسلكه الانعزالي في حياته.

وهناك أبيات أخرى في اللزوميات كانت مثاراً للتأويل والتقول، وقد أثر أبو العلاء الصمت تجاه من طعن عليه في هذه الأبيات لولا أن بعض أصدقائه ألحوا عليه أن يدفع عن نفسه التشرّ والاذية، فأملّى كتابه زجر النابج وهو كاره، فقد ذكر ياقوت في معجمه أن كتابه زجر النابج «يتعلّق بلزوم ما لا يلزم، وذلك أنَّ بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم ما لا يلزم يريد بها التشرر والاذية. فألزم أبا العلاء أصدقائه أن ينشئ هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره».

وقد ذكر أيضاً كثير من المؤرخين أن هذا الكتاب يتصل اتصالاً وثيقاً بديوانه لزوم ما لا يلزم، ومنهم ابن العديم الذي يقول في كتابه الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجزي عن أبي العلاء المعري: «وقد وضع أبو العلاء كتاباً وسمه بـ "زجر النابج". أبطل فيه طعن المزري عليه والقادح. وبين فيه عذره الصحيح، وإيمانه الصريح، ووجه كلامه الفصيح. ثم أتبع ذلك بكتابٍ وسمه بـ "نجر الزجر" بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر. فلم يمنعهم زجره، ولا اتضح لهم عذره، بل تحقق عندهم كفره، واجترأوا على ذلك وداموا، وعنفوا من انتصروا له ولا مواء، وقعدوا في أمره وقاموا. فلم يرعوا له حُرمة، ولا أكرموا علمه، ولا راقبوا إلا ولا ذمةً، حتى حكوا كفره بالأسانيد، وشدّدوا في ذلك غاية التشديد، وكفره من جاء بعدهم بالتقليد».

ومن هؤلاء المؤرخين الذين أشاروا إلى زجر النابج أيضاً يوسف البديعي في كتابه أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري، حيث يقول: «وقد ألف أبو العلاء كتاباً في الرد على من نسبته إلى معارضة القرآن والجواب عن أبيات استخرجوها من نظمه. ورموه بسببها بالكفر والطغيان. وسمّى الكتاب زجر النابج، ردّ فيه على الطاعن في دينه والقادح».

وهناك مؤرخون آخرون أشاروا إلى كتاب زجر النابج كالفقفي في إنباه الرواة، وسبط ابن الجوزي في مرآة الزمان، وشمس الدين الذهبي في تاريخ الإسلام، وغيرهم.

وبهنا أن نشير هنا إلى أن هذين الكتابين، أي زجر النابج ونجر الزجر، قد فُقدَا ضمن تراث أبي العلاء المفقود، ولم يصلنا عدا جزء صغير، أو بالأحرى مقتطفات من أولهما، وهو زجر النابج، وهي مقتطفات لا تتجاوز حرف الراء، ومعنى هذا أن ثلثي الكتاب قد ضاعا. وقد عثر على تلك المقتطفات مصادفةً الدكتور أمجد الطرابلسي بإحدى نسخ ديوان اللزوميات بقسم المخطوطات في المتحف البريطاني، فأخرجها محققةً في إطار واضح ونشرها المجمع العلمي العربي بدمشق.

وقد قدّم الدكتور أمجد لتلك المقتطفات بمقدمة شاملة وافية، عرض فيها فكرة كتاب الزجر وموضوعه والهدف منه، وأسلوب أبي العلاء في تنفيذ أقوال خصومه وحساده.

ومما جاء في مقدمة المحقق قوله: «ويبدو من قراءة هذه المقتطفات التي أمكن العثور عليها من زجر النابج أن أبا العلاء إنما كان يرد على خصم واحد بعينه لا على خصوم كثير. فهو يوجه كلامه إلى هذا الخصم بصورة المفرد دائماً، ويطلق عليه تبعاً للمناسبة نعتاً كثيرة، منها ما قد يحتمل بئس، ومنها ما يبلغ الغاية في القسوة. فهو أحياناً: الطاعن، والمتكلم، والمنكر، والمعترض، وهو أحياناً أخرى: المتحامل، والمتقول، والمبطل، والمموه. وهو أخيراً: المتخرّص، والمتسوّق، والمتقرب بئلب البراء، والعريض الكاذب، والملحد».

ويظن الدكتور المحقق أن ذلك الخصم قد تعقّب أقوال المعري في لزومياته للتشهير به بين الناس. يقول: «ويغلب على الظن أن خصماً لأبي العلاء كتب رسالة يتعقب فيها أقواله في لزوم مالا يلزم، ممعناً في أدبته والتأليب عليه، ممّا قلق له بعض أصدقائه فحملوه على أن يردّ عن نفسه سفه هذا الخصم العنيد... ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئاً عن هذا الخصم بالذات أو عن الرسالة التي كتبها في الطعن على اللزوميات وصاحبها، فأبو العلاء لا يشير في هذه المقتطفات التي بين أيدينا من الزجر إلى شيء من هذا. كما أننا لا نعرف مطاعن هذا الخصم وآراءه وأقواله إلا مستنتجةً على وجه التقريب من أقوال أبي العلاء نفسه في هذه المقتطفات. فقد كان أبو العلاء يذكر أحياناً التهمة الموجهة إليه من قبل خصمه قبل أن يعتمد إلى الدفاع عن نفسه». ثم أشار المحقق في الهامش إلى أنّ ذلك الخصم قد يكون أبا منصور الكاتب عبدالله بن سعيد الخوافي المتوفى سنة (480هـ)، فقد ألف كتاباً ردّ فيه على المعري سماه (رجمة العفريت). إلا أنه لم يجزم بذلك وترك الأمر معلقاً حتى تظهر دلائل جديدة تثبت ذلك الافتراض أو تنفيه.

وطريقة أبي العلاء في الدفاع عن نفسه وإبعاد الشبهات والمطاعن عن شعره تقوم على توضيح المعنى الذي قصد إليه في كل بيت جعله الطاعن غرضاً له، فأساء فهمه أو حرّفه عن موضعه. وكان من السهل اليسير على أبي العلاء أن يرد على المطاعن الناشئة عن غباوة خصمه أو خبرته القليلة أو جهل مبين بأحكام المنظوم أو بأساليب القول. لكن المطاعن التي لم تكن تخلو من دقة أو حرج فقد كان أبو العلاء يعتمد فيها معرفته العميقة بأساليب البيان العربي، مؤكداً أن كلامه وإن أتى ظاهره عاماً شاملاً فإنه خرج على الخصوص، أو أن فيه حذفاً، أو أنه جاء على سبيل العكس، أو على سبيل المجاز، أو أريد به اللغز.

وقد اضطره ذلك إلى دعم رأيه بكثرة الشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف، وأقوال المفسرين إضافة إلى فيض من أشعار العرب وخطبهم ينتقي منها ما يناسب السياق والمقام. وسندرس هنا أقوال أبي العلاء في الدفاع عن نفسه، والتي استشهد في إثباتها وتوضيح معناها، بالقرآن والحديث. يقول في إحدى لزومياته:

- 1- أقيمي لا أعدّ الحجّ فرضاً على عجز النساء ولا العذاري
- 2- ففي بطحاء مكة شرّ قوم وليسوا بالحماة ولا الغياري

ويقول في الرد على من اعترض عليه في هذين البيتين: «هذا مذهب قد قيل به في صدر الإسلام. وقد روي أن بعض الصالحين أراد النهوض إلى الحجّ، فجاءت امرأته تسأله أن يرحل بها معه، فدفعها دفعة عنيفة وقال: الزمي بيتك، فلا حجّ على مثلك لأنّه شاقّ منصب. فأما في هذا العصر فقد أفتى الجلة من الفقهاء بأن الحج ساقط عن الرجال المستطيعين للرواحل والزاد، إذ كان السالك في الطريق يلقي من الظمّ واعتراض البادية والسراق الذين طالما سفكوا الدم ولم يقنعوا بأخذ الجهاز والسلب، ما يجعل الحجّ داخلاً في قوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» (البقرة/195) وإن كثيراً من الناس ليقتل بالحرم إذا ظن أن معه شيئاً يُغتنم. وقد أخبر الصادق أنه كان في الطواف فوجد رجلاً قد قُتل بالحجر. وقوله تعالى: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» (الحج/27) لا يعني به النساء وإنما يعني [...]».

إنّ أبا العلاء يرفض حج المرأة خوفاً عليها من السفلة والأنذال في ذلك الزمن. ففي دفاعه عن نفسه، ذكر ما حدث في صدر الإسلام، وما حدث في عصره هو من سرقات وسلب وسفك للدماء حيث شاعت اللصوصية وانتشر قطاع الطرق، مما يجعل الحجّ داخلاً في قوله عز وجل: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة». وهذا كله لا يعني أنه يرفض الحج كركن من أركان الإسلام. فهو في موضع آخر من الزجر يقول في الرد على من اعترض عليه في هذا البيت:

- 20- لقد فُزّت إن كنت تُعطى الجنان بمكة، إذ زرتها، أو منى

«هذا حثٌّ على الحجِّ وندبٍ إليه، كما يقول الرجل: «إِنْ أُعْطِيتُ هذا الفرس بمئة دينار لقد فزتُ» أي إنَّه رخيص يساوي أضعاف ذلك».

ونجده يعرض لهذه الفكرة في موضع آخر من زجر النابج. عندما أشار إلى الركن أو الحجر الأسود وأنه إنما كان يقدسه فئة من الناس، اعتقاداً منهم أنه يد الصنم الذي وضع على هيئة زحل. ويؤكد من خلال كلامه ودفاعه قدسية الحجر الأسود مستشهداً ببعض الأحاديث. يقول في لزوميته: **مالركن في قول ناسٍ، لست أذكرهم إلا بقية أوثانٍ وأنصابٍ**

فيقول في الرد على من اعترض عليه في هذا البيت: «قد كثُر القول في الركن واختلفت فيه الألسن. وحدثني الشريف أبو إبراهيم محمد بن أحمد أنَّ القرمطي إنما أخذ الركن من مكة ليعظمه ويشرفه وذلك أنه يعتقد أنه يد الصنم الذي وضع على هيئة زحل، نستغفر الله من هذا وغيره. وزعم قومٌ أنه كان درّةً بيضاء وأنه اسودَّ من ذنوب بني آدم، وروى بعضهم أن الله جلَّتْ عظمتُه لما أشهد بني آدم على أنفسهم، وذلك في أوَّل الخليقة، كتب العهد في كتاب، ودعا الركن فقال له: افتح فاك، فأودعه في فيه إلى يوم القيامة. وقد روي عن عمر ٢ قبل الركن، وقال: «إني لأعلم أنَّك حجر لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله ٣ يقبلُك ما قبلتك»، وإذا كان الله عزَّ سلطانه ينقل بني آدم من حالٍ إلى حالٍ، فيجعل الصلوك ملكاً والجاهل عالماً والفاجر تقيّاً، فغير منكر أن يفعل في الأحجار وغيرها مثل ذلك وقد يرفعها إلى الشرف الأعظم في الدنيا والآخرة. وليس يمتنع أن يكون الحجر مستعملاً في أمرٍ غير حميد ثم يرفعه الله سبحانه فيجعل فيه البركة ذرعاً إلى تنسك ورحمة».

كما يستعمل أبو العلاء مقدرته اللغوية والفلسفية في الردِّ على خصمه الذي فسّر معاني أبياته باتجاه آخر لم يقصده أبو العلاء. وكان للقرآن الكريم دور كبير في توضيح المقصد من معانيه والهدف منها. يقول أبو العلاء في لزوميته:

- 1- **لقد ترفع فوق المشتري زحلٌ** فأصبح الشرُّ فينا ظاهر الغلب
- 2- **وإن كيوان والمريخ، ما بقيا** لا يخليانك من فجعٍ ومن سلبٍ

ويقول في الردِّ على من اعترض عليه في هذين البيتين: «المعنى أن الله سبحانه جعل الكواكب تجري بأمره، فإذا حلَّ الكوكب الفلاني بموضع كذا، أوجب ذلك حدوث أمرٍ، كما أن النار إذا أُلقيت في شيء أوجبت حريقه، والسيل إذا مرَّ بمكان غادر فيه غثاءه وترنوقه، وأحدث في الأرض الثأد، وذلك بتقدير الله جلَّ سلطانه. وعلى هذا القول حمل بعض المفسرين قوله تعالى: «**فالمَدْبَرَاتُ أُمَرَاءُ**» (النازعات/5). وقال الناس: "أحرقت النار الحطب" على هذا المجاز. ومنه قولهم: «نفع الشراب العليل» لا يسلّمون أن الشراب ينفع العليل، ولكن الله أجرى العادة أن يُمُنَّ بالنفع إذا شرب. وفي الكتاب العزيز: «**نَزَاةٌ لِلشَّوَى**» (المعارج/16) فجعل الفعل للنار، وإنما الله سبحانه أجرى العادة أن يألم الإنسان إذا مسته النار. وعند المتكلمين أنهم لو سلموا أن النار تحرق بفعل نفسها، وأن الشراب ينفع بفعل نفسه، لكان ذلك موافقاً للذين يزعمون أن الأشياء تكوّنت بالطباع».

فأبو العلاء يريد أن يقول أن كل شيء يجري بأمر الله تعالى، فهو لا ينسب الأفعال للكواكب بل لله وحده، وعلى هذا جاء قوله تعالى: «**فالمَدْبَرَاتُ أُمَرَاءُ**» أي إنَّ الملائكة تدبر شؤون الكون في الرياح والأمطار والأرزاق والأعمار من السماء إلى الأرض بأمر ربها عزَّ وجلَّ. وكذلك قولنا نفع الشراب العليل. فالشراب ينفع بأمر الله وإذنه. وليس بفعل نفسه. والأمر نفسه في قوله تعالى: «**نَزَاةٌ لِلشَّوَى**» فالله تعالى يصف فعل النار وشدة حرها، فهي تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً، وقيل الشوى: جلدة الرأس، وقيل: أطراف اليدين والرجلين. فالله جعل العادة أن يألم الإنسان إذا مسته النار، فهذا حدث بفعل الله وحده وليس بفعل نفسها.

ولكي يكون رد أبي العلاء دقيقاً ومنطقياً كان يعتمد إلى توضيح المعنى المقصود من أبياته، ويستعين في ذلك بالأحاديث الشريفة والآيات الكريمة. يقول في اللزوميات:

8- لو جاء من أهل البلى مخبرٌ سألتُ عن قومٍ وأرختُ
9- هل فاز بالجنة عمالها وهل ثوى في النار نُوبختُ؟

ويردّ أبو العلاء على من اعترض عليه في هذين البيتين قائلاً: «المعنى أنّ ابن آدم لا يدري ما يُقضى عليه. فيجوز أن تتغيّر نيبته في الإيمان فيدخل النار، ويمكن أن يؤمن الكافر قبل الموت بلحظة فيستوجب بذلك العفو. وقد ورد مثل هذه الأشياء في الحديث المأثور: «إنّ ابن آدم ليعمل أعمال أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا قيد الظفر، ثم يرجع عن ذلك فيدخل النار. وإنه ليعمل أعمال أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا قيد الظفر، ثم يُرزق التوبة فيدخل الجنة». وقد كان في زمان النبي ﷺ من كان كافراً به، ثم بدا له أن يؤمن فيجاهد، فقتل فدخل الجنة وهو لم يُصلّ لله صلاةً قطّ. وقد جاء ذلك في الكتاب العزيز في قوله: «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم» (الأحقاف/9)».

فالإنسان يجهل مصيره ومستقرّه الأخير، هل هو في الجنة أم النار. وخير ما يؤيد ذلك حديث المصطفى ﷺ وكذلك الآية الكريمة التي يقول فيها رسول الله ﷺ: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدين، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة، وهذا القول لا يجوز غيره، وبالنسبة إلى الآخرة فهو جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش يؤمنون أم يكفرون فيعذبون».

ويقول أيضاً في الردّ على من اعترض عليه في هذا البيت:
8- لقد ضلّ هذا الخلق ما كان فيهم ولا كائن حتى القيامة زاهدٌ

«هذا بيتٌ فيه إقرارٌ بالقيامة. وأما نفي الزهد عن بني آدم فيحتمل وجهين: أحدهما أن يكون محمولاً على أنّ أكثر الخلق كذلك. لأنّ الرغبة إذا كانت في الأكثر وكان الزاهد إنما يوجد غريباً، جاز أن يخبر عن ترك الزهد بلفظ العموم، والمراد غير ذلك. وقوله تعالى: «وما أنت بمسمع من في القبور» (فاطر/22)، المعنى: إلا إذا شاء الله أن يسمعهم أو يُنشروا في المحشر وهم سامعون مبصرون، وقد روي أنه عليه السلام وقف على قليب بدر وفيه من قُتل من قريش، فنادى بعضهم بأسمائهم، ثم قال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟» (الأعراف/44) ف قيل له يا رسول الله، هل يسمعون؟ فقال إنهم ليسمعون ولكن لا يستطيعون جواباً. والآخر أنّ الزهد تختلف أنواعه فلا بد لابن آدم من رغبة في الدنيا التي يعلم أنها زائلة. وإن الرغبة تختلف فتكثر أحياناً وتقلّ. وقد جاء ذلك في الحديث لما ذكر عند النبي ﷺ معنى قوله: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فقال الحاضرون: كلنا نكره الموت! فرغبة الإنسان في الحياة تدلّ على أنّ زهده غير كامل وإن كان تاركاً لأنواع الشهوات».

إنّ أبا العلاء يركّز في دفاعه على ثلاثة أفكار رئيسية: الأولى هي إيمانه المطلق بيوم القيامة، والثانية نفي الزهد عن بني آدم. وهذا يحتمل برأيه أمرين وقد وضحه من خلال القرآن والحديث. فهو لا يقصد نفي الزهد عن جميع الناس. بل حصره في قلة منهم، كاستثناء قتلى بدر من الكفار في السمع وهم أموات. أما الفكرة الثالثة فهي ما حدّث به الذكر الحكيم من ذم الإنسان فهو ظلوم جهول. يقول: «وقد نطق الكتاب الكريم بدم الإنسان، قال عزّ من قائل: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب/72). فالإنسان هاهنا شائع في الجنس عام لمن خلّق، ولمن لم يُخلّق بعد، إلا خصائص يجوز أن يُستثنى في النية على ما تقدّم من القول، وقد علّم أنّ الظلم والجهل خلقان مذمومان، وقد أقرت بهما الأنبياء بشهادة الكتاب العزيز. من ذلك قوله:

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) (البقرة/35 والأعراف/19). فقد وضّح أنهما بالأكل منها قد أطلق عليهما الظلم. وقال حكاية عن موسى عليه السلام لما وكز الرجل فقتله:
(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (القصص/16). وقال في الحكاية

- عن آدم وحواء: (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (الأعراف/23)
- «ويصرّح أبو العلاء بأن كلامه تكثر فيه الألغاز، كما في قوله:
- 1- في كل أمرك تقليدٌ رضيته به حتى مقالك: ربي واحدٌ أحد
- 2- وقد أمرنا بفكر في بدائعه فإن تفكر فيه معشرٌ لحدوا»

يقول في رده على من اعترض عليه في البيت الأول: «هذا لغزٌ، واللغز يتردد في كلام هذا المتهم (أي المعري) كثيراً... فأما التقليد في البيت فيحتمل وجهين: أحدهما أن يكون من قلدتُ عنقي الشيء، أي جعلته لي قلادة ألزمتها. فأما التقليد بقول كلمة الحق فجار مجرى القلادة التي تزين. والآخر أن يكون التقليد من قلدته إذا أعطته حظاً من المط. أي في كل أمرك تقليد أي شيء يقلد شيئاً، حتى إن التوحيد مستفاد في طول العمر. فقد وضح المعنى. وقد قالت طائفة غير كثيرة أن النبي ﷺ قلّد في التوحيد غيره».

وفي رده على المعترض عليه في البيت الثاني يوضح أبو العلاء معنى البيت مدعماً كلامه بالآيات القرآنية، ففيه دعوة إلى التأمل والتفكير في مخلوقات الله عز وجل، يقول: «هذا محمولٌ على الكتاب والسنة... وبذلك نطق الكتاب العزيز، وتكرر الأمر بالفكر في المخلوقات كقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) (الروم/8). ومُدح المفكرون في ذلك، قال سبحانه: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران/191)، وقوله: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ) (الأعراف/185) ».

كما نرى أبا العلاء يفسر معاني ألفاظه بدقة متناهية، ويربطه بالقرآن الكريم إذ يقول في تعليقه على قوله في اللزوميات:

- 2- نفارقُ العيش لم نظفر بمعرفة أي المعاني بأهل الأرض مقصود؟
- 3- لم تعطنا العلم أخباراً يجيء بها نقلٌ ولا كوكب في الأفق مرصوداً!

«المعاني لفظ مطلق يتناول ما لا يقع عليه الإحصاء. فبنو آدم يعلمون أن الله خلقهم ليعبدوه ويعظموه كما قال سبحانه: « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات/56) فهذا معروف بيّن. ثم يُجهل بعد ذلك ما الذي يُقصد بأهل الأرض من حياة وموت وغنى وفقير وصحة ومرض. وهذا مستنبط من الآية: « إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير » (لقمان/34)... فهذا وجهٌ قوله: أي المعاني بأهل الأرض مقصود. أي أفقر أم غنى، أم تأخير أم تقديم، أم تعجيل أم نظرة؟ ».

ويقول أيضاً في لزومياته:

- 5- الناس في الأرض أجناسٌ مقلدة كالهدي قلّد لم يذعره تهديد
- 6- قالوا فلما أحوالوا أظهروا لداً فالقول ميين وفي الأصوات تنديد
- 7- ضلّوا عن الرشد منهم جاحدٌ جحد أو من يحدّ وهل لله تحديد

ويقول في معرض تعليقه على البيت الخامس، إذ يوضح معنى البيت، ويضرب أمثلةً من القرآن والحديث والشعر: « الناس هاهنا لفظ واقع على معنى الاستثناء. ومثل ذلك كثير في القرآن والشعر. من ذلك قوله ﷺ: «الناس معدّ بن عدنان» والناس لفظة تقع على جميع من له هذه الصورة. وإنما عنى ﷺ قوماً دون قوم، لأنّ في الأرض عوالم كثيرة لهم شخوص الإنس ويقع عليهم اسم الإنسانية وليسوا من ولد معدّ بن عدنان... وقد جاءت الشهادة عن بعض الناس أنهم كالبهائم وأضلّ منها في الكتاب العزيز. ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذْنَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف/179) ».

وبوضح معنى البيت السابع من تلك اللزومية نافياً قول القائل أن لله صورة محددة، ومن يقول بذلك إنسان ضال. يقول: « وقد جاء بيان البيت المتقدم ذكره... فشهد أن الجاحد جحدٌ، وهو القليل الخير، وأن من يحدُّ الله سبحانه ضالاً، إذ كان لا تُعرف له نهاية ولا يوقف له على حدٍّ، وفي العالم خلقٌ كثيرٌ يزعمون أن الله جسم ويجرون إلى غير ذلك من النزول والانتقال وفعل أشياء تدل على أنه صورة محدودة، تعالى عما قيل علواً كبيراً».

والقائلون بذلك هم المشبهة وهم صنفان: صنف شبهوا ذات الباري بذات غيره، وصنف آخرون شبهوا صفات الله بصفات غيره، وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف شتى».

ونجد أبا العلاء يؤكد ويصرّح في كلّ مرة يدافع فيها عن أقواله، ويواجه فيها خصمه أن كلامه مستنبط من القرآن والسنة أو القرآن والشعر أو الكتاب الخبر. كما في رده على من اعترض عليه في البيت الثاني من قوله:

4- أُرْجَوْنَ أَنْ أَعُوذَ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجَوَا فَأَنِّي لَا أَعُوذُ
5- وَلِجَسَمِي إِلَى الثَّرَابِ هُبُوطٌ وَلِرَوْحِي إِلَى الْهَوَاءِ صُعُودٌ

هذا مستنبط من الكتاب والخبر. فأما الكتاب فقوله تعالى: « كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، وَقِيلَ لَهَا مَن رَاقٍ» (القيامة/ 26-27) يرقى بروح هذا المقبوض؟ وقد جاء في الخبر أن أرواح المؤمنين وغيرهم تعرض على الملائكة فما كان منها طيباً أمر به إلى الجنة، وما كان منها خبيثاً رُدَّ إلى الأرض أو جعل في الهاوية. وقد جاء في حديث المعراج مما يتناقله رواة الأخبار أن النبي p لما عُرج به رأى آدم p في بعض السموات وأرواح أولده تُعرض عليه، والمعني بذلك أرواح من يُقبض منهم. فإذا جاءت روح المؤمن استبشر وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب. وإذا عُرضت عليه روح الكافر أعرض وبانت فيه الكراهية، وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. ومثل هذا كثير».

وكثيراً ما كان أبو العلاء يذكر التهمة الموجهة إليه من قبل خصمه قبل أن يبدأ بالدفاع عن نفسه. يقول مثلاً في تعليقه على هذا البيت:

3- وَإِنْ رَجَالاً كَانَ نَسْرٌ لَدَيْهِمْ إِلَهَا عَلَيْهِمْ قَبْلَنَا طَلَعَ النَّسْرُ

«إنَّ ادّعاء المنكر هذا البيت أنه دليل الإلحاد لمن المنكرات، كما يدّعى للثمامة أنها تشبه النخلة، وللذرة أنها من آل الذرة. وإنَّ هذا البيت لعارٍ مما زعم كما عَرِيَ النصل من اللباس والغصن في الشتوة من الأوراق. وإنما الغرض أن العالم يهلك جيلاً بعد جيل ويزول قرناً في إثر قرن كما جاء في الكتاب العزيز: (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) (الفرقان/38). والمراد أن نسرًا الذي ذكره الله سبحانه في القرآن عند قوله: (وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) (نوح/23)، وهو فيما يروى قبل نوح بزمان طويل كان يسجد له قوم، ويطلع عليه النسر من النجوم، فهلكوا كما هلك غيرهم من الأنام. وقد اختلف في نسرٍ هذا، فقيل إنه والذين ذكرا معه، وهما يغوث ويعوق، كانوا رجالاً يُعظمون ويُكرّمون، فلمّا هلكوا اتخذت أتباعهم صوراً من الحجارة تتشاكلهم، وكانوا يسجدون لها. وقد روي أن يعوق ويغوث صنمان، وأن نسرًا إنما غني به نسر أي طائر كان يجيء إلى قوم فيجلونه ويهدون إليه عذراء من عذارى الحي فيأكلها... ولا ريب أنه كان من الطواغيت».

فأبو العلاء يريد أن يقول إنَّ الأمم جميعها إلى هلاك كما هلك قوم عاد وثمود وأصحاب الرس، وجميع الأقوام التي عبدت الأصنام، وذكر الآية الكريمة (وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) التي توضح أسماء الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله. وهي من قوله تعالى: (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا). واختار من هذه الأصنام نسرًا الذي ذكره في بيته السابق، ثم ذكر أقوال المفسرين فيه.

ويرى أبو العلاء أن الحياة جسر بين موتين، موضحاً معناه هذا من خلال القرآن الكريم، يقول في ردّ على من اعترض عليه في هذا البيت:

7- حَيَاةٌ كَجَسَرٍ بَيْنَ مَوْتَيْنِ أَوَّلٍ وَثَانٍ وَفَقَدْ الشَّخْصُ أَنْ يُعْبَرَ الْجَسْرُ

« هذه صفة ما الناس عليه، وإن الحياة كالجسر بين موتين. فالموت الأول هو عدم الإنسان قبل أن يخلقه الله سبحانه، والموت الثاني هو المعروف الطارئ على كل الحيوان. وهذا مأخوذ من قوله تعالى (وكنتم أمواتاً فأحياكم) (البقرة/28) أي معدومين فأخرجكم إلى الوجود. ومعلوم أن الحياة كالجسر بين هذين الأمرين».

وقوله تعالى مأخوذ من الآية الكريمة التي تشرح قصد أبي العلاء وهي: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (البقرة/28).

وقد ذكرنا أن المعري قد أكثر من الألغاز في شعره. فمن تلك الألغاز قوله في تعليقه على هذا البيت:

فَهَلْ يَرْتَجِي خُضَرَ الْمَلَابِسِ ظَاعِنٌ وَقَدْ مُرِّقَتْ فِي بَاطِنِ الثَّرْبِ غُبْرُهَا

«هل، هاهنا، في معنى قد. وكذلك قال أهل العلم في قوله: «هل أتى على الإنسان حيناً من الدهر» (الإنسان/1)، أي، قد أتى. وهذا جار مجرى اللغز في البيت المتقدم. وكثيراً ما تستعمل هل في هذا المعنى... وفيه وجه آخر: وهو أن تكون هل، استفهاماً خالصاً، كما يقول القائل: سبحان الله، هل يعلم الميت بما الأحياء فيه؟ وهو لا يدري: أي يعلم أم لا يعلم. ويكون المعنى: هل يرتجي الميت أن يلبس ثياباً خضراً في الجنة وقد تمرّقت عنه غبر الأكفان، أم هو لا يحسّ بشيء مما هو فيه؟ وقد ذهب جماعة من المسلمين إلى أنّ الميت تأتيه أخبار أهله ويعلم بما كان منهم بعده. ورؤي عن بعض الصحابة حديثاً معناه أنه ما خفي عنه منذ مات شيء من أخبار أهله حتى خبر هرة كانت لهم فماتت. فسبحان الواحد الأحد».

ف "هل" لها معنيان: الأول أنها بمعنى قد، والثاني أنها للاستفهام الخالص. وقد وضع ذلك عن طريق استشهاد بالآية الكريمة، وأخبار الصحابة.

ويقول في إحدى لزومياته:

11- عَكْسُ الْأَنَامِ بِحِكْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ فَتَحَكَّمَ الْهَجَرِيُّ فِيهِ وَسَنَبَرٌ

يوضح المعري مقصده من هذا البيت وهو الإقرار أن كل ما يجري في الأمم بحكم الله وحده مؤيداً ذلك بالآيات الكريمة. أما ما ادّعاه الخصم أن الهجري هو رسول الله p فهذا لم يقله أحد من العلماء أو الجهلة، يقول: «في صدر البيت إقرار أن جميع ما يجري في الأمم بحكم من الله تعالت كلمته، وذلك مستنبط من الكتاب العزيز من قوله: (ومن نعمته ننكسُهُ في الخلق أفلا يعقلون) (يس/68) وقوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) (التين/4-5). وأما ادعاء المتقول أن الهجري يراد به النبي p، فهذا شيء لم يقله أحد من أهل العلم ولا الجهلة، إنما المراد به القرمطي لأنه وأهل بيته مستولون على تلك البلاد، وهي أوطانهم، والأحساء قريب منها... وسنبر رجل كان يصحبهم قديماً، والسنابرة من ولده بقية مع أولئك».

وفي شأن التنازع في أمر القيامة يقول أبو العلاء:

1- أَمَّا الْقِيَامَةُ فَالتَّنَازُعُ شَائِعٌ فِيهَا وَمَا لِخَبِيِّهَا أَصْحَارٌ

يتحدث أبو العلاء عن اختلاف جميع الأمم في مقدار عمر الدنيا وقيام الساعة. ويذكر ما روي من أحاديث عن الرسول p في شأن عمر الدنيا، أما قيام الساعة، فلم يخبر النبي p ولا غيره بوقت قيامها. فهذا أمر لا يعلمه إلا الله. يقول في الدفاع عن نفسه في هذا البيت: «المعنى أن الأمم تختلف في القيامة وفي مقدار عمر الدنيا. واليهود يزعمون أنّ مدة الدنيا من أولها إلى آخرها سبعة آلاف سنة. وقد روي عن النبي p أنّ عمرها ستة آلاف سنة، ومن وجوه كثيرة أنها سبعة آلاف سنة. وقد نقل أصحاب الحديث أنه p قال: «بعثت في الألف الآخر» وفي رواية أخرى: «بعثت في آخرها ألفاً» والمجوس تزعم أن عمر الدنيا تسعة آلاف سنة... ثم الخُلف بعد ذلك واقع في المقدار الذي مضى فيها. فهذا كله يوجب التنازع والجهل بالأمر. وقد جاء في الكتاب العزيز: «يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (القيامة/6) وذلك إنكاراً على من سأل. وكذلك قوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا» (الأعراف/187) فلم يخبر النبي p بوقت الساعة ولا في أي زمان تكون».

ونجد أبا العلاء يؤكد لنا في كلّ مرّة أنّ مرجعه الأساسي في ردّه هو القرآن الكريم وأن معانيه مستنبطة من القرآن، أو قد نطق بها القرآن. يقول في إحدى لزوميّاته:

3- وَالنَّاسُ مِثْلُ النَّبْتِ يُظْهِرُهُ الْحَيَا وَيَكُونُ أَوَّلَ هُلْكِهِ الْإِظْهَارُ

10- وَلَدَيْ سِرٍّ لَيْسَ يُمَكِّنُ ذِكْرَهُ يَخْفَى عَلَى الْبَصَرِ وَهُوَ نَهَارٌ ٥

يقول في الردّ على من اعترض عليه في البيت الثالث من تلك اللزومية: « هذا شيء قد نطق به القرآن في قوله تعالى: «والله أنبتكم من الأرض نباتاً» (نوح/17). وفي المشاهدة أنّ ابن آدم يبدأ غصياً نضراً كالنبت في أول ظهوره، ثم يكتهل، ثم يناله الهرم، ثم الموت، فيصير كالحطام اليابس. وقد شبه الله سبحانه المؤمن بالزرع وهو اسم يقع عليه النبات، قال: (كَزَّرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ) (الفتح/29). فأما الشعراء فقد كثر تشبيههم للإنسان بالنبت والغصن في الجاهلية والإسلام».

وفي ردّه على البيت العاشر من اللزومية يصف خصمه بالجهل والاعتداء. ويقول إن ذلك السرّ خاصّ به والإنسان مأمور بحفظ الأسرار كما قال رسولنا الكريم p. وقد ليم من أجرى إلى إظهار السر. بدليل ما ورد في الذكر الحكيم والشعر القديم. يقول: «أما إنكار المعترض البيت الأول (العاشر في اللزومية) فجهلّ منه واعتداء، لأنّ ابن آدم مأمور بحفظ الأسرار. وقد روي أنّ النبي p قال: «استعينوا على أموركم بالكتمان». وكان إذا أراد سفيراً ورى غيره. وهذا مما يدخل في باب الكتمان. وأنكر على حاطب ابن أبي بلتعة كتابه إلى مكة بأمر كان قد عزم عليه النبي p، وفي ذلك نزلت هذه الآية وما بعدها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) (المتحنة/1). وقد ليم من أجرى إلى إظهار السرّ، بدليل قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ) (النساء/83)... وقد ألحّ على مؤلف (لزوم مالا يلزم) في سؤال على هذا السرّ فقال: معناه أنني من أول العمر إلى آخره يُظنّ بي الثراء واليسر لما أعانيه من التفتّع والاستغناء عن الناس، حتى دخلت جملة من ذكر في قوله تعالى: (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) (البقرة/273)». «.

ويقول في إحدى لزوميّاته مشيراً إلى وضع الأحاديث غير الصحيحة:

1- لَعَمْرِي لَقَدْ فَضَحَ الْأَوَّلِينَ مَا كَتَبُوهُ وَمَا سَطَّرُوهُ ٥

ويردّ على من اعترض عليه في هذا البيت، منبهاً إلى أن قوله مبني على الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذه القضية: «هذا مبنيّ على قوله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسْتَ بِرَاقٍ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (البقرة/79).

وقال جلت عظمته: (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُوءُونَ آلَسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران/78).

وقد جاء في الحديث أن بعض الصحابة قال: «يا رسول الله، إنّنا نسمع من اليهود والنصارى أخباراً أفتأذن لنا أن نكتبها؟» فقال p: «أمتهون أنتم كما تهون اليهود والنصارى؟ والله لقد جئتم بها بيضاء كقرصة النقي، فلو أن موسى p حيّ ما وسعه إلا اتباعي». فدّل على ذلك أنّ تلك الأخبار مفتعلة مكذوبة».

فالآيات الكريمة تخبر عن قضية تحريف التوراة على أيدي اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل، وقد زادوا في التوراة ما أحبوا ومحووا منها ما كرهوا. ومحو اسم محمد p من التوراة، لذلك غضب الله عليهم، وقال ابن عباس بأن الآية: «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم» نزلت في المشركين وأهل الكتاب وهم يحرفون الكتاب بتأويله على غير مراد الله. وقال السدي: كان ناس من اليهود قد كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه للعرب ويحدثونهم أنه من عند الله فيأخذون به ثمناً قليلاً».

وفي دفاعه عن قوله:

- 1- تناقض ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار
2- يد بخمس منين عسجد فديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟

يستند إلى القرآن الكريم والحديث ويقول إن رأيه مستنبط من القرآن والحديث، ويتلو الآية التي توضح وتؤيد وجهة نظره. يقول: « وهذا القول مستنبط من الكتاب العزيز والحديث، لقوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر/7) فأمرُوا بالرضا والتسليم لأمر الرسول p، وأن يرجعوا إلى ما قال ويخالفوا العقول إذا أنكرت شيئاً مما في الشريعة.

وعلى ذلك ذهب جلة المسلمين لأن علم الله سبحانه واسع خفي، ولا ينبغي أن يُسأل عما أمر به: لم كان؟ ولا يُسأل علم ذلك إلا له، تعالت قدرته. ولذلك قال: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» (آل عمران/7). وليس قوله "والراسخون في العلم" معطوفاً على اسم الله سبحانه وإنما هو ابتداء. وفي أحد المصحفين: «ويقول الراسخون في العلم» وفي المصحف الآخر: «والراسخون في العلم قائلون»، وليس لأحد أن يعترض على أحكام الله جلّت حكمته فيقول: لم حُرّم الربا وفيه منفعة كثيرة للضعفاء ومربح لمن حُسب من الأغنياء؟ لم حُرّم الميسر؟ وإنما كانت تفعله رؤساء العرب والمتفضلون منها على أهل العدم والإقتار، حتى مدح به المادح قومه، وقاصد الملِك ملكه، وعابوا على من يترك الميسر من الناس... فهذا وما أشبهه معنى قوله: « تناقض ما لنا إلا السكوت له». ثم عطف على هذه الجملة قوله: « وأن نعوذ بمولانا من النار». فشفع الرضا والتسليم بالعوذ من النار، وجاء بالبيت الأول مبيناً بعض ما ينبغي ألا يُسأل عنه وأن يُرجع فيه إلى النبي p، كما لا يجب أن يُسأل: لم جعل في الذهب والورق ربع العشر للمساكين إذا حال الحول؟ هلاً جعل أكثر من ذلك أو أقل. وهلاً فُرّق في إيجاب الزكاة وتكثير الفروض بين من له عشرون [.....] أن لا يُسأل عنها».

وفي قوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة. وكان ابن عباس يقرأ: وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون آمنا به. وحكى ابن جرير أن في قراءة عبدالله بن مسعود: إن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به، وكذا عن أبي بن كعب، واختار ابن جرير هذا القول.

وقد رمى ذلك الخصم أبا العلاء بالإلحاد لقوله في خطاب طفل صغير:

4- يا طفلُ حَلَّتْ بِكَ الرزايا فَأَنْتَ مِنْهَا صَرِيحٌ سَحِرٌ

5- بأيّ ذَنْبٍ أَخَذْتَ فِينَا لَمْ تَجْنِ إِلَّا كَذْبَ صُخْرٍ

فنرى أبا العلاء يكيل له الصاع صاعين فيردّ إليه تهمة الإلحاد قائلاً: « إنكار هذا قد صدر عن قلبٍ مستولٍ عليه الشكّ متمكّن منه الإلحاد. فما سمع من قولٍ يصرفه إليه. لأن الإنسان إذا كثرت همّته بالشيء تصوّره في كلّ أوانٍ، وتوهمه في البقطة والرقاد... وكذلك جاء في الكتاب العزيز لما ذكر المنافقون وما لا يزال بهم من الرعب: (كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو) (المنافقون/4) وكذلك هذا الملحد -أبعده الله- أي شيء سمعه تأوله على ما ثبت في صدره».

ثم يبدأ أبو العلاء بتوضيح هدف ومعنى البيتين ويستند في ذلك إلى أخبار الصحابة والتابعين وأحاديث المصطفى p. يقول: « فأما البيتان فليس فيهما ما ينكر، وإنما هو كالتوجّع لمن حلت به الرزية وهو طفلٌ. والإجماع واقعٌ من أهل الشرائع بأن الأطفال لا ذنوب لهم، وأنّ تعويضهم يكون من عند الله. فإذا كان الطفل لا ذنب له وقد وقعت به المرزنة، فينبغي أن يشتدّ حذر الكبير، وفي هذا الكلام تخويف لما خرج من حال الطفولية. وهو جار مجرى العظة... والتوجّع لمن وقعت به الرزية موجود في كلام الأخيار من الصحابة والتابعين وغيرهم من سادات العالم ومتورّعيه. وقد جاء في الحديث عن النبي p أنّه بكى على ولده إبراهيم فقيل له: يا رسول الله! ألسنتك تنهانا عن البكاء؟ فقال: « تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول ما يغضب الربّ، وإنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون». وقوله: بأيّ ذنب أخذت فينا؟ معنى قولك: مالك ذنب يا طفل».

ويخلصُ أبو العلاء في ردِّ هذه التهمة إلى القول: «والذي يعترضُ على مثل هذه الأشياء لو قدر أن يجعل الخذف بالحصاة إلحاداً، بلَّةُ القيام واللعب وما هو جارٍ مجراها من أفعال الأدميين. وتلك بغضةٌ وقرَّت في الصدر إمَّا لمخالفة من الطبع، وإمَّا لأمرٍ من القضاء لا يُعلم».

ويرد أبو العلاء على خصمه الذي اتهم بإنكار البعث لقوله في لزومياته:

- 1- خُذ المرأة، واستخبرْ نجوماً ثَمْرُ بمطعم الأري المشور
- 2- تدلُّ على الحِمَام، بلا ارتيابٍ ولكن لا تدلُّ على النشور

يقول: «هذا خطابٌ لمنجم على سبيل العكس والسخرية. والعكس في القرآن وفي كلام العرب كثير موجود. من ذلك قوله تعالى: (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) (المائدة/43). إنَّما هذا محمول على القلب، كما يقال لك: إنَّ فلاناً يريد أن يستعين بك، فنقول: كيف يستعين بي والأمر إليه؟ أي هو على خلاف ذلك. ونحو من هذا قوله تعالى: (فرهم يخوضوا ويلعبوا.....) (الزخرف/83 والمعارج/42). فظاهر اللفظ أمرٌ، وإنما هو وعيد، وقد يجيء الأمر على معنى التقرير والتعجيز، كما يقول الرجل لأسيره: إن قدرت أن تخلص من يدي فاخلص! ومن ذلك الآية: (فإن كان لكم كيدٌ فكيّدون) (المرسلات/39) أي إنكم لاتقدرون على كيد. وكذلك قول القائل للمنجم: خذ المرأة فانظر في النجوم! إنَّما المعنى أنك لاينبغي أن تنظر فيها... وقوله «ثمرُ بمطعم الأري المشور» أي إنها لا تأتيك بخير، لأنها تجعل الأري المشور، مُراً مثل الصاب المرّ. فإن كنت يا منجم بزعمك تستدلُّ على الموت بما تلقيه إليك الكواكب، ولا تستدل على أمر الآخرة، وقد كان ينبغي لك أن تكون ذا عَقَّةٍ وأن يحثك ما تعانيه من تنزيل النجوم في منازلها ومسيرها في بروجها على أن تكون من أوثق البرية ديانةً وأعظمهم نسكاً وتحرجاً، على غير هذه السجية».

فأبو العلاء يوظف ثقافته اللغوية والدينية للردِّ على خصمه الذي اتهمه بالإلحاد لإنكاره البعث – كما يرى- إلا أنَّ الشاهد القرآني قد وضَّح المعنى الذي يرمي إليه المعري، فهو يختار جزءاً من الآية يخدم غرضه في توضيح المعنى. وأبو العلاء يسخر من خصمه، وهذا الخطاب الموجَّه إليه كان على سبيل العكس والسخرية، والعكس في القرآن وفي كلام العرب كثير موجود.

ويقول أبو العلاء في إحدى لزومياته:

- 5- أليث لا ينفك جسمي في أذى حتى يعودَ إلى قديم العنصر
- 6- وإذا رجعتُ إليه صارت أعظمي ثرباً تهافت في طوال الأعصر

وهنا نرى أبا العلاء يستغرب ويتعجب من كلام الطاعن، كما يتعجب ممَّن يسمع كلام الطاعن ولا يردّه أو ينهاه عن ذلك، ثم يأتي بشاهد من أحاديث الرسول الكريم وآخر من شعر ابن مقبل، وهو شاعر إسلامي سمع الكتاب المنزل، يثبتان صحة رأيه، كما يرى أن ادعاء الطاعن أن هذا القول كقول الفلاسفة بهتان مبين. ولكي ينفي هذا الكلام، يشرح ما يقصد بقوله "قديم العنصر"، ويضرب أمثلةً من الشعر العربي القديم على ذلك. يقول في ردّه: «فأعوذ بالله من قوم يسمعون كلام الطاعن في هذا البيت ثم لا ينهونه عن ذلك... أفلا يعلم كلُّ من له جسٌّ أنَّ من يشتكي يده أو رجله أو غيرهما من أعضاء الجسد، إذا سكن بالموت فقد زال عنه ذلك الألم؟ ولا اختلاف بين الأمم في ذلك. وفي الحديث المأثور أن النبي p في أحد، لمَّا قُتل عمه حمزة – رضوان الله عليه- وقع في طريق الخيل، فتهيَّب المسلمون العبور عليه، فقال: «طؤوه بحوافرها فإنما هو اليوم مدرّ» فأعلم بهذه المقالة أنَّ الجسد بعد الموت لا يبقى فيه حسٌّ يجد به الألم. وقال ابن مقبل:

- هل الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح
- وكتاهما قد خط لي في صحيفتي فللعيش أهوى لي وللموت أروح

وابن مقبل إسلامي، وقد رأى الصحابة وسمع الكتاب المنزل. وادعأؤه (الطاعن) أن هذا القول كقول الفلاسفة بهتان مبين. لأن "العنصر" يتكلم به جميع العرب، ويقولون: فلان من عنصر كريم، ومن عنصر لئيم. وقد مضى الكلام في "القديم" وإنما يُعنى به ما كان قبل غيره في الزمن وإن كانت المدة قصيرة، كما يقال: عنترة العنسي أقدم من ابن مقبل. ونحو ذلك قول المرقش:
لابنة عجلان بالجزع رسوم لم يتعقن والعهد قديم

وإنما أراد بالقديم ما أتى له سنتان أو ثلاث، لأن الشعراء بذلك عرفت عاداتهم... فكيف يستجيز القائل أن يدعي أن قوله (المعري): "قديم العنصر" يريد به مذهب الفلاسفة ويحكم بذلك حكماً يزعم أنه موجب الرد والميل عن المحبة؟».

وفي الرد على البيت الثاني أثر أبو العلاء الصمت. وإن لم يصبر على ذلك فيجب أن يأخذ بالآية الكريمة القائلة: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (الفرقان/63) أي إنه لن يرد على هذا الطاعن بمثل ما يقول، بل إنه يغفو ويصفح ويسامح ولا يقول إلا خيراً. يقول أبو العلاء: «ما الذي أنكر من هذا القول البيّن في المعقول، المدرك بالحس: أن تصير هذه الأجساد هباءً، فما ظهر منها للريح عصفت به كما تعصف بالتراب. هذا اعتراض ما جواب من ينطق بمثله إلا الصمت. فإن لم تصبر الغريزة على الصمت فإنما يجب أن يؤخذ بأدب الآية: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)».

وفي رد أبي العلاء على خصمه يؤكد أن معنى قوله موجود ومتناقل في الأحاديث الشريفة مما يزيد مصداقية هذا القول. يقول في رده على الطاعن في هذا البيت:

6- والناس في ضد الهوى متشيع لزّم الغلو وناصبي شار

«قد تكرر القول في تخصيص الأخبار والحذف منها. ومعنى هذا البيت متناقل في الأحاديث. من ذلك أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «يدخل فيك النار رجالان، محب مفرط ومبغض مفرط». وقد تبين قول النبي ﷺ في زمان علي، واشتهر أنه أحرق عبدالله بن سبأ لزعمه أنه إله. فما الذي ينكر من هذا القول؟ أليس الشراة من الخوارج يقول فيهم أهل الشرع ما هو مشهور معلوم؟ وجاء في الحديث أن الخوارج "كلاب أهل النار".»

يريد أبو العلاء القول إن غلاة الشيعة الذين يفرطون في حب وتقديس علي ع، وشراة الخوارج الذين يغلون في بغضه، كلا الطرفين قد ضلّ طريقه. ومصيره النار، كما جاء في الحديث الشريف. فليس هناك ما يُنكر في قول أبي العلاء.

ويقول أبو العلاء في إحدى لزومياته:

- 1- إختلاف قد عَمّا في اعتقاد وصلاة لربنا، وطهور
- 2- ونساء ممهورة في البرايا وسبايا سيقّت بغير مهور
- 3- ورأيت الحمام يأتي على العا لم من قاهر ومن مقهور
- 4- وادعوا للمعمّرين أموراً لست أدري ما هنّ في المشهور
- 5- أتراهم، فيما تقضى من الأيـام عدوا سنيهم بالشهور

يعمد أبو العلاء في رده إلى توضيح معاني أبياته مستنداً إلى شواهد من القرآن الكريم تثبت كلامه. كما في رده على المعترض عليه في البيتين الأول والثاني، يقول: «قد تقدّمت الإبانة عن مثل هذا الغرض، وأن المقصد تعجّب من تنافر الأمم، من الذي هو منزل في الكتاب الكريم، لقوله تعالى: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) (هود/118). فما الذي يُعاب من هذا البيت؟ أليس في العالم نساء ممهورة ونساء يُسَيّن لا مهور لهن؟ والسبي في الجاهلية كان بين قبائل العرب، ثم دفعه الإسلام إلا عمن خالف ودُعِيَ فأبى أن يُجيب».

وفي ردّه على المعترض عليه في البيت الثالث يصرح أن كل ما يتعلق بالقرآن، بشأن المعمرين، أو منقولاً عن النبي ﷺ فهو مقبول، وما عدا ذلك فهو مرفوض، يقول: «قد أتى في المعمرين قولٌ كافٍ. فما كان متعلقاً بالكتاب الكريم م ذلك أو منقولاً عن النبي ﷺ فهو مقابل بالتسليم، وما كان من ادعاء الهمج والطغام لم يلتفت إليه».

وفي ردّه على المعترض عليه في البيتين الرابع والخامس يؤكد أبو العلاء أنّ هناك أخباراً مستنكرة لا تتعلق بالكتاب ولا السنة. لذلك فهو يرفضها رفضاً قاطعاً، لأنّ العقل لا يثبتها. يقول: «قد رويوا أشياء مستنكرة لا تتعلق بالكتاب ولا السنة، منها ذكرهم فيما جُمع من أخبار المعمرين أنّ لقمان بن عاد عاش ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة. ولقد ذكر هذا الحديث عند بعض رؤساء المسلمين فقال: لا يجوز أن يبقى هذه المدة جسم! وهذا الحديث موضوع على إفك، لأنّ الذي ذهب إلى أنّ لقمان عمّر هذه السنين يرجع إلى أنّه أعطي عمر سبعة أنسر، وأن كلّ نسرٍ عاش خمس مئة سنة. وهذا لا يثبت عمن يوثق به وإنما هو من أحاديث الأعراب الذين يحدثون بما لا يوجد ولا يمكن أن يكون. ومن أين صحّ للمخبر أن النسّر يعيش خمس مئة سنة؟ ولو ثبت ذلك لجاز أن يدركه الموت قبل أن يبلغ هذه الغاية من العمر. وإنما هذه الأشياء تكثر من أصحاب الأخبار».

ثم يسرد قصة وفد عاد، وفيهم لقمان بن عاد وقيل بن عتر. ومن خلال ردود أبي العلاء على خصمه، وتحديد التهمة الموجهة إليه من قبله يمكننا – كما يرى الدكتور مصطفى الحاج- استنتاج أمر هام وهو أنّ نقد هذا الخصم كان نقداً للمعنى وكان منصّباً على عقيدة الشاعر ولم يكن نقداً شكلياً يتناول الأسلوب وما إليه. ويبدو أنّ ما دار من نقدٍ حول شعر أبي العلاء في حياته كان نقداً للمضمون، وإنما اقتصر على أشعار اللزوم لغرابتها وخصائصها المتفردة في تلك العصور. والحقيقة أنّ أبيات أبي العلاء التي انتقد فيها كما يظهر من هذه المقتطفات من (زجر النابج) هي من شعره الذي يشوبه كثير من الغموض والمعاظلة في المعاني والأسلوب، وهي أبيات إذا قرأها أو سمعها الإنسان العادي لأوّل وهلة يومئذٍ، لا يملك إلا أن يدين صاحبها، ناهيك بإنسان العصور المتأخّرة. إنّ تلك الأبيات- وكلها طبعاً من اللزوميات- يشيع في معظمها طابع الإبهام والإلغاز والتضمين والتكثيف الشديد، وهي تضمّ عدّة ظواهر أسلوبية تحتاج إلى مجهود ذهني كبير لإدراكها في أكثر الأحيان، وذلك كالحذف والتقدير، والتقديم والتأخير، وغير ذلك من الأساليب».

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ أبا العلاء كان يسلك مسلكاً آخر في دفاعه عن نفسه. ذلك أنّه بالإضافة إلى هذه الأبيات التي تفتح باباً للأخذ والردّ، فإن هناك أبياتاً كثيرة صريحة الدلالة على قوة إيمان أبي العلاء وحسن معتقده، حرص أبو العلاء على تضمينها في ردوده ليلفت إليها نظر الناس، وينقص بها من قيمة خصمه ويعنفه على الجهل بها. لذا نرى أبا العلاء في غير موضع من كتابه يغتنم سُنوح مثل هذه الأقوال الجميلة – كما يقول محقق الزجر - ليلفت إليها نظر القارئ، وليأخذ على خصمه تغافله عنها.

وهاهو خصمه يتهمه بجحد الحياة الآخرة لقوله في إحدى لزومياته:

29- ونومي موتٌ، قريبُ النشور وموتي نومٌ، طويلُ الكرى

فيشير المعري إلى قوله في البيت التالي:

30- نوْمٌ خالقنا، إنّنا صُرِينَا لنشربَ ذاك الصِّرا

ويقول: «تأمّل الخالق لمن ليس هو في الدين يالق. فأما الطائفة الذين يومئ إليهم هذا الممّوه فلا يعقدون بالله الأمل، ولا يسرّعون للأخرى العمل، «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون» (الشعراء/227)». ثم يشير إلى قوله في لزومية تلي هذه في اللزوميات:

9- يُهنأ بالخير من ناله وليس الهناء على ما هنا

ويقول: «فهذه شهادة بالدار الآخرة، وحكم بأن الدار الفانية لا ينبغي أن يهنا الإنسان بما أُعطي فيها من خيرٍ لأنّه زائل. وإنّما يجب الهناء، إذا رُفِعَ موتٌ وعناء، وصار من ينال ذلك في غبطة الأبد، والخلاص من المضيق والكبد».

كما يقول في تعليقه على البيت:

1- لا أخطب الدنيا إلى مالك الدّنيا، ولكنّ خطبتي أختها

« لفظ بأنّه لا يخطب الدنيا الفانية إلى ربّها، وإنّما يخطب أختها المنتظرة. فكيف تُدعى الدعوة الباطلة على من هذا اعتقاده، وطلب الآخرة همّه والتماسه؟ فرحم الله القائل:

إذا محاسني اللاتي أدلّ بها كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر»

ويجد أبو العلاء نفسه وحيداً وسط هذه العاصفة، حيث لا معين يقف إلى جانبه ويسانده وينصره إلّا الله. يعبر أبو العلاء عن هذه الحال بكثير من الحزن والألم قائلاً: « فأما العالم الذين يسمعون كلام هذا الإنسان ثم لا ينكرون عليه، فمؤلف (لزوم ما لا يلزم) بينهم غريب مُطَرَّحٌ قد يئس النُصرة... ولكنه ينتظر النُصرة من الله سبحانه بالوعد السابق في الآية: (ثم بُعِيَ عليه لينصرنه الله) (الحج/60) ».

من خلال دراستنا السابقة نلاحظ ما يلي: - الاعتماد الكبير والواضح على القرآن والحديث في ردّ مطاعن الخصم، ودفع الشبهات.

- كان أبو العلاء في كلّ مرّة يدافع فيها عن نفسه يصرّح أنّ أقواله مستنبطة من القرآن والسنة، أو مأخوذة منهما، أو مبنية عليهما، أو أنّ القرآن والسنة قد نطقا بالمعنى الذي يشير إليه.

- كان أبو العلاء مؤمناً إيماناً يقينياً بكلّ شاهد استعان به في دفاعه، سواء من القرآن أو الحديث أو الشعر، وكان اختياره للشاهد دقيقاً ومدرّساً ومناسباً للمقام ومقتضى الحال، إذ كان الشاهد يلخص كل ما يريد أبو العلاء قوله.

- كان يشكّ بالأخبار والروايات، ويصرّح بزيفها، لأنّه كان يعتمد على العقل في كل شيء، فما قبله العقل أخذ به، وما خالف العقل ابتعد عنه.

الخاتمة

بعد هذا الخوض الطويل والعميق في تأثير القرآن الكريم والحديث الشريف في نثر أبي العلاء شكلاً ومضموناً نتوصّل إلى القول:

إن أبا العلاء قد تأثر بالقرآن والحديث إلى حدّ كبير وواضح. فقد رأينا كيف كان القرآن والحديث مادةً أساسيّة في طرح الموضوعات والأفكار التي بثّها في نثره. ففي قضية الشروح اللغوية أشرنا إلى تفوّقه البارز في اللغة، وأنّه كان علامة عصره فيها، وبسبب نزعتة التعليمية كان يعتني بشرح اللغة وتفسيرها. وكان القرآن والحديث المعين الأول في تفسير معاني الألفاظ. ودرسنا أيضاً بعض الألفاظ التي استمدّ المعري أصولها من القرآن والحديث، وبيّنا معناها اللغوي، وكيفية ورودها في القرآن والحديث وكيف استفاد منها أبو العلاء. ووجدنا أنّ هذه الألفاظ منها ما يتعلّق بأسس العقيدة الإسلامية كالإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور والثواب والعقاب والغفران والتوبة. ومنها ما يرتبط بالعبادات التي يقوم بها المسلم، ومنها ما يتعلّق بصفات الله تعالى.

كما كان تأثير القرآن والحديث بارزاً في دراسة المسائل النحوية والصرفية. وقد عبّر عن اجتهاده وتفوّقه وحذقه في كثير من قضايا النحو والصرف. وتجلّت براعته أيضاً في علم القراءات، وإطلاعه على القراءات القرآنية ومعرفة المتواتر وغيره، ومعرفة وجه كلّ قراءة من الإعراب وتأويله، إضافةً إلى كثرة الشواهد والنصوص التي يدعّم فيها كلامه.

وفي سرد الأحداث التاريخية بيّنا أن التاريخ كان من المصادر القوية التي استقى منها أبو العلاء مادته، وقد استعان خلال سرده للأحداث بالقرآن الكريم، خاصّةً فيما يتعلّق بقصص الأنبياء. كما شكّلت بعض الشخصيات التاريخية الإسلامية مصدراً مهماً لأبي العلاء، فتحدّث عنها مستعيناً ببعض الآيات والأحاديث.

وفي بحث قضايا الدين الإسلامي والمعتقدات درسنا خمس قضايا وهي: الجبر والاختيار وقد توصلنا في دراستها إلى أن أبا العلاء كان متوسطاً بين الجبر والاختيار فالاختيار كان واضحاً في الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حياته، وبناءً عليها يحقّ له أن يُعاقب أو يُثاب، أمّا أمور الخلق والحياة والموت فهو مجبرٌ فيها، وهذا متفق مع الرؤية الإسلامية تماماً التي ترى أنّ الإنسان مسيرٌ في أمور ومخيرٌ في أمور أخرى حتى يحقّ له الثواب والعقاب في الآخرة. والآيات التي تدلّ على الجبر والآيات التي تدلّ على الاختيار كثيرةٌ جداً.

وفي دراسة قضية الإيمان بالله تعالى وجدنا أنّ أبا العلاء كان مؤمناً بالله تعالى إيماناً وجدانياً وعقلياً، وقد أفصح عن إيمانه بوحداية الله المطلقة وقدرته الشاملة. وكان في كل ما أتى به متأثراً بالقرآن الكريم والحديث الشريف، إذ استوحى معانيه من هذين المنبعين الثّرين أمّا صفات الله تعالى التي تحدّث عنها كثيراً في نثره فهي نفس الصفات التي وردت في القرآن الكريم. وقد ذكرها المعري مفردةً ومزدوجةً، وعبّر عنها بطريقة مباشرة، وفي كثيرٍ من الأحيان كان يفسح المجال للقارئ لاستنتاج الصفة. فالمعري قد أفاد كثيراً من صفات الله الواردة في القرآن، ومن معانيها المتعددة في جميع نتاجه، وبكثرة ملحوظة في كتابه الفصول والغايات. فوظفها في مكانها المناسب لتؤدّي الغرض المناسب.

كما وجدنا روح التقوى والزهد والخوف من الله تعالى ماثلة في نثره، وهذه الدعوى إلى تقوى الله ماثلة في القرآن الكريم. تلك الميزة جعلت إيمان المعري إيماناً يقينياً لا شك فيه. فأبو العلاء اتخذ صفة الواعظ المرشد الذي يدعو إلى عبادة الله وحده، ويلجأ إلى الترغيب حيناً، وإلى التهريب حيناً آخر، وكان القرآن والحديث مرجعين أساسيين في ذلك. أمّا العبادات التي راح يحض الناس على أدائها فهي عبادة الله وحده وتنزيهه عن كل شريك، والصلاة والصوم، والزكاة والحج، إضافةً إلى وجوب تجنب الخمر، والعفاف والثقة بالله، والعمل الدائب في طاعته وذكره، وفعل الخير والبعد عن الشر وترك الحسد والغلّ ومساوئ الأخلاق. وهذه الوصايا متفقة مع أركان الإيمان، ونهج الإسلام.

وفي دراسة قضية البعث والنشور توصلنا إلى القول: إنّ أبا العلاء كان مؤمناً بحقيقة الموت، فالموت لا بدّ منه ولا رادّ له، والله هو الذي يملك أمر النفس ووقت رجوعها إليه، ومكان موتها، وقد استلهم أبو العلاء آيات الذكر الحكيم فيما أورده من أقوال عن حتمية الموت.

كما تبين لنا إيمان أبي العلاء الصحيح بالبعث والنشور والآخرة والقيامة، تؤكّد ذلك الآيات الكريمة التي استشهد بها في أقواله أو التي استوحى معانيها في نصوصه.

وفي دراستنا قضية الثواب والعقاب بيّنا أن هذه القضية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقضية البعث والنشور. وقد جسّد أبو العلاء هذه الثنائية من خلال الجنة والنار أو النعيم والجحيم، وبيّنا أن القرآن الكريم من أبرز المصادر التي اعتمد عليها المعري في رسم جنته، فقد تشابهت جنة القرآن وجنة الغفران في تصوير النعيم والملذات التي حشدت لأهل الجنة، هذا يعني أن جنة القرآن كانت ماثلة في ذهن أبي العلاء، ولم تغب عن مخيلته لحظة واحدة. لذلك كانت ملامحها موجودة هنا وهناك في كل تعبير من غفران المعري.

والأمر نفسه في حديثه عن جحيم الغفران، إذ وجدناه يستحضر مشاهد كثيرة من القرآن الكريم، وقد أيّدنا ذلك بالآيات الكريمة التي استفاد المعري من ألفاظها وصورها ومعانيها. ولم تقتصر أدلّتنا على الغفران فقط، بل كانت رسالة الغفران والفصول والغايات من أقوى الأدلة التي تثبت ذلك. وتوصلنا إلى القول: إنّ أبا العلاء لم يكن متردداً أو مضطرباً في هذه القضية، بل كان صريحاً وواضحاً. وقد ربطنا هذه المسألة بمسألة الجبر والاختيار، وقلنا بما أنّ الإنسان مجبرٌ في أمور ومختارٌ في أمور أخرى، فلا بدّ من

إثبات الثواب والعقاب في مواضع وإنكاره في أخرى.

وفي دراسة قضية الرسالات بيّنا أن أبا العلاء كان مؤمناً برسالات الرسل، ولم ينكر النبوة، يؤيد ذلك مدحه سيدنا محمداً p ومدحه الدين الإسلامي والكتاب الكريم.

وفي الفصل الثاني درسنا أشكال وصور التأثير الفني للقرآن والحديث في نثر أبي العلاء. وهي: الاستشهاد حيث وجدنا أنه قد استشهد بالعديد من الآيات والأحاديث لتدعيم آرائه وتقويتها. وكان استناده إلى القرآن الكريم أقوى من استناده إلى الحديث الشريف. كما أن صيغ الاستشهاد كانت متنوعة كما رأينا في رسالة الغفران والصاهل والشاحج ومجموع الرسائل، وكانت واحدة تقريباً في الفصول والغايات وذلك لأن الغرض كان محدداً واضحاً وهو التوضيح والتفسير لا غير.

وكلما صغر حجم الرسالة قلّ الاستشهاد بالقرآن والحديث كما رأينا في رسالة الهناء ورسالة الأخرسين.

ثم درسنا الاقتباس والتضمين الذي استخدمه المعري بكثرة واضحة في رسالة الغفران ومجموع الرسائل والصاهل والشاحج، وكان قليلاً جداً في باقي نثره كرسالة الملائكة وزجر النابج ورسالة الهناء ورسائله إلى داعي الدعاة الفاطمي، وكان معدوماً في عبث الوليد والفصول والغايات. وكان أبو العلاء يغيّر قليلاً في الأثر المقتبس حسب ما تقتضي الحال.

وكان أسلوبه في الاقتباس كأسلوبه في الاستشهاد، فقد يضمن كلامه آية واحدة أو آيتين كاملتين. وكثيراً ما كان يقتبس جملة من وسط الآية أو آخرها أو أولها، كما لاحظنا أن الاقتباس كان مقتصرأ على القرآن الكريم فقط دون الحديث الشريف، على عكس ما وجدنا في الاستشهاد الذي شمل هذين الأثرين الشريفين معاً.

وفي دراسة الإشارة والتلميح وجدنا أن مواطن الإشارة والتلميح قد تعددت إذ أشار أبو العلاء إلى العديد من قصص الأنبياء صلوات الله عليهم، كما أشار إلى كثير من المعاني القرآنية. وقد كثرت التلميحات التي تتعلّق بالوعظ والنصح والإرشاد.

وكانت هذه التلميحات كثيرة في رسالة الغفران والفصول والغايات والرسائل، وقليلة في رسالة الصاهل والشاحج ورسالة الهناء وزجر النابج. وقد كان لها دورها الكبير في إغناء أدب أبي العلاء ومنحه قوةً وفصاحةً وجمالاً.

وفي دراسة الاستيحاء رأينا أن أبا العلاء قد استوحى العديد من المعاني القرآنية والحديثية في نثره، وبخاصة في الفصول والغايات ورسالة الغفران، وكانت المعاني المستوحاة قليلة جداً في الصاهل والشاحج ومجموع الرسائل.

كما درسنا توظيف القرآن والحديث في سياق الوصف والتصوير، ووجدنا أن المعري لم يقتصر على استخدام الألفاظ القرآنية بل استمد أيضاً بعض الصور القرآنية في الجحيم والنعيم. فكان القرآن المعين الأول والأهم الذي استمد منه قوة الصورة وجمالها وتأثيرها في المتلقي، ودورها في الإقناع.

وكان استناده إلى القرآن الكريم في الوصف والتصوير أقوى من استناده إلى الحديث الشريف يشهد بذلك مجموع رسائله ورسالة الغفران.

كما وظّف القرآن والحديث في سياق الحوار، ممّا جعله غنياً وعميق الدلالة والتأثير، وأكثر مصداقية وواقعية، وقد ساهم في التعريف بالشخصيات والكشف عن أفكارها، وكان بارزاً في رسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسالة الملائكة.

ودرسنا أخيراً توظيف أسلوب النص القرآني، فقد أمعن أبو العلاء النظر في كتاب الله تعالى، وتمكّن منه، فاستفاد من أسلوبه وبيانه وطريقته في التعبير والأداء. فحاكاه في تقسيم العبارات، وفي ذكر التعقيبات المناسبة للسياق. كما استوحى بعض أساليب القرآن في التعبير والأداء مثل تكرار بعض القصص، وبعض المعاني القرآنية.

وتوصلنا إلى نفي تهمة معارضة القرآن التي ألصقت بأبي العلاء، فهو لم يقصد بهذا الكتاب إلى إلحادٍ أو زندقة، بل إنه ينطق إيماناً وتسبيحاً وتمجيذاً لله عزّ وجلّ.

وفي الفصل الثالث درسنا الغاية التوظيفية للآية القرآنية والحديث الشريف فقد تعددت غايات توظيف الآية والحديث فمن الشرح والتفسير إلى الحجة والبرهان ومن السخرية والتهكم إلى الرد على الخصوم. إذ كان أبو العلاء يوظف القرآن والحديث بهدف الشرح والإفصاح وإزالة الإبهام والغموض عن المعنى، كما كان يوظفهما في سياق السخرية من بعض شخصيات رسائله كما رأينا في رسالة الغفران ورسالة الصاهل والشاحج وأثبتنا أيضاً أن أبا العلاء كثيراً ما كان يوظف القرآن والحديث للاحتجاج لرأي ما أو قضية لغوية أو مسألة أثارت جدلاً.

كما استعان بالقرآن والحديث للردّ على خصومه وحساده، وتوصلنا من خلال دراستنا إلى أنّ أبا العلاء في كلّ مرّة يدافع فيها عن نفسه يصرّح أنّ أقواله مستنبطة من القرآن والسنة أو مأخوذة منهما أو مبنية عليهما، أو أن القرآن والسنة قد نطقا بالمعنى الذي يشير إليه. وكان أبو العلاء مؤمناً إيماناً يقينياً بكل شاهد استعان به في دفاعه. وكان اختياره للشاهد دقيقاً ومدرّساً ومناسباً للمقام ومقتضى الحال.

وهكذا نجد أن أبا العلاء قد استخدم القرآن والحديث في بعض كتبه بشكل أكثر من غيرها، إذ استعان بهذين المنهليين في رسالة الغفران والصاهل والشاحج بكثرة مفرطة. فكان لا يستغني عن توظيف الآية والحديث في كل موضع ولغاية ما.

وكان أبو العلاء موقفاً في فهمه للآية القرآنية والحديث الشريف ومصيباً في توظيفهما. إذ كان اختياره للشاهد في مكانه المناسب من السياق، باستثناء بعض المواضع كما رأينا في قضية تحريم أكل لحم الحيوان، إذ لم يكن توظيفه للآية والحديث دقيقاً عندما دافع عن موقفه ذلك، كما ذكرنا بعض تعميماته التي أيدها بالقرآن الكريم، وذلك في مبحث الحجة والبرهان عندما تحدّث عن مذهب الحلولية وأكد أن بني آدم بلا عقول.

المصادر والمراجع

أ- الكتب القديمة:

- القرآن الكريم
- إتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء: عبد الحكيم القاضي، ط1، دار الحديث، القاهرة، (1410هـ-1989م).
- إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس: أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي، تح: محمد رضوان الداية، ط2، عالم الكتب، بيروت، (1405هـ-1985م).
- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، هذبّه ابن واصل الحموي، دار التحرير، القاهرة، (1382هـ-1963م).
- إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، (1369هـ-1950م).
- الأنساب: أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني، تقديم: عبدالله عمر البارودي، ط1، دار الجنان، بيروت، (1408هـ-1988م).
- أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري: يوسف البديعي، مطبعة الترقى، دمشق، 1944م.
- البداية والنهاية: أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، تح: أحمد عبد الوهاب قتيح، ط5، دار الحديث، القاهرة، (1418هـ-1998م).
- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعرفة، بيروت، (1391هـ-1972م).

- بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (1384هـ-1964م).
- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تح: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، 1407هـ.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تح: عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، (1407هـ-1987م).
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ط1، مكتبة الخانجي بالقاهرة، المكتبة العربية ببغداد، مطبعة السعادة بمصر، (1349هـ-1931م).
- تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تح: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، 1995م.
- تفسير القرآن العظيم: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفحاء بدمشق، ودار السلام بالرياض، (1414هـ-1994م).
- تلبیس إبليس: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي، عُنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية سنة 347هـ إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة النهضة، مصر، 1928م.
- تهذيب الآثار مسند علي: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بلا تاريخ.
- الجامع: معمر بن راشد الأزدي، تح: حبيب الأعظمي، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، (1403هـ). (منشور كملحق بكتاب المصنف للصنعاني).
- خزانة الأدب وغاية الأرب: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ط1، المطبعة الخيرية، مصر، 1304هـ.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وثق أصوله وخرّج أحاديثه وعلّق عليه عبد المعطي قلججي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1405هـ-1985م).
- دمية القصر وعُصرة أهل العصر: علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخري، تح: محمد ألتونجي، بلا تاريخ.
- ديوان ابن أبي حصينة، أبو الفتح الحسن بن عبد الله ابن حصينة السُلَمي المعري، تح محمد أسعد طلس، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية بدمشق، (1375هـ-1956م).
- رسائل أبي العلاء المعري: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان، تح: حسان الطيبي، ط1، دار المعرفة، بيروت، (1426هـ-2005م).
- رسائل أبي العلاء المعري: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان، تح: عبد الكريم خليفة، اللجنة الأردنية للتعريب والنشر والترجمة، الأردن، (1396هـ-1976م).
- رسالة الصاهل والشاحج: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، تح: عائشة عبد الرحمن، ط2، دار المعارف، مصر، (1404هـ-1984م).
- رسالة الغفران: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، تح: محمد الإسكندراني، إنعام فوال، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، (1422هـ-2001م).
- رسالة الملائكة: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، تح: محمد سليم الجندي، مطبعة الترقّي، دمشق، (1363هـ-1944م).
- رسالة الهناء: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، تح: كامل كيلاني، المكتب التجاري، بيروت، بلا تاريخ.
- روح المعاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.
- زجر النابح: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، تح: أمجد الطرابلسي، دمشق، 1965م.
- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، صحّحه وعلّق عليه: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، (1372هـ-1952م).

- سفرنامه: ناصر خسرو، تح: يحيى الخشاب، ط3، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983م.
- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بلا تاريخ.
- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.
- سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تح: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (1414هـ-1994م).
- سنن الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.
- سنن النسائي الكبرى: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تح: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1411هـ-1991م).
- شرح ديوان ابن أبي حصينة: أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري، تح: محمد أسعد طلس، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، (1376هـ-1957م).
- شرح النووي على صحيح مسلم: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (1392هـ).
- شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تح: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1410هـ).
- الصبح المنبي عن حيثة المتنبي: يوسف البديعي، تح: مصطفى السقا، محمد شتا، عبده زيادة عبده، دار المعارف، مصر، 1963م.
- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تح: مصطفى ديب البغا، ط3، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، (1407هـ-1987م).
- صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تح: شعيب الأرنؤوط، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1414هـ-1993م).
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.
- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط2، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، (1413هـ).
- عبث الوليد: أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري، تح: ناديا الدولة، الشركة المتحدة، بيروت، بلا تاريخ.
- الفصل في الملل والنحل والأهواء: أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، مكتبة المثنى ببغداد، مؤسسة الخانجي بمصر، بلا تاريخ.
- الفرق بين الفرق: عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (1416هـ-1995م).
- الفصول والغايات: أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري، ضبطه وفسر غريبه: محمود حسن زنتي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، بلا تاريخ.
- الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري، راجعته نخبة من العلماء، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، مطبعة الاستقامة، القاهرة، بلا تاريخ.
- اللزوميات: أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري، ج1، دار صادر، بيروت، دت. وج2، دار صادر، بيروت، (1381هـ-1961م).
- لسان الميزان: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف الإسلامية في الهند، 1329هـ.
- مسند أبي عوانة: أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائني، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.
- مسند أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر، بلا تاريخ.

- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، (1367هـ- 1947م).
- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، راجعته وزارة المعارف، دار المأمون، مصر، 1938م.
- المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تح: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ.
- المعجم الصغير (الروض الداني): سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تح: محمد شكور محمود الحاج أمير، ط1، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، (1405هـ- 1985م).
- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تح حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2، مكتبة الزهراء، الموصل، (1404هـ- 1983م).
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، تح: محمد عثمان الخشت، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، (1405هـ- 1985م).
- الملل والنحل: أبو الفتح عبد الكريم الشهرستاني، تح محمد سيد كيلاني، مصر، (1387هـ- 1967م).
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن الجوزي، ط1، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، (1359هـ).
- موارد الظمآن : علي بن أبي بكر الهيثمي أبو الحسن، تح: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، بلا تاريخ.
- نكت الهميان في نكت العميان: صلاح الدين خليل الصفدي، المطبعة الجمالية، مصر، (1329هـ- 1911م).
- النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، خرّج أحاديثه وعلّق عليه، أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1418هـ- 1997م).
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر: عبد القادر بن شيخ بن عبدالله العيدروسي، تح: أحمد جالو، محمود الأرنؤوط، أكرم البوشي، ط1، دار صادر، بيروت، 2001م.
- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تح: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، (1420هـ- 2000م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

ب- الكتب الحديثة:

- أبو العلاء المعري (نسبه وأخباره - شعره- معتقده): أحمد تيمور باشا، ط1، دار الآفاق العربية، (1424هـ- 2003م).
- أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد: عبد الكريم الخطيب، دار اللواء، الرياض (1400هـ- 1980م).
- أبو العلاء المعري وما إليه: عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1424هـ- 2003م).
- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: محمد زغلول سلام، ط3، دار المعارف، مصر، بلا تاريخ.
- البلاغة الواضحة: علي الجارم ومصطفى أمين، ط21، دار المعارف، مصر، (1389هـ- 1969م).
- تاريخ الفلسفة العربية: جميل صليبا، ط3، دار الكتاب العالمي، الدار الإفريقية العربية، دار التوفيق، بيروت، (1415هـ- 1995م).

- تجديد ذكرى أبي العلاء: طه حسين، ط3، مطبعة المعارف، مصر، (1356هـ- 1937م).
- التصوير الفني في الحديث النبوي: محمد بن لطفي الصباح، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، (1409هـ- 1988م).
- التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار المعارف، مصر، 1956م.
- تعريف القدماء بأبي العلاء: إشراف: د. طه حسين تح: مصطفى السقا، عبد الرحيم محمود، عبد السلام هارون، إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، (1363هـ- 1944م).
- جامع الدروس العربية: مصطفى الغلاييني، راجعها: محمد أسعد النادري، ط30، المكتبة العصرية، بيروت، (1416هـ- 1995م).
- الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره: محمد سليم الجندي، علق عليه عبد الهادي هاشم، ط2، دار صادر، بيروت، (1414هـ- 1992م).
- جديد في رسالة الغفران (نصّ مسرحي من القرن الرابع الهجري): عائشة عبد الرحمن، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، (1392هـ- 1972م).
- حكيم المعرفة: عمر فروخ، مطبعة الكشف، بيروت، 1944م.
- الحياة الإنسانية عند أبي العلاء: عائشة عبد الرحمن، مطبعة المعارف، مصر، 1944م.
- دفاع عن أبي العلاء المعري: عبد المعين الملوح، ط1، دار الكنوز الأدبية، 1994م.
- شاعرية أبي العلاء في نظر القدامى: محمد مصطفى بالحاج، الدار العربية للكتاب، طبعة جديدة، 1984م.
- صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بلا تاريخ.
- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، ط1، دار القلم العربي، حلب، دار النمير، دمشق، (1414هـ- 1994م).
- الغفران لأبي العلاء المعري (تحقيق ودرس): عائشة عبد الرحمن. دار المعارف، مصر، بلا تاريخ.
- الفاصلة في القرآن: محمد الحسناوي، ط2، دار عمار، عمان، المكتب الإسلامي، بيروت، (1406هـ- 1986م).
- الفكر والفن في شعر أبي العلاء: صالح حسن اليطي، الإسكندرية، 1981م.
- فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره: عبد القادر حامد، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، (1369هـ- 1950م).
- الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، ط8، دار المعارف، مصر، 1946م.
- في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء: كامل سفعان، ط1، (1414هـ- 1993م).
- في الميزان الجديد: محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، بلا تاريخ.
- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1966م.
- كشاف مصادر دراسة أبي العلاء المعري: مصطفى صالح، نشرت معظم هذه الرسالة باللغة الفرنسية في العدد 22 (1969) و 23 (1970) من مجلة الدراسات الشرقية.
- لغة أبي العلاء في رسالة الغفران: فاطمة الجامعي الحبابي، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.
- مستويات الحوار في فنون النثر العباسي: عبدالله التطاوي، دار غريب، القاهرة، بلا تاريخ.
- مطالعات في الكتب والحياة: عباس محمود العقاد، المطبعة التجارية الكبرى، مصر، (1343هـ- 1924م).
- مع أبي العلاء في سجنه: طه حسين، ط11، دار المعارف، مصر، بلا تاريخ.
- مع المعري اللغوي: إبراهيم السامرائي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1404هـ- 1984م).
- المعتزلة والفكر الحر: عادل العوا، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بلا تاريخ.
- مقارنة الأديان: أحمد شلبي. ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1967م.
- النثر الفني عند أبي العلاء المعري: صلاح رزق، ط1، 1985م.
- نظرات جديدة في غفران المعري: عمر موسى باشا، ط1، دار طلاس، 1989م.
- النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين: سناء خضر، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية.
- النقد واللغة في رسالة الغفران: أمجد الطرابلسي، مطبعة الجامعة السورية (1370هـ- 1951م).

ج- الدوريات:

- أبو العلاء المعري وعلم النحو، إبراهيم مصطفى، المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، المجمع العلمي العربي، دمشق، (1414هـ - 1994م).
- أسلوب المعري ومنهاجه: محمد الشريقي، المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، المجمع العلمي العربي، دمشق، (1414هـ - 1994م).
- التناول والأثرية في كلام الشيخ: محمد إسعاف النشاشيبي، المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، المجمع العلمي العربي، دمشق، (1414هـ - 1994م).
- التوظيف القرآني في رسالة الغفران: حسين بيوض، ندوة أبي العلاء المعري، ج2، (1418هـ - 1997م).
- الجبر والاختيار في الفصول والغايات: محمد العزاوي، مجلة الرسالة، ع/318، دار الرسالة، القاهرة، 1939م.
- الجبرية والمأساة في لزوميات أبي العلاء المعري: محمود خضرة، ندوة أبي العلاء المعري، ج1، (1418هـ - 1997م).
- دين أبي العلاء: محمد سليم الجندي، المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، المجمع العلمي العربي، دمشق، (1414هـ - 1994م).
- الروح العلائية وأثرها في أدبنا الحديث: أنيس المقدسي، المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، المجمع العلمي العربي، دمشق، (1414هـ - 1994م).
- مع أبي العلاء في سقط زنده: فخر الدين قباوة، ندوة أبي العلاء المعري، ج2، (1418هـ - 1997م).
- مقومات الفرجة المسرحية في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري: يونس لوليدي، ندوة أبي العلاء المعري، ج2، (1418هـ - 1997م).

د- المعاجم:

- القاموس المحيط: الفيروزآبادي، تح: مكتب تحقيق التراث، ط6، مؤسسة الرسالة، (1419هـ - 1998م).
- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط1، دار الإرشاد، (1410هـ - 1989م).
- معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها: محمد سعيد إسبر، بلال جنيدي، ط1، دار العودة، بيروت، 1981م.
- الموسوعة الفلسفية العربية: مج1، ط1، معهد الإنماء العربي، 1986م.
- مج2، ط1، معهد الإنماء العربي، 1988م.